عبد الكريم الفيلالي

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

الجزء الثاني

إن الأمة التي لا تعرف ماضيها تتمزق في حاضرها
وتعرف الذل والتحقير والبخس والإهانة في مستقبلها
المؤلف

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

عبد الكريم الفيلالي

الطبعة الأولى

20 اغسطس 2006

الجزء الثاني

رقم الإيداع القانوني

2006/1287

5 يونيو 2006

الترقيم الدولي

(ردمك) 2-0-8702-9954

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للطبعة

شركة بابل للطباعة

23 ش مرشدي - عابدين - القاهرة

هاتف: 002023925376

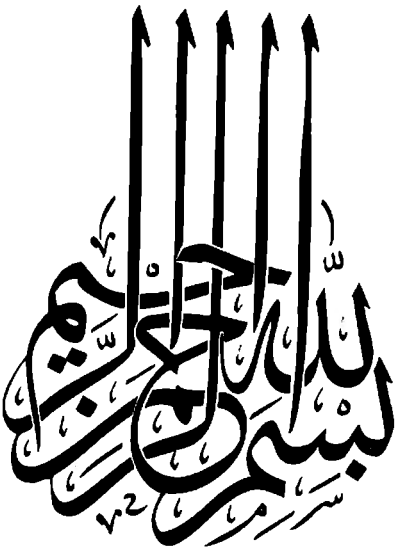
بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السادس
استقلال المغرب الكبير والأندلس
عن المشرق العربي

الفصل الثاني والثلاثون

ثورات المغاربة والبربر ضد حكم ملوك المشرق من الأمويين والعباسيين

كثير من المؤرخين يهملون تصرفات بني أمية وتطرفهم الذي يرفع أحيانا إلى عكس ما جاء به الإسلام من حيث المخبر، بالإضافة إلى تصرفاتهم السياسية إزاء الفاتحين والبلاد المفتوحة في المظهر، وما كان لذلك من أثر في نفوس المسلمين، يهتمون فقط بما كان لهم من تشدد في التعصب للعروبة، خصوصا الأموية منها، وما أحدثه ذلك التصرف من رد فعل بثورات الموالي وما كان للشعوبية كفكرة فيهم من أثر، في هدم دولة الأمويين نفسها رغم الفتوحات الكبيرة التي حققوها بإسم الإسلام شرقا وغربا، والتي لولا إيمان وتمسك بعض القادة الفاتحين لما تم ذلك الفتح، فقد رأينا أن الأمويين عموما بإستثناء عمر بن عبد العزيز لم يوفقوا في تطبيق سياسة الإسلام إزاء المواطنين في الدولة الإسلامية، فأصبح مجتمعهم يتسم بطابع التمييز للعرب، وحتى هؤلاء تختلف معاملة طبقة فيهم عن غيرها، فإذا ما صاهر أموي قبيلة من اليمن قربها، بل تنكروا حتى لأبسط نوع من المجاملة التي فرضها التعلق بصاحب الرسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) والذي يجب لقرابته وأهل بيته. بل عرف المجتمع في عهد بني أمية طبقات متمايزة في الظلم والتسلط، فهناك أهل الذمة الذين حفظ لهم الإسلام حقوقهم، وقد غالى في هضمها الأمويون إلى عهد هشام بن عبد الملك الذي بلغ الذورة في ذلك، كما صوره عامله على مصر حنظلة بن صفوان الذي لم يكتف بالضرائب المفروضة على الإنسان، ففرضها على الحيوانات، وكان يختم الوصولات المعطاة منه بختم عليه صورة أسد، وكان يقطع يد كل من لم يكن حاملا هذا الرسم من المسيحيين، كما كانت تابعة لهؤلاء في المعاملة طبقة الموالي، والرقيق، بل خصص الأمويون لكل طبقة نوعا من المعاملة، وإذا

كانت طبقة الرقيق لا توجد في بلاد الصلح، فإنهم فرضوها قهرا رغم أن الإسلام شرط لوجودها السبي، وحتى هذا يزول بالفدية إن لم تكن الشهادة وقبول الدين، بل غالوا إلى درجة أن مولودا لأمة من غير سيدها لايعتبر حرا،بل مولودها من سيدها إن لم يلحقه بنسبه ويعترف ببنوته، فهو غير حر، كما أن أولاد العبد من الحرة يعتبرون أحرارا، والعبد المعتق يصبح مولى لسيده إلخ.

لقد كان لفكرة الطبقية المقيتة التي قاومها الإسلام أثرها السيء بعد في البلاد التي تم فتحها في عهد الأمويين، وإذا ما حاول بعض الفرس التمكين لروح الإسلام ضد الطبقة التي عرفها مجتمعهم، كما صورها الجاحظ في كتاب التاج(105) فإن حكام الأقاليم على عهد الأمويين بالغوا في التمسك بفكرة الطبقية التي أطلق عليها الشعوبية، ومن وقتها بدأت فكرة تحقيق الأنساب تتمكن في كثير من المجتمعات، وما دام العرب يفاخرون بأنسابهم لإبراهيم (عليه السلام) عن طريق إسماعيل فإنه على الفرس مثلا أن يحققوا في أصول نسبهم، وقد أرجعه الباحثون من علمائهم إلى إبراهيم كذلك عن طريق إسحاق كما يقول جرونيباوم في كتابه عن "حضارة الإسلام"(106). الأمر الذي أدى إلى صراع مقيت وخبيث كان العرب الأمويون هم الخاسرون فيه شرقا وغربا، وليس الإسلام الذي حقق لشعوب الفرس والبربر ومن كان معهم من الحق والعدل والفضائل، ما لم يعرفوه قبل في عهود الساسانيين والروم، ولعلنا لو تتبعنا تاريخ هذا النوع من الصراع شرقا، وفي بلاد فارس، لرأينا من آثاره في مختلف المجالات ما لم يكن في المغرب له شبيه إلا في الجانب السياسي فقط، بخلاف بلاد الفرس فقد أثر الصراع في كل المقومات، سياسيا وإجتماعيا وأدبيا إلخ. وإذا كان ذلك في نطاق ضيق شرقا في عهد الأمويين، فإنه سيتسع بشكل مخيف في عهد زمن العباسيين وفتوحاتهم التي كادت تنعكس مقاصدها وما كانت عليه على عهد الخلفاء الراشدين، ولم يقتصر ذلك على الفرس وحدهم بل انتقل بعدهم إلى الترك الذين سيستولون على الدولة ثم يذلون العرب إذلالا شائنا كما سجل التاريخ.

---

(105) ص 25 ط القاهرة.

(106) حضارة الإسلام ص 260 ط القاهرة 1953.

لقد بالغ ملوك بني أمية في إرهاق الشعوب من أجل جمع المال وتكديسه بشكل أدى إلى قيام الثورات في مختلف البلاد، خصوصا بعدما انتشر الإسلام وقلت مداخيل الدولة عما كانت باسم الجزية، مما دفع أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الرجوع عن شريعة الإسلام إلى حكم الغاب، حيث أخذ يفرض الجزية على المسلمين غير العرب، ومثله فعل غيره، فتضافرت ضد ذلك فرق الخوارج والشيعة والموالي ضد العنصرية التي يمجها الإسلام، وضد التطرف السياسي، فأدت تلك الثورات إلى قتل الولاة في العراق وفارس والمغرب، بل وإلى قتل بعض ملوك بني أمية أنفسهم وقتل الإخوة منهم بعضهم لبعض.

وإذا ما قامت في مصر ثورة ضد الأمويين، قادها لصالح العلويين خالد بن سعيد الصدفي في الفسطاط، فإن المغرب عرف مثلها وأشد، كما حصلت في بلاد الفرس وبتحليل ومقارنة للأسباب التي أدت إلى الثورات المتوالية من قبائل البربر بالمغرب، والتي وجدها الخوارج والشيعة مادة لتحقيق الكثير من الأهداف المشتركة بينهم وبين المغاربة، ندرك ما عرفه المغرب مبكرا من روح الانفصال عن المشرق وأسباب ذلك، خصوصا بعد الفشل الذي حاولت القضاء عليه بعد ولاية محمد بن يزيد بن علي مولى قريش سنة 97هـ715م، وولاية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر دينار مولى بني مخزوم 100هـ 718م ويزيد بن أبي مسلم دينار مولى الحجاج 102هـ 720م، وبعد موت عمر بن عبد العزيز ظهر تضجر الواعين الذين كان يتقدمهم أمثال ميسرة المضغري المعروف بالحقير، ومثله الذين تظلموا قبل الى هشام بن عبد الملك بالشام، فلم ينصفهم، فكان من بينهم ميسرة نفسه والذين كان منطلقهم من الأندلس بتأثير من الخوارج.

في هذه المرحلة ظهرت بعد في المغرب حركة الخوارج التي نشأت عنها البرغواطية التي تطورت الى دولة، وكان "نبيها" الكذاب طريف، وولده صالح، كما ظهرت دولة بني رستم بتيهرت، ودولة بني مدرار بسلجماسة بعد، كما ظهر عبد الرحمان الأموي بالأندلس كما سنرى، وكل ذلك نتيجة ما كانت عليه البلاد من الثورات التي عمت المشرق والمغرب، بل والتي هيأت لظهور العباسيين أنفسهم، وإذا كان الذي يهمنا هو ما حصل في المغرب، فكيف كانت الثورة وما هي أسبابها ودوافعها بعد آستفحال ظلم عمر بن عبد

الله المرادي، عامل طنجة بالمغرب وإبنه إسماعيل، نائبه بسوس وما حوله من الأقاليم، بل وبعد فشل وفد الشكاية لهشام صاحبه الأبرش ثم عودتهم الى المغرب.

قام الثوار بطنجة ضد عمر بن عبد الله المرادي أيام فتح عبد الله بن حبيب وولده لصقلية، وفي هذا الظرف كان صدى ما لحق موسى وما عاناه من قتل ولده عبد العزيز قد رددده بلا شك بعض الحجيج من المغاربة بين سكان طنجة وما حولها، وتلك هي منطقة نفوذ موسى وطارق الأولى، والأكثر بين البربر والخوارج الذين استعانوا بمذهبهم على إقناع الآخرين ان الملك لله، والأرض لله، ولا فضل لقريشي علي غيره، فكان رد الفعل هو الثورة التي عمت تلك المنطقة سنة 121هـ 739م وبذلك تذرع زعماؤها بلا شك، خصوصا إذا علمنا أن عبد الله بن الحبحاب الذي ولي إفريقية بعد موسى أرسل إلى طنجة خالد بن حبيب الفهري، ووجوه القوم، وأشراف قريش قصد إقناع الثوار الذين كان يتزعمهم خالد بن حميد الزناتي، الذي بويع بالملك مكان ميسرة اليطفتي المضغري الملقب بالحقير، فقتلوا الجميع مما عرض آبن الحبحاب للفشل في الفتح الذي كان بصدده في صقلية، بل تخليه عن الولاية ورجوعه الى المشرق في جمادى الأولى سنة 123 هـ 740م بعدما قضى في الولاية ثلاثة عشر عاما من سنة 110هـ 728م.

وبعد الانتصار الذي حققه الثوار بقيادة ميسرة اليطفتي السقاء الذي قتل بسبب الدعوة لنفسه ليحل محله خالد بن حميد الزناتي في موقعة الأشراف بسبتة(107)، وقتها بدأ تحول المغرب نهائيا ضد بني أمية، بل وضد العباسيين الذين سيأتون بعدهم، وبدأ التفكير في تكوين الدولة المغربية التي أخذ المغاربة يتلمسون لتكوينها كل الأسباب، حتى ولو كانت هي البرغواطية التي آستغل دعاتها فترة عدم التركيز للعقيدة بشكل يقطع الطريق على ما سيظهر من دعوة المتزعمين، الذين ادعوا من الإدعاء ما كان سيقضى به على الإسلام في المغرب ورسالته التي تعرضت لتشويش كبير، لولا تمكنها من قلوب

(107) راجع البكري 134 وابن عذاري 1/52-53-54-56. ود المعارف الاسلامية3/550. وفتح العرب للمغرب د حسين مؤنس 90 اوما بعدها/ط القاهرة 1947م/ ونحن لا نرجح ما ذهب اليه الدكتور مؤنس ص165 حول ميسرة وكذا ان الخوارج في هذه المرحلة بعد لم يكونوا قد تميزوا بفرقهم التي عرفت بعد، مثل الصفرية بسجلماسة، والإباضية بتاهرت، وذلك بالقدر الذي عرفوا به بعد ثلاثين سنة. مما يدل على أن أفكارهم كانت في تقدم بين البربر الذين ساندوا كلا من دولة المدراريين والرستميين بعد، سنة 140هـ 757م راجع ابن عذاري 1/56. والعبر 4/405-6 240/6 وابن الاثير 4/223.

وعقول نخبة واعية بالقيروان والأندلس، إلى جانب الذين تكونوا في مدرسة دعاة موسى بن نصير وعامل عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر دينار المشار اليه أولئك الذين كانوا بلا شك قد كونوا لهم مجتمعات إسلامية تتمتع بعصبيات وأنصار من قبائل تناصب مضغرة وزناتة العداء، الأمر الذي عرض كل المذاهب التي عرفت في المشرق والتي ترجع في أصلها الى أمثال عبد الله بن سبأ وحمزة الفارسي بعد زمن الفاطميين وغيرهما من الدخلاء، إلى الفشل في المغرب، ذلك لأن دين الإسلام أصبح في حياة الذين أسلموا وحسن إسلامهم عقيدة راسخة استمدت قوتها من صفائها أولا، ومما عرف لأبناء البربر والعرب من امتزاج وآنصهار، ظهر بوضوح في مقاومة الطرفين معا للظلم، كما اتحدوا في محاربة المرتدين من غير ان يحقق هشام شيئا من وعده الذي توعد به الخارجين، بل زاد الطين بلة حين أرسل عاملا على المغرب وهو كلثوم بن عياض القيسي القشيري الذي كان من أول إهتماماته ما كان بين القيسية واليمنية من عداوة، لا ما كان بين الخارجيين والدولة، وفي القيروان ثم تلمسان بدأ الصراع بين الجانبين ممثلا في كلثوم القيسي وابن أخيه بلج الذي كان رأس أهل الشام، حيث انعكس على جيوشهما ما كان بين الفريقين من تطاحن يرجع تاريخه الى وقعة الحرة زمن يزيد63هـ أدى إلى آنتصار البربر الذين قتلوا قيادة الجيش العربي المكونة من كلثوم، وكذلك حبيب بن أبي عبيدة، وسليمان بن أبي المهاجر، وهارون القرني، ومغيث الرومي، كما قضوا على جيش العرب الذي كان يعد بثلاثين ألف؟ يقول إبن عذاري: "ومن لم يقتل منه أسر"، أما بلج الذي كان خبيرا بالبلاد، فإنه فر الى مدينة سبتة بما كان معه من الجيش، ولولا مناعة أسوارها لكان مصيره مصير رفاقه، وإذا لم يموتوا في ميدان الحرب فإنهم ماتوا جوعا بعدما خرب المغاربة والبربر كل الأراضي المحيطة بسبتة ثم أحرقوا مزارعها، ودام الحصار حتى أكل الناس دوابهم، ووقتها كان واليا على الأندلس أحد اليمنيين الذي هو عبد الملك بن قطن الفهري، الذي لجأ إليه عبد الرحمان بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، بعد استشهاد والده في معركة البربر المعروفة بموقعة "بقدورة" التي أكلت القيادة العسكرية للحملة التي وجهها هشام للمغرب سنة 123هـ 741م.

وإذا كان بلج وجنوده قد آنتهوا الى أسوأ مصير ولا ملجأ لهم غير عبد الملك، فإنه امتنع ولم يستجب الا بعدما آستشعر الخطر من المغاربة والبربر الذين أرادوا القيام في

الأندلس بمثل ما قام به إخوتهم في سبتة وبقدورة، وإذا ما دخل بلج ومعه بضعة آلاف الى الأندلس ثم آلتحموا مع المغاربة والبربر في معارك مكنتهم من القضاء عليهم، فإن عبد الملك بن قطن وقد سبق له التخوف من غدرهم وقد نبهه إليه عبد الرحمان بن حبيب، ومن أجل ذلك آشترط عليهم عدم الإقامة بالأندلس أكثر من سنة ثم أخذ منهم الرهائن عن ذلك، حتى إذا ما طلبهم عبد الملك بالمغادرة، ثم صمم على عدم تمكينهم من السفن التي توصلهم إلى تونس بل تعود بهم الى سبتة، فرأوا في ذلك مخاطرة ما دام المغاربة والبربر قد آستقلوا بالمنطقة وإذا كان بلج وقومه قد حققوا النصر على المغاربة والبربر في كل من جليقية، وماردة، وقورية، وطلبيرة، ثم أصبحوا ذوي قوة مادية لها السيادة إن شاءت على ما دونها في الأندلس، ناهيك وأن قوة بلج هي التي أنقذت قرطبة من مصيرها المظلم الذي كان البربر قد آتفقوا عليه يوم حلقوا رؤوسهم إسوة بميسرة وقومه بعد آجتيازهم وادي تاجة، كل ذلك تذكره القيسيون من عرب الشام يوم رفض عبد الملك أن يسلم المراكب لتنقلهم الى تونس بدلا من سبتة، بل أثار تصميمه في نفوسهم ما عرف قديما بين الفريقين من أحقاد، فثاروا عليه ثم نصبوا مكانه بلج أميرا في قرطبة، لكن حكم بلج لم يدم الا بعض العام حيث آنهزم ثم قتل بيد عبد الرحمان بن علقمة صاحب أربونة وذلك ثأرا لعبد الملك الذي قتل ظلما رغم أنه كان رجلاً مسناً جاوز الثمانين، ورغم أن الشاميين خلفوا بلج بثعلبة بن سلامة العاملي، فإن الأندلس عاد حكمها بأمر هشام إلى أحد الكلبيين الذي هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، وذلك في شهر رجب سنة125هـ 742م، الأمر الذي دفع بعبد الرحمان بن حبيب الى أن يغادر الأندلس ثم يتوجه الى القيروان وما حولها. داعيا لنفسه، وفعلا آستولى على الإمارة من يد حنظلة بحيلة تمثلت في غدره برسل حنظلة البالغ عددهم نحو الخمسين أرسلهم إلى عبد الرحمان كي يعظوه حتى يتراجع عن أفكاره ضد الدولة، لكنه آعتقلهم وقيدهم بالحديد ثم هدد بقتلهم إن لم يغادر حنظلة القيروان ويتركها لعبد الرحمان بن حبيب، وإذا كان حنظلة الكلبي عاقلا، فإنه لم يقبل أن يقاتل الإخوة بعضهم بعضا، فأحضر الشهود حين فتحه لبيت المال الذي لم يأخذ منه غير ألف دينار تكاليف سفره ثم ترك الهم لعبد الرحمان وأخويه وأولاده الذين لم يعرفوا سلما بينهم بعد حتى آنقرضوا، وقضت عليهم ثورات البربر من الخوارج في تلك المنطقة، وقد أشرنا الى هذا قبل.

ونشير إلى عامل آخر كان له الأثر في تحول المغاربة عن المشرق وظلم حكامه في هذه المرحلة. وهو مذهب أهل السنة. ذلك أنه إذا ما أصبح لمذهب أهل السنة أثره في المجتمع المغربي قبل غيره من المذاهب غير السياسية، وأصبح من دعاته بعض القواد ورجالات المغرب، فإن هذا المذهب كان إلى حب آل البيت أقرب. وهو حب حث عليه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وبالتالي فهو لا يصطدم مع المتشيعين الذين عرفوا بدعوتهم لآل البيت الذين اغتصبت حقوقهم الشرعية في الخلافة من بني أمية، خصوصا وان ما حصل من الفتنة التي تزعمها معاوية بعدما خطط لها عمرو بن العاص تكون قد راجت وعرفت أسرارها في المغرب، فكان لها وللخوارج قطعا أنصار ومنكرون،وإذا ما اقتحمت السياسة الوطنية معترك الحياة من أجل الخلاص من حكم البعيد المستبد، فإنه لا بد من آتخاذ تلك المذاهب مجالا للبناء والهدم، بناء المرغوب في تقديمه، وهدم غير المرغوب فيه، سواء من المغاربة أنفسهم أو من الحكام الأمويين أو العباسيين الذين أصبح المجتمع المغربي ميدانا لنشاطهم. وهذا ما أودى بحياة المرادي وإسماعيل بن عبيد بن الحبحاب في السوس، بل الخوض في تلك المذاهب هو الذي أودى بآل عقبة أنفسهم إلى الإنقسام قسمين، قسم موال لبني العباس، فأسندت الولاية الى عاصم بن حميد الورفجومي الذي استمر الى نهاية سنة 138هـ 755م، بل قتل عبد الرحمان بن حبيب نفسه من طرف أخويه إلياس وعبد الوارث، والذي قتل بسبب إسناد ولاية العهد لولده بدلا من أخيه وأنه في نظرنا الى جانب ذلك يرجع سببه إلى آختلاف في المذاهب، فالقتيل كان متشيعا ساند دعوة العباسيين حتى إنه قتل ولدي الوليد بن عبد الملك، والآخرين بالغا في أمويتهما حتى قتلا أخوهما.

بل وإذا كانت مراكز القوة تتمثل في المدن التي كانت وقتها مجال تجمع القادرين على الخوض في تلك المذاهب كالقيروان، وطنجة، وبقية مدن الأندلس، ثم المدن الشرقية بليبيا(108) فإن بادية المغرب ومراكز تجمعات القبائل، قد أخذت نصيبها من ذلك، ونستدل

(108) حيث قامت ثورة عكاشة بن أيوب الصفري في ناحية قابس، كما حاصر أخاه مؤيدا بزناتة أهل سيرت في المسجد، ثم ثورة الحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، راجع إبن عبد الحكم 219-25 والعبر6/111-141 وابن عذاري 1/65 وما بعدها. ونشير هنا إلى أن المنطقة الشرقية للمغرب الكبير في هذه المرحلة عرفت عاصفة من الوباء استمرت سنوات. الأمر الذي مكن للضعف المادي والمعنوي في نفوس الولاة الذين سيجدون أنفسهم عاجزين أمام دعوة الخوارج التي هي في الطريق الى المغرب لتؤسس فيه دويلات كما سنرى.

على هذا بما سنرى من نتائج ثورات صنهاجة، وفرجومة، ونفزاوة التي آستولت على القيروان، ثم قتل الثوار كل من كان فيها من قريش تذمرا من الجميع، وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع، الأمر الذي دفع الإباضية من هوارة بطرابلس ضدهم، فقاموا لحربهم بقيادة أبي الخطاب الذي أيدته زناته حتى دخل القيروان وقتل واليها من قبل ورفجومة، عبد الملك بن أبي الجعد، سنة 141هـ 758م ثم نصب عليها عبد الرحمان بن رسين من أبناء رستم.

وفي هذه المرحلة وقبل ثلاث سنوات كان ظهور عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الملقب بالداخل أو صقر قريش، لكن ما الذي ألجأه إلى المغرب بعد مروره على فلسطين ومصر فارا من بني العباس هو ومولاه بدر، لولا ما كان يعلم من كثرة أنصار بني أمية في الأندلس التي وصلها وهي تعاني من تفرق المضرية والقيسية من جانب، ثم الخوارج من جانب آخر، بل وما آل إليه أمر يوسف بن عبد الرحمان بن حبيب الذي قتل والده، وربما بسبب معاملته لعبد الرحمان الداخل حين طرده من إفريقية، وأن يوسف هذا نفسه أصبح في خلاف شديد مع اليمنيين، وإن كان مساندا من السموئل الكلابي زعيم القيسية(109).

وإذا كان عبد الرحمان قد آستجار بابن رستم(110)، فإن ذلك كان مما ربط بين الرستميين والأمويين بعد، وفي هذا الجو استطاع عبد الرحمان الداخل أن يعمل على إنشاء دولة جديدة لبني أمية في الأندلس، مكن لها ما كان عليه حال المغرب وثورات الخوارج التي لم تنقطع شرقاً وغربا كما سنرى، ولقد كان من حسن حظ عبد الرحمان وإلياس وحبيب وعمر، وما نتج عن ذلك من ظهور شوكة بربر ورفجومة بزعامة الكاهن المتنبي عاصم بن جميل (راجع العبر"4/409") والذي قتل قاضي القيروان أبو كريب، ثم دخلها في ذي الحجة 138هـ 755م بل وهو الذي ربط بهائمه في جامع القيروان، كما سبق ثم ولى على المدينة عبد الملك بن أبي الجعد(111) الورفجومي، وإذا ما حارب حبيب

(109) ابن عذاري 36/2 وابن الأثير 179/5.

(110) المقري 28/4.

(111) لقد أصبحت الجعيدية في مصر تساوي الرعاع يقول صاحب تاريخ مصر الحديث جرجي زيدان 171/2 ط1889م ولعلهم إستمدوا ذلك مما عرف عن طائفتهم التي إنتقلت إلى مصر زمن الفاطميين.

بن عبد الرحمان عاصم بن جميل ثم قاتله وقضى عليه بواسطة برابر الأوراس الذين ناصروه فإنه تعرض للقتل في القتال الذي شب بينه وبين عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي، في شهر المحرم 140هـ 757م، وبه آنتهى حكم العرب وبدأ حكم المغاربة والبربر الخوارج من الصفرية بالقيروان، والذي استشعر بقية العرب معه بالخطر فأرسلوا الى أبي جعفر المنصور يستنجدون به، حيث ذهب إليه وفد مكون من بعض جند العرب، منهم نافع بن عبد الرحمان، وعبد الرحمان بن أنعم، وهناك رواية تقول ذهب إليه لذلك جميل السدراتي، الذي هو من رجالات الإباضيين، وهذا بعيد الإحتمال، ومهما يكن فإن أبا جعفر المنصور لما بويع ولى على مصر التي لها الإشراف على إفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي، كما كون جيشا قوامه أربعون ألفا(112) جعل على قيادته أبا الأحوص عمر بن الأحوص العجلي ثم أمره باسترجاع المغرب من البرغواطية كما سنرى بعد حين كلامنا على البرغواطية، ولئن آستفادت قوات العباسيين مما حصل بين ورفجومة وهوارة ثم قتل الجعدي، وإلا لتعرض المغرب للتلف كلية لو إنتصر عبد الملك بن أبي الجعد وورفجومة على أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح، الذي كان هزمهم وقتل آبن أبي الجعد في صفر عام 141هـ 758م وبعد مرور سنة كان على أبي الخطاب أن يواجه قوات العباسيين مرتين، الأولى بقيادة الأحوص في سنة 142هـ 752م، والثانية بعدها في نفس السنة، وعدد قواتها خمسون ألف مقاتل بقيادة بن الأشعث حين ولاه قيادة الجيش الموجه إلى المغرب ثم وضع مكانه حميد بن قحطبة، وكان هذا الجيش من جملة قواده الأغلب بن أبي سالم التميمي، وآبن هلال والمخارق آبن غفار الطائي.

وفعلا آستطاع الأشعث بما أوتي من دهاء أن يخدع أبا الخطاب وقومه بحيلة، ثم أتى عليه وعلى قومه الذين كان الزناتيون منهم قد آختلفوا مع هوارة، خصوصا ورفجومة الذين كانت قلوبهم غير مطمئنة لأبي الخطاب، وهكذا قتل أبو الخطاب وتفرقت جيوشه منهزمة أمام آبن الأشعث في شهر ربيع الأول 144هـ 761م الأمر الذي دفع بقية الإباضيين آل أبي الخطاب إلى أن يفروا من القيروان، كما سنرى بعد مما يدخل في الظروف التي أفاد منها عبد الرحمان الداخل إلى الأندلس.

---

(112) العبر 411/4.

أما في المشرق فقد كان الانشغال بقيام دولة بني العباس وتمهيدها للأقطار، كما ساعده تخوف العرب الذين كانوا ذوي إمتيازات زمن الأمويين من إخوانهم الذين كانوا من المعارضين من جانب، ومن البربر الذين تمكنت فكرة التشيع منهم بقدر ما تغلغلت فيهم كراهية الأمويين من جانب آخر، ورغم ما بذله المنصور من تأييد كل الثائرين ضد عبد الرحمان بن معاوية بالأندلس، فإن أكبر تلك الثورات هي ثورة العلاء بن مغيث الجذامي التي قامت ناحية إشبيلية سنة 146هـ 763م، لكنها لم تؤثر في صقر قريش الذي يعتبر بحق أفاد وتعلم من أخطاء سلفه بالمشرق، والذي صنع لنفسه ولخلفه تاريخ مجد واعتبار في الأندلس، لا علاقة له بما سبق من تحليلنا لتاريخ الأمويين شرقا وغربا، فقد آستطاع عبد الرحمان بفضل المدة التي قضاها في الملك وهي نحو الثلاثين سنة، أن يكون جيشا خاض به معارك ضد معارضيه، وضد الاسبان، والفرنجة، الذين توغل في أراضيهم، مما جلب له العون وشغل عنه العناصر المتطرفة، وجمع حوله المتشككين، ولم يغادر الحياة حتى كون دولة قوية عرفت بدولة بني أمية في الأندلس خلفه فيها ولده هشام الأول، وذلك لما توفي سنة 172هـ 788م، وهي السنة التي تلت قدوم إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، إلى المغرب سنة171هـ/787م، والذي لم يكن دخوله المغرب صدفة وإنما كان في نظرنا بتدبير مغربي كما سنرى بعد عندما نتطرق لتاريخ قيام الدولة المغربية.

وهكذا فإن عبد الرحمان الداخل زيادة على مواهبه وما أفاده من تجمع كل الذين كانوا يستشعرون الخطر حوله، بأموالهم وما يملكون، فإنه كذلك أفاد من جانب آخر من الجو المحيط الذي كانت الظروف قد كيفته بدون قصد لصالح عبد الرحمان، مثال ذلك ما قام به كلثوم بن عياض القشيري من تجهيز لجيش تعداده آثني عشر ألفاً، ساعد في تكوينه وتجهيزه ولاة مصر، وبرقة، وطرابلس، ليرد للدولة آعتبارها، وكان فيه من الشاميين عصبية بني أمية ولاء من الذين دخلوا الأندلس بعد آنهزام الجيش أمام صنهاجة وورفجومة ونفزاوة أيام المنصور العباسي، كما سبقت الاشارة لذلك، وما فعله أبو الخطاب من عملية الإنقاد بقيادة إباضيي هوارة بطرابلس، واقتحامه القيروان وقتله عبد الملك بن أبي الجعد.

الفصل الثالث والثلاثون

الامويون والعباسيون ومحنة آل البيت بالمشرق ومآسي الإسلام في المغرب

قدم محمد بن الاشعث بن عقبة الخزاعي الذي ولاه المنصور العباسي ولاية مصر في 25 حجة 141هـ 761م ، فقدم إفريقية في أربعين ألف مقاتل، لكنه لم يستطع أن يمكن للأمن إلا مؤقتا، إذ سرعان ما ثار عليه أحد جنده عيسى بن موسى وأخرجه من القيروان سنة 148هـ 767م، ولما بلغ الأمر للمنصور ولى الأغلب بن سالم، وكان داهية ظهر دهاؤه عندما ثار عليه الحسن بن حرب الكندي، فكاتبه الأغلب بن سالم يرغبه في الطاعة فأبى ثم خرج إليه فهزمه ثم عاد فخرج له الأغلب ثانية فأصابه بسهم قتله سنة 150هـ و769م، وبذلك تكونت دولة آل المهلب التي تولاها عمر بن حفص الذي أرسله المنصور، والذي حاصره أبو حاتم الإباضي في جموع من الثوار، وقد طال الحصار حتى أكل الناس الميتة، فوجه المنصور لاستنقاذ عمر ستين ألفا بقيادة يزيد بن حاتم، لكنه آستنكف إنقاذ حاتم ثم خرج وقاتل حتى سنة 154هـ 773م، وفعلا وصل يزيد وفتك بالخارجين ثم حكم إلى سنة 171هـ 787م، خلفه آبنه داود لمدة تسعة أشهر ونصف، خلفه بعده عمه روح بن حاتم بعهد من الرشيد، وقد ساد الأمن مدة تولى بعده نصر بن حبيب المهلبي وبعد وفاة روح سنة 174هـ 791م بايع الناس آبنه قبيصة، إلا أنه لم يقف أمام ثورة نصر وعد له، وقد عزله الرشيد سنة 177هـ 794م، وولى مكانه الفضل بن روح، فأرسل المغيرة بن أخيه عاملا لتونس، مما أثار الفتن ضده لسوء سيرته التي لم تجد فيها المراسلات لعمه وكثرة التظلم، فاجتمع الناس على عبد الله بن الجارود ووجهوا المغيرة إلى عمه، فأرسل إليهم عاجلا فحاربوه واقتفوا أثره إلى القيروان التي دخلوها عنوة، وقتل الفضل بيد بن الجارود سنة 178هـ 795م، بعد أن أبعدوه الى قابس، وبه آنتهت دولة آل المهلب، فأرسل

الرشيد هرثمة بن أعين الذي هزم آبن الجارود وقاتل الثوار، لكنه آستقال ورحل إلى المشرق سنة 181هـ م797م فخلفه محمد بن مقاتل العكي، وكان رضيع الرشيد، الأمر الذي دفع به إلى الشطط والإنهزام أمام عامله بتونس تمام، ورغم مناصرة إبراهيم بن الأغلب للعكي وكان آبن الأغلب عاملا على الزاب، فإن العكي لم يبقه الرشيد وولى مكانه إبراهيم بن الأغلب رأس دولة الأغالبة التي سيكون لها دور قبيح مع الأدارسة(113) كما سنرى بعد.

هذه العوامل وانشغال العباسيين بإفريقية ومصر وما وراء النهرين. مما مكن لعبد الرحمان الداخل من جانب ثم مهدت لقيام دولة الأدارسة عندما قدم إدريس المغرب كما سنرى ولدولة بني مدرار بجلماسة والرستميين كذلك بتاهرت.

لقد رأينا أنه لم تكن علاقة المغرب بالمشرق في عهد بني أمية علاقة بلد إسلامي بمركز السلطة التي تشرع له طبق الأسس التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم وتبعه فيها الخلفاء الراشدون، بل كانت علاقة دار حرب(114)، ولبعد المسافة كان العمال لا يعنيهم من أمر السكان خصوصا البربر والروم غير السبي وجمع المال وإرسالهم كجند للفتح والغزو، ولم يطمع جند المغاربة والبربر في عمال بني أمية إنصافهم بما يستحقون في العطاء والفيء، كما نستشف من وصية معاوية لآبنه اليزيد الذي عرفه معاملة أهل جميع الأقطار الا أهل المغرب، بحيث لم يجد جند البربر في ولاة بني أمية ما كان يجده الجنود العرب وغيرهم من الموالي ولو في موطنهم المغرب، بل حتى في المعاملة السياسية التي خلفها معاوية حين آشتكى إليه أحدهم من عامله زياد(115) فرفع عنه ما لحقه من

---

(113) إنتهت دولة الأغالبة بأبي مضر زيادة الله الذي تواطأ على قتل أبيه بواسطة غلامين سنة 290هـ 902م قتلهما بعد، كما فتك بأخيه محمد وأعمامه وكي يغطي على ذلك أرسل بهدية إلى الملك العباسي قوامها عشرة الاف دينار ووزنة الدينار الواحد عشرة مثاقيل نقش عليها:

ياسائرا نحو الخليفة قل له ... أن قد كفاك الله أمرك كله

بزيادة الله بن عبد الله سيـ ... ـف الله من دون الخليفة سله الخ..

(114) للمغاربة القدامى في الموضوع دراسات اعتمدوا فيها رأي أبو جيدة الفاسي وهو عاطفي أكثر مما هو تاريخ وقائع.

(115) هو آبن أبيه أسلم في عهد أبي بكر، وقد أختلف في أبيه فنسبه معاوية إلى أبي سفيان سنة 44 وولاه البصرة راجع الأعلام للزركلي 3/89-90 وما فيه من مصادر.

زياد، وإذا ما أبدى زياد بن أبيه ملاحظته قال معاوية منك الشدة ومني الرحمة، لكن لم يجد البربر والمغاربة شيئا من هذا لبعد المسافة، بل حتى لما تقدموا بشكواهم لهشام بن عبد الملك، وجدوا النقمة والظلم والقهر، ومن تذمر رمي بالسهم وتعرض للموت كما رأينا قبل، ومع ذلك تمسكوا بالإسلام وثاروا ضد الحكام.

هذا ما يدرك من تاريخ بني أمية في المغرب، وعمالهم الذين آتخذوه وسيلة لجمع المال بلا توقف، وأهله للرق وبناتهم سبايا بمئات الآلاف كما ذكرت المصادر، حتى أصبح المغاربة والبربر يغلون غليان المرجل، وقد عم جموعهم التذمر واشتد بهم الأذى، أما في المشرق فقد كان هذا طابع ملوك بني أمية منذ ضاعت سياسة معاوية التي آكتسبها بخبرة أربعين سنة، نصفها أمير في الشام والنصف الآخر ملك آمتد سلطانه، وتتمثل تلك السياسة في وصيته لولده يزيد التي رددتها المصارد والتي تعرض فيها لأهل الحجاز والعراق والشام. كل بما يجب أن يعامل به، ما عدا أهل المغرب، ومنه مصر طبعا. تركهم لمن كلف فيهم بالنهب والسلب، وإذا كانت سياسة معاوية قد آكتملت بما كان حوله من الدهاة أمثال عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة، والضحاك بن قيس، وآبن الأعور السلمي ومسلم بن عتبة وبسر بن أبي أرطاة، وحبيب بن سلمة، فإن هؤلاء وأمثالهم إفتقدهم خلفه اليزيد ومن جاؤوا بعده، إذ ما كاد يزيد يستولي سنة 60–63هـ 679–682م حتى آنحرف بالدولة نحو الجاهلية الأولى، ولم يعرف من سياسة سلفه غير شراء الذمم بالمال لا بالإحسان مثل الذي فعل مع كل من كان حوله من الأمويين كما أعطى لعبد الله بن جعفر منه أربعة ملايين يتألف بواسطتها أهل المدينة ضد عبد الله بن الزبير، ثم سلك في الجانب الآخر، سياسة القوة والعنف والقهر مما أدى باليزيد إلى قتل الحسين بن علي بعد تسميم معاوية للحسن بن علي الذي كان المنتظر له ان يكون خامس الخلفاء الراشدين، لكنه اختار أن يكون صاحب عام الجماعة سنة 41هـ 661م الذي به تحقق لمعاوية ما كان يقصد، ومع ذلك تآمروا على قتله بالسم بعدما أعياه ما فعل بمن حوله من الذين آشتراهم، حتى إن أحدهم من بني أسد تجرأ على ضربه بالمدائن، حيث بقي للاستشفاء بها عشرة أيام(116)، وأخيرا سممته امرأته بنت الأشعث بن قيس مقابل

(116) هو الحسن بن علي بن أبي طالب ض الهاشمي القرشي أبو محمد: خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم وثاني الأيمة الإثنى عشر عند الإمامية، ولد سنة 3هـ وتوفي سنة 50هـ.

مائة ألف وقيل بوعد أنها تتزوج اليزيد بن معاوية، لكنها باءت بلعنة الله والناس، أما سيد الشهداء الحسين الذي تعرض وكل أهله للقتل حتى الرضيع في حجره، وبالطريقة التي خطها يزيد ومن حوله، أمثال قرة بن منقذ، وعمر بن سعيد بن نفيل، وعبد الله بن عقبة الغنوي، وسنان بن أنس النخعي، والشمر بن ذي الجوشن، هؤلاء بأمر اليزيد هم قتلة أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم بكر بلاء يوم الجمعة 10 محرم من سنة 51هـ/680م(117) مقابل أن يصفوا الملك لليزيد بن معاوية، لكنه لم يعرف صفوا وانتهت حياته من أشرف بقاع الأرض التي أشعل فيها النيران سنة 63هـ قبل أن يموت، حيث بويع عبد الله بن الزبير الذي دامت خلافته بالحجاز واليمن عشر سنوات، وبسبب بيعة الناس لآبن الزبير أمر اليزيد بمحاصرة المدينة والحجاز التي أرسل إليها مسلم بن عقبة المرى والحصين بن النمير، ثم أمرهما باستعمال النيران(118) في مكة والمدينة إذا لم يستسلم الناس بعد حصار ثلاثة أيام قاوم فيها آبن الزبير وجنده مقاومة الأبطال، لكن رب البيت كفاه بهلاك اليزيد يوم 4 ربيع من ستة أربع وستين في حوران من أرض الشام التي يول الملك بها سوى ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا بضعة أيام(119) وبلا شك ولا ريب كل هذا كان يتردد صداه في المغرب وبين قبائله وما فيه من عرب قريشيين وغير قريشيين، وكلهم كانوا بجانب الحق المسلوب من آل البيت.

تلك هي سياسة الأمويين تجاه آل بيت النبوة، فكيف كانت تجاه ما جد من الأقطار التي فتحت ولم يكن أهلها حتى من العرب، لقد كشف عن هذه السياسة زياد بن أبيه حين خطب في العراقيين ثم قال: "حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا إياي ودلج(120) الليل، فإني لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه"، ومثله حصل من

---

(117) راجع تهذيب التهذيب 295/2 والإصابة في تمييز الصحابة 328/1 وتهذيب ابن عساكر 199/4 ومقاتل الطالبين 31. وإبن الأثير 182/3.

(118) راجع الأعلام 215/1 وفيه نقل عن خ المصابيح لأبي العباس الحسن كيف دس السم للحسن بن علي(ض).

(119) راجع المصادر المذكورة سابقا، وكذا كتاب العقاد أبو الشهداء، وسيد الشهداء لكامل كيلاني ،والحسين بن علي لعمر أبو النصر...

(120) أدلج القوم ساروا من أول الليل.. والدلجة السير من أول الليل، وسير الليل كله، وفي الحديث (عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوى بالليل).

كل الولاة الذين أسند لهم حكم العراق، وفي مصر ماذا عرفت من أبي العاص إلى عتبة بن أبي سفيان أخو معاوية، وخطب التهديد والوعيد التي يحفظها له التاريخ، حتى إننا وقد رأينا أنه لم يصلح للعمل مع ملوك بني أمية إلا من كان لا يحترم شرعة الإسلام أكثر من أوامرهم، وتلك سنة معاوية.

وقف عتبة آبن أبي سفيان خطيبا في المصريين ثم قال «أيها الناس إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الأجر، وعلى المسئ الوزر، فلا تمد الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا، ورب متمن حتفه في أمنيته، أقبلوا العافية ما قبلنا منكم وفيكم»، وكان هذا الخطاب طبعا بعد قتل معاوية لثمانين رجلا من تجيب بمصر لموالاتهم لعلى بن أبي طالب(ض) كما رأينا ما فعله اليزيد حتى آنتهى به جرحه بعد الحصار(121) إلى قتل الحسين وذويه. أما الحجاج فإنه لم يذهب إلى العراق إلا لقطف الرؤوس التي تحمل أجمل العواطف لآل البيت وقد فعل، كما تمثل في حياة الحجاج في البدخ والترف ما أصبح عليه الحكم في بلاد الاسلام، بل ما أصبح عليه المال وبيد من في بلاد الإسلام، فالحجاج هو الذي كان ينصب ألف خوان في رمضان وخمسمائة في سائر الأيام، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان من الطعام، وسمكة طرية مشوية وأرزة بسكر، وكان يحمل في محفة ويدار به على موائده يتفقدها، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى؟

---

(121) في هذا الحصار انتهكت حرمات البيت والمشعر الحرام وقتل فيه من الصحابة وأبنائهم ما ذكرته مصادر التاريخ المشار إليها قبل، أما من قتل من أهل بيت الحسين بن علي بن أبي طالب فمنهم إبنه علي الأكبر، ثم عبد الله بن مسلم بن عقيل، ثم عون، ومحمد ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الرحمان وجعفر أبناء عقيل، ومحمد بن سعيد، بن عقيل، والقاسم، بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان غلاما ثم عبد الله بن الحسين بن علي، وكان صغيرا في حجر أبيه رماه رجل من بني أسد بسهم فذبحه، فتلقى الحسين دمه فملأ كفه، ثم أبو بكر بن الحسين رماه عبد الله بن عقبة الغنوي بسهم فقتله، ولذلك قيل:

وعند غنى قطرة من دمائنا وفي أسد أخرى تعدو تذكر

ثم عبد الله وجعفر، وعثمان ومحمد بنو علي بن أبي طالب من إخوة الحسين، ثم العباس، بن علي، بن أبي طالب. أما سيد الشهداء فقد كثرت جراحه حتى سقط من على فرسه فقتله سنان بن أنس النخعي، وقيل الشمرين ذي الجوشن، وقيل أنه من شدة التعلق بآل البيت اختلف في مدفنه، وبنو غنى بطن من بني عروة بن الزبير بن العوام من بني أسد بن عبد العزى من قريش من العدنانية راجع نهاية الارب للقلقشندي 390/ط القاهرة 1959 وحول بني أسد راجع نفس المصدر 37-39-90 وعن أسد المقصودة هنا والتي قاتلت ضد الحسين هي قبيلة أسد خزيمة راجع العبر2/32-321-3/441.

الخباز ليجيء بسكرها فأبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر، أمر بضربه مائتي سوط، ولنتصور كيف كانت أحوال الشعوب غير العربية وقتها، هذه أمثلة من بني أمية وعمالهم بالمشرق القريب، فكيف كانت يا ترى في أرض المغرب البعيد الذي كانوا لا يعرفون عنه ولو بمواصلات الوقت "الحمام الزاجل" قليل ولا كثير، بل كانوا لا يعرفون من المغرب وعن المغرب إلا أن يمدهم بالمال وبالسبايا، حتى بلغ بهم الطغيان درجة المروق، وحتى آنتهى إلى التذمر العام والنقمة الشاملة، وإذا ما فاحت رائحتها حتى اقتحمت القصور قيل إن مصدرها ما حل بعلي وآل علي، وأنهم السبب في نشر ما أحاط بالأمويين من مقت وتحقير في كل مكان، رغم ما بأيديهم من سياط كثرت ضحاياه في كل مكان كذلك، فكان رد الفعل من مروان بن الحكم الذي تولى بعد معاوية بن يزيد والذي لم يدم أكثر من خمسة وأربعين يوما ولم يعقب، حيث مات دون العشرين، فأسند الملك بعده إلى مروان بن الحكم 64–65هـ–684–684م، والذي كأنه ما نصب إلا ليصدر أوامره بلعن علي بن أبي طالب على المنابر، ثم يأتيه الموت في غرة رمضان ولم يقض في الملك سنة، مخلفا وراءه ما شرع من لعن أعظم من آعتز به الإسلام بعد صاحب الرسالة، وقد آستمر أمر مروان منذ صدر إلى عهد عمر بن عبد العزيز، ونسي أن التاريخ سيرد اللعنة عليه ومن على شاكلته من قومه مدى الحياة وأبد الدهر، رغم أن عمر بن عبد العزيز 99–102هـ 717–820م آستعاض أمر مروان بقوله تعالى «ربنا إغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا» وقوله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي"(122).

في هذه المرحلة من التاريخ تكونت خلايا هدم ملك بني أمية في المشرق والمغرب، من بلاد الفرس وجزيرة العرب إلى أرض المغرب الأقصى وبلاد الأندلس التي أشرنا إلى أن عربها وقد أخافتهم ثورات البربر بعدوة المغرب، سيجمعون كلمتهم على عبد الرحمان بن معاوية صقر قريش، فكانت دولته ومن جاء بعده دولة عربية حققت للعرب ما ضاع منهم زمن سلفه.

---

(122) سورة النحل الآية 90.

وإلى هنا نستطيع القول أن كل ما حصل في المغرب من ثورات وردة ونشر فتن، وظهور مذاهب الخوارج في شكل مشوه لقح بعضها بالوثنية وزراد شتية الفرس ومزدكيتهم، كما تفرقت كلمة المسلمين في كل البلاد الى أن دفع مروان بن محمد 127–132هـ 744–750م ثمن أخطاء سلفه، رغم شجاعته وثباته في الحروب، حتى لقب بحمار الوحش، فكان كل ما أصابه إنما هو نتيجة أعمال سلفه القريب، يزيد بن الوليد الذي لم يفد مما وضعه عمر بن عبد العزيز من أسس جديدة كاد الناس يقتنعون معها أنها بعث جديد يقيض الله بواسطته وعلى رأس كل قرن من يبعث الهمم. وينصر الحق، لكن يزيد بن الوليد آعتبر ما قام به عمر بن عبد العزيز فسادا وإفسادا، وقد أعلن ذلك فيما كتب للأنصار «أما بعد فإن عمر كان مغرورا غرر تموه أنتم وأصحابكم وقد رأيت كتبكم إليه في آنكسار الخراج والضريبة، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا والسلام"(123).

مهما يقال من بعضهم مدحا في بني أمية وما حققوه من فتوحات، وما عرفته الدولة في عهدهم من توسع، وما دخل الإسلام من سلالات آهتدت كما آهتدى العرب بخلق الإسلام وسماحة الإسلام وعقيدته، فإنه لو طال ملك بني أمية أكثر لعرفت دولة الإسلام تمزيقا وشتاتا أكثر، ولما بقي في أقطاره على اتساعها وتباين الأجناس والألوان واللغات فيها أثر للعرب، بسبب ما كان عليه تصرف بني أمية الذي قال عنه أبو حمزة يحيى بن مختار الخارجي حين خطب الناس في مكة ووصف سيرة الراشدين ثم قال. في بني أمية "وأما بنو أمية ففرقة ضلالة، وبطشهم جبرية، يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، ويأخذون بالفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف، قال تعالى: «إنما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين،

(123) الإدارة الإسلامية ص114 ط1934م. وإذا علمنا أن علماء الإسلام درسوا كل الجوانب المتعلقة بالخراج وهل يمكن "للخليفة" زمن "الخلافة" الزيادة فيه أم لا، فوقع شبه إتفاق على ما عينه عمر بن الخطاب(ض) وأنه لاحق لأحد في الزيادة فيه أو النقص حسب رواية القدوري عن أبي حنيفة وأحمد في روايته الثالثة، وأما مالك فعنده آجتهاد الأيمة على ما تحلمه الأرض مستعينا بأهل الخبرة. راجع وجدي 691/3. ط1971م.

وفي سبيل الله، وابن السبيل" فأقبل صنف تاسع منها فأخذها كلها. تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله»(124).

بهذا زال ملك بني أمية وانتهى أمرهم الذي عجل به إلى جانب ما سبق، ما كان بينهم من خلافات وراثية، وتناحر على النفوذ والمال، وبين ولاتهم من تسابق وقهر في سبيل جمعه لهم في الأمصار، فعرف المشرق الأقصى تناحر المضرية واليمنية عدنان وقحطان، كما عرفت بلاد المغرب الأدنى والأقصى مثل ذلك، فكانت قبائل المغاربة، البربر تطحن بين هؤلاء وأولئك وأحيانا بشكل لم تعرفه معارك الفتح الكبرى، وكان الذين تمكنوا من روح الإسلام وتمكن الإسلام بخلقه وسماحته من قلوبهم وأرواحهم، يستنكرون ولا قدرة لهم على ما يفعلون لتوقيف الهدم وهم ينظرون، ومثلهم كان المسلمون في أقطار المشرق، الأمر الذي فسح المجال لدعاة بني العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم. بإسم الرضى من آل محمد، وبوصية الإمامة من الإمام أبي هاشم العلوي محمد بن الحنفية، لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس(125)، فانتشرت دعوتهم في المشرق بقدر ما تمكنت دعوة السنيين، والمتشيعيين، والخوارج في المغرب بعدما مرت على مصر، وإذا ما عرف في المشرق وما وراء النهرين أمثال أبو مسلم الخرساني الداعي، ووزير آل محمد أبو سلمة الخلال حفص بن سليمان وغيرهما، فإن المغرب عرف من الخوارج أمثال عبد الأعلى بن السمح الإباضي، وقومه الذين استولوا على هوارة، وبهم قضوا على فساد الصفرية وقوتهم المتمثلة في ورفجومة من نفزة، الذين منهم عبد الملك بن أبي الجعد الذي أهان الحرمات ودعى الى الكفر، وفعل الفاحشة في المسجد الجامع بالقيروان مما أدى إلى ظهور أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وعبد الرحمان إبن رستم وخالد آبن ربيعة الإفريقي كاتب أبي المهاجر عامل عمر بن عبد العزيز سابقا، وعكاشة

---

(124) المصدر السابق 118-119.

(125) الإمامية فرقة من الشيعة تقول بإمامة علي (ض) بعد النبي صلى عليه وسلم، وأنها لأبناء علي يتوار ثونها وهم متفقون على أن الأيمة إثني عشر، وأنهم ختموا بالمهدي المنتظر وفي أسمائهم خلاف والأشهر في تسميتهم أنهم 1) الإمام علي 2) الحسن 3) الحسين 4) زين العابدين 5) الباقر 6) الصادق 7) الكاظم 8) الرضا9) الجواد10) الهادي 11) العسكري 12) المهدي.

الصفري، وعبد الواحد بن يزيد الصفري، اللذان تزعما ثورة البربر، واللذين قضى عليهما حنظلة بن صفوان بقتل الأول وأسر الثاني، لكن حنظلة آنتهى به المطاف إلى الفرار ليحل محله عبد الرحمان بن حبيب الذي وصل غزوه فقط إلى تلمسان، ثم آستقل بها أحد عشر عاما(126)، أولئك الزعماء على مختلف مشاربهم ألم يكن لهم من الأنصار ما رفعهم مقام الزعامة والقيادة حتى إن أبا الخطاب وقد رأينا كيف أنقذ القيروان من ثورة صنهاجة وورفجومة ونفزاوة، وذلك بقواته من هوارة التي ما كان لها أن تفعل لو لم تكن أكبر وأكثر.

وشيء آخر يدلنا على مآسي الاسلام في المغرب الكبير بين الأمويين والعباسين الى جانب وجود المذاهب مبكرا كما سنفصل في فصل مستقل، هو أصناف العرب الذين تواجدوا في المغربين الأدنى والأقصى، خاصة منذ العهد الثاني للفتح زمن عقبة وموسى وأن هؤلاء العرب وقد رأينا كيف كانوا منقسمين في الأندلس، وفي المغرب كما كانوا في المشرق، وأنه ما كادت الدولة الأموية تلتقط أنفاسا لتحل محلها دولة بني العباس وتصبح مصر تحت إمرة صالح بن علي فاتح محرم 133هـ 750م حتى كان المغاربة والبربرأنفسهم قد هضموا تلك المذاهب وكونوا لهم أحزابا تميزت باتجاهاتها والأماكن التي آنتشرت فيها(127) من طرابلس والقيروان الى سلجماسة ووادي درعه جنوبا وبرغواطة في الشمال، بل نجد أمثال الحسن بن عبد الله القيرواني أصبح يوجه إخوانه في مذهب الباطنية(128). واذا ما تقدم بنا الزمن بضع عشرات من السنين سنجد أن العرب أصبحوا يعرفون باسم قبائلهم في المغرب، وقد تعددوا بالمآت بل الآلاف من الأزد،ومد حج، والصدف، وبني يحصب، والقيسية، كما عرف لليمنية حمير، وكندة، ولخم، وجذام وغيرهم وأنهم لما تمكنوا الى جانب المغاربة والبربر الذين حلوا مكان الأمويين أرادوا أن يبثوا في الحكام نفس السلوك الذي كان عليه السابقون مما أدى إلى إبعادهم والنفور

---

(126) راجع زمباور الأسر الحاكمة 99/1ط 1951م، وابن عذاري 70/1، والعبر 191/4-112.

(127) راجع مادة إباضية وكذا العقود الفضية في أصول الإباضية ص183 /ط دار اليقظة العربية بدون تاريخ وخوارج في دائرة المعارف الإسلامية جـ 11/1-14 298-301 و252/4-526 521-522جـ 469/8. والبستاني 492/7 ووجدي 691/3ط 1971.

(128) راجع الفرق بين الفرق 110.

منهم كما سنرى في عهد تأسيس الدولة الإدريسية، وما قدم عليها من عرب القيروان والأندلس، وأن هؤلاء لم يفعلوا إلا أنهم آندفعوا نحو القوة التي آعتقدوا أنهم متفقون معها مذهبيا. وإذا ما إنحلت سلطة الأمويين وضعف شأن ولاتهم، ستظهر تلك المذاهب في شكل دويلات هنا وهناك، كما سنرى.

على أن المتتبع للتاريخ في هذه المرحلة وما بعدها يرى أن المغاربة وغيرهم إن هم نفروا من الأمويين فلأنهم كانوا وقتها يتطلعون لمستقبل أحسن مع طلائع الدعوة الجديدة، وقد برزت إلى الوجود كما رأينا باسم الدعوة لآل البيت، فلم لم يؤيدوها وينتصرون لها ومثلها دعوة الخوارج وفي هذا ما يستدل به على أن الخوارج كانوا في هذه الفترة أكثر قوة، خصوصا في الشمال والجنوب من بلاد المغرب، من طرابلس إلى أرض سجلماسة، وأنهم كانوا على بينة من الأمر ومما كانوا يهدفون، خصوصا وقد آنتهى الى المغرب من أخبار أبي العباس بن محمد الملقب بالسفاح ما كان بينه وبين آخر الأمويين مروان بن محمد من خراسان إلى مصر التي التجأ إليها يطارده أخو العباس صالح بن علي، ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد، إلى أن أدركه في قرية بوصير من أرض الجيزة ثم قتله في 17 جمادى الثاني سنة 132هـ 749م ونقل رأسه إلى أبي العباس السفاح الذي بويع يوم 12 ربيع من نفس السنة(129) والسفاح هو أول ملوك بني العباس، فهو عبد الله بن محمد، بن علي، بن عبد الله ابن العباس ابن عبد المطلب، بن هاشم.

وهكذا انتقل الملك من بني أمية إلى بني العباس الذين نقلوا العاصمة من دمشق إلى بغداد بعد الهاشمية، وإذا كان المجتمع الإسلامي ينتظر ولو تغييرا بسيطا بالنسبة لأوضاع الأمصار، وبالنسبة لما كان عليه الأمر من الأمويين إلى عادات الفرس الذين

---

(129) توفي بالجذري يوم 13 حجة 136هـ 753م في الهاشمية، وقد قضى في الملك أربع سنوات و8 أشهر و26 يوما، وسنه 32 سنة ونصف، وهو أول من آتخذ وزيرا لأن الأمويين لم يستوزروا وإنما إستكتبوا، إستوزر خالد بن برمك، وكان من رجال الدعوة العباسية في بدء تأسيسها، والواقع أن كل المبررات التي يستعملها المحللون لشخصية السفاح وأن ما إرتكبه من الأخطاء كان لا بد منها بحكم ظروف التأسيس، هي تعليلات غير مقبولة، فالواقع أنه غادر ماكر عديم الخلق، سواء هو أو الذي بعده أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي، الملقب بالمنصور، الذي لم يكن قتله لأبي مسلم الذي قتل بدوره كما تقول الرواية ستمائة ألف، لكن ما وصفه به البيهقي في كتاب المحاسن والمساوئ يجعله بحق رجل خطيرلو لم يفعل به المنصور ما فعل لكان هو المفعول به، راجع إبن عذارى 64/1 وابن خلدون 190/4والترجمان المعرب الذي نقل عنه صاحب الاستقصا 107/1.

كانوا يقدسون الملوك من آل ساسان ويعتقدون أنهم يستمدون سلطتهم من الله..؟ ولما كانت الدولة العباسية قامت بما قدم لها الفرس من خدمات مقابل التخلص من الأمويين خصوم العلويين الذين تشيع لهم الفرس، فإن العباسيين أنفسهم لم يكونوا أخف وطأة على العلويين، الأمر الذي دفع الفرس الى المسايرة، وأصبح الملك العباسي حسب تأثير البيئة الجديدة وفي نظر الفرس، يتمتع بما كان للوكهم، حيث ساد الاعتقاد بنظرية الحق الإلهي للملوك، وأن الملك ظل الله، كما ظهرت بشكل مخالف لدين الاسلام عادة تقبيل الأرض بين يديه، الأمر الذي دفع السفاح وبعده أبو جعفر المنصور الذي هو عبد الله، بن محمد، بن علي، بن عبد الله، بن عباس، وأمه سلامة البربرية، وهو الذي قال عن المال وكان غاية في الحرص والبخل كما سنرى، ومن أجله مال إلى الإقبال على الفرس والحط من قيمة العرب بشكل مغاير لما كانوا عليه زمن بني أمية، حيث أصبح الموالي من الفرس هم المسيطرون على شؤون الدولة حول أبي العباس السفاح ثم المنصور، ثم في الإدارة المركزية والثاني إندفع بالتنظيم الجديد للاستبداد والعنف أكثر بجمع المال حتى أطلقوا عليه آبن دويك، أي إبن النقود والمال، لأنه الذي قال عنه: "من قل ماله قل رجاله ومن قل رجاله قوي عليه عدوه، ومن قوي عليه عدوه آتضع ملكه، ومن آتضع ملكه استبيح حماه".

وعلى هذا المنهج أقر المنصور استمرار ولاية عبد الرحمن بن حبيب لإفريقية والذي سرعان ما أعلن آنفصاله عن المشرق والأندلس واستقلاله بإفريقية بسبب عدم تمكنه من إرضاء نهم وشره المنصور ورغبته الملحة في الخوارج(130)، لكن عبد الرحمن كما سبق تعرض لمؤامرة دبرها أخواه إلياس وعبد الوارث، فكان الضحية بالغدر، وحل محله إلياس في حكم إفريقية إلا أنه لم يستمر، وأزاحه حبيب بن عبد الرحمن الذي قامت في عهده ثوارت المغاربة والبربر الصفرية التي ظهرت في ورفجومة 138هـ 755م والتي آستمرت مدة سنتين، قتل فيها حبيب بن عبد الرحمن، وبالتالي فقد عرفت المنطقة في هذه المرحلة ثورات ثلاث، كان مفعولها في غير صالح العرب كما سنرى، تلكم هي ثورات الحارث الحضرمي وعبد الجبار بن قيس المرادي، وأبو الخطاب المعافري، وأبي حاتم يعقوب

(130) راجع: إبن عذارى 1/67-68-76 وابن خلدون 190/4 وابن الأثير 280/4 والكندي 103.

بن لبيب الإباضي، وكل ذلك سببه السياسة التي نهجها الأمويون وتبعهم فيها العباسيون نحو المغرب فكانت وبالا على الإسلام والمسلمين.

وهكذا فمن عبارة النص السابق للسفاح نتبين الإتجاه العام لتخطيط سياسة بني العباس التي آستمرت زمنا غير قصير من عهدها الأول في جمع المال وإرهاق الشعوب التي كانت تحت سلطانها، ذلك أنه رغم ما قره التاريخ من تقشف المنصور الذي كان يقتدي بهشام بن عبد الملك الأموي، ويصرح بذلك، فإنه أنفق في بناء بغداد سنة 142هـ-762م تسعة ملايين من الدنانير، وسكانها بلغ عددهم مليون ونصف المليون، وقد غطت عظمتها على نينوى، وبابل، وسلوقيا، وطيشفون، والتي ستعرف في عهد الرشيد نهاية الترف، حيث كان الرشيد ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم،وعلى السماط ثلاثون صنفا من الطعام تقدم في أواني الذهب والفضة، وقد أقام وليمة لزبيدة كلفها 55 مليون درهم، وكان يقدم للناس أطباق الذهب تملأ بالنقود الفضية وأطباق الفضة تملأ ذهبا، ولقد كانت زبيدة مسرفة، ومن ذلك أنها صنعت بساطا من الديباج جمع طيور كل حيوان وكل طائر الأجسام بنسيج الذهب، والعيون باليواقيت والجواهر، وقد كلفها مليون دينار، وكان ثمن ثوبها الواحد خمسين ألف دينار، بل أحصوا لها ما أنفقت، فقيل بلغ ثلاثين مليون دينار، ذلك لأن مداخيل بيت المال بلغت مليون درهم ذهبا وعشرة ملايين فضة، حتى إن أبا جعفر لما حضرته الموت قال للمهدي إنه خلف له من الأموال ما إن كسر عليه الخراج عشر سنوات كفاه لأرزاق الجند ومصلحة البعوث، وأما ما عند البرامكة وما بلغوا، ومثلهم الراقصات والغواني (فوز وفريدة ومنه) فلا تسأل، وأما ما أنفقه المنصور في حرب العلويين من أبناء عبد الله الكامل بن حسن بن الحسن السبط، وفي حرب الخوارج ثلاثة وستون ألف ألف درهم، أي ثلاثة وستون مليون درهم، وعلى جيش كونه من خمسين ألف وجهه لقتال الخوارج بالمغرب، لكن جيوش بني العباس إندحرت زمنا أمام الخوارج من هوارة الذين قادهم أبو الخطاب عبد الأعلي بن السمح المعافري والضحاك الشيباني سنة 140هـ 757م كما سبق.

وإذا كانت الدولة قد واجهت معارضة شديدة وعنيفة في جهات مختلفة، فإن مؤسسيها الأولين كانوا أعنف وأشد، حيث كانوا يواجهون كل تمرد بقوة التدمير ما

استطاعوا وكانت أوامرهم لا تقبل التردد، وإذا كان أبو العباس قد صمم على تصفية كل من تبقى من أبناء الدولة الأموية ودعاتها، والعلويين ولو بايعوه، حيث أمر بالقبض على ثمانين منهم ما بين نساء ورجال وأولاد، وهو العدد المساوي للذي كان مع الحسين في كربلاء، ثم أمر بذبحهم بلا شفقة، ومن وقتها عرف بالسفاح، ولم ينج منهم إلا عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام الذي فر إلى الأندلس، فإن المنصور هو الآخر واجه الخوارج بنفس الشدة والعنف، ومن ذلك ما كتبه لمسلم بن قتيبة: أن أهدم دور من خرج من الخوارج وآقتلع نخلهم، فكتب إليه يستشيره: "بأي ذلك أبدأ" أ بالنخيل أم بالدور؟" وربما كان إبن قتيبة يقصد بذلك التمهل ربما يتراجع، لأن آقتلاع النخل خسارة كبيرة، وأن النخلة لا تثمر جيدا إلا بعد أكثر من عقدين، فكتب إليه المنصور "أما بعد فإني لو أمرتك بإفساد تمرهم لكتبت إلي تستأذن في أيه تبدأ؟ أ بالبرني أم بالشهرزير" وعزله.

ولقد طالت مدة المنصور بن محمد أكثر كثيرا من أخيه أبي العباس حيث دام ملكه من 136 الى 158هـ 754–775م، ورغم أنه كان مترددا في سلوكه السياسي فإنه كان عنيفا في الجانب العسكري الذي كثيرا ما كان يرتجل فيه بما كانت تظهر عواقبه أفظع، وإذا هو أساء التصرف مع أهل مصر بكثرة تبديل الولاة الذين كان آخر السبعة الذين تداولوها هو موسى بن علي بن رباح سنة 156هـ 772م، فإن تلك السياسة دفعت اللاحق لنهج سياسة السابق الذي لم يفكر في مصلحة البلاد والعباد، بقدر ما كان يفكر في مصلحة نفسه والاسراف في شهواته بجمع الأموال وكنزها لاعتقاده أنه لم تطل ولايته، وبذلك عرفت مصر من الولاة في عهده ألوانا من الضرائب لم يكن لها وجود في أي أرض "بحيث لم يترك شيئا ما بدون ضرائب... حتى الفعلة وبائعي البقول، وقادة الجمال، وكل الصناع، حتى المتسولين، كل هؤلاء كانوا يدفعون الضرائب، فعم البلاء واشتد الجوع، فأكل الناس الكلاب ولحم الآدميين".

وإذا كانت برقة قد ضمت لمصر زمن يزيد بن حاتم سنة 148هـ 765م، وإذا كان في عهد هذا الوالي قد ظهرت دعوة بني الحسن بن علي بمصر سنة 145هـ 762م، وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم محمد بن عبد الله "النفس الزكية" وطوق المسجد في 10 شوال من

نفس السنة، ثم قدمت الخطباء برأس إبراهيم(131)، بن عبد الله، بن حسن بن الحسين بن علي، في ذي الحجة من نفس السنة، الأمر الذي دفع يزيد بن حاتم إلى منع أهل مصر من الحج، كما منع أهل الشام بسبب ما كان في الحجاز من الإضطرابات بأمر من العلويين الحسنيين، وإذا كان صاحب الفضل على العباسيين في تأسيس دولتهم أبو ملسم الخرساني قد قتل بتهمة تشيعه لآل البيت، فإن صدى كل هذه الأحداث كان يتردد في المغرب، مما كان يدفع بالمغاربة إلى تدبر مصيرهم مع آل العباس، حتى لا يكون كما مر مع بني أمية.

وإذا كان المنصور كما ذكرنا، فإنه رغم ذلك كان صاحب مواهب فرغم كل ما أحاط بظروف التأسيس من أحداث ومشاكل إستطاع المنصور أن يتمم ما بدأه أبو العباس، كما يستنتج ذلك من كتابات آبن المقفع 109–142هـ 724–759م عبد الله "روزبة" آبن ذاويه الذي قتل بتدبير من المنصور نفسه(132) والذي كتب حول "رسالة الصحابة" في النظم الاجتماعية والأديان إلى جانب كتابيه: الأدب الصغير و"الأدب الكبير" وغيرها من كتب المنطق التي ترجمها لمخدومه المنصور الذي ولاه كتابة الديوان، ولولا همة المنصور لما آنطلق آبن المقفع في سبيل إثراء المكتبة العربية، وبالتالي فإن المنصور يعرف من خلال وصيته لابنه عبد الله، حين عزم حجته الأخيرة التي أخبره فيها المنجمون بعدم الرجوع منها، وهي في منتهى الحكمة والروعة، إلا أن عداوة أهل الشام لأهل العراق وما سرى في الجند أفسد عليه ما رام من علاقة الدولة بالشعب، بل وعلاقة قرابته، وتوفي المنصور

(131) ربما هو الذي دفن في مصر بجانب الأزهر اليوم فتحول بعامل الدعاية الى اسم الحسين.

(132) راجع المصدر السابق، والفخري لآبن طباطبا 103–120 كما قتل السفاح أبو مسلم الخرساني بعد ما سلطه على أبي سلمة الخلال وزير آل محمد بتهمة تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي، وكان السبب في قتل أبي مسلم حجه مع أبي جعفر في سنة واحدة، وإظهاره الثراء والكرم وكثرة الأتباع، مما أثار ضغينة المنصور فدبر له عند أخيه، ثم راجع ترجمة المنصور في تاريخ "الخلفاء" للسيوطي 241–253 ط بيروت 1974. والاعلام للزركلي وما به من المصادر 383/4–384 وأمراء البيان 99–158، وأخبار الحكماء 148 ولسان الميزان 366/3 وأمالي المرتضى 94/1، ودائرة المعارف الاسلامية 282/1 والبداية والنهاية 96/10 ومعجم المطبوعات 249 وخزانة الأدب 459/3–460، وكان كل من السفاح والمنصور والمهدي ثم الهادي قد جردوا السيف ضد المانوية الزنادقة بشكل فيه حدة مع أن ظهور الزنادقة زمن العباسيين بالشكل الذي عرفوا عليه، يدل على ما كان للفرس من نفوذ أغرى قومهم الذين آندسوا وكانوا يحنون إلى المجوسية الأولى، ورغم ذلك فالمنصور قام بإصلاحات داخلية هامة كمسح الأرض وزرعها وتنظيم طرق الجباية وفي كل ذلك إستعمل الفرس ومهاراتهم.

عن سن ثلاثة وستين، وهو في بئر ميمون على بضعة أميال من مكة يوم 6 ذي الحجة 158هـ 775م بعد ما قضى في الملك إثنين وعشرين سنة إلا سبعة أيام، فخلفه ولده محمد المهدي وكان في الثانية والثلاثين من العمر، كان محمد المهدي مثل والده في كثير من الجوانب منها عدم آستقرار رأيه سياسيا وكثرة تبديله الولاة على الأمصار، وإذا كان المغاربة عادة قد آعتادوا ترقب ما يحدث في مصر صاحبة النفوذ على القيروان، فإن مصر عرفت في المهدي ووالیه يحيى بن داود الملقب بأبي صالح الخرساني من الضيق، ما طبقه بعد الحاكم بأمر الله الفاطمي من فرض لبس القلانس الطوال ومنع إغلاق الدروب ليلا، والحوانيت، ومنع حراس الحمامات من الجلوس فيها، وكان غير متهيب من سفك الدماء حتى آنتهى الأمر بأهل مصر إلى ضيق في زمنه، ورغم أنه لم يدم سوى أكثر من سنة تولى بعده آبن سوادة التميمي سنة 164هـ 780م وقد أبدله بعباسي هو إبراهيم، بن صالح بن علي، بن عبد الله، بن عباس الذي آنشغل ببناء قصر له، وفي عهده خرج بمصر أموي واستولى على صعيد مصر، هو دحية بن المصعب من نسل عبد العزيز ابن مروان، الذي كان واليا على مصر زمن عبد الملك، الأمر الذي دفع محمد المهدي الى السخط على إبراهيم وعزله بطريقة مزرية في 7 حجة 167هـ 183م، ثم رد مكانه موسى، بن مصعب، بن الربيع، من أهل الموصل، الذي ما كان يصل مصر حتى انتزع من المغضوب عليه إبراهيم ومن معه ثلاثمائة ألف دينار، ثم رده الى بغداد، كما شدد على أهل مصر في آستخراج الخراج، ثم زاد على كل فدان أكثر مما كان بالضعف، وضرب خراجا على الحوانيت والدواب، فتضايق الأهالي وكره الجند ذلك ونابذوه، وثارت قيس واليمانية، الامر الذي دفع به إلى قتال دحية بالصعيد، وكذا أهل الحوف، لكنه واجه قوات اجتمع فيها المصريون جميعا ثم قتلوه بعد عشرة أشهر من ولايته يوم 9 شوال سنة 168هـ 784م، تولى بعده الفضل بن صالح أخو إبراهيم المتقدم الذي سبقه مؤقتا أسامة آبن عمر، والفضل هو الذي قتل دحية الأموي بعد ما قبض عليه في معركة جند لها أهل الشام في جمادى في 169هـ 785م، وبهذا إستقرت أحوال المهدي فتفرغ لقتال الروم حيث جند لقتال اليونان والقسطنطينية بقيادة ولده الثاني هارون الذي أظهر بسالة أهلته في نظر أبيه إلى أن جعل له حق ولاية الملك بعد أخيه موسى الهادي

الذي تولى بعد وفاة المهدي(133) يوم 22 محرم 169هـ 785م، حيث توفي المهدي وسنه أثنان وأربعون سنة، قضى منها في الملك عشر سنين وشهران ونصف، لكن المهدي للأسف لم يغادر الحياة إلا ودم الحسين بن علي بن الحسن الثالث في عنقه، كما فعل اليزيد بن معاوية بعمه الأعلى، وإذا كان المهدي كما سبق أن أثبتنا مترددا في رأيه السياسي فإن هذا لم يقتصر على علاقته بمن حوله من رجالات الدولة، بل تعدى إلى أسرته ومصير ولايتة العهد التي نزع منها عيسى بن موسى بن علي، وجعل مكانه ولده موسى الهادي، ثم بعده هارون الرشيد، وهما شقيقان أمهما الخيزران التي آنطلقت من عقالها في عهد ولدها الهادي الذي تولى الملك وسنه بعد العشرين ومن قصتها يتبين جانبا من سياسة العباسيين وقتها، فقد أخذت تتدخل في الشؤون العامة وتتعهد بقضاء الحوائج مهما عظمت، فأرسل إليها أن تقف عند ما يليق بها ويحفظ منها الشرف والمروءة من صلاة وتسبيح، فعل هذا حين أسند له الملك، أما زمن خلافته لأبيه فقد كان يفسح لها ويلبي طلباتها، لكنه وإن كان قد آستمر لمدة أربعة أشهر بعد ملكه فإنه تدارك وامتنع، وكان آمتناعه في أمر يتعلق بحاجة لعبد الله بن مالك، مما دفع بها إلى أن تصمم على التنفيذ، فقال لا أفعل، قالت فإني قد تضمنت لعبد الله بن مالك، ورددت إسمه عنده، فغضب موسى الهادي وقال: ويلي على آبن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها، والله لا قضيتها لك، قالت إذا والله لا أسألك حاجة أبدا، قال: إذا والله لا أبالي وحمى غضبه، فقامت مغضبة فقال: مكانك تستوعبي كلامي، والله وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أمالك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أوبيت يصونك، إياك ثم إياك

(133) في عهد المهدي وقبل وفاته بتسعة أيام أي يوم 13 محرم سنة 169هـ 785م، قام الحسين بن علي بن الحسن المثلث بثورته، حيث بويع بالمدينة لكن الذي واجه الموقف هو الهادي الذي عين محمد بن سليمان، بن علي، لمحاربة الحسين فلقيه بفخ، ونحن المغاربة في تاريخنا بصفة عامة نذكر فخ مع الهادي ونهمل ان أول من بويع بالمسجد وقام بالثورة هو الحسين الطالبي 169هـ 785م زمن المهدي الذي توفي بقرية الروذ قرب ما سبذان، وهو في طريقه الى جرجان، وصلى عليه ولده هارون الرشيد، راجع ابن الأثير، والطبري، والخضري 95 ثم العبر 215/3 ومقاتل الطالبين308/288.

ما فتحك بابك لملي مسلم أو ذمي فانصرفت وهي لا تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة أو مرة(134) هذا هو الموقف السياسي الذي كان الهادي فيه جاد، ولعله فعل ذلك من شدة الغضب الذي آستولى عليه بسبب سلوك أمه حتي صرح لأمه بأفظع ما توصف به مولدة تحررت وأصبحت أما لملك وقتها، غير أنه لم يفعل إلا وعنده من القرائن ما يؤكد أخبار المخبرين عنها، ورغم ما فعل فقد كان متلطفا معها..

مهما يكن فان فترة المهدي والهادي وما حصل فيها خصوصا وأن الهادي كما يقال كان على سنن أبيه قد آنشغل بتصفية الزنادقة، وأنه كان شديد الغيرة على حرمه، وهو في ذلك يشبه سليمان بن عبد الملك الأموي، الذي آستثناه المؤرخون من بني أمية في هذا المجال(135) وإن كان الهادي أول من شرب النبيذ من العباسيين وأول من استعمل المغنين، لكن إذا كان المنصور قد خلد رأيه في مدى آعتماد الملك على المال، فإن الهادي رغم حداثته وانه لم يعمر خلد رأيه في أثر آتصال الملك بالشعب، ومعرفته لواقع حياته عن كثب، وفي ذلك قال للفضل بن الربيع الذي أسند إليه حجابته "لا تحجب عني الناس، فإن ذلك يزيل عني البركة، ولا تلق إلي أمرا إذا كشفته أصبته باطلا، فإن ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية" وكان أحيانا يفتح أبوابه للعامة وقد أمر يوما علي بن صالح بذلك حيث قال له: إئذن للناس علي بالجفلى لا النقري، ففتحت فدخل الناس على بكرة أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، ولعل ذلك الاتصال وتعلق الناس به هو ما أغراه علي تحويل ولاية العهد حسب وصية والده من أخيه هارون الرشيد، إلى ولده جعفر، وقد خطا في ذلك خطوات زكاه عليها كل من كان حوله من القواد ورجال الدولة، ما عدا يحيى بن خالد الذي نصحه عندما آستشاره ليمكر به، كما أوحى إليه الذين قالوا له إن الذي يفسد الرشيد هو يحيى، وهو الذي قال له "إنك إن حملت الناس على نكث الإيمان هانت

(134) من محاضرات الخضري ص: 99-100 ط2: 1959، والمصدر الأصلي، لعله الطبري الذي لم يذكره المؤلف ثم راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص260-263 ط بيروت 1974 وفيه قول ان امه الخيزران سمته لما عزم على قتل الرشيد وهو شقيقه ليعهد إلى ولده. ثم راجع مآثرالانافة للقلقشندي 1/189-192 ط الكويت 1964م تحقيق عبد الستار أحمد فراج.

(135) المصدر السابق، ونحن دائما نستثني عمر بن عبد العزيز كلما آعترضنا ما يذكر مما لا يشرف تاريخ بني أمية.

عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته" فقال له الهادي المتردد كأبيه: "صدقت ونصحت ولي في هذا تدبير"، لكنه عاد وتراجع ثم ضرب عرض الحائط بنصيحة يحيى، وكاد يفتك بالرشيد لولا حيلة من يحبى الذي أبعده باسم الصيد في الوقت المناسب، وإذا ما طال غيابه مرض الهادي ومات يوم 13 ربيع الأول من سنة 170هـ 786/9/13م لتأخذ الوصية مجراها كما تركها المهدي، فيتولى هارون الرشيد ملك بني العباس خلفا للهادي بدلا من ولده جعفر، فتنطلق الأسود من معاقلها، وتعم الثورات كالعادة كلما مات ملك وحل مكانه آخر طمعا في الحصول على حريات أكثر(136)، إنطلق العلويون بقية الاخوة الستة من الذين لم يقتلوا في موقعه فخ، وقد كان لهم من الأنصار جموع غفيرة في مختلف أرجاء البلاد الإسلامية، حيث آتجه يحيى، بن عبد الله الكامل، بن الحسن السبط، إلى بلاد الديلم التي كان له فيها من القوة ما مكنه من السلطة والنفوذ بين أهلها، وانطلق بشكل دفع هارون الرشيد إلى إسناد محاربته للفضل بن يحيى الذي ولاه الرشيد كور الجبال، والري، وجرجان، وطبرستان، وقوقس، ودنباندند، والرويان، والذي آستعمل السياسة والدهاء، حتى جعل يحيى يثق ويطلب الأمان، فكانت نهايته الموت بالسم غدرا من الرشيد، كما فعل بعد وبواسطة الشماخ بأخيه إدريس الذي آلتجأ إلى المغرب وكون له به دولة الأدارسة كما سنرى. فكانت تلك نهاية مآسي الإسلام في المغرب الكبير بين الأمويين والعباسيين.

وإذا كان قد مضى على بداية تصفية العلويين أكثر من ثلاثة عشرا عقدا من الزمان فإن خصومهم الألداء وهم الأمويون hانتهوا وأبيدوا بشكل لم يسبق لغيرهم بل وغير مأسوف عليهم من أحد، بل أصبح تاريخهم وما كان لهم من حقد على آل البيت سلاحا ضدهم أدى إلى التنكيل بهم أينما وجدوا وحيثما حلوا، مما ذهب فيه المؤرخون مذاهب كثيرة، وأحيانا بلغ تأثير ذلك في بعض الشعوب إلى أنها بالغت أكثر مما يقضي الواجب على المسلم من حب وعطف على آل البيت، بل آنتهت إلى خروج من الحد الشرعي الى التطرف المفضي إلى المروق برسم التشيع،وما تلك إلا وسيلة وضعها

(136) كان الثوار من العلويين والخوارج، ومن هؤلاء عرف عهد الرشيد أمثال الوليد بن طريف الشيباني الذي استولى على نصيبين وقتل حاكمها كما عرف عهد سلفه رجالا بالمغرب سنتعرض لبعضهم في موضوع المذاهب.

الأمويون بتطرفهم ومغالاتهم في أيدي الذين كانوا يهدفون هدم الإسلام ولا يجدوا له وسيلة، وإذا ما عرف الشرق العربي من مذاهب الزنادقة، المانوية والمزدكية وغيرهما، فإن المغرب عرف بدوره مثل ذلك لكن بشكل أخف ولم يستمر، وإذن ما هي الأحزاب والمذاهب التي ظهرت في المغرب قبل ظهور الدولة الإدريسية، دولة التوحيد الوطني التي طبعت المغرب ثم فصلته عن المشرق إداريا ليصبح وقد تميزت شخصيته تمييزا واضحا مغربيا إسلاميا عربيا وذلك بعدما تعاقب عليه من الولاة ما يلي:

شارل مارتان جد شارلمان راجع المعارك الفاصلة لحنا خباز 160

ملك فرنسا شارلمان أي شارل الكبير تولى عام 768م إلى عام 8م حيث دام في الملك نحو الخمسين كبقية ملوك أوربا كان لا يقر أو لا يكتب وهو الذي تبادل السفارة مع هارون الرشيد العباسي، ورغم جهله قيل أنه أعظم من ملك في أوروبا ما بين قوة روما وأرسل سفيره الى ابراهيم بن الأغلب الذي استقبله في عاصمته الجديدة العباسية بتونس وهو الذي وقعت الحرب بينه وبين المسلمين في الاندلس

ولاة إفريقية والمغرب
أيام الفتح الإسلامي وفي عهد بني أمية

	سنة هـ		سنة م
1- عقبة بن نافع الفهري	50-49		670
2- أبو المهاجر دينار	55		674
3- عقبة بن نافع للمرة الثانية	62		681
4- زهير بن قيس البلوى	67		686
5- حسان بن النعمان الغساني			
6- أبو عبد الرحمن موسى بن نصير الأعرج بن عبد الرحمن الذي ولد سنة 19هـ وتوفي سنة 98هـ.	78		697
7- عبد الله بن موسى بن نصير "أثناء تعيينه بالأندلس93-95هـ			
8- محمد بن يزيد مولى قريش أدرك إفريقية سنة 97هـ	96		714
9- إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر دينار.	99		717
10- يزيد بن أبي مسلم دينار الثقفي مولى الحجاج بن يوسف الثقفي قتل سنة 102	101		719
11- محمد بن أوس الأنصاري	102		720
12- بشر بن صفوان الكلبي	102		720
13- عبيدة بن عبد الرحمن السلمي	110	ربيع الأول	728
14- عبيد الله بن الحبحاب الموصلي	116	ربيع الثاني	734
15- كلثوم بن عياض القشيري	123	رمضان	740
16-حنظلة بن صفوان الكلبي	124	ربيع الثاني	741

17- عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيد بن عقبة بن نافع الفهري	127	744
18- وفي عهد بني العباس أقره السفاح على ولايته سنة 132هـ ومثله أخوه إلياس		
19- وعبد الوارث		
20- عاصم بن جميل الورفجومي	140	757
21- عبد الملك بن أبي الجعد اليفرني		
22- أبو الخطاب عبد الأعلى بن أبي السمح المعافري الإباضي عن إفريقية وتونس	141	758
23- محمد بن الأشعث الخزاعي	143	760
24- موسى بن يوسف الخرساني "وعند ابن عذاري 73/1 عيسى بن موسى" ربيع الأول.	148	765
25- علي بن موسى الخرساني "ثائر" 148هـ		
26- الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة بن سوادة التميمي. الأغلبي جمادى الثاني	148	765
27- الحسن بن حرب الكندي	149	766
28- الأغلب للمرة الثانية. ثم بنو المهلب بإفريقية		
29- أبو جعفر عمرو بن حفص هزارمرد المهلبي قتل في 15 حجة 154	149 151	766 768
30- أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب	154	770
31-داود بن يزيد بن حاتم	170	786
32- أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب	171	787
33- نصر بن حبيب المهلبي	174	790
34- الفضل بن روح بن حاتم	177	793
35- هرثمة بن أعين	179	795

36- محمد بن مقاتل بن حكيم العكي	180	796
37- تمام بن تميم التميمي	183	799
38- محمد بن مقاتل بن حكيم العكي للمرة الثانية	184	800

راجع المصادر التالية: زامباور في الأسر الحاكمة ج1/99-100 وابن الأثير 383/3، وابن عذارى 18/1-35-36-62 وغيرها ونفح الطيب ج1/وابن خلكان 276/2، وابن خلدون ج6 وتاريخ غزوات العرب للأمير شكيب أرسلان ص: 47-48 ط1952، وصبح الأعشى، والأعلام لإبن الخطيب، وفتوح البلدان للبلاذرى ص314 وما بعدها ط1957. والعبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي ج 1/ط الكويت 196 تحقيق د صلاح الدين المنجد ومآثر الانافة في معالم الخلافة للقلقشندي الغماري المتوفى عام 821/ط الكويت 1964/ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ج1.

ولاة الأندلس بعد الفتح

	سنة هـ	سنة م
1- طارق بن زياد "بن عبد الله بن ألغو، بن أرفاجون، بن نبرغاس بن ألهاث ابن إيتومت بن نفزاو مولى بن نصير	93-92	164-610
2- موسى بن نصير "أبو عبد الرحمن"	95-93	713-711
3- عبد العزيز بن موسى	97-95	715-713
4- أيوب بن حبيب اللخمي – 97	100-97	718-715
5- الحرب بن عبد الرحمن	102-100	720-718
6- السمح بن مالك	103-103	121-121
7- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي		
8- عنبسة بن سحيم	107-103	125-121
9- عذرة بن عبد الله الفهري	107-107	125-127
10- يحيى بن سلمة الكلبي	110-107	128-125
11- حذيفة بن الأحوس	110-110	128-125
12- عثمان بن أبي نسعة الخثعمي شعبان	111-110	129-128
13- الهيثم بن عبيد الكناني المحرم	111-111	129-129
14- محمد بن عبد الله الأشجعي	112-111	730-729
15- عبد الرحمن الغافقي "للمرة الثانية"	114-111	732-730
16- عبد الملك بن قطن	116-114	734-732
17- عقبة بن حجاج السولي القيسي	123-116	740-734
18- عبد الملك بن قطن "للمرة الثانية" تطع بلج رأسه سنة 123	123-123	740-740
19- بلج بن بشر القشيري	124-123	741-740
20- ثعلبة بن سلمة العاملي كانت ولايته عشرة أشهر. إنتقل بعدها للمشرق وتوفي 130هـ	125-124	742-742
21- أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي صاحب عسكر العافية	127-125	744-742
22- ثعلبة بن سلامة العاملي سماه بعضهم ثوابة	129-127	746-744

الفصل الرابع والثلاثون

المذاهب والأحزاب التي ظهرت في تلك المرحلة بالمغرب الكبير

من الصعب على المؤرخ أن يتوصل عن طريق البحث مهما طال إلى معرفة كل المذاهب والنحل السياسية التي ظهرت في المغرب الكبير أثناء الفتح الإسلامي وبعد ما تم نهائيا على يد موسى بن نصير ومن بعده، وإن كانت المظاهر الكاشفة لأمثال البرغواطية تجرنا إلى المقارنة مع بعض مذاهب الفرس التي ظهرت في المشرق وكلها من أسبابها الأولى الظلم الأموي، وفكرة الشعوبية، إلا أن السير في هذا الإتجاه لا يستفيد منه الدارس لتاريخ المغرب مهما حاول وأطال، وبالعكس مذاهب الخوارج و"المتشيعين" والسنيين وغيرهما، فقد عرف لهم بالمغرب نشاط سياسي كبير، أدى الى تكوين دول تمتعت بنفوذ كبير لفترات طويلة بلغ بعضها قرونا، مثل دولة بني رستم بتيهرت، ودولة بني مدرار بسجلماسة، ثم دولة الأدارسة التي تعتبر بدء الدولة المغربية التي عرف المغرب في عهدها الدولة التي مكنت للدين وركزت لسلطانه ونفوذه بين المغاربة الذين لم يكونوا بعد قد تعرفوا بشكل مركز على ما جاء به الدين من قواعد حول الحكم، فضلا عن المذاهب، ومهما حاولنا إيجاد مجتمع مغربي إسلامي موحد قوامه المغاربة والبربر أو العرب فلن نستطيع قبل منتصف النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وأن يكون لهذا المجتمع وفيه من يخوض بالرأي في سياسة المجتمع الإسلامي وما حصل من خلافات أدت إلى ما عرفه العرب وغيرهم من المستجدين في الإسلام، على السواء في المشرق، فلن نجد لذلك أثرا في المغرب، ولم يظهر تفتح المغاربة وتعرفهم على مشاكل الدولة في الإسلام إلا في العهد المشار إليه، بل حتى ما عرف من ثورات البربر المشار إليها حين كلامنا عن تحول المغرب عن المشرق، لم تكن غير ثورات دافعها ظلم الولاة واستبدادهم

المشتق من سلوك ملوك بني أمية وبني العباس الذين حولوا الخلافة إلى ملك وراثي، ولو أن الدارسين لتاريخ الإسلام أعطوا لما تم بعد مؤتمر السقيفة(137) حقه من التحليل لما خرجوا بحكم أن الخلافة الإسلامية التي أساسها الانتخاب السليم قد وضع لها معاوية حدا بموقفه المعروف الذي رأينا كيف بدأ، وتم، حقا لقد وجدت البذرة الأولى للمذاهب السياسية التي عرفها المشرق والمغرب منذ ظهورها في العقدين الرابع والخامس من القرن الأول الهجري، لكن المغاربة كمجتمع لم يتعرفوا عليها الا في العقدين الثالث والرابع من القرن الثاني للهجرة.

وإذا ما هي المذاهب السياسية التي ظهرت في المغرب في هذه المرحلة، أما غيرها من المذاهب كالفقهية مثلا فإنها لم تكن قد عرفت، خلافا لما عند المقري(138) من أن أهل الأندلس عرفوا مذهب الاوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح، في حين أن الاوزاعي عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام ولد وتوفي 88–157هـ 707–774م(139). على أن الذي تمكن من المذاهب الإسلامية الأولى في المغرب إنما هو مذهب مالك بن أنس بن مالك الاصبحي الحميري 93–179هـ. 712–795م أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وذلك أولا لتمسكه بالحق وعدم رضوخه لبني العباس ضد آل البيت، ثانيا لأن جل الذين تمكنوا في المغرب وقت الفتح كانوا من المهاجرين الأنصار، ومن مختلف قبائل الحجاز التي كان لمالك في قلوب أبنائها مكانة خاصة وإن كان الذي أكد آستمراره والتمكين له يقول ابن خلدون، هو رغبة المغاربة وأهل الأندلس، ولعل المرجع في هذا هو ما أورده عياض رحمه الله في ترتيب المدارك حيث يقول: "وأما إفريقية وما وراءها من المغرب. فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل على بن زياد وابن أشرس، والبهلول بن

---

(137) سقيفة بني ساعدة "من الأنصار، وهم بطن من الخزرج بالمدينة وقد كانت بمثابة" دار الندوة في مكة، كانوا يجتمعون فيها للتشاور، وكانت الإمامة وهي أول ما اختلف حوله المسلمون بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه لم يترك حولها رأيا يتبع ولا طريقة يستمسك بها الصحابة، وإنما فقط أوضح القواعد العامة التي تجمل في الشورى والاتفاق، وذلك ما تم، وكان نتاجه أبو بكر وعمر الخ. راجع مقالات الإسلاميين لابي الحسن الأشعري 2/1 وتفسير الآية 38 من سورة الشورى في إبن كثير، والكشاف 407/3 وسيرة أبن هشام 332/4–333 وصحيح البخاري لإبن سعد 58/4. والملل والنحل 18–19.

(138) النفح 185/2.

(139) الاعلام ز 94/4.

راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذه كثير من الناس ولم يزل يفشو الى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفض حلف المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الاقطار(140). لقد عرف المغرب أولا فكرة الخوارج كما سنرى، وهذه لم تتمكن الا بعد زمن، كما عرف فكرة التشيع لآل البيت، وربما تكون قد ظهرت مع فكرة الخوارج، أما التي ظهرت قبل هذه وتلك كدولة بعد بني صالح بالنكور، فهي البرغواطية التي ظهرت بين قبائل مصمودة مثل البرانس وزواغة ومطماطة ومضغرة وغمارة(141) وكانت مواطنهم في بسائط تامسنا والريف وما بين سلا وأنفا وأزمور وأسفي(142) كما في العبر لابن خلدون والحميري في الروض المعطار وغيرهما.

ظهرت الفكرة البروغواطية على يد المتنبئ الذي آنتحل دعوى النبوة وشرع ديانة جديدة آنتشرت بين قبائل المصامدة المذكورة، والتي أصبحت أرض دولتها ما بين نهري أبي رقراق وأم الربيع ببلاد تامسنا وهو صالح بن طريف المصمودي الذي قيل أنه من ولد شمعون بن يعقوب، وهو قول فنده آبن خلدون، والذي قال عنه بعض المؤرخين أنه ظهرزمن هشام بن عبد الملك بتحديد السنة127هـ مع أن هشام توفي سنة125هـ، ورغم أن الزمن زمن مروان الثاني بن محمد 127–132هـ. 744–750م، وليس زمن هشام الذي ذهب إليه صاحب الاستقصا(143) فإن البرغواطية في نظرنا ظهرت بذرتها قبل هذا بعشرات السنين، وكانت من نتائجها الثورات السياسية التي ظهرت في بداية العقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، والذي دفع آبن خلدون وغيره الى القول بذلك هو ما ظهر من ثورات آنتهت بالقضاء على الأمويين شرقا وغربا، ذلك أن دولة بني أمية تفككت أوصالها، وتمزقت شرايينها، بسبب الثورات التي عمت البصرة والكوفة ودمشق، وخرسان، ومصر ابتداء من عهد مروان الذي قتل بقرية بوصير من الجيزة بأرض مصر، في 27 جمادى الثاني في 132هـ 750م. بيد أن المتتبع للتاريخ السياسي في المغرب يلاحظ أن ظهور

(140) راجع ترتيب المدارك 1/25–26/ط الرباط، ثم راجع المقدمة (باب 6) فصل 7.

(141) راجع د الاسلامية 3/550–51–42–53.

(142) د: البستاني 5/335 وردت فيها بعض الأسماء محرفة، وإن كان قد أخذ عن العبر حرفيا، فإن التحريف وقع من الناسخ بلا شك. راجع العبر 4/405 و 6/243م والفرق بين الفرق للبغدادي.

(143) 1/114 والذي أوقعه في الخطأ هو ابن خلدون رحم الله الجميع راجع بعد تعليق 326–327.

البرغواطية كحركة سياسية كان في السنة التي قامت فيها الثورة ضد عمر بن عبد الله المرادي زمن عبد الله بن الحبحاب الموصلي والي إفريقية، 116هـ 734م، والتي آستمرت إلى عهد حنظلة بن صفوان 124هـ 741م، وكان يتزعم الثوار وقتها خالد بن حميد الزناتي الذي بويع "بالخلافة" مكان ميسرة اليطفتي المضغري، والملقب بالحقير(144) وذلك في الموقعة التي وقعت على ضفة وادي سبو، وكان العامل بمدينة طنجة هو عمر بن عبد الله المرادي الذي قتله ميسرة وقومه، ثم نصبوا مكانه عبد الأعلى بن جريج الإفريقي الرومي الأصل. وإذا ما قوى سلطان ميسرة وامتد إلى أرض سوس التي كان عليها إسماعيل بن عبد الله بن الحبحاب، فإنه هو الآخر لقي حتفه على أيدي رجال ميسرة الذي أصبح يعرف بين رجاله باسم"أمير المومنين" الأمر الذي دفع إبن الحبحاب الى تكوين جيش بقيادة خالد بن حبيب، ثم وجهه لقتال ميسرة الذي فر عن المواجهة، فكان ذلك سبب قتله من قومه الذين قدموا لقيادتهم حميد الزناتي بعدما آستكثروا من جموعهم ثم توجهوا لقتال القوم، وفي تلك المعركة قتل أشراف العرب وكبارهم، إذ قتل فيها خالد بن حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع، وإذا ما آشتد ساعد حميد وقويت جموعه، فإن آبن الحبحاب الذي تعرض للهزيمة عزل وحل مكانه كلثوم بن عياض القشيري الذي ولاه هشام بن عبد الملك بعدما زوده بقوات تعدادها آثني عشر ألفا، ثم كتب إلى ولاة كل من مصر، وبرقة، وطرابلس أن ينضم كل منهم إلى كلثوم بما أعده من الجند، وما كاد يحل بإفريقية في شهر رمضان من عام 123هـ 741م حتي كان تعداد المقاتلين معه ثلاثين ألف ثلثهم من بني أمية والثلثان من بقية العرب، لكن جيوش البربر التي تكاثرت واشتدت سواعدهم بالانتصار الذي أحرزوه وما كادوا يلتحمون في القتال مع العرب حتى كانت الهزيمة على هؤلاء الذين قتل منهم كلثوم بن عياض نفسه، وحبيب بن أبي عبيدة وسليمان بن أبي المهاجر، وكبار قواد العرب، وأما من نجى من أهل مصر وبرقة وطرابلس، فقد رجعوا الى إفريقية، وأن أهل الشام وكان عددهم نحو الثلث من الجيش بقيادة بلج بن بشير القشيري، فقد التجأوا الى شعب سبتة التي حوصروا فيها حصارا

---

(144) إبن عذارى 52/1، والفقير عند آبن عبد الحكم 128، والحقير عند صاحب الاستقصا 114/1، والحقير عند البكري 136 وابن القوطية ص 14 هو ميسرة الذي قيل أنه كان يبيع الماء بسوق القيروان.

ألجأهم إلى أكل ما معهم من دواب، كما سبق، وأخيرا وبعد أخذ ورد وتعدد مراسلات بينهم وبين عبد الملك بن قطن الى الأندلس، حتى يسمح لهم باللجوء الى الأندلس، لكن تخوفه دفع به الى المماطلة التي حزت في نفوس أهل الشام، والذين وإن وافقهم بعد، رغم تحفظ مستشاره عبد الرحمن بن حبيب، فإنه لم يفعل إلا بسبب ما قام به زياد بن عمرو اللخمي من مبادرة النجدة التي كلفته سبع مائة سوط وسمل عينيه ثم قطع رأسه وصلبه، وبجانبه كلب، الأمر الذي دفع قوات المغاربة والبربر بالأندلس الى التحرك عندما ظهر لها تمزق صفوف العرب الذين وإن آتحدوا خلف آبن قطن وبلج لرد الخطر، فإنهم سرعان ما عادوا الى التمزق الذي قوى صفوف البرغواطية ضد عرب الأندلس، خصوصا بعدما قتل آبن قطن بنفس الطريقة التي قتل بها زياد بن عمرو ثم صلب، كذلك بأمر من بلج وبجانبه خنزير، ليحل محله بلج بن بشر الذي ستدور عليه الدائرة بعد أقل من سنة بإشارة من آبني عبد الملك أمية وقطن الخ.

عرفنا التاريخ على موقعة الأشراف، وفي هذه الموقعة كان طريف الذي قيل إنه زعيم الفكرة بلا دليل قاطع من قواد ميسرة، كما يقول إبن خلدون(145) الذي يعود فيقول عن صالح بن طريف إنه كان من أهل العلم والخير، ورغم ذلك فهو عنده انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة، وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده، وإذا هو –ابن خلدون– أوقع كل من جاء بعده من المؤرخين في نفس الخطأ حين نسبه لزمن وجود هشام بن عبد الملك سنة 127هـ، فإنه عاد وقال ما يستنتج منه أنه يؤرخ لفكرة لم يكن متثبتا من تحديد زمانها. "وقد قيل إن ظهوره كان لأول الهجرة، وأنه إنما آنتحل ذلك عنادا أو محاكاة لما بلغه شأن النبي صلى الله عليه وسلم(146). والأول أصح وإن كانت

---

(145) 428/6 وقد بدأت هذه الثورات منذ 102هـ حيث قتل يزيد بن أبي مسلم دينار الثقفي مولى الحجاج بن يوسف عدو بني نصير وأضرابه.

(146) العبر 429/6 وفي نفس المصدر يقع إبن خلدون في خلط حين ينسب صالح لطريف ثم ينسب إلياس لصالح وأن الياس كان في عهد دولة الأمويين بالأندلس وأن ملكه آستمر خمسين سنة بعد خمس وأربعين التي قضاها صالح في الملك فتكون المدة خمسا وتسعين، تولى بعده إلياس فحكم مدة 50 سنة ثم يونس الذي نشر دين البرغواطية قهرا بعدما أحرق ودمر 380 مدينة وقتل7770 نفسا؟ وأنه قضى 44 سنة في الملك وحج ثم تولى مكانه أبو غفير محمد، بن معاد، بن اليسع، بن صالح، بن طريف، يقول إبن خلدون والذي قضى في الملك 29 سنة، واتخذ من =

الفكرة الأخيرة عرفت كنشاط لليهود ضد الإسلام، لكن مؤسس البرغواطية لم يكن كذلك، وإنما كان بربريا من المصامدة.

إستطاع صالح أن يثبت في قومه أفكارا بإسم الإسلام وهي تحمل في جوهرها هدم الإسلام وكأنه بذلك يريد إبعاد المغاربة والبربر عن العرب بصفتهم دعاة هذا الدين وعن الميدان حتى يتحرروا كلية من كل ما يربطهم بالعرب الذين تسلطوا عليهم بآسم الدين، وقد وجد فيهم وحسبما عرفوا من ظلم الولاة آستعدادا لقبول دينه الجديد، وإذا هو شرع لهم شريعته الجديدة فإنه كذلك وضع لنفسه ما يجعله مقبولا بينهم، حيث أصبح القوم يعتقدون أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان، وأن عيسى يكون صاحبه ويصلي خلفه وأن آسمه في العرب صالح، وفي السريان مالك، وفي الاعجم عالم، وفي العبراني روبيا، وفي البربر وربا، ومعناه الذي ليس بعده نبي، وقد نسب آبن خلدون الغلط الى صاحب كتاب "نظم الجوهر" الذي قال عن صالح أنه يهودي من ولد شمعون بن يعقوب، الذي قيل إنه قرأ على عبد الله المعتزلي واشتغل بالسحر، وقدم تامسنا ثم حصل منه ما حصل، كما نسبه صاحب الكتاب الى زناتة، والواقع أنه وقومه من المصامدة وليس من غيرهم(147) كما أبعد نسبته الى برباط وهو واد بفحص شريش من بلاد الأندلس فعربت العرب الإسم وقالوا برغواط.

ومهما يكن فإن برغواطة الذين دام ملكهم نحو الثلاثمائة وثلاثين سنة تعرف آبن خلدون على ثمانية من ملوكهم بواسطة ما أورد البكري عن رواية "زمور"، كان لهم في تاريخ المغرب السياسي مجال سجله التاريخ، كما سجل حروبهم التي خاضوها ضد

=الزوجات44، ثم آبو الأنصار عبد الله الذي حكم 72 سنة والمتوفى سنة 341 ثم أبو منصور عيسى الذي سار على نهج سلفه فادعى النبوة والكهانة فاشتد سلطانه وعلا أمره بين البربر، وكان له من الجيش 3000 من برغواطة و10000 من سواهم، وأبو منصور عيسى هذا الذي دان له ملوك البربر وأهمها الى أن قتل على يد بلكين بن زيرى صاحب العبيديين الفاطميين، كما عرفت برغواطة حروبا متعددة مع الأمويين وقائدهم المنصور بن أبي عامر، ثم مع بني يفرن لما آستقل أبو علي بن محمد بن تميم اليفرني بناحية سلا سنة 420هـ 1029م وأخذ منهم تامسنا، كما حاربهم المرابطون وفي قتالهم استشهد عبد الله بن ياسين سنة 450هـ، وبذلك آنقرضوا، وكان سابعهم وهو آخرهم أبو حفص عبد الله من أعقاب أبي منصور عيسى، وبالتالي فقد عمل المرابطون على استئصالهم بسبب قتلهم للمؤسس عبد الله بن ياسين. أما بقايا برغواطة منهم أهل الشاوية. راجع د الإسلامية ج 13/146-147.

(147) العبر 435/6.

الأدارسة بالمغرب والأمويين بالأندلس، وكان لهم من الجند النظامي ما خاضوا به تلك الحروب التي آستمرت إلى عهد المرابطين الذين آستشهد مؤسس دولتهم فيها، وهو عبد الله بن ياسين سنة 450هـ 1058م أما ما عرفت به البرغواطية ودين "نبيها" المزعوم، والذي قال عنه أنه بالنسبة للإسلام، كما كان الإسلام بالنسبة لليهودية والنصرانية، فقد إدعى فيه صالح وضع "قرآنه" الذي نسجه على منوال القرآن الكريم، وضع ثمانين سورة أسماها: سورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة آدم، وسورة هاروت وماروت، وإبليس، وسورة الديك وسورة غرائب الدنيا، الخ وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وقص، وكانوا يقرؤونه في صلواتهم... وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسي(148).

كما وضع دستورا للشريعة باللغة البربرية، نقله الى العربية مسلم من شالة آسمه أبو موسى عيسى بن داود، وشرع لأتباعه فيه ما تشم فيه رائحته "الميمونية" إحدى فرق الخوارج التي سنعرض لها بعد في الفصل الآتي ومن شرائعه:

1- صوم رجب، وصيام يوم معين من كل جمعة.

2- وفرض لهم خمس صلوات في اليوم، وخمس صلوات في الليلة.

3- وجعل التضحية في اليوم الحادي عشر من المحرم بدل اليوم العاشر من ذي الحجة.

4- وجعل له في الوضوء غسل الصرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة، وغسل الوجه، ومسح العنق، والقفا وغسل الذراعين من المنكبين، ومسح الرأس ثلاث مرات، ومسح الأذنين كذلك، ثم غسل الرجلين من الركبتين.

5- وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وهم يسجدون ثلاث سجدات متصلة، ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر، ويحرمون وضع إحدى اليدين على الأخرى. وربما من هنا جاء السدل الذي هو سائد في

---

(148) نفس المصدر السابق 429-434، وعنه نقل البستاني 335/5، ولقد آنتهت الدولة البرغواطية الى اعتراف من الأمويين بالأندلس زمن الحكم المستنصر 350-366 الذي ورد عليه بقرطبة أبو صالح هشام بن وادر يزن كسفير لأبي منصور عيسى أبو الأنصار سابع ملوك برغواطة، سنة 342هـ963م.

المغرب والذي ينسب للإمام ما لك ظلما، بل والذي لا نجد له في السنة سند ولو ضعيف. أما صلاتهم فيقولون فيها "إبسمن ياكش" ومعناه: بسم الله ثم "يامقر ياكش" ومعناها: "الكبير الله" ويظهر أن كلمة "ياكش" معناها "الله" وهي أيضا ترجمة للكملة العربية "وهاب" وهي صفة من صفات الله يقول باسيه(149) الذي نص على أن لطقوسهم هذه آرتباط أو صلة بمذهب الخوارج، على أننا لا نعرف للخوارج من هذا ما يبعث علي القول بما قاله كاتب المادة في دائرة المعارف الاسلامية "552/3"، اللاهم إلا ما كان مما أشار إليه آبن خلدون من أن طريف بن صالح كان من قواد ميسرة المضغري القائم بدعوة الصفرية في السنوات الأولى من القرن الثاني للهجرة(150) مما يدخل في مجال العمل السياسي، أما من الوجهة الدينية فإن التاريخ لم يسجل للخوارج خصوصا في الفرائض ما يبعث على الربط بينهم وبين ما خلفه صالح للبرغواطية، فقد كان البرغواطيون يضعون أيديهم مبسوطة في الأرض طول ما يشهدون، ويقرؤن نصف قرآنهم في وقوف، ونصفه في ركوعهم، ويصلون صلاة الجمعة يوم الخميس بدلا من يوم الجمعة، ويقولون في تسليمهم بالبربرية، الله فوقنا لم يغب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم يقولون مقرياكش "خمسا وعشرين مرة" وإيجن ياكش" مثل ذلك ومعناه "الواحد الله" ووردام ياكش" مثل "لا أحد مثل الله":

وهم يأخذون العشر في الزكاة من جميع الحبوب، ولا يأخذون من المسلمين شيئا ولا ينكحن للمسلمين ولا ينكحون فيهم، ويتزوجون من النساء ما آستطاعوا مباعلتهن والإنفاق عليهن بلا حد عدد، ولا يتزوج الواحد منهم من بنات عمه إلى ثلاث جدود، ويُقتل السارق، ويُرجم الزاني، ويُنفى الكاذب، أما القاتل فيأخذون منه دية قدرها مائة من البقر، وبعض محرماتهم يظهر أنها من آثار عاداتهم القديمة، مثل تحريم أكل رأس كل حيوان، والبيض عندهم حرام، وما زال هذا باقيا عند بعض القبائل في الجزائر وفي الصحراء، وحرموا ذبح "الديوك" لأنها تؤذن، وهم يعتقدون أن ريق نبيهم يشفي المرض(151)،

---

(149) دائرة المعارف الإسلامية 552/3 ثم راجع الترجمان المعرب للزياني م.خ.ع 650 د ص 275-276، ولقد ذكر ابن خلدون أن حمو بن مليل البرغواطي استولى على مدينة صفاقس وملكها سنة 451.؟

(150) راجع العبر 428/6.

(151) ولاتزال هذه العادة بين المشعوذين حتى اليوم في المغرب راجع المسالك ص: 134. 132-131، ود. الإسلامية 3/:550-552 ، وأعمال الاعلام لابن الخطيب جـ180/3 والعبر لابن خلدون 428/6-429-435-445 وفتح العرب للمغرب لحسين مؤنس ص:291ط 1947.

ولقد دامت هذه الدولة كما سبق أن أشرنا أكثر من ثلاثة قرون، واتخذت عاصمة لها مدينة شالة(152) كما دامت نفس المدة تلك الديانة التي انتشرت بين القبائل التي كانت خاضعة لدولة البرغواطيين والتي مكنوا لها بالحروب الطاحنة التي خاضوها ضد كل القوى التي وجدت في المغرب، إلى عهد المرابطين كما سبق، بل بقيت آثارهم عقائديا إلى عهد الموحدين حيث شن عليهم عبد المومن الحرب سنة 543هـ 1148م.

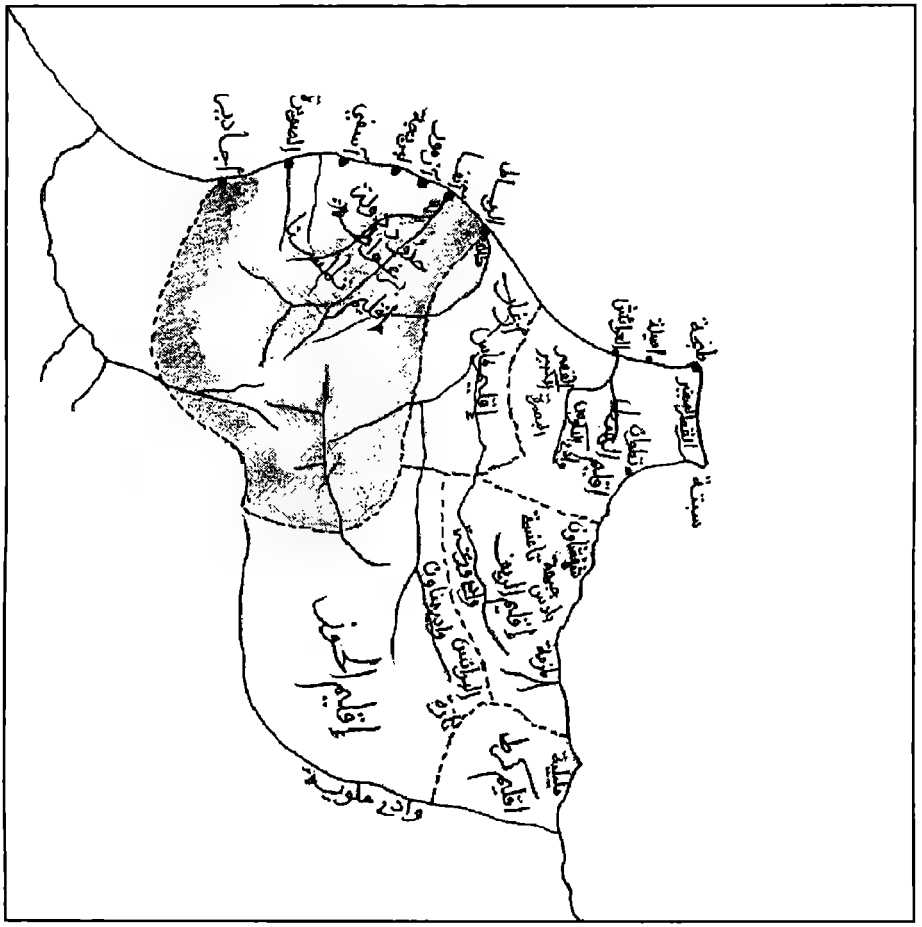

(152) شالة مدينة فينيقية تقع في الجنوب الشرقي لمدينة الرباط راجع د. المعرف الإسلامية 13/77-78 وحفائر شالة د. عثمان ط1: 1978م.

ملوك برغواطة من المصامدة

طريف أبو صالح

|

صالح

|

إلياس

|

يونس

|

أبو غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف

|

أبو الأنصار عبد الله (ث 441)

|

أبو منصور عيسى، قتله بلكين بن زيرى 372هـ، ورغم أن دولتهم آمتدت الى عهد المرابطين 450، فإن إبن خلدون لم يتعرف على الذين تولوا بعد أبي منصور عيسى، وبذلك لم يعد منهم سوى ثمانية مع أن غيره ذكر أن ابن خلدون ذكر إسم سقوت، ثم ولده ضياء الدولة الذي قتله يوسف بن تاشفين بسبتة.

الفصل الخامس والثلاثون

ظهور الخوارج وثورة الإباضية بالمغرب الأدنى

إذا كان تاريخ البرغواطية منذ عهد طريف 123هـ إلى عهد أبي منصور عيسى الذي قتله بلكين ثم بعث بسبيهم إلى القيروان سنة 372هـ فإن ما بعد هذا إلى زمن أبي حفص عبد الله، من أعقاب أبي منصور وسقوت ثم ولده ضياء الدولة الذي قتله إبن تاشفين بسبتة، وبقي ولاتهم مجهولون(153) لا يعرف التاريخ من أسمائهم أحد لمدة تزيد على المائة وخمسين سنة، وما عرف به برغواطة من كفر وضلال، عرفته أو ما يقرب منه إن لم يفقه ورفجومة أحد بطون نفزة بإفريقية، وهم الذين عرفوا بالصفرية زمن تطاحن الفهريين من بني عبد الرحمن بن حبيب بالقيروان، والذين ظهر فيهم عاصم بن جميل الذي آدعى النبوة، وبدل الدين، وزاد في الصلاة وأسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من الآذان يقول ابن الأثير وصاحب العبر، والذي فعل قائده عبد الملك الجعدي ما لم يصدر من غيره هتكا للحرمات، إلى أن قيض الله لهلاكه وقومه ورفجومة النفزية التي دخلت الى الجامع بالقيروان ثم ربطت فيه الدواب، بل من أفرادها من فعل الفاحشة فيه مما دفع بأبي الخطاب إلى أن يبكي وينادي في الإباضية مسجدك اللاهم "ثم آستنفر القوم للجهاد وقتال المرتدين، فاجتمع له ستة آلاف دخل بهم مدينة قابس ثم توجه لحرب المرتدين بالقيروان في شهر صفر سنة 141هـ 758م، فكانت النتيجة أن آنتصر، وقتل عبد الملك بن أبي الجعد اليفرني المرتد ثم خلص المدينة وجامعها، وهكذا نتبين أن مذهب الإباضيين

(153) راجع تعليق سابق، وأبو حفص هو عبد الله بن منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاد بن إليسع بن صالح بن طريف ثم راجع العبر 429/6 وما بعدها، وابن الأثير 280/4، والعبر 409/4. ونلاحظ أن نزول الخوارج بالمغرب كان أولا بجبل نفوسة، ثم فزان وغربا بليبيا، وجزيرة جربة بتونس وتيهرت ومزاب بالجزائر، راجع تعاليق آخرى من هذا الكتاب. والعقود الفضية في أصول الإباضية 183-237 الى 253 ثم رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبى يا جزائري لمحمد طفيش/ ط بدون تاريخ.

المعتدلين لم يكن في المغرب من أول ظهوره يهدف لشيء غير الدفاع عن الإسلام والمحافظة على شريعته، وأنه لم يكن كما يصفه بعضهم مما لا يسمح المجال بالخوض فيه.

كان من أوائل الإباضيين الذين عرفهم تاريخ المغرب وان لم يصله رجل من أكبر علمائهم هو جابر بن يزيد الأزدي النعماني الذي عرفه التاريخ بأوصاف جد عالية، ليس منها طبعا ما اختلقه بعضهم ثم نسبه لمالك الإمام(ض)، وأنه قال يوم وفاة جابر "مات اليوم أعلم من في الإسلام"(154) وفي هذا أن مالك ولد في نفس السنة التي توفي فيها جابر(155).

وبعيدا عن الاختلاق، فإن جابر بن يزيد كان عظيما يكفيه فقط أن يتزعم الدعوة إلى الشورى والطعن على نظام بني أمية الذين حولوها في الإسلام إلى ملك ظالم مستبد، وأن جابر من أجل ذلك تعرض للنفي ولم يخرج عنه ليعود إلى البصرة إلا في السنة التي توفي فيها، وكان الذي أبعده منها هو الرجل الذي نص التاريخ أنه قتل نحو المائة ألف وأكثر وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، ومع ذلك نجاه الله منه، جابر هذا هو الذي تخرج على يده مجموعة من الإباضيين منهم: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وضمام بن السائب، وعبد الله بن حيان بن الأعرج، رأس أهل زويلة، وأبو حمزة الأشعث، وأبو نوح صالح الدهان، وعمر بن دينار، وغيرهم، وكان الذي وفد على المغرب أول القرن الثاني للهجرة، هو مسلمة بن سعد الذي آتخذ مدينة سرت من أرض طرابلس مركزا له، ومنها آستطاع غزو أفكار البربر والمغاربة الذين وجدوا في أفكار الخوارج وسيلة للتعبير عما في نفوسهم ضد الأمويين وولاتهم ، بل وضد كل حاكم ظالم مستبد، ولقد آتصف سلمة بن سعد بسلامة الطوية، وصدق النصيحة، وحسن القصد، مما أدى إلى حسن النتائج عندما آلتف حوله الكثير من الطلاب أرسل السدراتي كانوا ذوى استعداد طيب منهم إلى مدينة البصرة بالعراق للتخصص في المذهب على يد أبي عبيدة، حيث كان من الذين وجهوا هم: عبد الرحمن بن رستم، وعاصم السدارتي وأبو داوود القبلي النفزاوي، اليمني، وتقول الرواية أن أبا عبيدة هو الذي آختاره بربر هوارة لرئاسة الدولة

---

(154) مختصر تاريخ الإباضية ط تونس 1938 ص39.

(155) راجع الوفيات 1/439.

وإسماعيل بن ضرار لغدامسي، وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري التي آعتزموا تأسيسها، مما يستدل به على أنهم لم ينفروا من الدين بل من تصرفات المتلاعبين بإسم الدين من حكام الأمويين والعباسيين، لكن الذي بويع بعد هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وذلك أول سنة 140هـ 757م وهو التاريخ الذي أسس فيه سمغون دولة بني مدرار بسجلماسة، ثم نصب عليها عيسى بن مزياد، لكن أبا الخطاب تعرض لحملة عاتية من محمد بن الأشعث الخزاعي الذي قاد ما قيل عنه مائتي ألف حارب بهم أبا الخطاب. في صفر 144هـ/761م قضى عليه فيها ومعه نحو الإثني عشر ألف من الإباضيين بين زناتة وبربر هوارة بعدما آنفصلت عنه زناتة متهمة إياه بالميل لهوارة، الأمر الذي دفع بعبد الرحمن بن رستم نائبه بطرابلس أن يفر فيمن تبقى ومعه ولده عبد الوهاب حيث يقص صاحب الازهار الرياضية(156) كيف قطع القوم المسافة إلى قبيلة الماية التي رغم بعدها وتوغلها بين الأدغال والمحصنة بعلو الجبال، لم تسلم من مطاردة ومحاصرة آبن الأشعث الذي لم يغادرها وجنوده إلا بعد ما حل بهم الوباء وهددهم الطاعون، كما شغلهم عن آبن رستم "أبو هريرة" الزناتي الذي تقدم لمقاتلة إبن الأشعث في ستة عشر ألفا من أصحابه الذين خاضوا المعركة في ربيع الأول من نفس السنة، 144هـ/ 757م، والذين تفرقوا بشكل أذهل بن الأشعث وشوش عليه، وكان مما خفف على آبن رستم وقد توجه إلى مكان تاهرت، أن آبن الأشعث لما رجع إلى القيروان وقبل أن يدخلها في جمادى الأول كان أهلها يقول آبن عذاري(157)قد أخذوا عامله عليها فأوثقوه في الحديد، وولوا على أنفسهم عمرو بن عثمان القرشي إلى أن وفد عليهم آبن الأشعث الذي دامت ولايته للقيروان دون أن يتعداها مدة ثلاثة أعوام وعشرة أشهر، حيث غادرها في شهر ربيع الآخر سنة 148هـ 765م بعد ثورة قام بها الجند ضده، ثم ولوا مكانه عيسى بن موسى الخراساني الذي لم تتجاوز مدته أكثر من ثلاثة أشهر، وإذا ما آنشغلت القيادة العربية بخروجها على المنصور، والفتنة فيما بينها، فقد ظهرت كذلك قوة هي قوة أبي قرة الصفري وتعدادها أربعون ألفا آزرت قوات بن رستم التي تطورت إلى خمسة

(156) الازهار الرياضية، ص3 ومختصر تاريخ الإباضية ص36.

(157) ابن عذاري 72.

عشر ألفا، كما ظهر أبو حاتم، وعاصم السدراتي، والمصور الزناتي، وعبد الملك بن سكر دين الصنهاجي الصفري، وكل واحد من هؤلاء يقول آبن عذاري(158) كان يتوفر على قوات ساهمت في القتال ضد الولاية التي أسندت لعمرو بن حفص بعد الحروب التي أدت إلى قتل الأغلب بن سالم التميمي، وتولية عمرو بن حفص بن قبيصة ولاية إفريقية الذي يعبتر أول بني المهلب، والذي قتل في حرب مع أبي حاتم يعقوب بن لبيب الإباضي يوم 15 ذي الحجة 154هـ770م وذلك في حرب خاضها أبو حاتم بجيش بلغ تعداده كما عند آبن عذاري نقلا عن الطبرى ثلاثمائة ألف وخمسون ألف، فيهم من الفرسان خمسة وثلاثون ألف؟ ومعهم أبو قرة اليفرني أمير تلمسان في أربعين ألف، والذي كان يسلم عليه بالخلافة، وإذا كان عمرو بن حفص قد قتل وبذلك آستراح آبن رستم من عدو عنيد، فإن الذي خلفه وهو يزيد بن حاتم بن قبيصة المكنى بأبي خالد، كان يختلف عن سلفه كفاءة وسلوكا، وكان كريما عرفت البلاد في عهده هدنة لم تكن في صالح العباسيين بقدر ما كانت في صالح البربر، رغم أن يزيد آستطاع أن ينظم جند الشام والعراق وخراسان تنظيما مكنه من مهاجمة أبي حاتم يعقوب بن لبيب في طرابلس، والقضاء عليه وعلى الكثير من جيوشه، ثم آستعمل على طرابلس سعيد بن شداد، أول جمادى الثاني 155هـ 772م كما آستطاع يزيد أن يقضي على محاولة أبي يحيى بن قرياس الهواري بناحية طرابلس الذي ثار بعد، وكان العامل عليها عبد الله بن السمط الكندي قائد الجند ليزيد، وبالتالي فإن مدة يزيد طالت الى سنة 171هـ 787م، وفي عهده سيظهر إدريس بن عبد الله العلوي بالمغرب كما يقول ابن عذارى وفي هذه الفترة أيضا كان آبن رستم قد تمكن وأصبحت له دولة وعاصمتها تيهرت كما بويع سنة 160هـ 776م، وأصبحت دولته تعرف بدولة بني رستم، التي آستمرت إلى أن قضى عليها وعلى غيرها العبيديون، لكن نعود لنقول من هم الخوارج؟ وما فرقهم؟ ناهيك وأنهم وثوراتهم المتكررة، هي التي حررت المغاربة من ظلم وفساد الأمويين والعباسيين وولاتهم، وأنهم السبب في تحول الفكر المغربي من الثورة ضد الظلم فقط، الى الثورة من أجل سلامة الحكم وشرعية الحاكم.

(158) مصدر سابق ج 339 نفس المصدر/82.

وبذلك تمكن وعيهم السياسي في المجتمع دون عقائدهم. فالخوارج كما بينا، هم الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب بعد التحكيم، وإذا علمنا أن لهم رأيا آعتمدوا فيه على أصول دينية وبراهين عقلية حاوروا بها عبد الله بن عباس الذي كان من جانب علي، كما أورد صاحب الكامل، المبرد 20/2 ط1324 وقد جاء في هذا الحوار ما يلي:

قال آبن عباس: ما الذي نقمتم على أمير المومنين. قال: كان للمومنين أميرا، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له، قال آبن عباس: لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك بأن يقر على نفسه بالكفر، قالوا إنه قد حكم قال: إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد، قال عز وجل "يحكم به ذووا عدل منكم" فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين، فقالوا إنه قد حكم عليه فلم يرض. فقال: إن الحكومة كالإمامة، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما. فقال بعضهم لبعض لا تجعلوا إحتجاج قريش عليكم. فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم: "بل هم خصمون" وقال عز وجل "وتنذر به قوما لدا" إلى غير ذلك من المناظرات التي كانت لبعضهم مع علي نفسه، فانتهت بالحرورية منهم إلى أن رجعوا لصفه.

مثل تلك المناظرات عرفها رعيلهم الأول بالمغرب في شكل دروس ومحاضرات آستهوت الذين بلغ منهم التذمر نهايته ضد بني أمية وبني العباس معا، وبعض الأوروبيين الذين تناولوا تاريخ المغرب والمغاربة وثوراتهم في هذه المرحلة، حاولوا إقحام تأثرها بفكرة الدوناتية التي تعرضنا لها في تاريخ ما قبل الإسلام بالمغرب الأدنى، وذلك بشكل فيه تكلف بعيد عن القبول، ما دام رواد الثورات قبل لم يكونوا بعد عرفوا أو خاضوا في ما سنعرض له من مذاهب الخوارج والشيعة، ولو كأحزاب ساسية، فضلا عما تحولت له كفرق دينية منها من تقول بالرأي بدل الإجماع والقياس، والواقع أن ما عرف للفرق التي ظهرت في المشرق من آراء دينية لم يكن لها أثر في الغرب، بقدر ما كان لآرائهم السياسية، راجع الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لإبن قيم الجوزية ص:87ط القاهرة 1956 بتحقيق محمود عرنوس .

الفصل السادس والثلاثون

مذاهب الخوارج والشيعة وأثرها في المغرب

بعد الفتنة الكبرى(159) التي نشأت بسبب الخلاف على الإمامة التي سبق لنا بعض التفصيل فيها نشأت فرق هي:

1- الشيعة وهم الذين تعلقوا بعلي ابن أبي طالب وأهل بيته ويرون أنهم أحق بالإمامة دون غيرهم، وإذا علمنا أن عليا امتنع من بيعة أبي بكر التي تمت بسقيفة بني ساعدة بين المهاجرين والأنصار، في الوقت الذي كان فيه علي يجهز الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته، وقد بقي علي دون أن يبايع أبا بكر لمدة ستة أشهر، وجابر بن عبد الله، وأبي بن كعب، وخزيمة بن ثابت، وبنو هاشم كافة، وإذا نحن علمنا هذه الحقيقة أدركنا أن فكرة الشيعة ظهرت بالمشرق من أول يوم انتقل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى رحمة الله،وأنها لم تصبح حزبا سياسيا إلا بعد أن قاتل علي طلحة والزبير، ثم انتهى القتال في وقعة الجمل بإنهزامهما وقتلهما، ثم قتال معاوية في صفين الذي أشرف فيه معاوية على الهزيمة فأشار عليه عمرو بن العاص، وعلى من معه برفع المصاحف على الرماح، والنداء بالإحتكام إلى القرآن، وأدرك علي أنها مكيدة للخروج من الهزيمة وكسب الوقت، فنصح قومه بالإستمرار في القتال وتحقيق النصر الذي هم مشرفون عليه.

---

(159) كان الذين أشعلوا نار هذه الفتنة هم الأمويون وعلى رأسهم معاوية وصاحبه عمرو بن العاص، وهم الذين عرفنا مواقفهم قبل الإسلام وبعده، ومن الأسباب التي جعلتهم ينقمون على علي بن أبي طالب هو ما كان له من قيم تقطع الطريق على سلوك بني أمية، وما كانوا عليه من أجل الوصول الى الثروة والجاه،ناهيك وأن عليا بفضل نشأته وسلوكه كان أول من نال الحظوة عند رسول الله "ص" لأنه أول من آمن به من الشباب، بالإضافة إلى أنه ابن عمه. ثم إنه الرجل الذي لم تكن أسرة من الأسر الكبيرة من قبائل العرب، إلا وكان فيها فردا وأفراد ضربوا ضربات قاتلة بسيف علي بن أبي طالب خصوصا في موقعة بدر، هذا بالإضافة الى قتله ثلاثة من أقارب معاوية بن ابي سفيان كما أن عليا عليه السلام كان أول من قاوم روح الاستعلاء التي تمكنت من العرب عملا بالحديث الشريف: لا فضل لعربي على أعجمي الخ.

وهنا حصل ما لم يكن في الحسبان "اختلف قوم علي ما بين قائل بالتحكيم، وساخط عليه، وكان الأولون أكثر، وقد عرفوا في هذه المرحلة بالحرورية تارة، وبالمحكمة أخرى، وكان من زعمائهم الأوائل، عبد الرحمن الراسبي، وحرقوص، وابن زهير، والأشرس. فقبل علي على مضض وآنتهى إلى تحقيق المكيدة المدبرة، وهنا ظهر حزب الخوارج بعد الشيعة، ثم حزب المرجئة كحزب ثالث، وهؤلاء هم الذين فضلوا العزلة وأرجأوا الحكم على المتنازعين الى الله تعالى في الدار الآخرة، وهؤلاء مرجئة الخوارج غير فرقة مرجئة عهد العباسيين الذين من رجالهم سعيد بن جبير ومقاتل آبن سليمان.

وقد تطورت هذه الأحزاب من البحث في أقوم الطرق التي توصل إلى آختيار الخليفة، وإلى البحث في أمور تتعلق بأصل الإيمان والإعتقاد بنوا عليها آراءهم السياسية، وبذلك تحولوا من أحزاب سياسية إلى فرق دينية وأصبحوا مصدر فتن خطيرة مزجوا العقيدة الدينية بالسياسية، وجوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، بل جوزوا أن لا يكون في العالم إمام أصلا، وإن أحتيج إليه جاز أن يكون عبدا أو حرا نبطيا أو قرشيا، وتخطى قوم ينتمون إلي المعتزلة هذا الحد، وقالوا إذا آجتمع قريشي ونبطي وجب تقديم النبطي لأنه أقل عددا وأضعف وسيلة، ويمكن خلعه إذا خالف الشريعة، والنبطي نسبة الى النبط، وهم جيل من العجم المستعربين، كان العرب يحتقرونهم، هذا في الجانب السياسي، أما مذهب الخوارج بصفة عامة فهو نموذج من الصرامة، والتصلب، والتضييق على العباد الى حد التيئيس، فالخروج والإرجاء على طرفي نقيض الخ، ذلك هو الأساس الذي آنطلق منه الخوارج الذين ذهب بعضهم الى أنهم عرفوا بذلك لخروجهم من الكوفة ثم أطلقوا على أنفسهم الشراة أي الذين آشتروا أنفسهم إبتغاء مرضاة الله، كما ورد(160) في الآية"207" من سورة البقرة "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله"

---

(160) دائرة المعارف الإسلامية 370/8- إنتهت موقعة صفين سنة 37هـ 657م وأخذ عبد الله بن وهب الراسي الذي انتقل الى حوراء على رأس جماعة من تميم، يبث أفكاره بعد وقعة النهروان، 9 صفر 38هـ 17 يوليوز658م مما أدى إلى قتل عبد الرحمن بن ملجم لعلي غدرا بالمسجد مدفوعا بزوجته المنتظرة، قطام التي مات جل أهلها في تلك المعارك خصوصا النهروان، وقد كان برفقة بن ملجم شبيب بن نجدة الأشجعي، ومجاشع بن وردان بن علقمة.

ومهما يكن فقد خرجت منهم جماعة من المسملين بالنهروان، وكان عددهم كما قيل إثني عشر ألف رجل، قاتلهم علي قتالا انتهى إلى سحقهم، ولم ينج منهم إلا عشرة أو أقل تفرقوا في بلاد الإسلام: إثنان ذهبا إلى عمان وإثنان الى كرمان، وإثنان الى سجستان وإثنان إلى الجزيرة، وواحد الى اليمن حيث نشروا مذهبهم في هذه البلاد، حتى وصل إلى المغرب، ثم الأندلس بعد انتشاره شرقا واستيلائهم بعد اليمامة على اليمن، والطائف، وعمان، والبحرين، ووادى تميم.

وإذا ما انتقل إلى المغرب أول القرن الثاني للهجرة ومثله فكرة التشيع بعيدة عما عرف بالمشرق، وإنما مستمدة مما ورد في الأحاديث النبوية عن حب آل البيت(161)، فإن الخوارج الذين عرفهم المغرب قد عملوا بين قبائله على نشر أفكارهم، خصوصا بين المضغريين من بني فاتن المتفرعين من زناتة البرانس أشقاء البتر، فهم الذين أسسوا دولةبني يفرن في أغمات وتادلة، وهم أبناء عمومة المغراويين الذين كانوا قوة دولة بني مدرار بسجلماسة.

كان المغاربة منذ عهد الفتح يعيشون في فوضى وعدم آستقرار، وخصوصا فيما يرجع إلى السلطة ونظام الحكم، وقد عرفوا من الولاة عددا غير قليل في فترة وجيزية من الزمن، وعرفوا معهم كذلك من السلوك ما يتفق والإسلام الذي تمكن من قلوب وعقول الكثيرين من المغاربة الذين أصبحوا قادرين على فهمه فهما صحيحا، ثم هم كذلك أصبحوا قادرين على الترحال حجاجا إلى منبعه والاتصال بالمرشدين من بنيه، وفي هذه المرحلة أي بداية القرن الثاني للهجرة، كانت فكرة الخوارج قد آنتشرت وتمكنت، خصوصا وأنهم تفرعوا بشكل كبير بعد موت اليزيد الأموي، وعرفوا كيف يخططون لتنظيماتهم بعيدا وقريبا، عندما آنتهى الأمويون بعد عبد الملك الي ضعف، فتكونت

(161) راجع دائر المعارف بإدارة أفرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية جـ 1/315-23 مادة: آل البيت ط بيروت 1956 .

ثم محاضرات في علم التوحيد لعلي حسب الله ص142ط 1952 وما أورد فيها من المصادر. والملل والنحل للشهرستاني 1/132 ، وفيه أن كل من خرج على الإمام يعتبر من الخوارج.

والذين سموا أولا بالخوارج هم: الاشعث بن قيس، ومسعود بن فدك التميمي، وزيد بن حصين الطائي عندما حالفوا عليا في حرب صفين.. راجع الفرق بين الفرق لابي طاهر البغدادي 19-54/ط مصر 1328.

منهم فرق متعددة بلغت العشرين(162) فرقة نشير الى بعض من كان لهم أثر في المغرب وهم أهل الفرق التالية:

1- الازارقة: إنتسابا إلى نافع بن الأزرق المقتول سنة 65هـ وهي التي آستولت بين سنوات 65-72هـ بقيادة طالوت، ونجد بن عامر، وأبو فديك على كرمان، وفارس، ولم يتغلب عليهم إلا المهلب بن صفوان، ثم الحجاج إبن يوسف الثقفي سنة 78-79 698م حين قضى على قطري بن الفجاءة، وكان مذهب الأزارقة تكفير المسلمين من الذين آشتركوا في حرب صفين، والبراءة، ثم قتل أطفالهم، ونسائهم، واستحلال الأمانة، وعرفوا بالمغرب قبل عهد العباسيين، لكنهم انقرضوا لأنهم كفروا عليا، وعثمان، وأصحاب الجمل، والحكمين، عمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري(163) كما يقولون بالتقية، ومرتكب الكبيرة عندهم كافر يخلد في النار.

2- النجدات: وهم الذين آنتسبوا لنجدة بني عامر الحنفي بعد أبي طالوت البكري، ومذهبهم يخالف الأزارقة، ومنهم الإباضية فرقة عبد الله بن إباض المرى، الذين ظهروا بجبل نفوسة بليبيا، ثم انتقلوا إلى تيهرت وما حولها من المغرب الأوسط الذي هو الجزائر، حيث عرفت منهم فرق متعددة مثل البيهسية، ومذهبهم الحكم على المسلمين بالنفاق، وهم أتباع بيهس بن جابر الضبعي(354) والإباضيون لا يكفرون مرتكب الكبيرة.

---

(162) راجع الشهرستاني ط/القاهرة 1948 والصواعق لابن حجر وغيرها.

(163) راجع الفرق بين الفرق 62-66 والأخبار المجموعة ص28. والملل والنحل 221-222-223 والكامل للمبرد 3/164-170 وعنهم أخذ البربر حلق الرؤوس كما يقول صاحب العبر 6/243. وكذا كتاب العقود الفضية في أصول الإباضية ص45 ط دار اليقظة. بدون تاريخ مصدر سابق.

(354) نفس المصدر السابق ودائرة المعارف الإسلامية 1/316 ويرى نجدة أن المسلم مطالب بمعرفة الله تعالى، ومعرفة رسله، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم، والإقرار بما جاء من عند الله جملة، فإذا جهل المسلم شيئا دون ذلك فهو معذور الى أن يعلمه، وقد نشب بين النجدات أنفسهم نزاع وقتال قتل فيه نجدة سنة 69هـ 619م، وكذلك خالف زياد بن الأصفر نافع بن الأزرق في قتل أطفال المسلمين المخالفين ونسائهم، وقد تبعه جماعة عرفوا بالصفرية، وكان أكثرهم يرى أن مرتكب الذنب قد يفقد آسم الإيمان، ولكنه لا يحكم عليه بشرك ولا كفر، راجع تاريخ الفكر العربي 210-211 ط،66، وإنما هو عندهم كافر نعمة، وإن مخالفيهم من المسلمين هم موحدون، ومنهم فرقة اليزيدية التي سنتعرض لها بعد كآخر فرقة وغيرها، وللإباضيين في شمال إفريقيا مذهب عرف بمذهب الوهبية ويوجدون في جبل نفوسة وتيهرت وطرابلس والجريد التونسي ووادي ريغ، وبني مزاب وقفصة، وقابس، وجربة، ونفزاوة والزيبان وتوكرت، بالكاف المعكوفة، ولهم أثرهم في التاريخ السياسي، والديني، والاجتماعي، والثقافي، بل والاقتصادي في الأماكن المشار إليها، بل كان لتاريخ الإباضية في هذه المناطق آتصال بمختلف أقطار المغرب الكبير، كما سنرى =

3- الصفرية: كان ظهورهم أيضا سنة 65هـ وهم كالإباضية وقد قويت شوكتهم شمال المغرب الأقصى وأيام عبد الرحمن بن حبيب وقد كانوا قبل هذا أقوياء في زمن عبد الله بن الحبحاب الذي ولى على المغرب الأقصى أيام حبيب بن أبي عبيدة قبله سنة 114هـ، ولما خرج عليه الخوارج عزل، وتنسب الصفرية الى زياد بن محمد الأصفر، ومنهم من ينسبها إلى عبد الله بن الصفار التميمي على خلاف بين المؤرخين، وقد تمكنوا في

= حين كلامنا على دولة بني مدرار بسجلماسة، ومصاهرة المداريين لبني رستم، ولقد اهتم بالإباضية دارسون وباحثون من الشرقيين والغربيين والمتسشرقين معا، وذلك لما كان لهم من نشاط في المجال السياسي طيلة قرون خمس، فقد أهتم بهم العلامة بيرساي بادجر - حين ترجم كتاب كشف الغمة في حياة الائمة، لسليل بن رزق سنة 1871م، كما استعرض تاريخ أئمة الشمال الافريقي وعمان، ولما تناول الترجمة والمقدمة بالنقد المستشرق بروتوف أثار أهتمام المستشرقين بتاريخ الإباضية في شمال إفريقيا، ففعل مثله "هانري دوفريي الذي اكتشف نسخة خطية من كتاب السير لإبراهيم بن سليمان المعروف بالشماخي، وهو الكتاب الذي طبعه جماعة من بني مزاب عام 1301هـ 1883م، وكذا المجلدات الثلاث للمستشرق دركا لاسانتي موتيلانسكي، وجمعه وترجمته لكتب الإباضية تحت عنوان "الكتب المقدسة عند إباضية الشمال الإفريقي" وأحدث انقلابا عظيما، كما أن الدراسات الخاصة بالإباضية في المغرب الكبير دراسات وأبحاث وكتب كثيرة منها بالإضافة إلى ما سبق كثير من الكتب التي كتبها الأجانب الذين كانوا يكيدون للإسلام عملا بوصية دوفوكو

1- كتاب ديوان الأشياخ ألفه عشرة من علماء البربر بنفوسة.

2- كتاب الإيضاح: لعامر بن علي الشماخي.

3- كتابات يوسف بن يعقوب بن ابراهيم الوارکلاتي السدراتي في ق8هـ.

4- وكتاب لبراكس.

غرب الجزائر (توقرت) نشر مجلة الشرق والجزائر الجزء الرابع لسنة 1848.

5- وكتاب لفيفيان دى سان مارتان.

إفريقيا الشمالية في القديم طبع باريس عام 1863.

6- وكتاب بعثة واحة غدامس طبع الجزائر 1863.

7- وكتاب لج... زاكون.

... من باثنة الى توكورت طبع باريس عام 1864.

8- وكتاب لو وكابينان.

... بنو مزاب سنة 1867.

9- وكتاب لفيل.

... جغرافية واحات بني مزاب طبع باريس 1873.

10- وكتاب نصولايي.

... الجزائر الجوفية. بنو مزاب طبع الجزائر 1879.

11- وكتاب لفليب.

... المراحل الصحراوية طبع الجزائر 1880. =

سجلماسة بعدما اكتسحوا شرقها وغربها من تلمسان إلى وادي درعة كما سنرى في عهد بني مدرار.

4- الميمونية: وهي فرقة ضالة كافرة، صاحبها إبن العجاردة عبد الله عجرد، وهم الذين أحلوا ما حرم الله وأنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن الكريم، وقد ظهرت

= 12- وكتاب إلى لا رجو.
... الصحراء الجزائرية طبع باريس 1881.
13- ودراسة لريشي.
رحلة في وادي ريغ. نشر مجلة العالمين عدد 15 ماي 1882.
14- وكتاب للكلونيل رين.
... اولياء وإخوان طبع الجزائر 1884.
15- وكتاب لزائس.
التشريع عند بني مزاب. تاريخه. مصدره وحاضره ومستقبله طبع باريس سنة 1886.
16- وكتاب الباجول.
... صحراء واحة ورقلة. طبع الجزائر عام 1887.
17- ودراسة لزائس.
... الزواج والطلاق في تشريع بني مزاب، نشر المجلة الجزائرية للتشريع - لسنتي1888-1887.
18- وكتاب لدافيزاك.
... دراسة انتقادية لجغرافية جزء من إفريقيا الشمالية طبع باريس سنة 1836.
19- وكتاب ليون الإفريقي.
... وصف إفيريقيا - الجزء الثاني طبع ليدن عام (1632).
20- وكتاب لشيربونو.
... موجز تاريخ دولة بني الجلاب سلاطين توكورت طبع باريس 1859.
21- وكتاب لبرنار.
... أربعة أشهر في الصحراء طبع باريس عام 1880.

كما يجد المهتم بدراسة مظاهر الإباضية في مراحل تاريخ هذا الشمال الإفريقي بيانات متفرقة عند ابن خلدون. والبكري، والإدريسي، واليعقوبي، والعياشي، وفي عدد كبير من الكتب والرسائل الدينية التي اهتم إباضية بنو مزاب بطبعها في العصر الأخير. منها رسائل أبي الطاهر إسماعيل بن موسى الجطالي. أرجوزة في قواعد الإسلام بشرح أبي عبد الله محمد القصبي، وكتاب القناطر الخ.

المصدر محمد بورقعة: عن مجلة الثريا التونسية السنة 2 عدد 12 ص13-16 تاريخ محرم 1365 دسمبر1945.

ومن المخطوطات العربية القديمة الموجودة بزوايا واحات تماسين وورقلة، وعين الماضي، وعجاجة، طبع الجزائر.
رسائل إلى السيد - باربيي دي مينار- عن رحلته في واحات بني مزاب.
المعالم الدينية في جبل نفوس وتاريخ من انتسبت إليه. =

بعض تعاليمهم في برغواطة كما رأينا، وانقسمت هذه الفرقة إلى فرق متعددة منها: الخازمية، والشعبية، والمعلوية، والمجهولية، والصلتية، والشيبانية، والرشيدية والمكرمية، والحمزية نسبة إلى حمزة الخارجي، والثعالبية نسبة إلى ثعلبة بن مشكان، والأخنسية.

5- البيهسية: نسبة إلى أبي بيهس وهو الهيصم بن جابر من بني سعد كان من الإباضية، ثم اختلف عنهم في بعض الفروع فأسس له مذهبا وسطا بين الاباضية والأزارقة وقد عاش واشتهر أمره في عهد الوليد ملك الامويين الذي أمر والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بالقضاء عليه فأرسل هذا في طلبه، ولكنه فر إلى الحرم النبوي حيث قبض عليه والي مكة عثمان بن حيان ثم قتله بأمر من الوليد.

6- اليزيدية: وهم فرقة من الأباضية الذين زعموا أن الشريعة الإسلامية تنسخ بشريعة أخرى، ويبعث نبي من الفرس، ومن فرق الإباضية أيضا «النكارية التي ستعرف

= ... القصص الشعبية البربرية طلبع باريس سنة 1887.

... أناشيد الصبي بلغة الشلوح طبع باريس عام 1879.

كتب ودراسات لدوفوريي.

... نظرة خاطفة لوطن بني مزاب نشر دورية الجمعية الجغرافية الجزء الثاني صحيفة 247 لعام 1809.

... رحلة في وطن بني مزاب: نشر مجلة جولة حول العالم عدد 90 سنة 1867.

تقويم بلدان جبل نفوس نشر مجلة الأخبار الجديدة سنة 1862.

... كشف الصحراء. وطوارق الجوف طبع باريس 1864.

... أحاديث عن المذهب الإباضي. نشر دورية الجمعية الجغرافية شهر جويلية 1878.

كتاب لمارمول كربخال.

... إفريقيا ترجمة (بيرو) الجزء الثالث سنة 1667. و138-146 طبعة الرباط مكتبة المعارف 1408-1409هـ 1988-1989م.

... وكتاب لصامودا.

... دراسة لهجة بني مزاب، نشر المونيتور الجزائري سنة 1840.

وكتاب لكاريت.

الطرق التي اتبعها العرب، نشر باريس عام 1844.

وكتاب لدوماس.

... الصحراء الجزائرية، طبع باريس 1845.

وكتاب العقود الفضية تأليف سالم بن حمد إبن سليمان العماني ط دار اليقظة العربية بدون تاريخ.

ولعل التاريخ يؤكد أن من الإباضيين أهل دين قوي ومتين وخلق قويم وسلوك أقوم، ولا يحسب عليهم ما ظهر من بعض فرقهم قديما كاليزيدية والنكارية وغيرهما.

أكثر سنة 332هـ 943م عندما يظهر أبو زيد مخلد بن كنداد اليفراني الزناتي، أحد أئمة الإباضية النكار، ليعمل بشكل فيه حدة ضد الإسلام الحق؛ خصوصاً عندما تظهر الشيعة بالشكل الضال، الذي عرفت به بعد في المغرب زمن الفاطميين، ومن فرق الاباضية كذلك «الخلفية» و«النفاثية» وقد ذكرت عشرات الأسماء لرجالاتهم في الرسالة التي كتبها محمد بن يوسف طفيش المشار اليه قبل ، والموجهة إلى الشيخ الطيب العقبي، كما تعرض لأسماء العشرات من كتبهم(165) وشهادات بعض كبار العلماء فيهم أمثال ابن حزم الذي نقل عن ابن حجر في فتح الباري «ص 50» الخ.

والإباضية التي تمكنت أكثر من غيرها ثم استمرت في المغرب الأوسط وقد عرفت انقاسامات ترجع في الأصل إلى أنها وحسب مذهبهاتقول بالرأي بدل الإجماع والقياس، وقد أدى هذا التحرر إلى انقسام قادتها، فكان منهم بالإضافة إلى ماسبق «الحفصية» و«الحارثية» إلى جانب «اليزيدية» وقد لعبت الأباضية دوراً خطيراً في المراحل الأولى(166) للانفصال الذي تم بين المشرق والمغرب، واستقلال إدارة المغرب بزعامة رجالات من قبائله كانت مدرستهم الأولى، تلك التي عمل على إنشائها إلى جانب من ذكر أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، ثم أبو حاتم، وأبو عاد، وأبو قرة، من الخوارج، الذين بعدما تمكنوا من عقول البربر وإثارتهم أمام مظالم عمال بني أمية وبني العباس، استطاعوا أن يكونوا منهم قوة دخلت الميدان بعنف عنيف، ذلك أنه لما تعرض الخوارج

---

(165) نشرت الرسالة بتاريخ 1328، كما ورد في ص 177–195 وفيها أكثر من الخرافات التي يمجها العقل وطفيش هذا عرفناه موظفا بدار الكتب المصرية، حيث كان يتردد علينا أحيانا بمكتب المغرب العربي بالقاهرة وبها توفي.

(166) راجع الملل والنحل للشهر ستاني المصدر السابق، والفرق بين الفرق للبغدادي: 62– 66 والطبري 6/ 215– 90/9–107– 109 . وابن الأثير 42/ 140–140– 5/117–77– 78–79– 234–35 وابن عذارى 1/28– 43 –204– 6/2– 278 . ومروج الذهب 417/2 والعقد الفريد 1/ 216– 198–278 والمسالك 100– 101 والعبر 105/6–110–130–226–246 247 و7/11–2–24 والتاريخ العام للجزائر للكعاك ص 67 وأخبار مجموعة 38. ثم توراث البربر في إفريقية والأندلس في نفح الطيب 19/4 و د: الاسلامية 126/9 ، على أن للحفصية فرقة بهذا الاسم وهي من المعتزلة تنتسب لحفص بن أبي المقدام الذي قال: إن بين الشرك والإيمان معرفة الله تعالى وحدها، فمن عرفها ثم كفر بما سواه من رسول وملك إلخ. فهو كافر بريء من الشرك، ثم راجع أيضا عن الإباضية موسوعة وجدى462/3، ومختصر تاريخ الاباضية. ط تونس 1938، والكامل لابن الاثير 8/ 28–47– 49–50، والعبر لابن خلدون 3/4–6–7–8–12–31–32.

ومبادئهم للفشل والمضايقة والإضطهاد في المشرق وجد الذين اتجهوا منهم نحو المغرب مكاناً أوسع، وتربة أكثر خصوبة، وجواً أحسن لنشر أفكارهم الثورية، بل ومبادئهم حتى الضالة منها، والتي كانت في مجموعها أقرب إلى فهم البربر المتطلعين إلى التحرر، وما كانت عليه نظمهم الكثيرة الشبيهة بالنظام الجمهوري، خصوصاً وأن شهوات الفكر العربي وطغيان الحكام من الأشياء التي مكنت لفكر الخوارج بالمغرب بعد فشلهم في كثير من بلاد المشرق، وإذا كان الخوارج ممثلين في بعض الذين تطرفوا أحياناً في اتجاه مضاد، وهو الإسراف في الدين، فإنهم لم يجدوا لذلك مجالا في المغرب، بل الذي أدركه المغاربة البربر من مبادئ الخوارج هو الجانب الثوري الذي كان يمس حياتهم السياسية، بدلاً من الخلافات العقائدية التي ظهرت بين الخوارج، ودليل هذا هو الثورات التي أعلنوها بعد التذمر من المرادى وابن المجراد، بل وعلى هشام بن عبد الملك الأموي رغم عزله عبيد الله بن الحبحاب عن إفريقية، وتوليته كلثوم بن عياض القشري، وما كان لهم ذلك لولاأن جموعهم تكاثرت وأصبحوا يتمتعون بقيادة مكنتهم من الإنتصار على جند هشام الذي أكثر من الجند لمحاربة البربر، بل تقدم البربر خطوة ما كان لهم أن يخطوها لولا تغلغل فكرة الخوارج، تلك هي إقدامهم على قتل الكثير من رجالات العرب وأشرافهم في المغرب بينهم حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع، وجرح كلثوم كما لاذ (بَلَج) بمدينة سبتة حيث بقي ومن معه محصورين لم تنجدهم قوات العرب كما عرفنا قبل.

لقد كان المغاربة والبربر في كل الثورات التي ظهرت بينهم، يسعون للخلاص من الظلم والتسلط الذي عرفوه من حكام الأمويين، كما لاقاه كثير من العرب المسلمين المتواجدين بالمغرب والأندلس، وإذا علمنا أن فكرة التحرر قد لعبت دورها في عقول المغاربة والبربر والعرب في هذه الفترة، كما فعلت فعلها في الأوساط التي ظهر فيها مذهب الخوارج، وتمكن أكثر مذهب الإباضيين بواسطة بني رستم في المغرب الأوسط، أدركنا ما ستتمخض عليه الثورات التي عمت المغرب، والتي قادها في شمال المغرب الأقصى ميسرة المضغري الملقب بالحقير، والذي كان من قواده طريف بن صالح البرغواطي سنة 121 هـ 939م والذي عرفنا الكثير عنه وعن دولة البرغواطية قبل.

في هذه المرحلة أيضا، وبعدما تمكن الخوارج وأصبحوا قوة يطمحون بها إلى

تأسيس الحكومات، كل حسب المذهب الذي اختاره وتبعه عليه قومه، وقتها أخذت فكرة التشيع لآل البيت تظهر كرد فعل أمام قوة الاستبداد التي ظهرت من جديد وفي هذه المرحلة أيضا كان كثير من المغاربة أخذوا يتدرجون في المعارف الإسلامية، ومن المغاربة والبربر من كان بالمشرق منذ أمد بعيد إذ منهم من أخذ ضمن قوافل السبي ثم تحرر ورجع، ومنهم من أصبح يتمتع بقوة ما إجتماعيا أو سياسيا أو إقتصاديا، ولما تمزقت دولة الأمويين وظهر نفوذ الفرس زمن العباسيين الذين أقاموا دعوتهم بإسم التشيع لآل البيت آختار العودة للموطن الأصل، وهو يحمل من الأفكار مايوافق حياة قومه وسياستهم، ويظهر من الاستنتاج أن الصفوة المختارة، سواء من البربر أو العرب، كانت كلها في هذه المرحلة تعطف على آل البيت الذين لم يعرف التاريخ لهم ما ينفر بعد، ولقد ظهر في المغرب نفسه كثير من الذين عرفهم التاريخ بهذا الاتجاه، بل كان ثمة علماء مغاربة من أبناء المغاربة البربر تكونوا في المشرق ثم عادوا، أمثال ابي عبد الله عكرمة بن عبد الله البربري مولى عبد الله بن عباس وأحد فقهاء مكة وتابعيها، وقد توفي سنة 105هـ 723، ثم بعده كان يحيى بن يحيى الليثي صاحب الإمام مالك، وأول من جلب الموطأ إلى المغرب، والذي سوف نتعرف عليه في عهد الحكم بن هشام الأموي بالأندلس بعد، ومثله علي بن زياد الذي وصل إلى المشرق وعاد إلى تونس حوالي 150هـ 767م وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الديار المغربية يليه أسد بن الفرات 142هـ 213 هـ 759م–828م ثم سحنون بن سعيد التجيبي وغيرهم من الذين كان لهم فضل السبق وهم الذين ذكرهم عياض في المدارك وسماهم الفاضل ابن عاشور: أعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي.

الفصل السابع والثلاثون

صراع العلويين في المشرق وصداه في المغرب

وهكذا يمدنا التاريخ بمواقف نستخلص منها أن من أسباب تفكك الدويلات التي حاولت أن تحل مكان الأمويين في الحكم هو الخلاف الذي انتشر بنفس السرعة التي تكونت بها تلك الحكومات خصوصا بين أعقاب المؤسس الأول الذين يرجعون جميعا إلى عهد ظهور فكرة الخوارج، وإذا رجعنا إلى ناحية من البلاد التي كان للخوارج فيها نشاط نستفتي تاريخها، نجد أن أعمالهم بقدر ما كانت تتصف به من حرية في الرأي كان الجموح يدفعها غالبا إلى إدخال خرافات وترهات في الدين أضرت في كثير من البلاد، ومنها المغرب الذي كاد الدين فيه يجهض لولا أن قيض الله فكرة لمست قلوب المغاربة وعواطفهم ثم، هم وجدوا فيها متنفسا يحقق أهدافهم التي طالما سعوا إليها بواسطة الثورات. تلك هي حركة الاعتزال إلى جانب العطف السياسي على آل البيت بعيدا عن الفكرة الشيعية التي تشعبت إلى آراء منها: مفضلة ورافعة، مثل الزيدية والإمامية والكيسانية والإسماعيلية وغلاة مثل السبئية(167) والتميمية، والباطنية، والحلولية، والبدائية الخ. وربما تكون الاولى من الفرق، أي المفضلة هي التي دخلت المغرب بآعتدال، أولئك هم المفضلة الذين فضلوا عليا على سائر الصحابة من غير تكفير لأحد ، وهم كثرة الزيدية، ويقول رواد هذا المذهب كآبن أبي الحديد 586–655 هـ 1190–1257م إنهم فعلوا ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعلي: «حربك حربي وسلمك سلمي»، وقال: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» وقال: «لا يحبك إلا مؤمن ولايبغضك إلا منافق».

وكان زعيم الزيدية هو زيد بن علي 79–122 – هـ 878–740م) تلميذ واصل بن عطاء 80–131=700–748م رأس المعتزلة، فاقتبس منه الإعتزال وصار أصحابه كلهم معتزلة، على

(167) الملل والنحل 208/1.

أن فريقاً من هؤلاء الزيدية أنفسهم وقعوا في نفس الغلط الذي وقع فيه باقي الفرق المتشيعة حول فكرة الرجعة، حيث قالوا برجعة يحيى بن زيد، كما قال غيرهم برجعة جعفر الصادق 83–148هـ، وآخرون برجعة ولده موسى الكاظم. إلا أن شيئاً من هذا لم يعرف في المغرب، بل الذي عرف هو ما أشار إليه الرسول، صلى الله عليه وسلم حين جمع الناس في غدير خم(168)وقال «من كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا هل بلغت ثلاثا».

بقي لنا أيضا أن نشير إلى أن عهد التدوين أي العهد الذي شرع فيه علماء الاسلام يدونون الحديث والفقه، والتفسير حتى يصل إلى المغرب مما يساعد على التمكين للعقيدة ولحبِّ آل البيت كان في هذه المرحلة أي سنة 143هـ 760م وفي هذا العهد وقبله مصادر الدين عند المغاربة وغير المغاربة بل المشارقة أنفسهم هي رواية ما يحفظ من القرآن والحديث والعلم من صحف صحيحة غير مرتبة، إذ في التاريخ المذكور بدأ تصنيف آبن جريج عبد الملك بن عبد العزيز 80–150هـ/767–699م. بمكة، ومالك بن أنس 93–179هـ/ 722– 795م بالمدينة، والأوزاعي 88–157هـ/707–774م بالشام، وابن أبي عروبة، وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن إسحاق في المغازي، وصنف أبو حنيفة في الفقه والرأي، ثم بعد بيسير صنف هشيم، والليث، وابن لهيعة، ثم ابن المبارك، وأبو يوسف، وابن وهب، وكثير من رجال تدوين العلم، وتبويبه للذين دونوا كتب العربية، واللغة، والتاريخ وأيام الناس، وجلهم كانوا من المتعاطفين مع آل البيت وقتها، وفي سنة 145هـ 762م كان خروج الأخوين محمد وإبراهيم إبني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فظفر بهما المنصور فقتلهما وجماعة من آل البيت، الأمر الذي دفع أكثرية ذوي الرأي ممن ذكرنا إلى

(168) غدير على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين، والجحفة ميقات أهل الشام، وكانت قرية جامعة على اثنين وثلاثين ميلا من مكة. راجع القاموس وحول الإمام جعفر الصادق راجع ماكتبه رمضان لاوند بعنوان الإمام الصادق علم وعقيدة ط بيروت 1979م، ثم راجع شرائع الاسلام في الفقه الجعفري للمحقق الحلي/ نشر مكتبة الحياة– بيروت– ط 1978.

الدعوة ضد المنصور بعد الرثاء لآل البيت، ومن وقتها والفكر لصالحهم، والدعوة ضد العباسيين تنتشر، حتى آنتهت إلى المغرب الذي كان قد تخلص من بقايا الأمويين، ثم أخذ يروي عن مآسي العلويين على يد العباسيين، ومعنى هذا أن المغاربة شعروا بتجاوب مع المتظلمين المضطهدين، شعوراً باعثه الدين الذي جاء به الرسول العظيم محمد (صلى الله عليه وسلم) والذي هو جد الحسنيين والحسينيين، والذين تجاوب معهم جل بل كل الذين سبق ذكرهم من الفقهاء والعلماء والأئمة السابق ذكرهم، والذين تردد صدى انتصارهم لآل البيت في المغرب، وكان هذا هو «التشيع» الذي عرفه المغاربة، ولذلك نراهم بعد وحين يظهر التشيع الضال مع الصنعاني أبي العباس، وعبيد الله الشيعي، مؤسسا دولة الفاطميين يقابل بالرفض والنفور كما بين ذلك ابن عذارى وكما سنرى.

في نظرنا هذا مفهوم التشيع الذي عرفه المغرب وركز له بعد مذهب مالك بن أنس صاحب عمل أهل المدينة، والمذهب الذي دخل الأندلس زمن المستنصر الأموي 179هـ 205هـ 796–821م(169)، وإذا كانت فكرة آضطهاد العلويين لم تتوقف منذ ما بعد موقعه صفين وقتل علي، حيث آستمرت طيلة عهد الأمويين، بل لم تتوقف حتى حين قضى عليهم العباسيون الذين سرعان ماظهر للمغاربة أنهم لم يختلفوا عن السابقين كما سبق أن بينا، فإن صدى ذلك الإضطهاد كان يتردد في مشارق الأرض ومغربها، وبنظرة خاطفة على كتاب محمد بن علي طباطبا المعروف بابن الطقطقي يرى المرء ماحل بآل البيت العلويين في العهدين الأموي والعباسي، وكان آخرهم إدريس الذي فر بعد موقعة

(169) إعتمدت المدرسة الإسلامية ذات المذاهب أكثر من مدرستين: مدرسة أهل الحديث في الحجاز، وهي مدرسة مالك التي شددت في النص، ومدرسة العراق التي أخذت بالرأي والقياس، وهي مدرسة أبي حنيفة النعمان» والمغاربة بعد تمكنهم اختاروا الأولى رغم ظهور مذاهب الشافعي، والحنفي،والأوزاعي، حيث تمكن الأول والثاني، في تونس، والجزائر دون المغرب، وإذا علمنا أن مالكا ممن ناصروا آل البيت أدركنا سبب التمكن لمذهبه في المغرب بعد قيام دولة الأدارسة، وكيف لا ومالك الذي أفتى بصحة دعوة محمد بن عبد الله من آل علي وخلع بيعة أبي جعفر المنصور، وبسبب ذلك عاقبه جعفر بن سليمان ثم المنصور الذي كان واليا على المدينة، حيث جرده وضربه بالسياط فتحمل في سبيل الحق مما زاده تقديراً وإكبارا من المغاربة، حتى ليخبرنا الحميري في الروض المعطار –مخطوط خاص 31/2. أنه كان في أرض سوس فرقتان: مالكية وحشوية، وإذا ماعلمنا منه كذلك أن آخر مكان وصله عقبة هو إيكلي من أرض سوس نعلم متى وصل الإسلام إلى هذه الديار التي عرفت الخوض في المذاهب مبكرا.

فخ سنة 169هـ 785م وقد أشرنا إليها قبل وإلى أسبابها، وإذا ماقدم إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط إلى بلاد المغرب وحيدا إلا ما كان من رفيق بربري هو مولاه راشد دفين زرهون فإن القدر ساقه ليمكن للإسلام وليعيد الفتح من جديد، وماكان له ذلك لولا أنه وجد المغاربة المسلمين كغيرهم وقد تمكنت من قلوبهم وعقولهم عاطفة الحب والتقدير لآل البيت، تلك العاطفة التي كانت تزداد قوة. في كل البلاد كلما زادهم الخصوم إضطهاداً حتى قيل إن أعمال إخوان الصفا كانت إنتصاراً لآل البيت ضد بني العباس(170) بل قال بعض المؤرخين إن ماعرف من أفكار الشيعة الفاطمية والإمامية ترجع في الأصل إلى جعفر الصادق وأن الفكرة وصلت المغرب في ذلك العهد(171).

وإذا نحن أخذنا برأي آبن عبد الحكم في فتوح مصر(172) وكذا ما عند الكندي في كتابه عن الولاة أثناء الحديث عن قبيلة كندة فخذة تجيب، وأنها آستقرت بالشام والعراق

---

(170) لقد تعرضت فكرة التشيع لآل البيت في المشرق إلى دسيسة صنعاني يمنى هو عبد الله بن سبأ اليهودي الأصل، ثم إلى دهري فارسي هو عبد الله بن ميمون، الذي حول الفكرة ثم وضع لها مراتب ست يتكون على أساسها الدعاة من الاسماعليين، ولم يعرف المغرب هذا النوع من التشيع إلا حين ورد عليه الصنعاني، أبو عبد الله الذي استولى على قبائل كتامة التي حل بها عام 288هـ ثم كون دولة الفاطميين العبيديين كما سنرى، راجع الطبري د/98 وجدى 692/3 وإذا علمنا أيضا أن الإسلام تعرض للغزو السياسي من الذين اندسوا فيه من المسيحيين كذلك، ندرك أصول هذه الفرق والطوائف التي ظهرت في الإسلام ولم تكن أساسا منه، وإنها ترجع إلى أصول يهودية، ومجوسية، ونصرانية، ففي المسيحية مثلا من الفرق المعروفة المرقيونية، والديصانية، والمانوية، والاريوسية، والنسطورية، والملائكية، واليعقوبية، والمارونية، وكلها تنسب إلى أفراد، فمرقيون مثلا ابن لبعض الاساقفة ببلاد حران الخ راجع التهذيب في أصول التعريب ص 67 ط 1923م.

(171) راجع وفيات الأعيان 319/1 – 320 والإعلام لابن الخطيب 138/3ط 1964 وعن جعفر الصادق. 83-148 هـ راجع البيان لابن عذاري 124/1-130، وابن الخطيب في الاعلام 188/3 مع الملاحظة أنه وقع في خلط بين ثورة محمد النفس الزكية 145هـ وثورة الحسين بن علي 169هـ. وعن جعفر الصادق راجع رمضان لاوند مصدر سابق تعليق 358.

(172) ص138-142 . والولاة للكندي (5- 221)، بل إذا نحن رجعنا إلى موقعة الحسين الطالبي بن على المثلث بن الحسن المثلث في عهد المهدي العباسي، والتي خاضها ضد خالد اليزيدي قائد جند المدينة وعاملها عبد العزيز العمري في ذي القعدة سنة 169هـ 785م، والتي ساندت فيها قبائل من جهينة، ومزينة وغفار وضمرة وغيرهم الحسين المذكور نجد أن هذه القبائل تواجدت بكثرة في مصر ومنها انتقل بعضها إلى برقة ثم القيروان، وفي عهد الأدارسة دخل بعضهم المغرب كما سنرى.

راجع مقاتل الطالبيين وأخبارهم لأبي الفرج/ ط طهران 1307هـ ص 288-308.

ومصر، لكن أكثرها استقر في ليبيا بعدما دخلوها كفاتحين، وانتقل الكثير منهم إلى الأندلس زمن الفتح، بل عرف شمال إفريقية أعداداً كثيرة من تجيب، وفي كل البلاد التي وجدت بها تجيب بقيت على ولائها لآل البيت، بل تشيعوا لعلي بن أبي طالب إلى عهد ما بعد مروان بن عبد الملك حيث آنتظم بعضهم في وظائف الدولة مع الأمويين، لكن البعض الآخر بقي يتربص الدوائر ويتحين الفرص المواتية، فلا تظهر ثورة ضد الأمويين إلا ونجد فيها ومعها من تجيب أثر(173) ومنهم بنو حماد من ملوك الطوائف بالأندلس، كما يوجدون في هذا العهد بقفصة من تونس) وغيرها.

وأصل التجيبيين من كندة وقد انتشروا بالمغرب وهم ممن عرفوا كما رأينا بالعطف الكبير على آل البيت، يرددون ما حل بآل البيت أيضا على يد الأمويين الذين ساهم التجيبيون في زوال ملكهم والقضاء عليهم، ليحل محلهم بنو العباس، وكان على هؤلاء أن يكونوا أوفياء ولو مع أنفسهم لأنهم آستمدو قوتهم من الدعوة لآل البيت، لكنهم لم يفعلوا، بل لم يتذكروا أباهاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية حين نزل عليهم بعدما سمه سليمان بن عبد الملك، ولما شعر بدنو أجله ذهب إلى الحميمة وهي قرية بجنوب فلسطين، ونزل على بني عمه من العباسيين، وقيل أوصى بحقه في "الخلافة" إلى عبد الله بن العباس، وهذا أوصى بها إلى ابنه محمد، وعرفه أسرار الدعوة، وبذلك آنتقل ولاء الكيسانية من العلويين إلى العباسيين؟؟ وربما كانت هناك فرق أخرى لم تسلك طريق الكيسانية بلا شك، لأن كيسان مولى علي كان تلميذا لمحمد بن الحنفية، بل من الكيسانية أنفسهم من ساق "الخلافة" إلى هاشم بن محمد بن الحنفية، ولم يوافق على إسنادها للعباسيين.

ومهما يكن فإن المغرب لم يعرف في ذلك العهد داعية على غرار ماعرفه المشرق من

---

(173) راجع القلقشندي في نهاية الأرب ص 185 ط1959 وفيه تحدث القلقشندي عن نفسه ،ص389) وأنه أصلا من غمارة بطن من معمورة من البرانس من البربر. وهم بنو عمار بن مسطح بن قليل بن مصمود بن بُرنس بن بربر. قلت «الحميري»: ومن هذا القبيل حدثنا الشيخ: عبد الله الغماري خادم سيدي أبي العباس البصير الخزرجي الأندلسي البلنسي، وهذا أخذه القلقشندي عن نفسه حيث قال الأستاذ فراج إن القلقشندي قال في صبح الأعشى إنه عربي ولعل الذي أوقعه في هذا الخلط هو يوسف إلياس سركيس في كتابه معجم المطبوعات ص 1521/ط مصر1928 مع أن نهاية الأرب ألفه القلقشندي قبل صبح الأعشى- راجع مقدمة نهاية الأ... تحقيق ابراهيم الأبياري ص هـ /ح ط مصر 1959.

أمثال أبي مسلم الخراساني، وبكير بن ماهان، وصهره حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال، بل إن التاريخ السياسي في المغرب آستطاع أن يكشف لنا عن وفود الخوارج الذين كانوا يتوجهون من المغرب إلى الشرق من صفرية وإباضية لدراسة المذهب في بغداد وغيرها، لكنه لم يكشف لنا عن المتشيعين بالمغرب كتشيع المشارقة، اللاهم إلا ماكان من الفسحة التي ظهرت زمن عمر بن عبد العزيز، والتي ربما كان فيها من المغاربة من تحمس في عاطفته نحو آل البيت الذين عرفنا عاطفة موسى بن نصير نحوهم رحمه الله، بل إن ماحل بالأمويين عندما آل الأمر إلى العباسيين الذين يستدل على مدى قسوتهم – أي العباسيين – عليهم – أي الأمويين– والتي عبر عنها الشاعر الأسود سديف بن إسماعيل المكي حين دخل على السفاح وقال له:

يا ابن عم النبي أنت ضياء ... استبنا بك اليقين الجليا
لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويا(174)

إلى أن يقول:

جرد السيف وارفع العفو حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

عندما كان العباسيون يغسلون الدماء بالدماء، كان صدى كل ذلك يتردد في مختلف بلاد الاسلام ومنها المغرب الذي قصده أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية، وهو إبن بربرية يقول السيوطي(175) قصدها سنة 138هـ كما سبق، والذي ماكاد يستقر وتتجمع حوله القوتين المتناحرتين بالأندلس، من قيسية، ويمنية، حتى انتبه سكان العدوة من المغاربة والبربر والعرب الذين كانت الدعوة لآل البيت قد تمكنت فيهم، إلى

---

(174) الهفوات النادرة للصابئ وتحقيق د صالح الأشتر ص 105 ط 1 عام 1967 مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، وابن عساكر : 66/6. والشعر والشعراء لابن قتيبة 293. وقد كان سديف بن اسماعيل بن ميمون متشيعاً بقوة لآل علي ونجاه الله من بني أمية حيث آستمر إلى زمن المنصور فقتله عامله بمكة عبد الصمد بن علي 146هـ 163م.

(175) تاريخ الخلفاء ص 243 دار الفكر 1974م، وقد قال في حقه: وقد كان عبد الرحمن هذا من أهل العلم والعدل وأمه بربرية.

الخطر الذي يهددهم بقيام دولة أموية على مقربة منهم، وفي هذه المرحلة أيضا كان العلويون من آل الحسن والحسين قد انتهى أمرهم إلى الاستقرار في المدينة، بعيدا عن السياسة حتى تلك التي تزعمها المتشيعون لهم، ومع ذلك أدرك العباسيون أن الأمرلايتم لهم ولايصفو لهم الجو إلا إذا تخلصوا من العلويين الوارثين الشرعيين للخلافة، وإذا كان عبد الله الكامل وولداه محمد النفس الزكية، وإبراهيم أحفاد الحسن، هم رأس الأسرتين الحسنية والحسينية، وإذا كان جعفر الصادق سادس أئمة الشيعة الإمامية قد انتهى إلى ترك الأمور تسير حسب الظروف، فإن محمدا النفس الزكية، كان قد بويع بالخلافة من طرف إخوته وأبناء عمه الحسين، بل وحتى من بني هاشم، وكان أبو جعفر قد بايعه أيضا، لكنه عاد ليأخذ لأخيه البيعة في الحجاز، كما أن محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم تخلفا، مما جلب عليهما النقمة والمضايقة التي انتقلت إلى سجن أبيهما ثم قتله، واضطهاد كل أقاربهما، وإذا ما اختفى محمد النفس الزكية، فإنه أخيرا قرر الظهور بعد اتفاق مع أخيه إبراهيم ليطالب بالخلافة، وفعلا ظهر بالمدينة سنة 145 هـ 762م وأفتى أبو حنيفة 80–150هـ /699– 767م ومالك بن أنس 95–179هـ/ 713–795م وعبد الحميد بن جعفر، وابن عجلان، بصحة البيعة ووجوب الخروج على المنصور، ولما سئل مالك وقيل له إن في أعناقنا بيعة للمنصور قال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين، واستطاع محمد أن يجلب له من الأنصار الكثير جدا من أهل الحجاز، وانتهى الخبر إلى أبي جعفر فكتب إليه يطمئنه ويؤمنه، لكنه من جانب آخر انتقل إلى الكوفة علماً منه أنها شيعة العلويين، وحتى يقطع عليهم الطريق حين أغلق أبوابها ولم يعد أحد يخرج منها أو يدخلها، وجوابا على كتاب التأمين المشروط بالرجوع الذي بعث به أبو جعفر إلى محمد النفس الزكية، أجابه هذا الأخير بنفس اللهجة يطلب منه الاستسلام، وأخيراً أرسل أبو جعفر جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى إلى المدينة ليقاتل النفس الزكية، لكن هذا الأخير رغم ما كان حوله من تجمع لم يحسن اختيار الموقع الحربي، ولذلك ماكادت جيوش أبي جعفر تقترب من المدينة حتى دخل الذعر أغلب الذين هم مع النفس الزكية، ففر أكثرهم، وبقي محمد في نفر قليل واجه بهم ذلك الجيش الجرار ببسالة وشجاعة عجيبة، لكنه قتل يوم 12 رمضان 145هـ 762م ودخل عيسى المدينة وانتقم من أهلها بعدما

قطع رأس النفس الزكية وأرسله إلى أبي جعفر الذي أمر عيسى أيضا بملاحقة إبراهيم، وكان بالبصرة حيث جمع حوله جموعاً بايعت أخاه، ثم استولى بهم على بيت المال، كما دانت له فارس والأهواز وواسط، وفعلا توجه عيسى بن موسى إلى إبراهيم حيث حصلت بينهما معركة في المكان المعروف «باخمري» على ضفة دجلة، بعيدا عن الكوفة بستة عشر فرسخاً، وانتصر إبراهيم في أول شوط، لكنه أخيرا إنهزم وقتل بسبب خذلان من حوله، وكانت نهايته في ذي القعدة من سنة 145هـ 762م وقد فعل عيسى برأسه كما فعل برأس أخيه، وانتهى أجل أبي جعفر في المكان المعروف بئر ميمونة يوم 6 ذي الحجة 158هـ 747م، وهو في طريقه إلى الحج بعدما أزاح عيسى بن موسى عن ولاية العهد وأسندها إلى ولده المهدي، وكان هذا أنبل من أبيه وأخيه من بعده، كريما متخلقا أعاد للعلويين ما ضاع من أموالهم وماصادره سلفه، لكنه انتهى سنة 169هـ 785م(365)، وفي هذا التاريخ كان الوالي على إفريقية يزيد بن حاتم المهلبي(177) الذي كان قد وليها قادما من المشرق سنة 154هـ 770م ومعه ستون ألف واجه بهم الخوارج الإباضية، وإذا هو قمع الثورات بالعنف فإنه تعرف على ماكان قد انتشر بين المغاربة والبربر، وبين العرب، خصوصا منهم التجيبيون من كندة من فكرة التشيع السني وقد عرف يزيد بن روح، بالعدل والمروؤة والسخاء وحسن السلوك، حتى إنه صادر غنم ولده بحكم عدم شرعية مزاحمته العامة في التكسب، وصاحب مثل هذه الأوصاف المستمدة من خلق الإسلام، لاشك يكون ممن يعطفون على آل البيت، وفي عهد هذا الوالي قدم إدريس بن عبد الله الكامل أخو محمد النفس الزكية الثائر سنة 145 هو والحسين بن علي بن الحسن المثلث صاحب ثورة 169هـ المعروفة بوقعة «فخ» التي فر بعدها إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط إلى المغرب(178).

---

(176) راجع العبر 4/1-5 ، وابن عذارى 82/1، والدولة العباسية لحسن خليفة 34-53، وتاريخ الامم الاسلامية 50/2-75 وتاريخ الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم ص 24-40 ط 1958.

(177) إبن عذاري 78/1، والمهلبي هو الذي يطلق عليه الأباضيون إسم «الفاسق... وهو الذي وقعت بينه وبينهم معركة حامية في قصر تانو، وهو القصر الذي عرفت باسمه الواقعة بين الإباضية وابن الأغلب عامل المعتضد العباسي كذلك، بعد سنة 280هـ.

(178) راجع تعليق سابق 161.

تلك هي أحوال المغرب وعلاقته بالمشرق، وإذا ماهي الدول التي تكونت بالمغرب في تلك المرحلة من التاريخ، وقبل أن تظهر الدولة التي وحدت المغاربة في المغرب الأقصى، وهي دولة إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي، والتي وجد المغاربة فيها ما يغنيهم عن المذاهب والنحل؟

الباب السابع
دويلات الخوارج من البربر
وصراعهم مع العبيديين والامويين بالأندلس

الفصل الثامن والثلاثون

بنو صالح بنكور، والامويون بالاندلس

كان صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن قد دخل المغرب في العهد الأول للفتح الإسلامي وكان يعرف بالعبد الصالح كما يقول ابن خلدون(179) نقلا عن صاحب المقياس، وقد أقطعه الوليد بن عبد الملك 86–96هـ 705– 714م مدينة نكور سنة 91هـ 709م، وذلك قبل فتح الأندلس ولم يقتصر نفوذه على النكور وحدها، بل كان يشمل القبائل المتاخمة، وهي زواغة، وجرارة، ومطماطة، وكبدانة، ومرنيسة، وغساسة، وقبائل جبل هرك، وقلوع جارة، التي لبني ورتند، ثم بني مروان، من غمارة، وبني حميد، إلى مسطاسة، وصنهاجة، وكلها تقع إلى الشمال والشمال الشرقي من قبيلة أوربة، تجاورها قبائل بني وليد، وبني يرنيان، وبني واسن، حزب قاسم صاحب مدينة(180).

كل هذه القبائل أسلمت على يد صالح بن منصور الذي ملك تمسمان ثم ثقلت عليهم الشرائع والتكاليف إلى جانب قسوة حكم الأمويين فارتدوا عن الإسلام، وأخرجوا صالحا ثم ولوا عليهم رجلا من نفزة يعرف بالرندى، ولم يلبثوا أن تابوا ثم عادوا ثانية إلى الاسلام وأرجعوا صالحا الذي دام فيهم حتى توفي سنة 132هـ 749م ثم خلفه ابنه المعتصم بن صالح، وكان تقيا، لكنه لم يطل ومات فتولى مكانه أخاه إدريس الذي اختط مدينة النكور في عدوة الوادي، ولم يكملها، لأنه توفي سنة 143هـ 760م فحل محله سعيد الذي أتم بناء المدينة.

وفي عهد سعيد كانت المجوسية لاتزال قائمة في جهات بالقرب من دائرة بني صالح، وكان لها من القوة ما هاجمت به المدينة الجديدة سنة 144ص761م، وأخرجوا منها

---

(179) العبر 6/ 439.

(180) نفس المصدر 440/6.

سعيداً، كما هوجم من طرف غمارة التي ساقها رجل اسمه سكن، والذي يقول آبن خلدون إن سعيداً قضى عليه ورد المجوس، ثم استقام له الأمر وطال ملكه حتى سنة 188 هـ 803م، وإذن في الفترة التي قام فيها سعيد بل وربما التي اشتد وقوى فيها سلطانه، قدم المولى إدريس بن عبد الله الكامل حفيد الحسن المثنى إلى المغرب وستجد فيه قبيلة أوربة المجاورة، -والتي يحُدُ سلطان بني صالح عند حدودها - وسيلة تنافس به نفوذ دولة بني صالح، كما وجد العرب المتطاحنون بالأندلس من عبد الرحمن الداخل وسيلة تجمعت حوله قواتهم لمقاومة تيار البربر المتحرشين بالعرب وقتها، وقد قدم هذا الأخير زمن المعتصم بن صالح التقي، بعدما نزل على أخواله نفزة من برابر طرابلس، وكان الوالي بالقيروان وقتها عبد الرحمن بن حبيب الذي قتل آبني الوليد بن عبد الملك لما دخلا إفريقيا، لكن عبد الرحمن الداخل نزل بمغيلة أو مكناسة حيث نزل على قوم من زناتة، ثم لحق بمليلية، ومن هناك بعث بدرا مولاه إلى من بالأندلس من المروانيين أشياعهم، وهم الذين نشروا دعوته ثم آزروه وبايعوه، ومن أسماء الذين بايعوه نتبين كذلك ماهي القبائل العربية التي كانت لها السيطرة في الأندلس وقتها، وكانت معرضة لمنافسة البربر، فقد بايعه عيسى بن مسور عامل كورة، وعتاب بن علقمة اللخمي عامل شدونة، وابن الصباح عامل مورور، أما المولى ادريس فعندما قدم كان عبد الرحمن الداخل قد وطد أركان ملكه، وتوفي سنة 172 هـ 788م مخلفا أبناءه الثلاثة الذين حصلت بينهم الفتن، وهم هشام، وسليمان، وعبد الله، والذي انتصر هو هشام، بل وفي هذه الفترة أيضا حصلت ثورات أدت بهشام إلى إرسال وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لقمع الثوار، كما أرسل لقمع البربر هشام بن عبد القادر بن إبان بن عبد الله، مولى معاوية بن أبي سفيان، وفي هذه الفترة انتقل كثير من العرب والبربر شيعة العلويين بلا شك إلى المغرب، كما انتقل إليه سليمان وعبد الله أخوى هشام، فكانت أفكارهم وميولاتهم عاملا من عوامل التمهيد والتمكين لدولة إدريس، كما كانت من جانب آخر عاملا من عوامل استقرار الحكم في بني صالح بنكور، وساعد كذلك كلا من المولى إدريس وبنو صالح عندما ولي حكم الأندلس الحكم بن هشام، الذي انقطع للذاته ولهوه، مما دفع يحيى بن يحيى الليثي النفزى صاحب رواية موطأ مالك، وطالوت الفقيه، باسم ذوي الرأي، لخلع

الحكم خصوصا بعد مجازر 184هـ 800م وقد استمر الصراع حتى سنة 190 هـ 805م لكن الحكم إنتصر وهدم دور الذين كانوا خلف الثورة عليه كما هدم المساجد وكان هذا في صالح الدولة المقبلة بالمغرب دولة الأدارسة، حيث التحق الكثير من العلماء والوجهاء أيضا بالمغرب كما سنرى، ويقول ابن خلدون عن هذه الفترة إنهم التحقوا بفاس(181) والأسكندرية كما نجد آثارهم في سجلماسة.

أما بنو صالح فإن الذي تولى بعد سعيد الذي مهد الملك ودام سبعا وثلاثين سنة، هو ولده صالح بن سعيد، الذي كانت مدة والده كافية لتكوينه تكويناً أفاد منه وأفادت البلاد مدة ملكه الذي طال آثنين وستين سنة، حيث بويع سنة 188هـ 796م وتوفي سنة 250هـ 864م(182).

ومنذ نهاية حكم صالح وتولية ولده الصغير سعيد الذي خرج عليه أخوه عبد الله وعمه الرضى، ثم انتصاره عليهما، وتغريب الأخ وقتل كل من كانوا معه ومع عمه، لم يستقر حتى قضى على البربر الذين أثارهم سعادة الله بن هارون الذي طلب الصلح لما رأى أن سعيداً قد التفت حوله قبائل غمارة، وبطيوة، ومرنيسة، وقلوع جارة، وبني ورتند، وهو الذي أصهر بأخته لأحمد بن إدريس بن محمد بن سليمان، وأنزله مدينة نكور، ولعله كان يقصد بذلك مساندة القبائل التي بشرق المغرب في مواجهته التي ينتظرها ضد مصالحة بن حبوس المكناسي صاحب تاهرت بعد، ت 312هـ 924م» لكنه لم يستفد من تلك المصاهرة كما أراد، كما لم يستفد من الأدارسة الذين لاقوا نفس المصير من الناصر الأموي الذي لم يزد على الترحاب والتكريم، لكل من فر عن عدوة المغرب إلى عدوة الاندلس، أملا في أن يتخذهم قوة يدفع بها نفوذ الفاطميين الذين داهموا المنطقة بقوة كبيرة لم تجد أمامها مواجهة في المستوى، فكان بعد الهزيمة وسيطرة الفاطميين أن ولى قائدهم مصالة على مدينة نكور، (دلولاً الكتامي)، ثم رجع إلى تاهرت، وماكاد يغادر البلاد حتى قامت الثورات التي قادها آل سعيد بن صالح الذين كانوا قد فروا إلى مالقة، عاد منهم صالح بن سعيد إلى تمسامان حيث بويع من جديد سنة 305هـ 917م، ولقب

(181) العبر 274/4.
(182) نفس المصدر441/6.

باليتيم لصغره، ثم زحفت الجموع على دلول فقتلوه، ودعوا للناصر الأموي الذي انتصر لآل صالح وأعاد ماكان عنده منهم، واستمروا في حروب مد وجزر مع الفاطميين حتى سنة 406هـ 1015م، وانتقل السلطان إلى بني يعلى بن فتوح وازداجة، إلى أعوام ستين وأربعمائة 460هـ 1067م حيث قضى عليهم المرابطون.

وإلى جانب بني صالح بنكور كان بنو عصام بسبتة الذين تولى منهم أولا ما جكس ثم خلفه آبنه عصام ثم مجبر آبن عصام، بعده الرضى بن عصام، كما كانت دويلات أخرى لم يكن لها دور مهم في المغرب الأقصى مثل بنو مغراوة بالمغرب الأوسط، ورئيسهم محمد بن خزر 350 هـ 961م، والخير بن محمد المنتصر، الذي قتل سنة 361هـ 971م، ثم بنو يفرن زناتة الجيل الثاني، ومنهم يعلى المتوفي سنة 347هـ 958م ثم بدر بن يعلى المتوفي 383هـ 993م.

بنو صالح بنكُّور

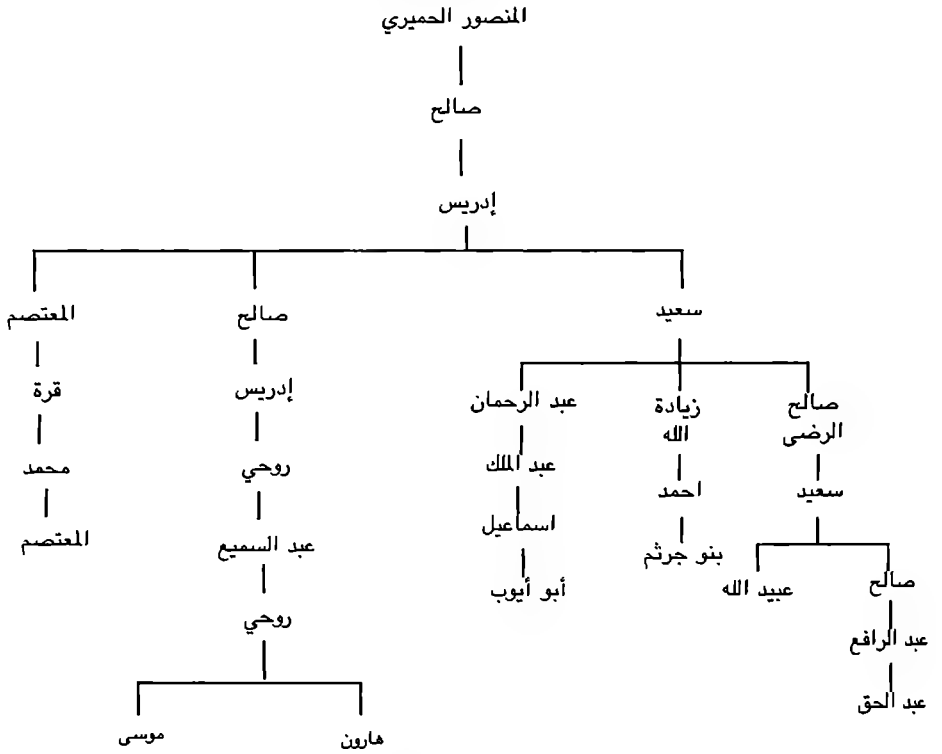

بنو عصام بسبتة

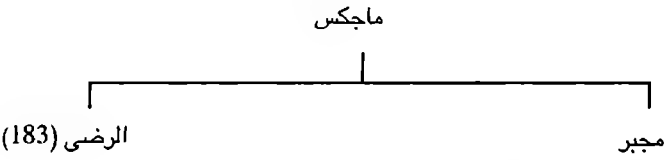

(183) راجع الاسر المحاكمة لزامباور / ج1/112، والبكرى 104 والعبر 446/6 وابن عذارى 203/I وفيه أنهم كانوا يؤدون الطاعة لبني إدريس حتى غلب عليهم الناصر الأموي بقائده فرج بن عفير يوم الجمعة شعبان 319 هـ ثم وليها. بعده عبد الصمد الغرناطي ثم محمد آبن حزب الله 323 هـ/، لكنه عزل ووليها محمد بن مسلمة 326 هـ ثم عزل وأعيد حتى سنة 330هـ ثم وليها ابن مقاتل إلى أن أسر في شوال سنة 332هـ، أسره بنو محمد الادارسة الذين حاربهم قاضيها محمد بن أبي عيسى في رمضان 333 هـ، لكنهم لم يستمروا، وعادت إلى حكم ولاة الناصر حتى 346هـ.

ملوك بني أمية بالأندلس (374)

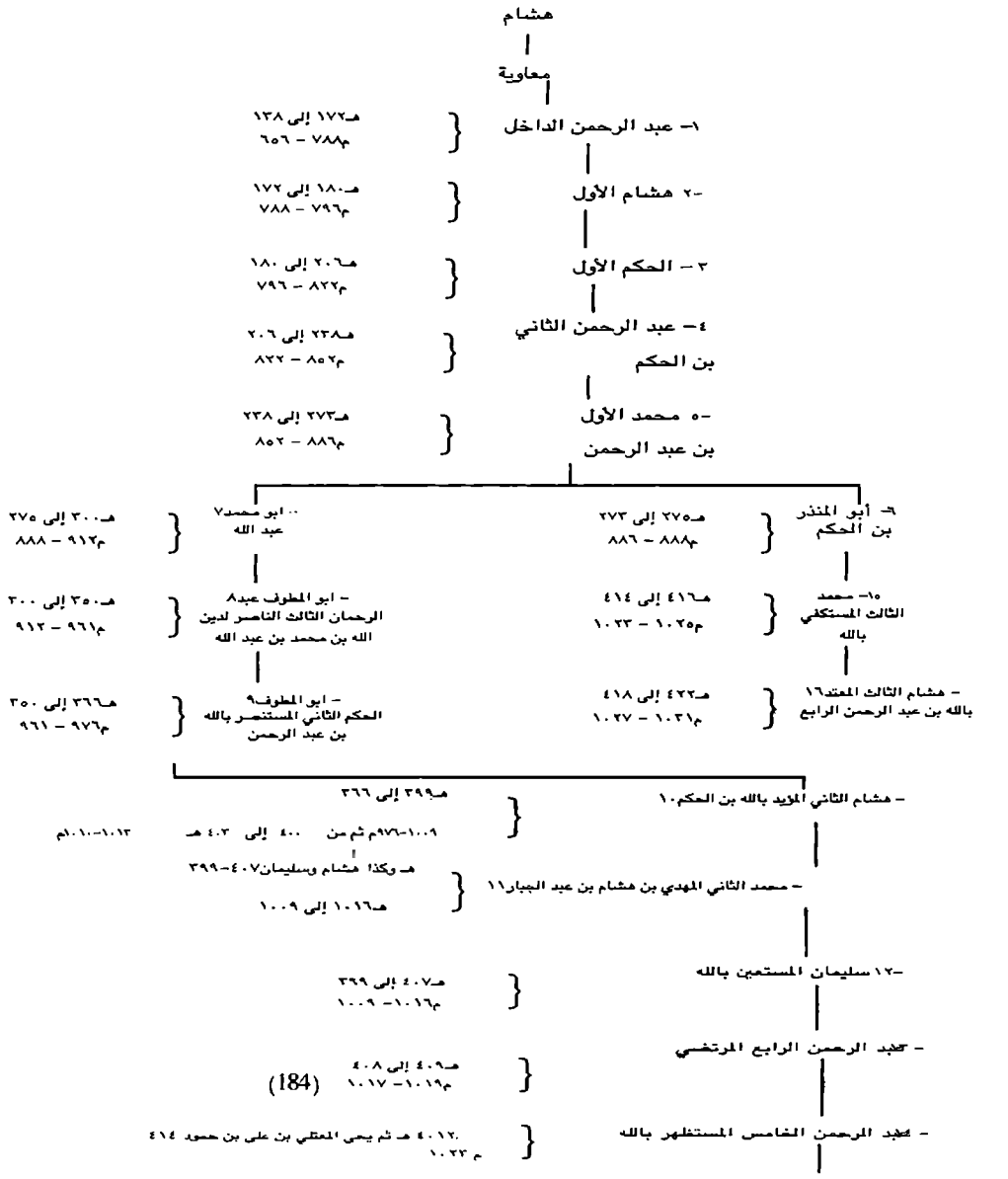

(184) راجع الاسر الحاكمة لزامباور ج 1/2- ط مصر 1951.

باب العفو من أبواب مسجد قرطبة

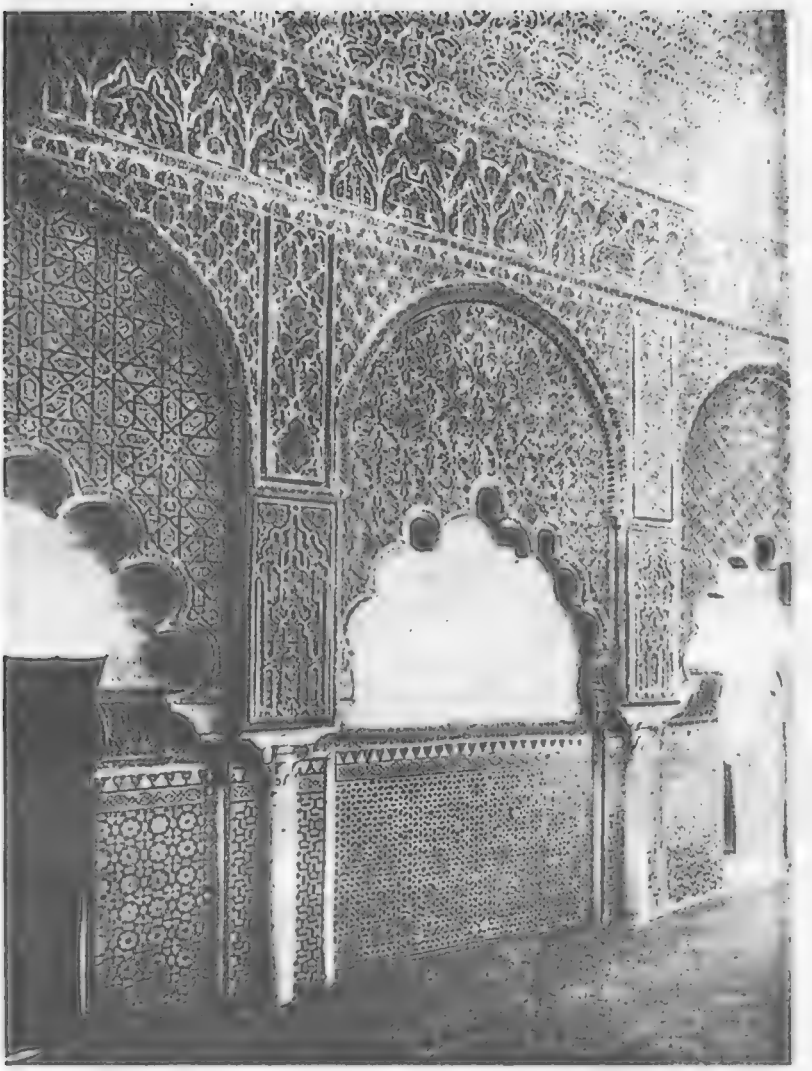

داخل مسجد مدينة قرطبة

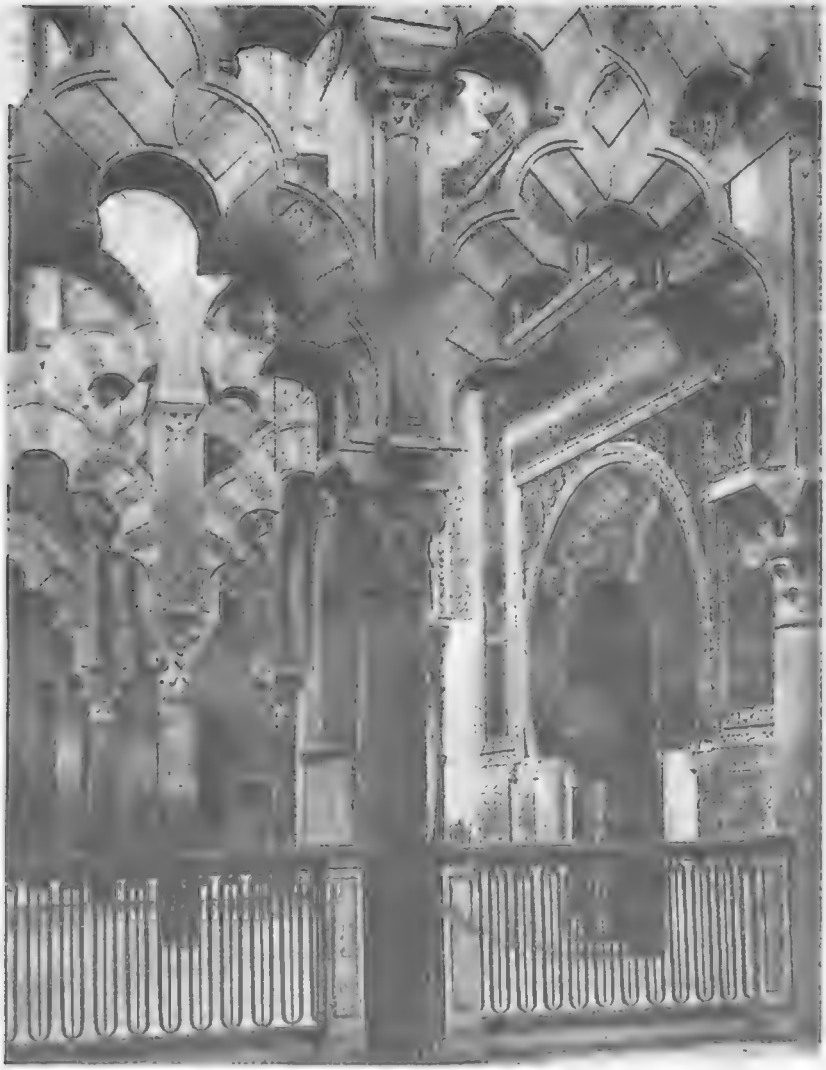

محراب جامع قرطبة

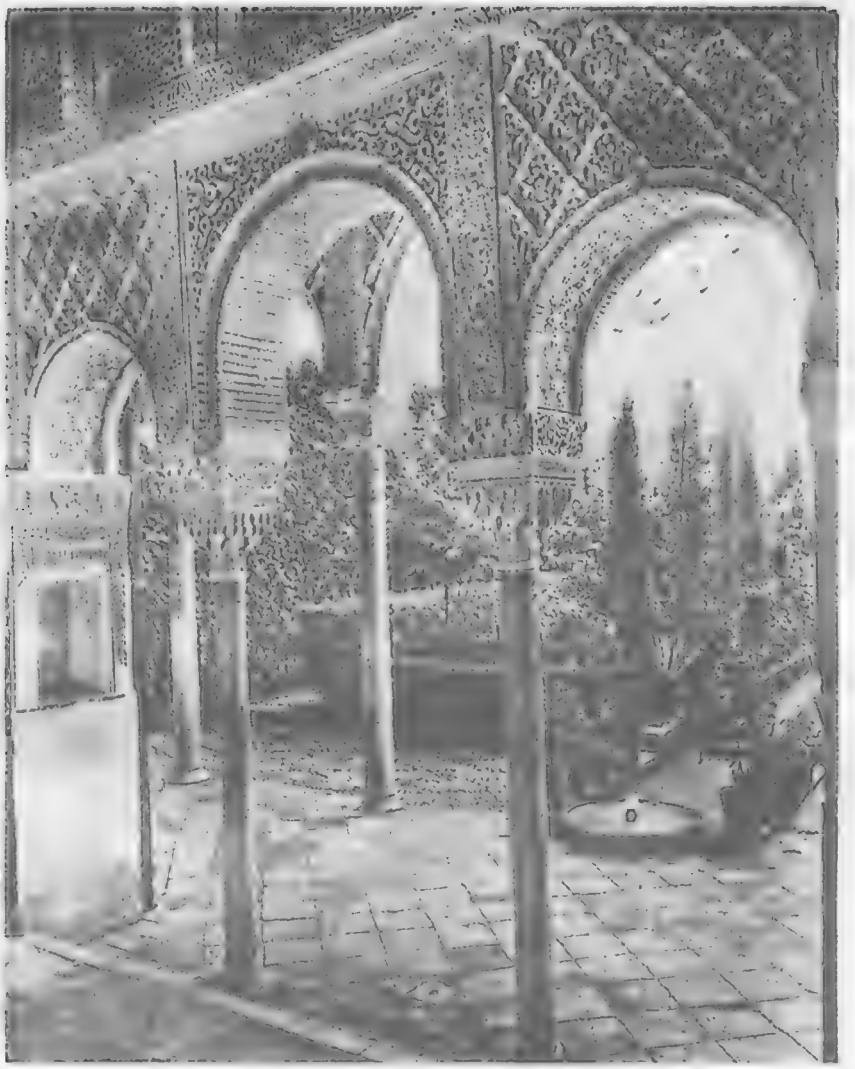

ساحة الرياحين في قصر الحمراء

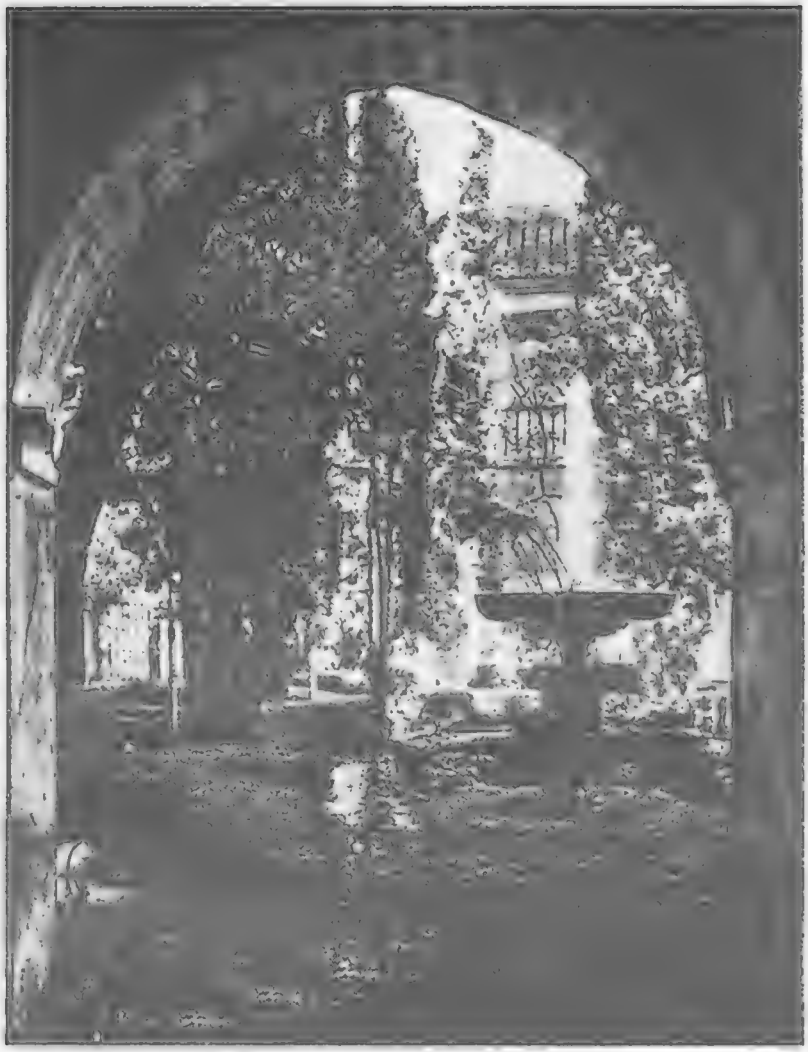

فسحة بستان دار ابن عائشة بالدار الحمراء بغرانطة

بستان دار العريف بغرناطة

فسحة دار ابن سراج بقصر الحمراء بغرناطة

جنان العريف البديع من مدهشات غرناطة

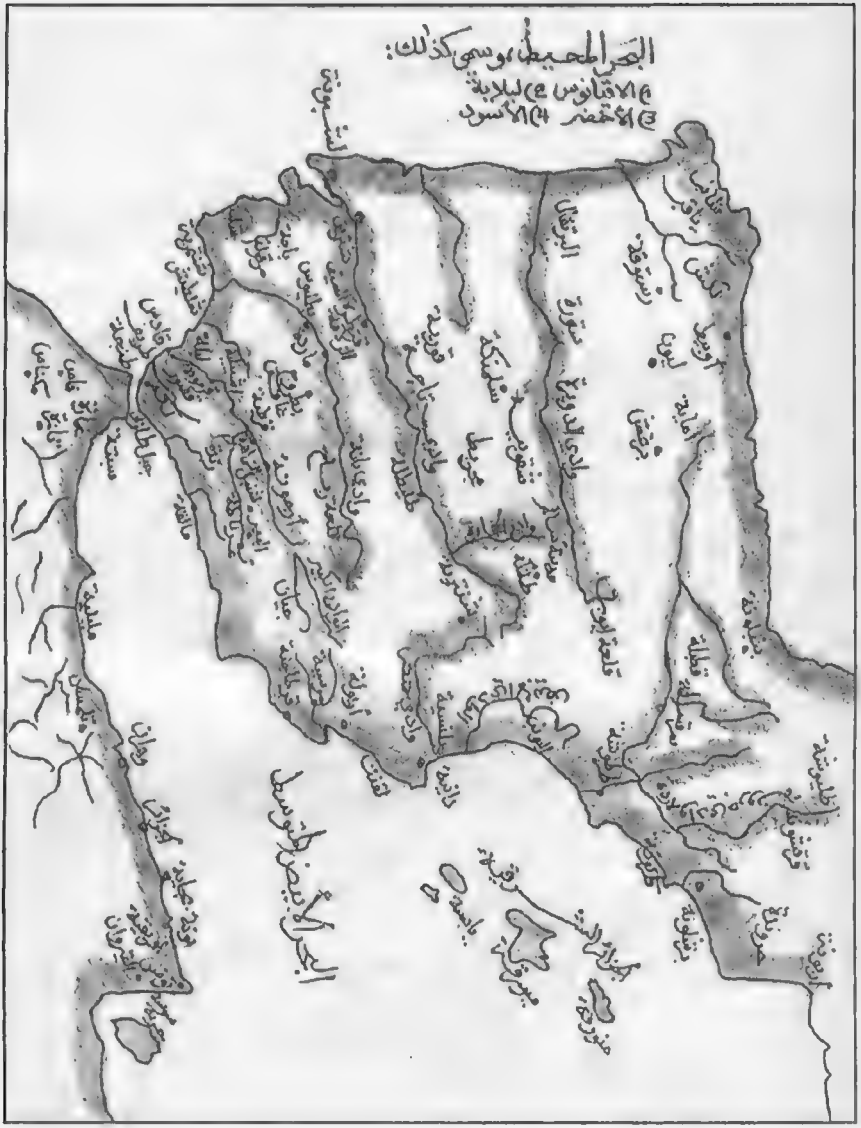
البحر المحيط، وسمي كذلك:
1) الاقيانوس 2) لبلابة
3) الأخضر 4) الأسود
البحر الأبيض المتوسط

الفصل التاسع والثلاثون

دولة بني مدرار بسجلماسة

يتناول هذا الفصل تاريخ سجلماسة «تافلالت» من المدراريين إلى المرابطين وظهور مكناسة الصفرية، وولاية عيسى بن مزياد، وقيام دولة بني مدرار، وبناء سجلماسة وازدهارها، وكذا المدراريون الصفريون، وبنو رستم الاباضيون، وأثر اليهود في تفكك المدراريين. ثم صراع بني مدرار مع العبيدين واحتلال سجلماسة ثلاث مرات.

وأخيرا آحتلال العبيدين وزوال المدراريين بعد حكمهم من الأمويين بالاندلس يليه حكم بني خزرون المغراويين ثم حكم المرابطين.

قامت دولة بني مدرار بسجلماسة جنوب المغرب «تافيلالت» اليوم. وقيامها كان نتيجة ما أثمره الخوارج في ذلك الخط الممتد من نفوسة إلى وادي درعة حيث اختاروا

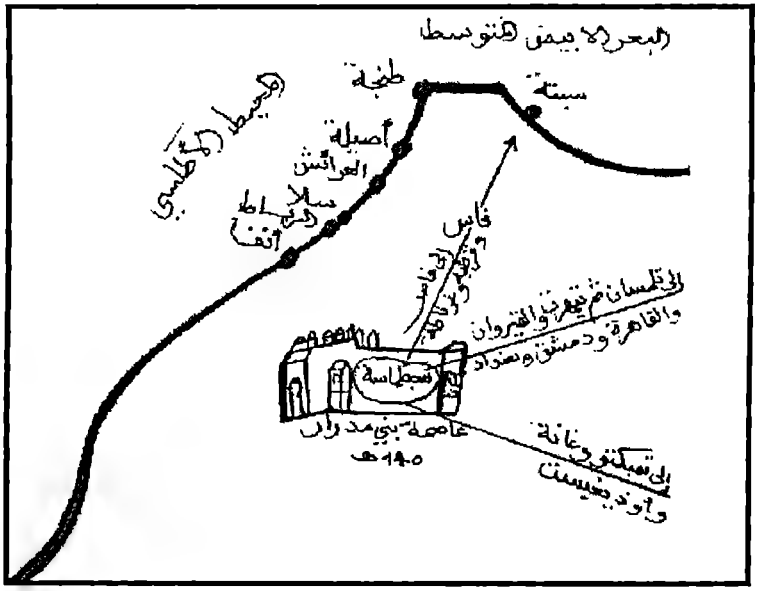

تلك الفجاج الممتدة عبر الجنوب للمغرب الكبير، بعد الحملة التي شنها عليهم الأمويون والعباسيون كما سبق، وهي حملة عمت الشرق إلى بلاد ماوراء النهرين، كما عمت المغرب، لكنها فشلت أمام وعورة الأماكن التي آختارها الدعاة الأولون من الخوارج عندما وجدوا لفكرتهم مجالا بين المغاربة المتذمرين من الحكام، خصوصا بداية القرن الاول للهجرة زمن الأمويين.

ومؤسس هذه الدولة روحياً ثم عمليا هو الداعي المتنقل، وأحد رجالات الخوارج الصفرية، الزناتي الأصل أبو القاسم سمغون، بن واسول، تلميذ عكرمة مولى أبي العباس كما يقول، بن خلكان، وابن خلدون، والحميري في الروض المعطار(185) فهو الذي

(185) ولاعبرة بما قاله ابن الحسن الوزاني في وصف افريقيا ج 2/ 120-127 ولابما قاله ابن أبي محلي الذي قال انها من بناء العرب الفاتحين سنة 40هـ نفس المصدر 121-10، راجع إبن خلكان 319/1- 320 والعبر267/6 والحميري في الروض المعطار ج 9/2 مخطوط خاص، ولقد عرفت عاصمة بني مدرار التي هي سجلماسة ب «تافلالت» والنسبة إليها فيلالي. وربما يكون هذا الإطلاق أخذ من «فولالة» بطن من مكناسة ذكره سابق المطماطي، وعنه أخذ ابن خلدون حين قال: كان لورصطيف بن يحيى وهو أخو جابر بن يحيى ، وسمكان بن يحيى، ثلاثة من البطون هم: مكناسة، وورتناجة، وأوكنة ويقال لكنه، وبنو ورتناجة أربعة بطون: سدرجة، ومكسة، وبطالسة، وكرنيطة، وزاد: وأصحابه في بطونهم، هناطة، وفولالة، ثم قال: وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه بسجلماسة إلى مصبه في البحر، ومابين ذلك من نواحي تازة وتسول، وهناك فولال كما في العبر 181/6، وحول سجلماسة نجد قصور العرب الذين لم يقبلوا مذهب الصفرية، وقد شيدت بعيداً مثل قصر اولاد عقبة بن نافع بتريمي وقد عرفنا التاريخ أنه كان لعقبة: عياض وعثمان وأبو عبيدة، وهم الذين يقول عنهم صاحب البيان 34/I أنهم قتلوا بمن معهم نحو الستمائة من أهل سجومة قتلة أبيهم، وذلك حين قتالهم مع موسى بن نصير، ويعتبر قصر أولاد عقبة بتزيمي من أقدم قصور المنطقة ومثله أولاد بحر، وهم فخذ من لخم من القحطانيين، وهم: بنو سهل، وبنو معطار، وبنو فهم، وبنو مسند، وبنو عشير، وبنو سباع كانت منازلهم البر الشرقي بالحي الكبير من الاصفيحية من الديار المصرية، يقول القلقشندي في نهاية الارب ص 73اط 1959 ومن مصر آنحدروا نحو المغرب مرورا بأقطار المغرب الكبير، حيث توجد بطونهم حتى اليوم، واللحيانيون الذين فيهم من الادارسة الوادغريين أولاد أبو سحابة من بني مخلوف بن خلف الله الفرع الثالث من فروع الوادغريين بفجيج انتحلوا اسم بني لحيان الذين هم بطن من هذيل ولحيان أبوهم، سموا به، كان له من الولد: طابخة ودابغة: الجمهرة 185، ونهاية الأرب للنويرى 2: 349، والقلقشندي 410، وفي معجم قبائل العرب 1010/3 قصة لحيان، العدنانية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أمر عليهم عاصم بن عمر بن الخطاب لأمه. ثم راجع سجلماسة في معجم البلدان 41/5، وتهودة ج 438/2، وابن الأثير 43/4. وفيه أن سجلماسة مدينة واسعة الأقطار وعامرة الديار، رائعة البقاع. كثيرة القرى والضياع، غزيرة الخيرات، واسعة البركات، يقال إنه يُسار في شوارعها نصف يوم، ويقال أنه لا حصن لها بل قصور، ودور، وعمارات متصلة بعضها ببعض، وهي على نهر يأتي من جهة الشرق، ولها بساتين مشتبكة، وأشجار ملتفة، الخ. ثم راجع البستاني 508/9، ووصف افريقيا ج 2/ 120-28 ط لبنان 1983 ت د محمد حجي و د. محمد لحضر.

بدأ دوره كداعية ومبشر بالمذهب بين قبائل البربر البتر مكناسة وصنهاجة، كما نشره بين القوم المساكنين للقطاع مابين ملوية وزيز، حيث قبائل إزدك اليوم، والتي حلت مكان قبائل گروان وتولال كما سنرى بعد زمن السلطان اسماعيل، وآيت حمو، ثم آيت عيسى شرقا، وما يعرف بقبائل حلف آيت يافلمان اليوم حيث كانت قبائل دخيسه وبني حسن وقتها قبل ان تنتقل إلى الشمال، كما انتشرالمذهب غربا إلى وادي درعة.

وإذا كانت الروايات تختلف وتتباعد حول زمن وجود سجلماسة، مركز الدولة المدرارية، وهل كانت زمن الإسكندر، أم القائد الروماني كلوديوس، وهو زعم طوح به بعض الذين نقل عنهم الحسن بن الوزان ثم اقتدى به «باسيه» كاتب مادة سجلماسة في دائرة المعارف الاسلامية 113/3 . أو أنها كانت موضع تجمع زمن إنحدار الرحل الأوائل بجمالهم من صحراء ليبيا في العهد الروماني الذي هبت فيه جموع بربرية داخل الصحراء بواسطة الجمال المستوردة من وراء مابين النهرين، سواء كان ذلك أو لم يكن مما أورده بعض الباحثين الذين ابتعدوا عما نسجه خيال بعض الغربيين، فإن مكان سجلماسة كان ملتقى لقبائل متعددة غزاها جنود موسى بن نصير كما أشار بن أبي محلي، وإن كان لم يزودنا بمصدر لقوله الذي حدده ب عام 40هـ؟ واستقر فيها من هؤلاء الجنود الذين كانوا على مذهب قائدهم ثم تنكر لهم بنو أمية، وقد انضاف إليهم من الثوار الذين خرجوا على ابن الحبحاب من بقي عقبهم إلى اليوم، وهم يعرفون عند المؤرخين السجلماسيين بالأنصار الذين هم أصلا من الأوس والخزرج، وقد اعترف لهم بذلك، ملوك الدول المتعاقبة بعد على حكم المغرب، ولايزال الكثير منهم يحتفظون بوثائق الإثبات التي كانت تمنح لهم قصد التحرير من التكليف بالخدمات العامة، كما عرفت عناصر أخرى لم تجد مفراً من النزوح من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربي زمن ثورات زناتة وتطاحنها مع كتامة شرقا، وقد اندمجت ضمن ماجد من عناصر صنهاجة في المنطقة، حيث جمع بينهما المذهب ولم يعد لها كبير اهتمام بأصولها، ولما اتسع مجتمع سجلماسة وتحضر ذابت داخل المجتمع الجديد، الأمر الذي يجعلنا غير قادرين على التمييز بين العناصر المتواجدة في المنطقة مابين فجيج، وسجلماسة، ودرعة، بشكل واضح وبين، خصوصاً وأن أعداداً كثيرة من مختلف العناصر تواجدت في المنطقة، ومنها من بقي يحمل إسم أصله القديم، الذي أطلق على

الأماكن، فنجد مثلا: السفلة، وأولاد حسين، واولاد الحاج يوسف وهم من الأدارسة، وبني محمد والصباح وغيرهم من القبائل الواردة بعد على المنطقة من عرب سليم بن منصور وهلال، كما نجد أماكن لا حصر لها تعرف بأسماء بطون صنهاجة وزناتة.

هذا المجتمع المتفكك العصبية إنتهى بأبي القاسم سمغون بن واسول إلى التفكير في الإتجاه ناحية سجلماسة، وفي الخط الذي قصده الإباضيون بعد انتصارهم في جبل نفوسة والقيروان، ثم انتقالهم زمن عبد الرحمن بن رستم «إلى تيهرت، التي تخطاها الصفريون بعيداً نحوالجنوب الغربي بعد آنهزامهم أخيرا.

وإذا كانت مصادر التاريخ قد أجمعت كلها على أن سجلماسة التي أسست سنة140هـ 757م تقع في موقع يربط الجنوب المغربي بالسودان وأرض التبر غانة وأودغست(186) فإن القوافل كانت مستمرة بلا انقطاع من سجلماسة إلى غانة وأوديغست، وربما كان موقعها من الأماكن التي كانت القوافل تجد فيه ما يؤهلها لقطع المسافات قبل تاريخ البناء، وأنه كان من الأماكن المزدهرة بأنواع المزروعات التي لابد فيها من وجود نشاطات بشرية دفعت المؤسس الأول لاختيار ذلك الموقع الذي سرعان ما أصبح محط رحال الراغبين في الثراء، بل نرجح أنه كان في مكان سجلماسة أعداد كبيرة من اليهود البربر الذين سيخبرنا التاريخ عن تكاثرهم بشكل لايمكن أن يكون بعد التأسيس، وقد ظهر هذا واضحاً فيما آلت إليه المدينة وثروة أهلها دولة. وأفراداً مما أورده البكري وابن حوقل وياقوت في زمن قصير من تأسيسها.

---

(186) رواية ابن خلدون 628/1-324/3-130/6، ثم ول ديورانت في قصة الحضارة 35، وماكوك في ما كتب عن سجلماسة ترجمة الاستاذ الحمداوي ص 35ودائرة المعارف الاسلامية 113/3، ويخبرنا البكري أن سجلماسة يجرى فيها نهران أصلهما واحد فإذا «قربا» من المدينة تشعبا إلى نهرين يقصد «زيز وغريس» فيسلكانها شرقا وغربا، وتقع في سهل سبخة حول أرباض كثيرة، وتبعد عن القيروان بستة واربعين فرسخا (؟)، وكان بناؤها سنة 140هـ، وفي سنة 160هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة ملكهم، وقد كانت سجلماسة وسطا بين طرق الصحراء الكبرى، وعاصمة لاتستغني عنها كل القوافل الصادرة والواردة من الطرق التجارية المعروفة والمنطلقة 1) منها إلى واحات فجيج ووادي الساورة عبر تيلمي وعين صالح وقرية تافنغاست 2) من سجلماسة إلى تمبكتو عن طريق تغازي وتاودني وفم العلبة. 3) إيكلي إلى السنغال عن طريق تندوف وودان 4) من درعة إلى السودان عن طريق ولاتة، بل كانت القوافل تتوجه من سجلماسة إلى تلمسان، ثم قسطنطينة، وتونس، وطرابلس، والاسكندرية ثم القاهرة، ودمشق، وبغداد، وقد بقيت محتفظة بمركزها إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، بل ونهاية ق 19م، أما تجارتها مع السودان فقد كانت تصدر له ولغيره نسيج الحرير وأنواع الجلود المصنوعة والتمر والزيت والكبريت والبارود وأنواع الحبوب.

ومهما يكن، فإن الزمن الذي حدده المؤرخون لوجود سمغون(187) بموقع سجلماسة هو سنة 138هـ 755م لكن لماذا تكون نفس السنة التي ظهر فيها عبد الرحمن الداخل الأموي متجها نحو الأندلس، وبعد ثورات الخوارج شرقا بالقيروان وغيرها التي لم تستمر في شمال المغرب طنجة وتامسنا، وإذا ما وجدنا تعليلا لذلك نقول كيف أمكن للدولة أن تؤسس وبإجماع المؤرخين كذلك بعد مضي سنتين على قدوم سمغون؟ وأن المؤسس هو سمغون نفسه سنة 140هـ 757م؟ وأن هذه الدولة قامت على بيعة أربعين نفراً اختاروا في مقدمتهم سمغون عيسى بن مزياد الأسود، ولعل سمغون فعل هذا لسبب سياسي استوجبته الظروف بينه وبين جماعته، وحتى يطبق أفكاره نحو الإمامة التي كان لايتقيد فيها بالقرشية(188) وأنها حق في نظره وحسب مذهبه لكل إنسان ولو كان عبداً جبشياً مادام يتوفر على الشروط المنصوص عليها في الإمامة، وأولها الإيمان بالعقيدة، عقيدة الخوارج الصفرية، على أن بعضهم ذهب مذهباً لم نجد له مصدر إثبات، وهو أن سمغون قدم عيسى الأسود بسبب وجود كثرة السود بالمنطقة، وهو قول يحمل في طياته ما يبطله عندما يزحزح عيسى من مكانه بشكل فيه قسوة قاسية وعنف عنيف، ولا من ينافح عنه، بالإضافة إلى أن أحداً من القدامى أو المحدثين لم يقدم لنا ترجمة شافية عن

---

(187) الإعلام لأبن الخطيب 138/3، ومختصر كتاب البلدان/ ط -ليدن 1902 ص 84-85، دائرة المعارف الاسلامية 298/11-302، وقد نفى كاتب المادة كولن ما قاله الوزان، كما وقع في نفس الخلط في ج 359/14، وعكسه عند الحميري في الروض المعطار ج 9/2 مخطوط خاص وفيه سمى سمغون مدرار بن عبد الله، وقال عنه كان رجلا من أهل الحديث يقال إنه لقي بافريقية عكرمة مولى ابن العباس، فاجتمع إلى مدرار قوم من الصفرية، وعن الحميري أخذ ابن المواز عبد الواحد في المقالة المرضية ص 6 مخطوط خ ع، ثم راجع ابن عذارى 210/1 إلى 219، وإعمال الأعلام 138/3-39- إلى 43، والبكري 148، واليعقوبي 359، وابن حوقل صورة الارض 90، واحسن التقاسيم للمقدسي. 231 ط 1906 ليدن.

(188) اشترطوا للإمامة، أي «الخلافة» سبعة شروط هي 1- العدالة على شروطها الجامعة 2- العلم المؤدى إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام 3- سلامة الحواس 4- سلامة الاعضاء 5- الرأي المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح 6- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو، 7- النسب القرشي، وهذا الشرط غير متفق عليه، فالخوارج لا يشترطون غير التقوى ولو كان عبداً حبشياً، وعند ابن خلدون أن اشتراط النسب القرشي يرجع إلى تفسير بعض الأحاديث تفسيراً خاطئاً، وزاد بعضهم ثلاثة شروط- مشتقة من السبعة الماضية وهي : اتقدير العطايا ومايستحق في بيت المال من غير إسراف ولاتقتير 2- تقليد النصحاء 3- أن يباشر بنفسه.

عيسى، بل حتى الذين كتبوا ولما يمضى على زمن عيسى أكثر من قرن ونصف(189) لم يتركوا لنا عنه من الأخبار ما يجعلنا نجزم أنه سوداني، وكل الذي قيل إنه أسود، والسواد في تلك المناطق وعلى طول الخط من واحة سيوة إلى وادي نول، لم يكن قاصراً على السودانيين، بل ولفترة وجيزة لاتتعدى ما بين الحفيد والجد عرفنا تحول العربي من سليم، وهلال، وقريش، إلى صاحب بشرة سوداء قاتمة، كما هو الشأن في بعض جهات الجنوب من آيت باعمران ودرعة وسجلماسة ووادي الساورة، وصعوداً إلى سيوة ووادي حلفة وجزيرة أبة بالسودان، ونحن نعرف من التاريخ القديم عربي وغير عربي، أن العرب والبربر والمغاربة القدامى صاهروا السودانيين والأحباش ببناتهم حتى قال علي (ض) «من تزوج حبشية ثم طلقها فعلى مهرها»، وكان هذا منهم بسبب الجوار و«الرق» الذي كان يحصل بطريق الغدر واختطاف الاطفال من الاقطار الجنوبية ثم بيعهم ظلما. ولم ينعدم من المغرب إلى آخر القرن الثالث عشر، وبداية الرابع عشر للهجرة. وبيدنا وثائق كثيرة تؤكد ذلك يجد القارئ بعضها مدرجاً في هذا الكتاب.

بل منهم من قال عن عيسى بن مزياد أنه من موالي العرب كابن خلدون وغيره، ومنهم من رده إلى ربض الأندلس كالبكري، وهذا مردود لأن مهاجرة الربض كانوا بعد الزمن الذي أرخ فيه لعيسى بنحو أربعين سنة، وهم بالفعل هاجر كثيرون منهم إلى سجلماسة، ويقول كذلك أي البكري عن عيسى أنه كان حداداً وهو الهجو الذي تعرض له خلفه بذلك النعت، وماهو إلا من باب روح الاستعلاء العربي، والذي لم يفارق العرب عبر التاريخ والاجيال، رغم توجيه الإسلام ومحاربته للطبقية القائمة على روح الجاهلية، وبالتالي فإن قول البكرى إن عيسى من أهل الربض بالأندلس غير مقبول لأنه لم يكن لعيسى من المكانة السياسية والاجتماعية قبل أن يذكر مع الأربعين من الخوارج الصفرية، ما يجعله موضع اهتمام من المؤرخين الذين لم يذكره أحد منهم بما وصفه به البكرى، خصوصا وأن ما عرف من تطاحن سياسي بالأندلس كان بين القيسية واليمنية

(189) ورد في تاريخ الفكر الأندلسي ص 309 عن رحلة محمد بن يوسف الوراق المعروف بالتاريخي أنه كتب حول مسالك إفريقيا وممالكها، وأخبار ملوكها، وحروبها، كما ألف حول تاهرت ونفوسة وسجلماسة، وقد كان زمن المنتصر الأموي حيث عاش ما بين 291-362-903-971م.

وبعض رجالات البربر، الذين ذكروا ضمن اسم البربر، ولم يذكر منهم أحد باسمه وصفته، كما وأن ماعرف من تطاحن كان زمن الحكم بين هشام 180هـ 206هـ 796–822م، وهو ما أشرنا إليه قبل، والذي أشار إليه ابن خلدون وأن الذين فروا من الأندلس وجهاء وغير وجهاء، توجهوا إلى فاس والقيروان والأسكندرية، وأما ما حصل بين بلج وابن قطن فقد اتجهت نيرانه إلى القيروان مع عبد الرحمن بن حبيب.

إن عيسى بن مزياد وليس ابن يزيد ولا مزيان كما أطلق عليه بعضهم(190) لايعرف له أصل، وكل الذي يستنتج من ظروف المنطقة والأجناس المتعايشة بها، ومن الوصف بالسواد الذي اتفق عليه كل من ذكر اسم عيسى، يدرك أنه صنهاجي، وبربر صنهاجة أكثر من غيرهم في الجنوب الغربي عرفوا بالسواد الناتج عن الاتصال المشار إليه بينهم وبين السودان، بل إنهم يمتدون إلى نهر السنغال وتخوم تامبكتو التي فصل عمر أقيت في تاريخها وحول العناصر المتواجدة فيها(191)، وأنه كان يتمتع بسلطة اجتماعية ناتجة عن ثروة مصدرها التبر الذي كانت القوافل تستورده من غانة إلى سجلماسة، ومنها إلى جهات مختلفة شرقاً وغرباً، ثم السلطة الصورية ومصدرها المال، وليست سياسية بين قومه الذين كانوا بلاشك يمثلون كثرة دفعت سمغون والأربعين من الخوارج معه إلى تقديم عيسى لرئاسة الدولة المستجدة، تطبيقا لفكرة عدم الاعتداد بالقريشية كشرط في الولاية كما سبق، وإذا ما صح وأن الأربعين كما نص كثير من المؤرخين كانوا من عصبته وذوي ثروة مثله، فإن سمغون وهو صاحب الفكرة السياسية لم يكن في المرحلة الأولى يقصد غير اختبار خطته، وما فعل من إسناد الرئاسة إلى عيسى باسم المذهب حتى يتمكن، وأمام طموحه ومقاصده سوف لايجد عيسى مجالا بعدما يظهر عجزه وتثور نقمة الحسد والمنافسة ضده من أبناء جلدته، كان سمغون كما تقرر وقائع الأحداث، طويل النفس مدركاً مقاصده وأهدافه، وأنه إذا حققها ولو بعد خمسة عشر عاماً يكون قد حقق الفوز ونجح بتفوق، نظراً لما حل برجالات المذهب من الخوارج شرقا وغرباء خصوصاً وأن تنصيب عيسى لم يسلبه القيادة الروحية التي كان هو صاحبها بلا منازع،

---

(190) ماك كوك 18–19.

(191) مخطوط خاص حول تاريخ تامبكتو لعمر أقيت في خ. نا رقم 493.

وما أشد وطأتها إذا ماعرف صاحبها كيف يمسك الزمام بالنسبة للتسيير المادي المجلب للحسد والغيرة والنفور.

لقد بدأ عيسى بماله وأهله اختطاط المدينة التي ستكون عاصمة للدولة المنتظرة، وقد تمت بسرعة فائقة، وامتد عمرانها في زمن قصير لايتجاوز المائة عام إلى أكثر من ستين كيلو متر مربع، لاتزال معالمها باقية لتحقيق هذا الرقم الغير المبالغ فيه(192)، وقد عرفت من الدور والقصور والمساجد والأسواق والفنادق والحمامات والمصانع ومختلف أنواع دور التجارة، والحرف، ما لم يعرفه بلد قبلها في المغرب، ذلك أنها ما كادت الدولة تستقر ويتردد صدى نشاطها التجاري وتوارد القوافل المحملة بالتبر من غانة إليها، حتى قصدها الناس من كل جهات الأرض، فعرف مجتمعها منذ عهودها الاولى، جموعا من العرب، والفرس، والروم، واليهود، وبربر، الجهات الأخرى من المغرب طلبا للثراء، وتطلعا إلى الغنى، وقد عرف بها من الرجال العظام من لفت نظر المؤرخين بشكل لم يعرف في بلد، غير سجلماسة في تاريخ المغرب، ذلك أن تجارها يقول الموصلي ابن حوقل والشريشي، وعن الاول أخذ الزياني، وعنه أخذ الناصري(193) وغيره، أن سجلماسة كانت مركزاً لانطلاق القوافل التجارية التي كانت تصدر منها الملح والتمور، وتستورد التبر والزمرد والياقوت وريش النعام والأبنوس والجلود، كما تأسست بها شركات كانت كمراكز هي: قصر تاحسنونت، وتانيجيوت وبني ميمون، وغيرها من القصور التي لاتزال قائمة حتى اليوم، وقد حل محلها في عصرنا الحاضر قصر. «أبو عام»، وبلغت عناية الدولة أيام آزدهارها أن حفرت الآبار عبر طريق القوافل التي كانت تمتد مدة شهرين، كما وضعت مراكز لإرشادها في أماكن متفرقة من الطريق الواصل مع السودان،

---

(192) تعرف سجلماسة القديمة اليوم من قصر لجلاجلة وأولاد حسين شمال شرق، حيث جامعها الأعظم بالسيقة، والذي يرجع تاريخ بنائه إلى القرن الخامس للهجرة، ثم تمتد إلى زاوية شيخ ركب الحجيج أبو ابراهيم العمري الذي استقدم الحسن الداخل سنة 664هـ 1265م، وهو القصر الذي يستدل على معاصرته لعهد سجلماسة قديما بانخفاض أرضه، وأرض ضريح عبد الله بن بوبكر، كما تمتد إلى ماوراء قصر الفرخ، وأولاد عبد الحليم السعدي وبالتالي فوسط سجلماسة وصرتها كما يعبر علماؤها هو ضريح الحسن بن قاسم الداخل، جوار قصر كرينفود، وهذه المساحة إذا قيست بحساب الكيلومترات يكون مجموع عددها أكثر مما ذكرنا.

(193) الاستقصاء 99/5. وعندما رمول في كتابه عن افريقيا ج 152/3-153-154 وصف مهم لسجلماسة، وما كانت عليه من حضارة راجع ط الرباط 1988-1989، ترجمة د محمد حجي وآخرين، لكن الذي وقع فيه مارمول وتبعه بعض المترجمين هو قلب أسماء الأماكن.

وبقي الطريق معبداً إلى تمبكتو يقطع بالحمير إلى زمن أحمد المنصور السعدي الذي فرض على بعض أهلها أحمالا من الجير يؤتي بها لمراكش مبالغة في النكال، بهم وإذا ماعرفت سجلماسة أعلى درجات الازدهار الاقتصادي، فإن هذا جلب لها خيرة علماء الأندلس والمغرب حتى إن بعضهم وهو أبو العباس احمد بن عبد المومن القيسي صاحب الشروح على المقامات الحريرية، وضع شرحا خاصا لأبناء سجلماسة يعرف بالشرح السجلماسي»(194). وما كان للشريشي أن يتنازل عن نسبته وينسب الشرح إلي سجلماسة لولا أنها أصبحت بالانتساب إليها محل إجلال وتكريم، ويقول الشريشي «أما بعد، فقد رغب إلي بعض الطلبة بسجلماسة أيام رمتني الأقدار إليها واستودعتني الغربة لديها، أن أجمع له جميع ما في المقامات من شرح الغريب مستقصى ومستوفى، وأن أنبهه على ما يشكل من معانيها، وأن يكون ذلك ممهداً مهذباً، مبيناً مقرباً، معفى من الاشتقاق والتصاريف، خاليا من الحشو المخل بكل تأليف ، مقتصراً على عيون الفوائد ونخب المعاني الفرائد، وأن يكون شرح كل مقامة مستقلا بنفسه، غير مفتقر إلى الإحالة على غيره،... ليسهل على ولدان بلدته تقريبه، إذ ألسنتهم بربرية، ولغاتهم حوشية، فرغب أن يلتمس لهم من التفسير أسهله وأيسره، لتهتدي إليه أذهانهم، وتقبله قلوبهم، فأجبته لذلك راجيا ثواب الله وحده الخ»(195).

وقبل هذا وبعده، إرتقى مجتمع سجلماسة إلى درجة أن أصبحت مخيفة لكل الدول

(194) هو أحمد بن عبد المومن بن موسى القيسي الشريشي 557-619هـ/1181-12123م راجع الاعلام للزركلي 158/1، وفي نفح الطيب 383/1، وتكملة الصلة، القسم الاول. 136، وبغية الوعاة 143 وفيه يقول صاحب الاعلام احمد بن عبد المنعم بن موسى بن عيسى بن عبد المومن وهو خطأ وقع فيه بروكلمان 277/1 والشرح المذكور نحويه خزانتنا، وأوله بخط المؤلف. وقد قامت بتحقيقه بشرى الحاوة (1995) كأطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا باشراف د. محمد بن شريفة.

(195) ص 1، وليس معنى هذا أن سجلماسة بقيت موطنا للبربر يمثلون فيها الأكثرية، بل الذين هم بسجلماسة إنما هم عرب المعقل من نوي منصور، الأحلاف وأولاد حسين، وذلك منذ أول عهد هذه العناصر بالمغرب، يقول ابن خلدون في العبر 664/7، كما كثرت بها عناصر المهاجرين والانصار، وآل البيت من الأدارسة أولا، وأبناء الحسن الداخل بعد القرن 7هـ، ومن العرب الانصار وغيرهم من الهلاليين الذين استقدموا معهم الأغنام التي عرف بها اقليم سجلماسة والتي ذكرها المقريزي في الخطط ج 335/1، وبالتالي فان جل القبائل التي وجدت بالصعيد في مصر نجدها بسجلماسة وهي هلال وبلى وجهينة، وقريش، ولواتة، وبنو كلال، ومن مزينة، وبني دراج، وبني كلاب، وثعلبة وجذام وغيرها، لكنها مع الأيام لم يعد لها معرفة بأصولها كما هو الشأن في كل بلاد المغرب العربي الكبير عموما.

التي تعاقبت على المغرب، فالتي كان مجتمعها يتجاوب مع حكامها كانوا يضمنون الاستقرار لأنفسهم وما يمثلون من الملوك، ومن كان غير ذلك، سرعان ما يتكدر صفوه وتنغص حياته ثم يدخل في دوامة يكون فيها هلاكه والقضاء عليه، وقد عرفت سجلماسة على مر العصور الكثير من المعاهد والجوامع التي عرفت بضخامة بنياتها والعناية بتجهيزها إلى جانب المكتبات المتعددة التي تحدث عنها، وعن المشرفين عليها، وما كان بها من عشرات آلالاف من المجلدات بعض رجالاتها الذين خلدوا لنا بعض القوائم بأسمائها، وأثمانها، في شركات العلماء، وأوقاف الجوامع التي خربها عهد الاستقلال مما نحتفظ ببعضها، حتى اليوم بل ونملك من تلك ما يرجع إلى عهد الامويين بالأندلس ثم الأدارسة، والمرابطين، والموحدين، وبني مرين، والسعديين، ثم العلويين(196) وهو ماكون مجتمعها، وميز بعض علمائها الذين التجئ إليهم وإلى معارفهم في أزمنة مختلفة وعلى مر العصور، خصوصا عندما ينحط المستوى في مدينة فاس، وتفقد مقصورة القرويين من يتولى رئاسة العلماء كما سجل التاريخ إلى عهد قريب، وماعهد أحمد الحبيب اللمطي وابن المبارك المسيفي السجلماسي وأحمد بن عبد العزيز الهلالي ببعيد.

بل إن سجلماسة رغم ما حل بها منذ مئات السنين من حروب احتفظت لنا بكثير من التراث الذي ضاع ولم يعد له وجود حتى وجدناه بها مثل الملخص وهو من كتب الفخر الرازي والمجهول من كتب ابن رشد مثل كفاية المقتصد، وخطب القاضي عياض، ثم خطب المقرى المنبرية، ولغة الطيور والأزهار للعز بن عبد السلام، والاستراج وتقدم الشمس في الأبراج لابن أبي الخصال، والبيان من خط القران لابن البنا العدى، إلى جانب كثير من كتب جابر بن حيان، وبعض الواضحة لابن حبيب، ونوازل علمائها ومنهم أبو العباس أحمد بن علي الشريف الحسني، وكذا شرح علي بن رحال لخليل بخط يده، وغيرها من عشرات الكتب المخطوطة الخ.

وبالتالي، فقد عرفت سجلماسة منذ القرن الثاني بدورها في ضرب العملة والنقود الذهبية، إلى عهد السعديين، حتى إن إمكاناتها الكبيرة مكنت أمثال أبو بكر بن عمر

(196) راجع مخطوطات ووثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية، ومديرية الوثائق الملكية بالرباط.

اللمتوني رغم قصر مدته، وفي زمن التأسيس أن يضرب فيها عملة ذهبية باسمه سنة442...الخ.

وهكذا لما كثرت الجموع بسجلماسة من مختلف الأجناس، وحددت المواقع، وأخذ كل فريق يعرف بالحي أو الحصن الذي يسكنه سواء داخل السور الذي يحيط بها والذي بني سنة 199هـ 814م، زمن أبي منصور إليسع الأول 174–208هـ، 790–823م وبه من الأبواب آثني عشر منها باب الشروق، وباب الغروب، وباب الركب، ...ركب الحجيج، وباب الزعفران، وباب الكتبيين، وباب المهاجرين، وباب حارة اليهود، وباب السوق، الخ وقد كانت قصور سجلماسة المحيطة بقصر الدولة تتمتع برياض زاهية بمختلف أنواع الاشجار والثمار، تحيط بها وعلى مسافات شاسعة شرقاً وغرباً وشمالا، غابات النخيل المزركشة بالوان التمور التي عدها بعضهم بأكثر من مائتي نوع، وكان وادي زيز المعروف اليوم ومقابله وادي غريس دائمي الجريان بفضل العيون الدافقة التي استمرت إلى عهد أبي الحسن المريني الذي طمسها بطريقة لايشرفه ذكرها في التاريخ، نقمة على ولده الثائر ضده أبو عنان والمناصرين له(197)، حيث احتفر حولها يقول المؤرخون عشرات الابار حتى تغور ثم طمس أكثرها بالصوف والقطران والرصاص، لكن أبا عنان الذي حاول أبوه كسره بذلك العمل الفظيع انتصر على أبيه وطارده إلى أن مات ناحية مراكش كما سنرى حين يسلط الله عليهم من هو أشد منهم عدوانا وفسادا وهو الحسين بن عمر الفودودى، وقد كانت سجلماسة ناعمة بماء العين الكبيرة المعروفة اليوم في المنطقة «عين تيمدرين»، والتي يسمع صدى خرير مائها المنبث في جوف الأرض كل من يتحسس ذلك بغابة يردى ناحية البروج، بين قصر الدويرة وقصر لمعاضيد، وعلى بعد عشر كيلومترات شرق مدينة أرفود، والتي حين أحدث ثقب بها في عهد قريب فار إلى أعلى حتى بلغ ارتفاعه أكثر من خمسة أمتار على سطح الأرض، لكنه تحول إلى مالح غير نافع ويجري حتى اليوم، وقد أطلقوا عليها (عين الله)، كانت سجلماسة كما وصفها جل المؤرخين قطعة من الخلد، بجمالها الفتان داخل وخارج قصورها التي أبدع في صنعها الربضيون

(197) كما ثار عليه ولده عمرو ذلك بسبب الثراء الناتج عن الثروات ومنها الفلاحية الناتجة عن تلك العيون الجارية.

المهاجرون من الأندلس، كما كان من بين قصورها من تميزت بطابعها البربري بضخامة أبراجها وعلو أساطينها وفسيح أبهائها، وبلاطاتها بالإضافة إلى خصب تربتها المميزة بما يغذي الأرض من طمي سنويا، وما تجرفه السيول ويحمله وادي زيز وغريس من أعلى وجنبات جبال الأطلس الكبير، وسهوب المنطقة، فكانت الحملات لاتستقر إلى أن تصل السهوب المحيطة بسجلماسة التي كانت تتمتع بقنوات وسدود نظمت حولها مجاري المياه بعدل وترتيب زمنيَ يحول دون التنازع بين المواطنين.

ونعود إلى عيسى بن مزياد الذي نصب كأول إمام لدولة بني مدرار، والذي لايعرف له أصل في الوقت الذي عرفنا التاريخ بعد عن كبير القابئل الصنهاجية (تين ياروتين) الذي كان له الإشراف على أكثر من عشرين ملكاً من ملوك السودان، وعاصمته أوذيغست وهو في تخوم الصحراء.(198)

إن تنصيب عيسى كما أشرنا لم يكن غير مرحلة، إن لم يكن قد إتفق عليه من جماعة الخوارج الذين ربما كان قصدهم من إكراه سمغون على ذلك هو الخديعة والتضليل حتى يتعرف المؤسسون الحقيقيون إلى جانب سمغون ماذا سيكون رد فعل ملوك وولاة بني العباس المجندين كل قوادهم ضد الخوارج في المشرق والقيروان، وفي شمال المغرب، أما بنو أمية المستجد صقرهم بالأندلس، فلم يكن لهم بعد وفي هذه المرحلة من الإمكانات مايثير طمعهم حتى على بني صالح بنكور، فضلا عن برغواطة،

(198) عرفت سجلماسة وحاراتها وأسواقها وشوارعها كثيرا من الأسماء التي كانت شائعة في الاندلس، كما نجد في رسوم المعاملات والتركات كما سنرى، كما سميت القصور بأسماء اصحابها افرادا وجماعات، كما عرفت لونا من الحضارة التي مزجت شرقها بغربها. راجع د. الاسلامية 122/3، والترجمان للزياني ص 260 م خ ع 658د وغيرهما من المصادر المشار إليها قبل، وعند المقدسي في أحسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم ص 231 ط لندن سنة 1906 حيث وصف سجلماسة أنها: قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قلبها، وهي طولانية نحو القبلة، عليها سور من طين، وسطها حصن يسمى العسكر فيه جامع ودار الإمامة، شديدة الحر والبرد جميعا، صحيحة الهواء، كثيرة التمر والأعناب والزبيب، والفواكه، والحبوب، والرمان، والخيرات، كثيرة الغرباء، موافقة لهم، يقصدونها من كل بلد، كما يرد عليها من معادن الذهب والفضة، وأهلها أهل السنة قوم جياد، بها علماء وعقلاء، لها باب القبلي، وباب الغربي، وباب غدير الجزارين، وباب موقف زناتة ، وهذه الاربعة مضافة إلى الثمانية أعلى يتم عدد الاثنى عشر ، كما قال صاحب الاستبصار ص 201 ط 1985م، الذي قال إنها تقع في مكان يقال له «اكلف»، وعند ابن حوقل في صورة الارض ص 90، بها رطب أخضر من السلق في غاية الحلاوة «ويعرف حتى اليوم بثمر «بوسكري»، وعند الاصطخرى هي قريبة من معدن الذهب بينها وبين السودان وأرض زويلة، ويقال إنه لايعرف معدن للذهب أوسع ذهبا ولا أصفى منه الخ؟؟

وأما بنو العباس فقد رأى الصفريون مافعلوا بأبي الخطاب الذي استولى على القيروان بواسطة الجموع من الخوارج، فقد سلطوا عليه ابن الأشعث الذي قتله سنة 144هـ 761م، ففر عبد الرحمن بن رستم بأهله إلى الغرب، ولحقت به جموع الإباضية إلى أن نزل على تيهرت حيث بنى، وبنى أصحابه وبقي إلى سنة 161هـ 177م بعدما بايعوه بالإمامة وهو من أصل فارسي(199) ناهيك وأن ابن الأشعث كان قد قدم إلى إفريقية ضد الخوارج بجيش تعداده أكثر من أربعين ألف بعد مقتل حبيب بن عبد الرحمن الفهري وانهزام ابن الأحوص العجلي وأنه دخل القيروان سنة 146 هـ 763م.

هذه الظروف في نظرنا إلى جانب الرغبة في استنفاذ ثورة عيسى وقومه في التمكين للدولة التي يمسك زمامها سمغون بالإضافة إلى ما يتبع ذلك من كسب الوقت واختبار فكرة الصفرية في المجتمع، هي التي كانت السبب في تقديم عيسى كأول إمام لدولة بني مدرار، وحتى إذا ما تحقق سمغون مما ذكر، إنقض على عيسى دون أن يجد معارضة، وإلا كيف أزاح سمغون عيسى بتلك الطريقة المتصفة بالعنف والشدة بعد خمسة عشر عاما، بل وحتى يقطع الطريق على كل متطلع استعمل معه القسوة بشد وثاقه ثم أمر بجره أعلى الجبل المعروف حتى اليوم بجبل عيسى، وهو المشرف على غابة تصور السيفة بتافيلالت. ثم ترك مصيره والقضاء عليه صبرا للنحل وباقي الحشرات بعد مادهن جلده بالعسل، فهل فعل به هذا لأسباب تتعلق بجانب من الجوانب الخلقية أو الدينية كالعقيدة مثلا، لو كان هذا لأفصح عنه سمغون ثم حاكمه بواسطة الآخرين وبعدها يرشح غيره مادام لم ينصب نفسه منذ الوهلة الأولى، لم يفعل سمغون مافعل بعيسى في الوقت المناسب، لولا أنه كان قد استنفذ مخططه، كما استطاع في تلك المدة

(199) كان جده بهرام من موالي عثمان بن عفان (ض)، وقد تولى بعده الإمامة ستة من سلالته هم إبنه عبد الوهاب من 160 إلى 168هـ وأبو سعيد الأفلح بن عبد الوهاب إلى 268 هـ وابو بكر الأفلح إلى 258هـ وأبو اليقطان محمد بن الأفلح، وأبو حاتم يوسف بن محمد 281هـ، ثم يعقوب بن الأفلح الذي قتل سنة 294 هـ وفر ولده سليمان إلى ورجلان، ثم خرب أبو عبد الله الداعي مدينة تاهرت سنة 296هـ، كما سنرى راجع الأعلام للزركلي 78/4 ومابه من المصادر، والسير للشماخي 138 والأزهار الرياضية 84/2، والبكري 68، وسلم العامة 12، وتاريخ الجزائر 28-22/2، والبيان المعرب 196/1، هذا وقد أشار المستشرق زامباور في كتابه الأسر الحاكمة ج 100/1 ط 1951، إلى أن نسبة بهرام إلى سابور نسبة خرافية، ونشير هنا إلى أن عبد الله بن أباض المري ادعى الخلافة في هذه البلاد وقتها سنة 152هـ...راجع المصادر المذكورة قبل.

أن ينفذ إلى القلوب والعقول ويدرك أن من حوله أصبحوا بالنسبة لرأيه وأوامره كما كان الشيعة الإسماعيلية من الحشاشين بعد أمام الحسن بن الصباح وهذا أسلوب ألفه المخططون الثورات حتى اليوم لايظهرون إلا بعد ثقتهم بالتمكين. أصبح أهل سجلماسة والقوة المسيطرة فيها كلهم طوع أوامر سمغون، وبالتالي زال الخطر الذي كان يهدد الفكرة بقوات الدولة الموجودة بكثرة في القيروان، وأصبح بنو العباس زمن محمد المهدي يوجهون أكبر اهتمامهم إلى ماجد من فتن وراء النهرين وعلى مقربة منهم، وبالتالي فإن خلف ابن رستم الذي كان ربما وفي نظر بعضهم أقوى من سمغون فيما لو حصل مايدعو إلى عدم رضى الإباضية على الصفرية لكونها تأخرت عنها في القتال ضد الدولة وعمالها، ومع ذلك أصبحت تتواجد بمكان الثروة والقوة والمنعة الذي هو سجلماسة بالنسبة لتاهرت، وعبد الرحمان هذا شاخ وحل محله في التنفيذ ولده عبد الوهاب الذي مهما كان فإنه يقدر سابقة سمغون ويكون أكثر احتراما له وإقبالا على نجدته لو قام في طريقه عائق يعرقل تنفيذ خطته، ناهيك وأنه فعل بعيسى وقومه ما فعل مما أراد ولم يجد معارضة، بل كان ذلك منه مثال يستوعبه كل من تحدثه نفسه الخروج على المذهب أو الطعن في السياسة التي يخططها سمغون ومن معه من الأربعين الذين تقوم عليهم فكرة الخوارج الصفرية.

وأخيراً انتهى عيسى بن مزياد وشتت قومه وعشيرته الذين يقول بعض الفقهاء في مذكرات غير معروفة لمن هي أن بقاياهم هم المتواجدون في كل من الرتب وأوفوس حيث يعرفون بقصرهم أولاد عيسى، ثم في قصر أشبارو جوار ألنيف غرب سجلماسة ثم في توروگ بين قصور الجوف وغريس العيون ومنهم من وزع ظلما كرقيق.

انتهى عيسى سنة 155هـ – 772م ليحل محله سمغون، لكن ماذا كانت النتيجة؟ هل أفاد مجتمع سجلماسة من غير عصبية سمغون؟ بل قبائل مكناسة نفسها التي حاولت تكوين مجتمع منسجم يكون لها فيه من الجاه ما لم يكن لغيرها؟ لم تستطع ذلك، بل دخلت في صراع مع عصبية سمغون التي دخلت بدورها في صراع أشد مع طائفة الإباضية من الفرس والبربر، أولئك الذين قصدوا سجلماسة للإفادة من موقعها التجاري وقربها من معدن الذهب والفضة بدرعة، وحتى يزودوا دولتهم بنتاج نشاطهم الذي ظهر

من خلاله منافستهم للمدراريين، وهنا وجد المدراريون أنفسهم في ظروف تدفع بهم لمقاومة الإباضية الذين لم يكن لفرقتهم بسجلماسة كبير اهتمام بالتمكين للصفرية بقدر ما كان منصبا على استغلال كل الظروف من أجل الإثراء ثم مد تاهرت بالفائض منها أو بالزكاة كما تقول بعض المصادر(200).

كان سمغون عند ما أزاح عيسى يهدف إلى تقوية سلطان دولته، والتمكين لعقيدته في المجتمع الذي أصبح متكاملا بحكم ماعرف من عناصر متعددة الأصول كبيرة النشاط، وإذا كان الكل يخضع لسلطان دولة سمغون، فإن القليل من تلك الجموع هم الذين كانوا يلتزمون بعقيدة سمغون، أما الأكثرية فإنها لم تقصد سجلماسة ملتقى الرائح والغادى من القوافل ومستوردي التبر، إلا من أجل تحقيق الثروة. ولقد كان سمغون بحق قادرا على التخطيط لدولته والتمكين لها حين لم يضايق الناس ولم يضطهدهم حتى يعتنقوا عقيدته كرها، بل اكتفى منهم بالولاء السياسي ثم تركهم يستنفدون أغراضهم، حتى إذا ما حققوها رجعوا طوعا إلى الالتزام للدولة عقائديا حتى يحافظوا على ما حققوه لأنفسهم من ثراء، وما كانت تنتهي حياة سمغون حتى كان كل من قصد سجلماسة من أجل الثروة قد حققها، وفي مقدمة الجميع طبعا قبائل مكناسة.

توفي أبو القاسم سمغون سنة 167 هـ 783م ليحل محله ولده أبو الوزير إلياس، وإذا هو كان يتابع نظريا ما كانت عليه سياسة والده، فإنها بموته استنفذت أغراضها وحققت مقاصدها، وعليه أن يتوجه والمتضامنون معه وقد أصبحوا كثرة بفضل سياسة والده، واتخذوا نهجه ثم سلكوا وجهة تختلف عن التي عرفتها تلك العائلات المستجدة بتاهرت، والنكور، وسبتة، والاندلس، ونفوسة، قبل، والتي قضت أيامها الأولى في الحروب التي عجلت بزوالها بعد المضايقات التي عرفها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور بالنكور، وعبد الوهاب بن عبد الرحمان بتاهرت، من عمرو بن قبيصة ومن خلفه كيزيد وروح من آل المهلب الذين أصبحوا عمال بني العباس، والذين اندفعوا بشكل فيه حدة ضد عقيدة الخوارج إلى أن استدعى الأمر قدوم هرثمة بن أعين بقواته الكبيرة التي

(200) راجع الاصطخرى 114، والبكرى وابن عذارى 1/ 215، والعبر 130/6 والشهر ستاني في الملل 121.

أشرنا إليها(201) بل ازدهرت سجلماسة اقتصاديا وسياسيا بحكم الموقع كما ساهمت في ازدهار تيهرت اقتصاديا بفضل ما حققه الإباضيون من مكاسب، وكل ذلك يرجع إلى سياسة سمغون، وإلى الموقع المحصن والبعيد، لكن أبا الوزير إلياس ولأسباب غامضة، قضى حياته السياسية في مرارة مع قومه الأقربين من آل سمغون الذين اختلفوا عليه سنة 174هـ 790م، ثم اتفقوا على عزله ليحل مكانه أبو منصور إليسع، وإذا ما غمضت تلك الأسباب في نظر صاحب العبر(202) فإنها وضحت بما قام به أبو منصور إليسع الذي ما كاد ينصب حتى شرع في تنظيم الجيش بطريقة تختلف عن الذي كان عليه زمن سلفه من تجمع بالاستنفار كلما دعى الموقف ما يستوجب ذلك، وربما اختلف آل سمغون على أبي الوزير إلياس كذلك بسبب ما ظهر لهم من تحركات الإباضيين، وازدياد نشاطهم الإقتصادي حتى أصبحوا قوة ظاهرة في استطاعتها أن تدبر انقلابا إن هي استمرت ولم تكن أمامها قوة نظامية من الجيش المستعد للردع، وإذا عرفنا أن الإباضيين بسجلماسة قد امتدت خيوط اتصالهم مع إخوانهم الذين كان لهم نفس النشاط بدرعة، وأن الإتصال الذي اكتشفه آل سمغون بلا شك كان سياسيا، علمنا أن جماعة الصفرية كانت واعية عندما أزاحت أبا الوزير ثم ركزت مكانه أبو منصور إليسع الذي بدأ عمله بنشاط في كل الاتجاهات، في الأمن العام، وتركيز سياسة الدولة، وفرض احترامها، وفي العمران الذي كان يتقدم عفويا في عهد والده وسلفه، وضع له شبه تخطيط نعرفه من التنسيق الذي وضعه لموقع كل حي، حيث نجد: حي قصر الدولة وحوله دور الجماعة التي بايعت سمغون بعدما خططت ومهدت بظهور عيسى، والحي مكانه اليوم منخفض الوادي

---

(201) كانت إدارة المغرب قبل ترجع إلى والي القيروان الذي كان يسيرها بواسطة الدواوين التي كان لها حق التسيير إداريا، وهي ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، وكلها كانت عبارة عن إدارة عامة لها أقسام وفروع للإشراف على الجهات الأخرى التي كان يديرها عمال النواحي، بحيث كانت البلاد مقسمة بدءا من حدود مصر إلى أرض سوس الأقصى إلى خمس ولايات هي : 1- برقة وطرابلس 2- قسطيلية وبلاد الجريد توزر. 3- تونس وماحولها 4- الزاب وقاعدته طبنة ويمتد إلى جنوب قسنطينة. 5- المغرب لأقصى إلى حدود السوس غربا، وكانت قاعدته طنجة، وقد كان هذا التقسيم يستمر ويتغير حسب الظروف، وفي عهد العباسيين ولى المنصور على إفريقية سنة 151هـ عمرو بن حفص ابن قبيصة وهو جد آل المهلب الذين هم من أكرم بيوتات العرب الذين لم يفقدوا اعتبارهم زمن الأمويين وبني العباس على السواء.

(202) 130/6 والبيان 1/ 215، وابن الخطيب 142/3.

قبل الدخول إلى فسحة الريصاني مقابل ضريح الحسن الداخل من جهة الشمال، إلى جانب حي *الدولة* ومرافقها. حي المهاجرين والأنصار من أهل المدينة، ناحية السفلة، المعروف اليوم «إسفالات»، ومقابله في الشمال الشرقي حي أبناء العرب الفاتحين وهو الموقع مابين قصور السيفة ومزكيطة، وبعد هذه الأحياء عرفت أحياء أهل الأندلس، وأهل القيروان وغيرهم. وقد كانت قصور الدولة مفصولة عن مساكن الإباضيين والقيروانيين وغيرهم من العناصر التي كان لها اتصال سياسي، سواء بتيهرت أو الأندلس بضفة الوادي الذي بقيت قنطرته الكبيرة إلى عهد الشيخ أحمد الحبيب اللمطي الذي نعتها في رسالة تحدد عقارا تعرفنا بواسطته على المكان المشار إليه، كما يعرف المواطنون بتافيلالت حتى اليوم قصر تامدرارت، والساقية المدرارية، بل ومنافذ قنوات الري لذلك العهد، ولولا حكم الجهل والتصرف الاهوج من أحد المتطفلين وهو الشيطان الاعور الذي دمر كل تلك المعالم في عهد الاستقلال لأمكن لزائر سجلماسة أن يتعرف على معالمها من ذلك العهد إلى قيام الدولة العلوية وما بعده، ناهيك وأن أسماء بعض القصور لاتزال كما كانت. وبالأخص الأضرحة والمساجد بل إن بعض القصور مازالت تحتفظ بطابعها كما كانت قديما.

لقد كان حظ أبي منصور اليسع أحسن من غيره حين انشغل هارون الرشيد بالأحداث التي أخذت كل اهتمامه سواء في المشرق أو المغرب، كما ولى في هذه المرحلة هرثمة بن أعين نحو مصر، حيث كانت ثورة الحوف، وإذا هو انتصر ولاه على مصر في 2 شعبان 178 هـ 794م، لكن تحركات المغاربة والبربر بالمغرب الأقصى، والأمويين بالأندلس، وسوء تصرف الإدارة العربية كلها أسباب أعادت هرثمة ليحكم من مركز الولاية القيروان، من سنة 179إلى 181هـ، على أننا لانوافق على ما قيل من فساد الإدارة بالشكل الذي ردده أكثر من واحد في هذه المرحلة، أي المرحلة التي وجد فيها الفضل بن روح 177–178 هـ 793ـ –794م الذي حل محل نصر بن حبيب، فقد كان هذا الأخير صاحب عدل واحسان في الامارة، لكن الرشيد كان لايرضيه ذلك السلوك من الولاة في الأماكن النائية، فعزله ثم وضع مكانه الفضل بن روح لكن هذا الأخير تعرض هو الآخر لطرد عبد الله بن الجارود، وبذلك انتهى عهد آل المهلب الذين حافظوا على ولاية بني العباس بالقيروان والمغرب....

في هذه المرحلة حصل لدولة بني مدرار ما يحصل لكل دولة سبق للمخططين لقيامها تخطيطاً سياسياً قوامه مصلحة الدولة المنتظرة، ذلك أن المهمة التي أداها عيسى وبعده سمغون، ثم أبا الوزير إلياس، لم تكن إلا مقدمات لوضع أسس الدولة التي حضرهاونظمها أبو منصور إليسع الذي طال حكمه من 174 إلى 208هـ، فهو الذي مكن للدولة من جميع الوجوه، اقتصادياً وعمراناً وثقافة، وهو الذي ظهر أثره بعد في إنتاج علماء الأندلس، ورجال الرحلات من المشارقة والمغاربة بما حقق طيلة أربع وثلاثين سنة من الحكم، بلغ فيها من القوة وضخامة الثروة ما جعل الرستميين في تيهرت وهم المؤيدون بالأمويين في الأندلس يطلبون وده بالمصاهرة حين قدم عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي طال حكمه هو الآخر من 168 إلى 208 هـ أخته أروى، زوجة لمدرار بن إليسع الذي لقب بالمنتصر، والذي وقع بعد تحت وطأة الإباضية أروى وبذلك مهدت لتدخلات الإباضيين في سياسة دولة بني مدرار، وكان الإباضيون بعد قد تكاثروا في سجلماسة كما سنرى، وإذا كان أبو منصور إليسع الأول قد تمتع بطول مدة حكمه، والاستقرار الذي كان نتيجة انشغال امراء إفريقية عنه وعن الأدارسة، فإنه توفي سنة208هـ 823م ليحل مكانه ولده مدرار المنتصر الذي كانت الزوجة أروى بنت عبد الرحمن الإباضية قد غيرته وقومها ثم جعلوا منه أداة طيعة يوجهونه ولو ضد قومه.

لم يحسن مدرار المنتصر التصرف إزاء عصبيته وقومه الذين آثاره الإباضيون ضدهم، وبذلك أصبحت سجلماسة وسلطان المدراريين بها نهبا للإباضيين الذين أصبحوا يعدّون بالالاف، والذين لم يكتفوا بالحرية التي أصبحوا يتمتعون بها في مجال العمل الإقتصادي، وإنما تعدوه إلى التحكم السياسي الذي شاركت فيه أروى بنت عبد الرحمان، خصوصا عندما أصبح لها معه ولد هو عبد الرحمن ميمون المعروف بابن أورى، أو ابن الرستمية، وبذلك ظهر واضحاً أن مدرار المنتصر فقد حرية التصرف، بل أكثر تمسك كل التمسك بالتوجيه الذي كان مصدره الإباضيون المتمكنون بواسطة أروى، بل والذي لاشك كان منبعه تيهرت.

ما يشبه قوافل التجارة وجلب التبر بين غانة وسجلماسة في عهد الدولة المدرارية

الفصل الأربعون

تمزيق المدراريين وانهزامهم أمام جيوش الصنعاني المؤسس الأول لدولة الفاطميين

لقد قرر مدرار المنتصر ابن إليسع الأول أن يسند ولاية العهد إلى عبد الرحمن ميمون ابن الرستمية مع وجود أخ له من زوجة ثانية مدرارية تعرف بتقية(203)، وكان اختيار مدرار لميمون ابن أروى مما غير عليه قلوب المكناسيين من قومه، وفي مقدمتهم المداريون الذين أدركوا أنهم إن لم يفعلوا شيئا ويتداركوا الموقف بالمبادرة لاشك هالكون، وإذا ما أدرك هذا مدرار المنتصر فإنه عجل هو الآخر بالتنازل لابن أروى بعدما أبعد ميمون ابن تقية إلى ناحية ميسور(204)، لكن الإبعاد لم يدم أكثر من مسافة الطريق حتى أعيد وأرجع تحت إكراه المدراريين الذين انتصروا لابن تقية المدرارية كما انتصرت له العناصر المتواجدة بسجلماسة والغير المطمئنة للمآل إذا ما تمكن نفوذ السياسيين وأصحاب المال الموالين للإباضيين بتيهرت، وإذا ما تحقق ابن بقية من تلك المساندة، أظهر أنه أصلح من أخيه حين رفض أن يحل محل والده في حياته، مما زاده قوة وتقديراً في نظر مواطنيه، لكنه ألح على إبعاد أخيه ابن أروى الإباضية، ورغم أن الوالد مدرار المنتصر مانع في ذلك وتمسك بعبد الرحمن، فإن هذا الأخير أبعد إلى درعة. مما يدل على أن الدولة كانت تتمتع بقوة قادرة على التنفيذ رغم إرادة الملك وإدارته إذا هو انحرف

---

(203) أطلق عليها بعضهم إسم التايكة، وهذا الاسم كثير الانتشار بسجلماسة، وبين عربها حتى اليوم، وقد وضع عليه نقطة استفهام كل من ماك كوك فيما كتبه عن سجلماسة مصدر سابق حين كتبه بالحروف اللاتينية ELTEKI هكذا راجع ص 34–35 في حين تكتب بالتاء المفتوحة المشددة.

(204) يعرف المكان الذي نزل فيه ب «السمغوني» على الضفة الشمالية لوادي ملوية بالمكان المعروف اليوم «القصابي» دائرة بولمان عمالة فاس، يبعد عن ميدلت بأربعين كيلو مترا كما يوجد محافظين على مداريتهم بآيت عيسى بني تاجيت عمالة تافيلالت قصر السوق. وحول قبيلة تاجيت راجع الحمرة لابن حزم.

عن السياسة المرسومة بواسطة الجماعة التي خططت ونفذت كل ماعرف من سياسة الدولة في مراحلها الأولى، ويؤكد هذا ما حصل بعد عندما تعرض مدرار المنتصر على إبعاد ابن الرستمية أروى، وبقي هو الآخر في منصبه ثم حاول ثانية إسناد الولاية إليه، فكانت النتيجة أن خلع مدرار من طرف القوم الذين كان نفوذهم أقوى بحكم التخطيط، ثم نصبوا ميمون ابن تقية الذي بويع ولقب بالأمير بعد مضي ستة أشهر على أخذ ابن الرستمية زمام الأمر مكان والده الذي استمر حكمه هو الآخر طويلا من سنة 208 إلى 244هـ/ 823–838م، وقتها اضطرت الجماعة وبموافقة ميمون ابن تقية إلى إبعاد مدرار المنتصر إلى المكان الذي خصص له، والذي عرف فيما بعد وحتى اليوم بقصر تامدرارت حيث قضى فيه بقية حياته حتى توفي سنة 253هـ 867م(205).

وهكذا إذا ماعرفت الدولة عقبات أفاد منها المخططون، فإن الأمير ميمون الذي نصب من طرف رجالات الصفرية باتفاق مع رجالات البيت المدراري وحزبهم، وقد بقي تحت سيطرة الذين أعادوه من منفاه ثم نصبوه، والذين لم يكن ثمة من عمل يشغلهم أكثر من مطاردة الإباضيين، ولذلك جمدوا الأمير وأصبحت الدولة تسير باتفاق الجماعة الذين وجهوا كل نشاطهم ضد الإباضيين وذلك بإبعاد جموعهم من سجلماسة إلى درعة، حيث صاحبهم ابن الرستمية الذي كان الإباضيون يعملون بكل وسيلة ومنها التشويش على المسؤولين قصد إعادة ابن الرستمية إلى الحكم وقد دبروا لذلك مؤامرات اكتشفت وأحبطت ثم انتهوا إلى فشل وإبعاد، ودامت دولة بني مدرار طيلة العشرة أعوام التي قضاها ميمون الأمير، لم تعرف ما يكدر الصفو لان بني العباس الذين كانوا مكلفين بالخوارج، وكذا عمالهم بالقيروان الذين كانوا يطمحون زمن بني الأغلب إلى الاستقلال الذي حققوه، كانوا منشغلين بما جد في المشرق من ثورات عبد الله الكامل والخوارج كما أشرنا، كما أن الأمويين كانوا منهمكين فيما عرفته الأندلس من أحداث ومثلهم الأدارسة كما سنرى بعد.

وهكذا انتهى حكم ميمون الأمير سنة 253هـ/867م، ليحل مكانه ولده محمد بن ميمون الأمير لمدة عشر سنوات لم تكن أحسن من سنوات أبيه ولا أقل، لأنها خضعت

(205) راجع العبر 131/6 والبيان لابن عذارى 217/1.

لمراقبة الجماعة إلى أن توفي وحل مكانه إليسع الثاني المنتصر، وهو الذي ظهر في عهده عبيد الله الشيعي(206) بسجلماسة، والذي مهد له الداعي ابو عبد الله الصنعاني(207) الذي نزل بفرجيوة من أرض كتامة شرقاً، واستطاع أن يستولي عليها بطريقة جد مدهشة.

وإذا كان التمهيد للمهدي المنتظر بالدعوة استغرق من الصنعاني سنوات، فإن عبيد الله الذي حل بسجلماسة، والذي لم يحدد المؤرخون السنة كما فعلوا مع الصنعاني الذي قدم مع وفد الحجاج من المغاربة وبربر كتامة سنة 280هـ /893م(208)، وبعد ثماني سنوات، أي في النصف الأول من ربيع الاول 288هـ/ 900م إذ كان قَدْ حَلَّ أبو عبد الله بأرض كتامة عام 280هـ، وببجاية ومنها في الجيل المعروف ببني «زلدوي» بأرض كتامة يقول المقريزي في الخطط(209)، أما سعيد ابن عبد الله بن ميمون القداح الذي انتحل اسم محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وسمى نفسه عبيد الله المهدي كما عند برنارلويس في أصول الإسماعيلة ص 100–101، فقد عرف بسجلماسة، وكان الذي كشفه يهودي سنة 292هـ 905م، وكان قد قصدها بعدما دخل المغرب الأدنى هو الآخر فراراً من

---

(206) راجع المادة في دائرة المعارف الإسلامية 372/1، وما ورد فيها من مصادر حول عبيد الله الذي قال عنه أبو بكر محمد بن الطيب إنه: عبيد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وقال الصولي: والده عبد الله بن سالم بن عبدان الباهلي، وجده سالم بن عبدان الباهلي، وهو الذي صلبه المهدي العباسي على الزندقة، كما ورد في الروض المعطار للحميري م خ نا ج 10/2، وقد نسبه آخرون إلى جعفر الصادق وهو عند القلقشندي في نهاية الأرب، ص 145 ط 1959، فهو عبيد الله المهدي ابن الحبيب بن المصدق بن أبي محمد مكتوم بن إسماعيل الإمام، بن جعفر الصادق، بن محمد، الباقر(ض)، ومهما يكن، فإن المهدي هذا أحدث في الدين الإسلامي بدعاً، منكرة، بل غير الشريعة حين شرع عدم رجم الزاني المحصن، كما أحل المطلقة ثلاثا، كما أنه سياسيا في المغرب حين انتصر لم يعامل البرغواطية بالقسوة التي عامل بها آل البيت الأدارسة وبني رستم ثم بني مدرار.

(207) راجع دائرة المعارف الإسلامية 372/1، وهو الحسن بن أحمد بن محمد ولد بصنعاء اليمن ولقب بالمحتسب لأنه كان محتسبا بالبصرة، أو غيرها من مدن العراق، ثم راجع كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار مصدر سابق ص 115– 117– 128– 202–203، ثم راجع أصول الاسماعيلية والفاطمية، والقرمطية تأليف برنارد لويس/ ط دار الحداثة؟ عام 1980.

(208) المصدر السابق، ثم الحميري 10/2، والمسالك للبكري 63–64، والبيان 136/1–137 والاستبصار202/5.

(209) 153/2، والاستبصار 203، والكامل لابن الأثير ج 123/6– 132 وابن عذراي ج 16/1–61–65–73–78–83–84–88–163–164–165–173–178–183–184–188.. والعبر لابن خلدون ج36/3–363.

عيون الأغالبة الذين انفلت منهم بعدما انكشف أمره بوارگلان من أرض ليبيا، وحتى حين اكتشف لقي من اليسع الثاني كل التكريم قبل أن يتعرف على حقيقته من يهودي، كما يقول صاحب الاستبصار 202، وإلاَّ كيف يتصل به علي بن حمدون بن سماك ابن مسعود كما يخبرنا ابن خلدون(210) الذي قال إنه أكرمه، لكن الحميري في الروض المعطار يقول إنه قيده بالحديد هو وابنه أبو القاسم، ثم أبعد لقرية بالغرب من سجلماسة.

كان قد مضى على الداعية الصنعاني الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا زمنا غير قصير منذ حَلَّ بأرض كتامة ناحية زوارة عند بني زلدوي سنة 280هـ 893م، ولعل اليسع الثاني لم يكن يعرف شيئا كثيرا عن أخبار الصنعاني، خلافاً لبني رستم الذين هم مثل الأغالبة كانوا وكما يخبرنا ابن كثير في الكامل 127/6 يعرفون كل شيء عن حركة الصنعاني وأهدافه ورغما عنهم تركوا له المجال بذلك الشكل الذي لم يعرف لمخالف من الذين ثاروا في وجه العباسيين، بل إن الأغالبة الذين لم تعرف سياستهم استقراراً هم أنفسهم لم يكتشفوا أمره إلا بعدما اشتد عوده وقوي ساعده أي بعد عشرة أعوام كان قد مهد له قبلها أبو سفيان والحلواني حيث أصبح بعدها في إمكانه أن يجند ثلاثمائة ألف من بربر كتامة وما يضبطها من الرجال، وفي هذا ما يستدل به على أن قبائل كتامة لم تكن راضية لا على حكام العباسيين وبعدهم الآغالبة لما استقلوا، ولا على الخوارج الإباضية الذين كونوا دولتهم في تاهرت.

أقام الصنعاني بين قبائل كتامة، وفي فج الاخيار عند بني سليمان وهم الذين مكنوا له كما يقول ابن الأثير، وإذا ما انتهى صدى مابلغه بينهم من اعتبار حتى أخذوا يبالغون في تنافسهم من أجل الاستئثار به إلى صاحب القيروان، فإن ابراهيم بن الاغلب أرسل لواليه على ميلة يسأله عن حقيقة المشرقي، كما أصبح القوم يطلقون عليه.

إلا أن العامل حط من قدره في الوقت الذي أصبح للصنعاني شأن حتى صار يعرف بينهم بـ «صاحب البدر»، وهو ما كان محمد بن اسماعيل قد أشار به لجماعة الدعاة الأولين، ويعني به الحلواني وأبو سفيان حيث قال لهما: «اذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذره، كما يقول ابن الأثير 8/33-34، بل سرعان مابدا بتنظيماته التي اتخذ

(210) 4/ 175/ ط 1958م.

لقيادتها مناصره كبيرُ قبائل كتامة وهو الحسن بن هارون الذي نقل الصنعاني إلى مدينة ناصرون.

أما قصة من قالوا عنه سعيد حفيد ميمون القداح الذي أصبح يعرف بعبيد الله الشيعي مع إليسع الثاني في سجلماسة التي فر إليها عام 292هـ، ومعه ولده أبو القاسم وأبو العباس صنو أبو عبد الله الصنعاني الذي كان قد وجه إليه ليقدم عليه بعدما زوده بالمال حيث خرج متخفيا من سلميه مروراً على دمشق وطبرية والرملة إلى مصر التي تخلص بحيلة من عاملها عيسى النوشري، وقيل برشوة حيث توجه إلى قسطيلية بعد طرابلس، ومن قسطيلية إلى توزر ثم سلك الطريق التجاري جنوبا إلى سجلماسة حيث اليسع بن المنتصر المدراري، وذلك في الوقت الذي توجه أبو العباس صنو الصنعاني إلى القيروان متخفيا في شكل تاجر، وحتى إذا ما ألقي عليه القبض بقي في السجن إلى أن افتكه أخوه، كما سيخلص عبيد الله المهدي من سجن إليسع في سجلماسة، وكان هذا زمن المقتفي بالله بن المعتضد العباسي 289هـ–295هـ كما عند صاحب الاستبصار، والذي كانت رسائله قد وجهت إلى أحمد بن طولون بمصر، كما كاتب زيادة الله الأغلبي إليسع بن مدرار والي سجلماسة في طلبه كما يقول صاحب الاستبصار أيضا204، وصاحب العبر3/366، وابن عذاري في البيان: أما من هو؟ وما أصله؟ وكيف نشأت الحركة التي استغلها أبوه عبد الله وجده ميمون القداح بن ديصان؟ فقد قام في هذا الموضوع برنارد لويس بدراسة مستوفاة في كتابه أصول الاسماعلية والفاطمية والقرمطية/ ترجمة د أحمد خليل/ ط دار الحداثة 1980. أما عن وجوده بسجلماسة، فقد تناوله جل المؤرخين القدامى والمحدثين، والذين أجمعوا على أنه من أصل مجوسي، وقد فصل في هذا جلال الدين السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»، والذي لم يدخله في تاريخ الخلفاء، وإذا هو فر إلى سجلماسة عام 292هـ مدعيا أنه علوي، فقد تم اكتشافه من طرف اليهودي الذي استورد الخبر من الشرق، وقيل برسالة زيادة الله الأغلبي، وبأمر من المكتفي بالله بن المعتضد، كما يقول ابن خلدون(211) هذا مع العلم أن الرسالة إن صح تاريخها، فقد وردت بعدما أصبح أسيراً، وهي تتسم بالغموض، بل رواية المتشيعين من المشارقة تطنب

(211) 4/71– 78/ط بيروت 1958.

فيما لقيه عبيد الله الشيعي من تكريم إليسع الثاني بن المنتصر قبل سجنه، وفجأة يلقى عليه القبض، ثم يقوده وولده أبو القاسم أسيراً، ثم يقيده بالحديد ويضعه في غرفة بين جنبات القصر الذي كانت تسكنه أخت إليسع الثاني، بل في رواية المشارقة وابن خلدون يندفع الصنعاني بسبب حادث السجن الذي لاشك بلغه بمراسلة مع عبيد الله.

بل هناك احتمال آخر وهو أنه ربما عمل الإباضيون خصوم الصفرية في هذه المرحلة ضد المدراريين، ولو بواسطة استعمال اليهود الذين كان لهم وجود اقتصادي مهم في عاصمة الدولة سجلماسة التي كانوا يصدرون منها ويستوردون لها من مختلف البلاد، وفي العادة هم جنود لمن فيه المصلحة أكثر، ولعل عند الوزان الكثير من مثل هذا النوع الشبيه بشايلوك عند شكسبير، وقد عرفتهم سجلماسة في ظروف متكررة.

انقض الصنعاني بسرعة على دولة الأغالبة حيث واجهه جيش زيادة الله البالغ تعداده أربعين ألف بأحواز قرية الاربس من عمالة الكاف، سنة 296هـ 909م، لكن جيش زيادة الله الثالث الذي تعددت أخطاؤه، ثم خانه التوفيق إلى درجة أنه لم يكتف بإحراق المدن مثل ناصرون وميله، بل سيرسل لاستقدام الأحول بن إبراهيم، ولما قدم عليه قتله، ورغم أنه جند مائة ألف مقاتل، فإنه انهزم بقيادة قريبه ابراهيم بن الأغلب حيث سقطت المدن تباعا في يد جيوش ابى عبد الله التي احتلت مسكيانة، وتبسة، ومدبرة، ومرمجنة، ومجانة والقصرين، وقسطيلية، وقفصة وايكجان، بل حتى القيروان وباغاية وقادة انقلبت على زيادة الله السكير الماجن الذي لم يجده المال ولا ما استعمل من الارهاب الأمر الذي أدى به إلى الفرار بأهله من رقادة ليلة الاثنين 26 جمادى الثاني، فتوجه نحو المشرق ليستنجد بالمقتدر العباسي الذي كان سنه حين بويع جعفر بعد موت أخيه المكتفي(212) صغيراً دون المراهقة، حيث كانت بيعته سنة 295هـ 908م فهو وقتها ملك صورى

(212) كان هذا هو بداية عهد الدولة العباسية الثانية سنة 292 -323 هـ/ 905- 934م، وأولها المكتفى الذي نصب سنة 292هـ إلى 295هـ، حيث توفي يوم الاثنين 13 ذي القعدة سنة 295 وسنه 31 سنة وثلاثة أشهر بعد أن حكم 6 سنوات و7 أشهر و22 يوما، وبذلك لم يكن هو الذي التجأ إليه زيادة الله كما ورد عند الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فيما كتب عن تونس ص 74- 75، ط 1373هـ، ولقد فصل في نهاية دولة الأغالبة على يد أبي عبد الله الصنعاني ابن الاثير، وابن عذارى، وابن خلدون وغيرهم، وكلهم كشفوا ما آل اليه أمر الأغالبة من ضعف وانهزام، ومع ذلك بقي الغرور يدفع أمثال إبراهيم إلى ماعبر به في المراسلة - التي وجهها إلى أبي عبد الله الصنعاني والتي أوردها النويري في نهاية الأرب / ج6 ص26.

سنة أربعة عشر عاماً، رحل إليه زيادة الله مستجيرا، لكن زيادة الله بقي ينتظر النجدة وهو يتردد بين مصر والشام، وكان على مصر عيسى بن محمد النوشري المتوفي سنة297هـ 910م والذي كان في صراع مع محمد بين الخليج من أجل ولاية مصر، ونسي زيادة الله أن دولة العباسيين، وهي في بداية عهدها الثاني وملكها الطفل لاسلطة له، لم يكن في وسعها أن تنجده، وهكذا مات آخر الأغالبة غريباً بالرملة من أرض فلسطين، وبذلك آنقرضت دولة الأغالبة التي كان إبراهيم بن الأغلب مؤسسها سنة 184–196هـ/ 800– 811م، وفي عهد زيادة الله الأول 201–223هـ فتحت صقلية سنة 212هـ /827م، وقد أتم فتحها أبو ابراهيم أحمد 242–249هـ/ 856 ·863م كما فتح أبو الغرانيق محمد 250–261هـ/ 864–874م جزيرة صقلية.

إنتهت دولة الأغالبة التي طبعت تونس بطابعها الذاتي، وكونت منها بلداً عربيا إسلاميا، ورغم ماقام به مؤسسها وخلفه من أعمال ضد الأدارسة، ترضية لبني العباس، فإنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل تونس التي قضى على دولتهم فيها الصنعاني الذي ساعدته تصرفات السكير زيادة الله الذي قتل عمه الأحول، بعد ماقتل أباه غيلة لأنه كان قد اشتد عليه وسجنه من أجل إدمانه على الخمر، كما قضى الصنعاني على دولة بني رستم وعاصمتها تيهرت 296هـ 909م، وولى عليها، ثم تقدم إلى سجلماسة التي وصلها في شهر ربيع الثاني 297هـ،910م وبها عبيد الله المهدي أسير عند اليسع، على أن استفهاما يطرح هنا، وقد تغافل عنه كل الذين تناولوا موضوع المهدي في سجلماسة، وهو لماذا وقد عرف إليسع الثاني بلا شك آنتصارات الصنعاني على الأغالبة والرستميين، لم يبادر إلى سراح المهدي أو قتله وجحافل الصنعاني تدك الأرض في طريقها إلى سجلماسة؟ وسنرى أن ابن خلدون وقع في خلط بين إليسع والشاكر لله، وهو ما لم يقع فيه ابن الأثير. بل يزيد المؤرخون فيقول بعضهم إن الصنعاني لما قدم سجلماسة تقدم بتلطف خوفا على حياة المهدي وولده يطلب إطلاق سراح عبيد الله إلى اليسع الثاني، فامتنع إليسع الذي هرب أمواله وأهله إلى حيث يأمن عليهم ثم يعود للمقاومة بعدما آحتلت جيوش الصنعاني عاصمة المملكة سجلماسة؟ وبعضهم يقول إن الذي ضلل إليسع إنما هم اليهود بتوجيه من الآباضيين رجال الثروة في غرب سجلماسة، ويقول غيرهم:

إن آل عيسى بن مزياد الأسود، كان لهم دخل في تلك الظروف، وآخرون يقولون إن أوامر العباسيين(213) كانت السبب في سجن عبيد الله، إلى غير ذلك من الأقوال التي ضيعت علينا كيف دخل، وكيف أنه لم يقتل، وكيف آنتهت سياسة الدولة المدرارية وقد رأيناها كيف نضجت وآتت أكلها في عهدها الديمقراطي الشبيه بالبرلماني أو البرلماني الشوري حسب معطيات ذلك العصر.

(213) هو قول ابن خلدون في العبر المصدر السابق 174/4.

رباط سوسة بتونس

مدينة المهدية

مدخل مدينة المهدية التي بناها عبيد الله الشيعي بتونس

الفصل الواحد والأربعون

سجلماسة وصراع مائة عام ضد العبيديين والأمويين في الأندلس

قيل إن إليسع عاد إلى سجلماسة ليجمع حوله المقاومين؟أي تهور هذا الذي ينسب إلى إليسع الثاني وجماعته والذي قيل إنه كان قد ألقي عليه القبض ثم سجن وعذب بعد إخراج المهدى من السجن في رمضان من سنة 296، وهو غير صحيح. ألم يكن في وُسع إليسع وقد فر إن صح أن ينجو بنفسه وأهله؟ ولماذا لم يقتله الصنعاني؟ هل لأنه فعل خيراً بعبيد الله؟ وإذا كان فلم يعذبه..؟..الخ بل عند الحميري: إن المواطنين هم الذين قتلوه، وهو الصحيح وأخيرا تحل النقمة من الصنعاني وبلا شك حسب أو امر عبيد الله باليهود الذين تصادر جميع أموالهم وأموال أغنياء البلد حمولة عشرين جملا بايع بها الصنعاني سيده في حفلات دامت أربعين يوماً، وقبل مغادرته أمر أن تفرض على اليهود الحرف المنحطة لا يزاولون غيرها، إلى جانب أحط الأعمال، وهي إفراغ كنافة الدور، وقد استمروا على ذلك دهراً، ومثلهم فعل بآل عيسى الذين جعل منهم «الحراثين»(404)، وقد عاشوا كذلك ظروفا قاسية عانى منها كل أحمر الجلد ظلما حتى ولو كان من أصل شريف لم يستطيعوا تغييرها إلى عصرنا الذي نحياه، حيث ينعتون بأحط الصفات التي حاربها الإسلام الذي من مبادئه الأساسية عدم التمييز بين الأبيض والأسود «الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربي على أعجمي ولاسود على أبيض إلا بالتقوى».

بعدما جمع الصنعاني من التبر والحلي وقر عشرين جملا بايع بها المهدي يقول

(214) انقلبت عند العامة إلى «حراطين» ويقول عنها الذين لم يعرفوا أصلها، «الحر الثاني» وهو خطأ شائع كان مصدره صاحب الاستقصا 27/4. باختلاقه كلمة «الحر الثاني».

الحميري(215)، وبعدها أحرق سجلماسة التي سجن بها سيده، وولى عليها إبراهيم بن غالب المزائي ومعه خمسمائة من كتامة كحامية، لكنه قتل وحاميته(216) من طرف المدراريين وقواتهم والذين نصبوا الفتح بن مدرار بن واسول يوم 3 ربيع الأول لـ سنة298هـ/911م، وهي السنة التي قتل فيها المهدي صاحب الفضل عليه أبو عبيد الله الصنعاني وأخوه أبو العباس محمد، لكن الفتح ابن مدرار لم يستمر أكثر من سنتين ثم حل محله أحمد بن ميمون سنة 300هـ/ 912م، والذي أزيح هو الآخر عندما عاد الفاطميون لاحتلال سجلماسة للمرة الثانية سنة 309هـ /921م، فتولى مكانه محمد بن بسادر بن مدرار، ومعه ولده المعتز الأول، وقد استمر إلى سنة 321هـ/ 933م، وفي هذه المرحلة أخذت نوايا العبيديين تنكشف للناس على حقيقتها، وظهرت الانتفاضات في أماكن متعددة من البلاد التي حكموها، كما ظهر من أخلاقهم وتصرفاتهم المغايرة للإسلام مازعزع المكانة التي زينت وصنعت بافتراء على الدين، ثم بقوة وعنف رجال قبائل كتامة، الذين انقلبوا على العبيديين بعد بشكل فيه حدة وعنف عنيف، وتلك طبيعة البربر كلما وجدوا لهم قوة او مايبرر خروجهم، فظهر بناحية تاهرت مغيث بن سليمان المكناسي الذي دعا لمذهب المشرّقة، وقد قيل إن عبيد الله الشيعي أرسله وجماعة معه لنشر هذا المذهب الماني المعروف(217)، وقد ظهر كمقاوم لعبيد الله وأفكاره،(218) وشهر به في المغرب أيام المعز العبيدي، كل من أبي علي، وابنه اسماعيل المنصور، ثم أبو زيد

(215) المصدر السابق، مخطوط خاص 10/2، الاستبصار مصدر سابق 202، ط البيضاء1985.

(216) ابن عذارى 213/1، ود. الإسلامية 372/1، وفي هذه المرحلة ولى الشيعي على سجلماسة الشيعي المزائي فقتله أهلها بعد خمسين يوماً، ثم وليها أبو الفتح بن الأمين مدة سنتين وأشهراً، ثم وليها أحمد بن الأمين سنة 300هـ وبقي بها إلى أن حاصره مصالة آبن حبوس وقتله في محرم سنة 309هـ، وولى مصالة عليها المعتز بن محمد من بني مدرار وبقي بها إلى سنة 329هـ، وتوفي عبيد الله المهدي بالمهدية، في تونس سنة 322هـ، راجع ابن عذارى 206/1هـ-207.

(217) راجع الاستبصار ص 204 إذ عنده هو مخلد بن كيداد، بن سعد بن مغيث، بن كرمان، بن مخلد، بن عثمان، بن رويب، بن سيران، بن يفرن، بن ضرة، بن يورسيف بن جنا، بن يحيى، بن ضر ليس بن جالوت وكان على مذهب الصفرية، وقرأ على عمار الأعمى في المشرق، وكان قيامه أول سنة 332هـ/ 943م.. راجع الاستبصار ففيه عن الرجل مالايذكر من الخزي إلى درجة أنه جمع أختين ثم اغتصبهما على فراش واحد.. إلخ، وربما عنه نقل ابن عذاري ج 1 بعض تلك المخازي.

(218) راجع ابن عذارى 185/1.

مخلد بن كيداد النكاري وكان على مذهب الصفرية خرج سنة 332هـ/ 943م كما يقول الحميري(219)، وإذا ما بدت بشائر آنتصارات الأمويين حكام الاندلس بمساندة بني صالح بالنكور، فإن السجلماسيين الذين لم يركنوا لحكم العبيديين مثلهم حاولوا شيئا من ذلك للخلاص. لكن ظهرت الحنكة السياسية قبل هذه الفترة حين ظهر مصالة بن حبوس (ت 312هـ 924م) بنفس الوسيلة والطريقة التي استعملها سلفه الصنعاني، إلا أن مصالة تميز عن الأول بأن أسندت إليه السلطة المطلقة على شمال المغرب وجنوبه، وإذا كان قد فتك بالأدارسة وبني صالح، وبني رستم، ثم خلف بن بسادر، فإن هذا الأخير استطاع وبحنكة ومهارة السجلماسيين وآل سمغون المدراريين، أن يخلف الملك لولده المعتز الأول، حتى يتحرر من التزامه، بل زاد السجلماسيون أكثر عندما أزاحوا المعتز ليحل مكانه الشاكر لله بن الفتح بن ميمون(220) الذي تولى الملك سنة 321هـ 933م، وهو الذي خرج على العبيديين ولقب بأمير المؤمنين، وضرب السكة باسمه، ثم كتب عليها «تقدست عزة الله»، وقد قويت هذه السكة وأصبحت ذات نفوذ في المغرب.

وهكذا عادت دولة بني مدرار في عهد الشاكر لله محمد بن الفتح، أقوى مما كانت، بل أتسع نشاط هذا الملك ومجالات عمله في مختلف نواحي الحياة العامة، عمرانا واقتصاداً وثقافة، واجتماعاً، كما نظم الجيش من جديد وخرج بدولته من دائرة الجمود الذي فرض عليها حسب معطيات أفكار المشرفين الأواخر من جماعة الصفرية الذين كانوا أقصى ما يطمحون اليه، هو التمكين للمذهب ونشره في حدود الدولة، وقد كان لهم ذلك مما جعلهم يختارون العزلة التي خرج عنها الشاكر في الفترة التي عرفت فيها دولة العبيديين شرقا الكثير من الثورات، فإلى جانب ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الإباضي عرف الشاكر كيف يوجه سياسة الدولة حتى تجد حلفاء أقوياء، ذلك أنه أدخل تغييراً جذريا على المذهب وحياة المواطنين الفكرية، حين فسح المجال لنشاط أهل السنة ومذهب

---

(219) الروض المعطار 11/2، ثم راجع دائرة المعارف الاسلامية 97/90.

(220) تقول رواية العبر: المنتصر سمگو بن محمد تولى الملك حتى سنة 332هـ، والصحيح ما أورده زامباور102/1، وأن الشاكر لله تولى من سنة 321 إلى أن توفي منفيا سنة 354هـ بالرقادة بتونس باستثناء سنة 347 التي تَمَّ فيها آحتلال العبيديين للمرة الثالثة، وتولى فيها المنتصر الثالث.

مالك، وأصبحت سجلماسة في عهد الشاكر مقصد العلماء والفقهاء ورجال الفكر الذين عرفهم التاريخ، والذين احتفظ بتراثهم إلى العصر الذى نحياه(221)، وهكذا فإن الشاكر بما انتشر من نفوذ لعملته الذهبية، وبالانفتاح على مذهب أهل السنة وفتح المجال لمذهب مالك أثار ضغينة المعز العبيدي الذي كون جيشا جراراً وضع على رأسه خادمه جوهرالرومي الصقلي، ثم أرسله لاحتلال سجلماسة سنة 347هـ/ 960م وهي السنة التي ارتقى فيها جوهر منصب الوزارة، وفعلا انتصر جوهر الذي ألقي القبض على الشاكر الذي كان قد هرب ماله وأهله إلى تاسكارت(222) ثم عاد إلى سجلماسة لاستئناف القتال ضد جوهر، وما فعل لولا أنه كان يعلم مدى الاستعداد الذي كانت عليه دولته، لكنه تعرض لغدر الناقمين من خوارج الصفرية وهم مضغرة(223) من مكناسة(224)، فألقى عليه جوهر القبض ثم أخذه أسيرا إلى سيده المعز بعدما قضى في الملك ستا وعشرين سنة كلها عمل جاد متواصل خلد به ذكر الدولة المدرارية أكثر وأعظم.

وإذا كان هذا هو الاحتلال الثالث فإن الشاكر بقي سجينا مغربا في تونس عند المعز بالمهدية لم يقتله، وإنما تركه لعظمته، وحتى يرهب بسجنه في قصره كل الذين يردون عليه، وإذا ما نقل الشاكر إلى الرقادة التي قضى فيها بقية حياته، فإنه توفي رحمه الله سنة 354هـ 965م، وتقول مصادر أخرى إن جوهر قتله في رجب 347 والأولى أصح.

كان جوهر الصقلي، وكما فعل سلفه لم يغادر سجلماسة إلا بعد مانصب عليها

---

(221) راجع ماسبق حول وثائق ومخطوطات خزانة عبد الكريم الفيلالي، والتي لاتزال تتوفر على كثير من النوادر، كما تتوفر على أكثر من ألف مخطوط في مختلف العلوم والفنون.

(222) البكرى، 151، والعبر 96/4، وابن خلكان 102/2، وابن الخطيب 149/3. ولعل هذا الموقف من الشاكر وكما أشرنا من قبل هو الذي أوقع آبن خلدون في الخلط الذي نسبه لإليسع الثاني سنة 296 هـ من أنه فر بأهله ثم عاد لقتال الصنعاني، فالموقف يختلف بين العهدين عهد إليسع وعهد الشاكر لله.

(223) في المصادر السابقة، وفي ابن عذارى 222/1 أن جوهر قتل الشاكر في رجب 347، وهذا يخالف ماعند غيره، راجع زامباور 102/1، ومافيه من مصادر ثم دائرة المعارف الإسلامية 175/7 وما فيها من مصادر، والمقريزي 352/1-378، وابن الأثير في الكامل. الخ.

(224) بعدها طردوا من سجلماسة إلى حيث قصورهم اليوم غرب قصر السوق، وقد اختلط بهم العرب والاشراف قريبا، وكان طردهم إلى حيث هم اليوم إسوة بطرد سمغون لآل عيسى الذين هم اليوم أسفل منهم موقعا بدءا مما يعرف بزاوية أملكيس بالرتب أوفوس، وفريق منهم توغلوا في الأطلس المتوسط تجاه ملوية راجع ابن الوزان في وصف افريقيا ج 1-2 ومارمول ج 154/3 «الرتب».

حاكما باسم العبيديين ضد المنتصر الثالث، لكن الثورة أكلته مثل صاحب زمن اليسع الثاني، ونصب ولد الشاكر المذكور الذي يظهر أن الظروف وقتها كانت أقوى منه، وأنه لم يكن له رأي كسلفه، وإنما كان مسيراً من جماعة اصطنعها وقتها المعز العبيدي، أو أنها كانت قد أفادت من الماضي القريب، واختارت أن تعامل المعز بالنفاق السياسي حين حملت ابن الشاكر إلى المعز ليوافق عليه، وتصف الرواية بل يقص المؤرخون تلك العبارات التي فاه بها المعز بعدما سجد بين يديه ثلاث مرات، ويظهر أن ماقامت به تلك الجماعة لم يكن باتفاق السجلماسيين، وإلا لما قامت الثورة ونصب المنتصر الثالث سنة 352هـ 963م، وبذلك تحررت سجلماسة من العبيديين، وعرفت كذلك في هذا العهد حركة علمية وعمرانية لكنها تعرضت لغزو خزرون بن فلول المغراوي، وكان قد تولى الحكم فيها أبو محمد المعتز بالله الثاني، وكان المعز العبيدي قد غادر إفريقية وعاصمتها المهدية ثم رحل إلى مصر التي كان جوهر الصقلي قد حل بها بعدما خرج من القيروان يوم 14 ربيع الأولى 358هـ/968م، وهو اليوم الذي قال فيه محمد بن هاني الشاعر الأندلسي- وهو من الأزد ولد باشبيلية 326هـ 935م وتوفي 362هـ 972م في قصيدة مطولة ودع بها جوهر الصقلي الذي أمر المعز كل من حوله من أسرته ومن رجالات الدولة أن يمشوا راجلين في حضرة جوهر، وهو في طريقه لفتح مصر:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم من الحشر أروع

إلى أن يقول:

فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع

ومنها قوله يصف جوهر الصقلي وقد أشار المعز له يوما بصريح العبارة وهو بين رجالات الدولة، و«الله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن في خرابات آبن طولون، وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»(225).

(225) الخطط للمقريزي 174/1، وحسن المحاضرة للسيوطي 60/1 ط حجرية، وتاريخ مصر الحديثة ط1889 ص 247، ويظهر أثر النسج والمبالغة هنا، كما يظهر أن المقريزي آستمد من آبن خلكان الذي قال: إن جوهرا مرض وهو في بلاد المغرب مرضاً شديداً أشرف معه على الهلاك، فَحزن المعز وعاده في بيته؟؟ وكأن نفس المعز كانت تحدثه بأن مصر لن تفتح إلا على يد جوهر، فلما عاد من زيارته قال: « هذا لا يموت؟ وستفتح مصر على يديه» إلى غير هذا من الشرك والبهتان، راجع ابن خلكان 119/1؟؟ والأعجب من هذا ترديد المؤرخين لهذا الضلال المبين.

ومن أجل ذلك وصفه ابن هاني بقوله:

إذا حل في أرض بناها مدائنا وإن سار عن أرض عدت وهي بلقع
تحل بيوت العز حيث محله وجم العطايا والرّواق المرفع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة بأيمن فال بالذي أنت تجمع
فإن تك في مصر ظماء لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع(226)

ولانريد هنا ترديد ما قاله من الشعر الذي هو الزندقة والكفر الصراح من رجل يتلاعب بالألفاظ ولما يتجاوز السادسة والثلاثين من العمر، وهو السكير الذي هلك بسكره.

وإذا كان المعز غادر قبل ثلاث سنوات على فتح خزرون بن فلول المغراوي لسجلماسة، فإنه عين بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، أميراً على إفريقية في المحرم سنة 362هـ 971م، وجعل له الولاية على كل ماقد يغزوه من أرض زناتة (227) ماعدا صقلية وطرابلس الغرب حيث كانت الأولى للكلبيين والثانية للكتاميين، وسماه يوسف بدلا من بلكين، وكناه أبو الفتوح، ولقبه سيف الدولة أو سيف العزيز بالله، كما في أعمال الأعلام وأوصاه بثلاث: أن لا يرفع السيف عن البربر، ولايرفع الجباية عن أهل البادية، ولايولي أحداً من أهل بيته. وفي أيامه كما سنرى ثار أهل المغرب الأقصى فخلعوا طاعة الفاطميين، وخطبوا للمروانيين أصحاب الأندلس، أما خزرون فإنه كبقية مغراوة قد أصبح من صنائع المنصور بن أبي عامر الذي كان المسيطر على ملك بني أمية بالأندلس، أبو الوليد هشام الثاني المؤيد بن الحكم، وكان في هذا الاحتلال لسجلماسة في جموع من مغراوة القضاء النهائي على دولة بني مدرار، وتبعية سجلماسة إلى سلطة بني أمية

---

(226) راجع ديوانه، وما فيه من إسراف ومبالغة فهو مطبوع بتحقيق د. زاهد على وترجم إلى الإنجليزية، وقد سلك إبن هانئ طريق المتنبئ فأكثر من الآراء الفلسفية والحكمية والثورة على الدهر جاهلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله" كما أسرف في تعمد القوافي الشاذة، وإيثار العبارة الجزلة واللفظ الغريب، وعبر عن المعتقدات الفاطمية في مدحه، فرمي بالإغراق في المبالغة، واتسم شعره بالصبغة المأثورة فأعجب به غير الواعي لحدود الشرع من المشارقة واعتبروه متنبي الغرب، راجع وفيات الأعيان 4/2، ودائرة المعارف الإسلامية 289/1، ونفح الطيب 101/2...الخ.

(227) راجع الترجمان المعرب للزياني ص 257 م خ ع 658د. وبلكين هو الذي اختط مدينة الجزائر بأمر من أبيه زيري بن مناد صاحب النفوذ الواسع على قبائل صنهاجة بالمغرب الأوسط، والذين جرهم لطاعة الفاطميين.ثم راجع العبر 155/6، وابن عذارى ج 1/ 288- 239- 318. ووفيات الأعيان 92/1.

بالأندلس، وذلك بعدما حز رأس المعتز بالله وأرسل إلى هشام المؤيد بالأندلس، وقتها عقد لخزرون على سجلماسة، ثم خلفه ولده وانودين عليها، وفي سنة 367هـ/ 977م قام زيري بن مناد نفسه بالزحف على المغرب، وطرد المغرواين من سجلماسة، واستولى عليها، ثم ولى عليها حميد بن يصل المكناسي، وإذا ماقامت الثورات في المغرب ثم رحل إليه بلكين سنة 368هـ 978م في جيوش جرارة، واستولى على فاس وقهر مؤقتا قبائل زناتة، فإنه رغم ذلك لم يجد استقراراً وامتدت حروبه أيضا إلى جهة فجيج حيث توفي في مكان قيل عنه «وارکنفو» بين تلمسان وسجلماسة، يوم 21 ذي الحجة سنة 373هـ/983م، وإذا ما حل مكانه ولده أبو الفتح المنصور الذي عرف من أعمامه معارضة أدت إلى حروب فتحت الطريق أمام السجلماسيين الذين كانت الحروب قد أنهكت قواهم، فلم يعودوا قادرين على خوض المعارك ضد الجيوش الغازية.

وهكذا لما رجع عبد الملك إلى العدوة وأعاد واضحا إلى عمله بفاس استأمن إليه كثير من بني خزر، وكان منهم وانودين بن خزرون العامل السابق لسجلماسة، وابن عمه فلفول بن سعيد فأمنهم، ثم رجع وانودين إلى عمله بسجلماسة بشروط منها: 1- رهن الأولاد. 2- تقديم الهدايا سنويا.

وهكذا انتقل المغراويون بسجلماسة ليصبحوا تابعين لملك قرطبة ابتداء من سنة 390 هـ/999م، لكن وانودين ماكاد يعلم بل يتأكد من انتهاء سلطة ملوك قرطبة وضعفهم حتى أعلن العصيان، وانتقل، ثم أضاف إليه أعمال درعة، وفي سنة 407هـ /1016م حاول المعز بن زيري انتزاع سجلماسة من وانودين إلا أنه تعرض للهزيمة، بل تابعه وانودين إلى صفرو على مقربة من فاس مما يوكد أن سجلماسة استرجعت قوتها.

إنتهى عهد وانودين ليحل محله ولده مسعود بن وانودين، الذي بقي حاكما بالمنطقة إلى أن قتله جنود المرابطين سنة 455هـ/ 1063م، ثم قتلوا جميع من كان بسجلماسة من أولاد وانودين بنوخزرون(228) وهنا بدأ حكم المرابطين فكان الحاكم منهم لسجلماسة إبراهيم بن أبي بكر بن عمر اللمتوني 462-464هـ/ 1069-1071م وإذا ما انتهت دولة

(228) بنو خزرون هم إخوة أولاد مندیل بطرابلس، من الطبقة الثانية، راجع العبر 163/7. أما آثار المدراريين بتافيلالت والقصور التي هي من بنيانهم فهي: تاغنجاوت، وتامسكانت، وتاحسنونت، وتاركا موسى، وتامبسامت، وأولاد منصور الذين انْضَمُوا إلى قصر لكراوة، بالكاف المعطشة، و ثم تامدرارت جوار قصر الإشبيلي، وجلها قصور قائمة حتى اليوم، وإن كانت قد عرفت التجديد في بعض مرافقها، فإن معالم الأصل لاتزال باقية.

سجلماسة الصفرية كما رأينا فإن طابع سجلماسة الحضاري بقي مستمرا، وكان عامل الاستمرار وقوة الدفع هو المال والذهب الذي لم يتوفر في بلد كما توفر في سجلماسة على مر العصور، ومن أجل ذلك بقيت سجلماسة في مختلف العصور وطيلة تنازع البقاء بين الدول محل تنازع يستولى عليها القوى القادر على السيطرة، وتحكيم السيف في الرّقاب، لكنه سرعان مايتعرض للثورة والزوال لأن التاريخ مادون قط أن أهلها باتوا على ضيم أبدا، وقد عاشت سجلماسة وأهلها على هذه الحال قرونا طويلة كما سنرى بعد من حياة الدول التي تعاقبت على المغرب، بل إن سجلماسة هي المدينة الوحيدة التي عرفت ما لم يعرفه غيرها من الحروب بسبب طمع الطامعين، ومع ذلك أعطت العطاء الكبير والكثير في كل المجالات، وفي طليعتها مجال المعرفة والعلوم الإسلامية، إذ قصدها الكثير من علماء الأندلس والقيروان والعراق ودمشق قبل أن تعرف مدينة فاس ومراكش بل قبل تأسيسهما، وفي سجلماسة وجد رجال الفكر الاسلامي ضالتهم وفيما خلفوا لنا من تراث نحتفظ ببعض أثره حتى اليوم، وفي غريب ما أندثر يكفي للاستدلال على مكانة سجلماسة، وأنها كانت مركز إشعاع إسلامي لنشر رسالة التوحيد ومعارف الإسلام بين قبائل الملثمين صنهاجة ومسوفة لمتونة إلى غانة بعد تامبكتو وتخوم السودان، بل من أبنائها من انتقل وبسبب ذلك نهائيا إلى أرض السودان حيث نجد أثرهم في علماء تامبكتو وأوذغيست، وغانة (229) وكما رأينا فقد عرفت سجلماسة من الحضارة والإزدهار الإقتصادي ما جعلها تفرض على الناس الرحلة إليها من كل بلاد الدنيا، خصوصا بعدما أصبحت مركزاً تجارياً قصدها تجار العراق، والشام، ومصر، والقيروان، والأندلس، كما كانت الطرق الواصلة بين جهات الشرق والغرب، كلها متصلة بها، وقد حافظت على مركزها إلى عهد سابع ملوك العلويين المولى سليمان كما سنرى.

---

(229) راجع نيل الإبتهاج بتطريز الديباج 385 لأحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر الصنهاجي التكروري التنبكتي السوداني المولود 965 هـ المتوفي 1036 هـ خ . ع. 2229-223-766 د، ومختصره رقم 1641د. وتاريخ تامبكتو لعمر أقيت. مخطوط خاص، ثم راجع إبن عذارى 344/2 وابن حوقل، وروض القرطاس، والعبر، والترجمان، والاتحاف لابن زيدان، وسلوة الانفاس، والاعلام للعباس بن ابراهيم، والاغتباط 8/1، والذيل والتكملة 211، وجذوة الاقتباس 2/1 لابن القاضي، والتشوف للزيات 72، وكذا الحركة الفكرية في عهد السعديين للدكتور محمد حجي 2/1، ووصف إفريقيا للحسن بن الوزان ترجمة د. م حجي. ود. م الأخضر ج 2و ط 1983م، بل وكذا مصادر التاريخ الأولى، ومعجم البلدان 41/5 وغيرها من مصادر التاريخ الإسلامي، ثم الاستبصار وكذا افريقيا لمارمول، وغيرها من المصادر المذكورة قبل.

تسلسل آباء وملوك بني مدرار سجلماسة (230)

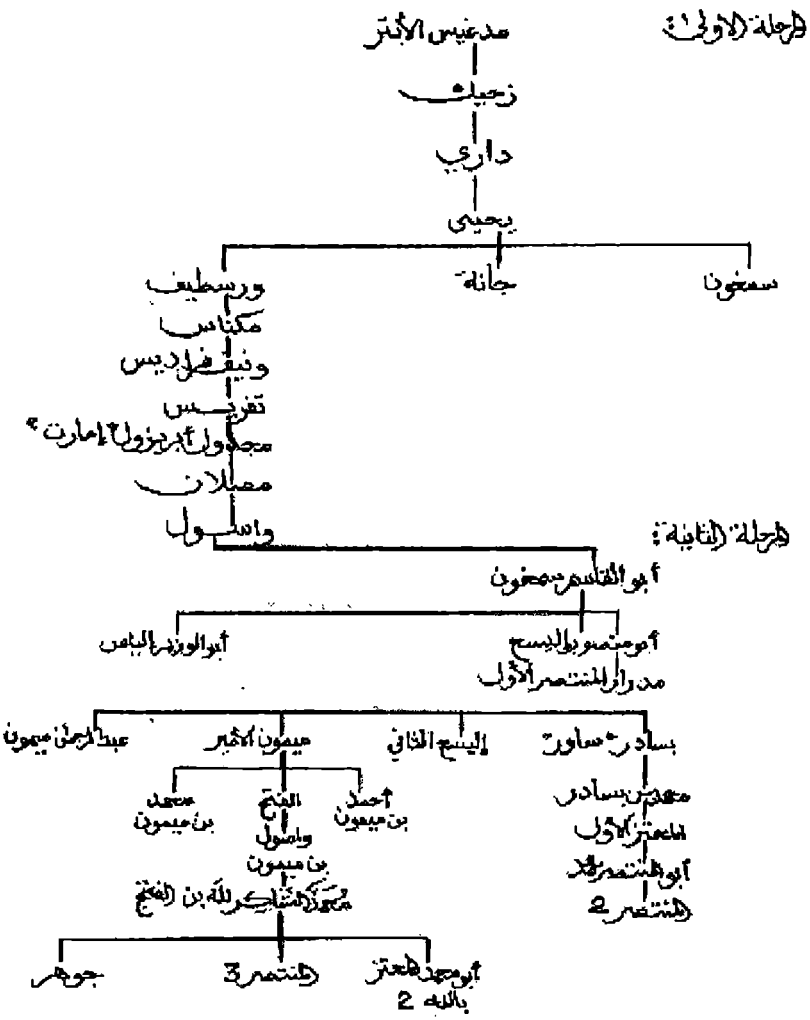

(230) راجع الأعلام لابن الخطيب، والأسر الحاكمة لزامباور 104/1، والعبر لابن خلدون ج 129/6، والبيان المغرب لابن عذارى، والترجمان للزياني، والاستبصار مصدر سابق ومارمول، ثم وصف افريقيا لابن الوزان- مصادر سابقة.

	سنة هـ سنة م
1- أبو القاسم سمغون(231)	155 هـ 771م
2- أبو الوزير إلياس	167هـ 783م
3- أبو منصور إليسع الأول	174هـ 790م
4- مدرار المنتصر الأول	208هـ 823م
5- عبد الرحمن ميمون الملقب إبن أروى الرستمية	253هـ 867م
6- ميمون الأمير: إبن تقية	253هـ 867م
احتلال الفاطميين الأول، وقتل اليسع2، 296	
- 298هـ/ 908-910م، ثم ولى عليها آبراهيم بن غالب	
المزاتي مع حامية من رجال كتامة قوامها خمسمائة رجل.	
7- الفتح بن ميمون بن مدرار واسول 3 ربيع الأول.	298هـ 910م
8- أحمدبن ميمون الاحتلال الفاطمي الثاني 309هـ	300هـ 912م
9- محمد بن بسادر بن مدرار، ومعه ولده المعتز الأول	309هـ 921م
10- أبو المنتصر محمد بن المعتز ومعه ولده المنتصر الثاني	321هـ 933م
11- محمد الشاكر لله بن الفتح	321هـ 933م
الإحتلال الفاطمي للمرة الثالثة 347هـ	
12- المنتصر الثالث	347هـ 958م
13- أبو محمد المعتز الثاني	352هـ إلى 366هـ
نهاية بني مدرار واستيلاء خزرون بن فلفول المغراوي على سجلماسة	963هـ 976م

(231) الأسر الحاكمة لزامباور 104/1، ثم ابن عذارى 217/1، والعبر 131/6 ثم راجع المصادر الواردة في الموضوع قبل.

الأئمة الرستميون في تيهرت (232)

سنة هـ

«خوارج إباضيون»

المؤسس عبد الرحمن بن رستم لمدينة تاهرت سنة	144
عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن سابور «نسب خرافي	160
عبد الوهاب بن عبد الرحمن	168
أبو سعيد الأفلح بن عبد الوهاب	208
أبو بكر بن الأفلح	258
أبو اليقضان محمد بن الأفلح	258
أبو حاتم يوسف بن محمد	281
اغتصب يعقوب بن الأفلح الحكم لفترة قصيرة	294
وقد قتل سنة 296 هـ «فر ولده ابو سليمان»	294
إلى وارجلان»	
خرب ابو عبد الله الداعي مدينة تاهرت	296

أئمة نفوسه (233)

أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح بن عبيد بن حرملة	140 – 757م
قتل سنة 144هـ	
عمر .. توفي سنة 154هـ	144
أبو حاتم الملزورمي توفي سنة 160هـ	154

(232) راجع الأسر الحاكمة 100/1 أورد اطفيش في رسالته إلى العقبى ص 54 ت 1 أفلح دام 60 سنة بولده أربعين ولم يدل بمصدر.

(233) نفس المصدر 101/1، والبيان لابن عذارى، والعبر لابن خلدون ودائرة المعارف الاسلامية.

حكام نفوسة من قبل الرستميين

	هـ	م
السمح بن أبي الخطاب	160	
خلف بن السمح	–	
أبو الحسن أيوب	–	
أبو عبيدة عبد الحميد الجناوى	–	
ثورة خلف		
العباس بن أيوب		
أبو ذر أبان «سبعة أشهر»		
أبو منصور إلياس		
العباس بن أحمد بن طولون هزم عند قصر حاتم 266هـ		
الأفلح بن العباس خلع سنة 283 وأعيد بعد 3 أشهر		
أبو زكريا يحيى الأرجاني «قتل قرب تركت»		
«استولى علي بن سليمان الداعي على الجزيرة»	311	923

الباب الثامن

الفصل الثاني والاربعون

العلويون والخلافة في نظر المغاربة والبربر

كان ماجرته الفتنة الكبرى قد فعل فعله في النفوس، وكان ما نتج عنها من ملك بني أمية، وتنازل الحسن بن علي غير كاف حتى ينعم الامويون بملكهم الذي اغتصبوه، وكان المسلمون في مختلف البلاد التي عرفت الفتح وقتها قد دخل أهلها في نقاش حول الخلافة ومن هو أحق بها وأهل لها، وكانت الآراء قد تشعبت بين أهل السنة والشيعة والخوارج. لكن الذين يعنيهم الأمر هم آل علي من الهاشمين الطالبيين الذين كانوا قد شعروا بأن لهم الحظوة عند الكبير والصغير من غير الأمويين ومن لف لفهم، فأخذوا يقومون بثورات هنا وهناك. كما اتفقوا على بيعة محمد النفس الزكية لورعه وخلقه وتقواه، ناهيك وأنه محمد بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب، والذي هو شقيق إدريس الذي سوف يتوجه إلى المغرب.

كانت تلك البيعة التي اتفق عليها كبار الهاشميين والعباسيين هي التي اعتمدها كل من الامامين مالك بن أنس (75-95 هـ /613 –791م)، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت (80–150هـ 699–767م) ضد بني العباس حين قام أبو جعفر المنصور الذي حضرها مع أبي العباس السفاح، وأنهما من الذين بايعوا محمد النفس الزكية عن طواعية واختيار مما دفع بالأمامين إلى إصدار فتواهما بعدم شرعية العباسيين إلخ، ولعل ابن خلدون قد فصل في كل ماجرى بين محمد النفس الزكية وأبو جعفر، راجع العبر 3/4–6.

وإذا كان المغاربة قد ثاروا ضد الأمويين، فإنهم غير مستعدين أن يتحولوا منهم إلى بني العباس، ومن ذلك كان الفراغ الذي ملأه بنو مدرار وبنو رستم في كل من سجلماسة وتيهرت، كما أن التناحر الذي كانت تعيشه كل من قبائل زناتة، ومكناسة وأوربة، ومصمودة كان قد ارهقها، وبعضها تمكن منه الدين، وتريد لها وسيلة للاستقرار

فلم تكن في غير الدين الذي وجب أن تقوم عليه الدولة التي يحيى في ظلها الجميع في حب وتوادد وتراحم.

يقول ابن خلدون: إن العرب لايحصل لهم الملك إلا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين، ثم زاد: إن العرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة، وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، وقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة والولاية، كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين والمذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس(234)، ثم قال: إنه لاتتم دعوة من الدين والملك إلا لوجود شوكة عصبية تطهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله منه(235).

أوردنا ما قاله ابن خلدون في مقدمته التي تعتبر رغم هذا التناقض من أعظم ما أنتج الفكر العربي قبل وبعد ابن خلدون، لنستدل على أن العصبية في دولة الإسلام ليست الأساس الذي يقوم عليه السلطان، سلطان الدولة، بل دولة الإسلام ولا حاجة بنا إلى مناقشة مبدأ الخلافة ونظم الحكم في الإسلام، فالدولة في الإسلام وكما أجمع حتى أصحاب المذاهب – حين ظهرت – ماعدا الشيعة على أن طريق الإمامة وما تقوم عليه، والتي هي رئاسة الدولة طبعا، هذا «الاختيار والاتفاق» وهذا الرأي، هو الذي كتب حوله روسو ما كتب في العقد الاجتماعي بعدما قرره الاسلام بآلف عام ولم يخرج عليه، ومثله حصل لكل من كتب بإدراك في الموضوع، وعلى هذا الأساس قامت الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى، قامت على الدين وبالدين، وكما وصف خليفة يوم واحد الذي هو ابن المعتز في قوله:

الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى

---

(234) المقدمة، ط القاهرة 21، ص143.

(235) المقدمة 310.

ووضحه شوقي:

والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء(236)

أية عصبية كانت لإدريس بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى. بن الحسن السبط، في المغرب، لقد كانت لأبي المطرف عبد الرحمن الداخل في الأندلس مابين قيسية ويمينية أما إدريس فلم يكن له غير ما ذاع وانتشر في المغرب من فضائل آبائه وأجداده ولهذا يمكننا القول: إن الدولة الادريسية في المغرب كان أساسها الإسلام وأخلاقه، وما حمله إدريس من آثار النبوة وصفة الولاية الصالحة، وكانت الجماعة التي بايعته صادقة الإيمان صالحة المقاصد.

لم يعرف العرب في المشرق غير ماقادهم إليه معاوية - كسرى العرب- كما كان يلقبه عمر (ض) ملكية وراثية أشار بها المغيرة بن شعبة(237) وركزها خصوم آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم بعد مقتل علي رضي الله عنه وعلى النقيض من ذلك عرفه المغاربة.

لقد عرفنا أن المغاربة شاعت بينهم فكرة الخوارج وما كان لها من رأي في الإمامة وشرط النسب ضمن شروطها، وشاعت بينهم أفكار الإعتزال وربما بالمفهوم الذي رجحه أحمد أمين(238) وليس بمفهوم «القدرية» أو العدلية، وهو آعتزال الذين ابتعدوا يوم حلت الفتنة الكبرى، فلم يكونوا ضد علي بالسيف ولا بالقول، وإذا علمنا أن البربر لم يوجدوا بالمشرق في هذه المرحلة، أدركنا أن الفكرة وردت على المغرب ضمن قوافل الفتح، وكان

---

(236) راجع بيعتي العقبة في سيرة ابن هشام ج 2/35-90. وكيف أن البيعة الأولى كانت قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، حضرها إثني عشر رجلا من أهل المدينة، وتم الاتفاق فيها على التوحيد وقواعد الأخلاق الإجتماعية العامة التي ستكون أساسا لمجتمع فاضل يضبط بقانون، وكانت الثانية بعد عام وفي موسم الحج التالي، حضرها ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، وقد أكدت السابقة وأضافت إليها التضامن في الحرب والسلم، ومحاربة أعداء الدين وبذله، ثم الطاعة في المعروف والمجاهرة بالحق.

(237) عن موقف المغيرة ورأيه راجع إبن الأثير 198/3 . والعقد الاجتماعي المشار إليه راجع ترجمة عادل زعتير ص: 101 ومابعدها ط دار المعارف مصر 1954م، وحول نسب الاشراف أيضا راجع الروضة السليمانية للزياني، ص: 361 م. خ. نا رقم 106 ثم فصل فروع الأدارسة من هذا الكتاب.

(238) فجر الاسلام، ص 338 إلى 348، ومحاضرات في علم التوحيد لعلي حسب الله في الجبر والاختيار، ورأي المعتزلة من ص 77 إلى 86.

من رجالاتها موسى بن نصير كما سبق، ومثل هذه الفكرة يمكن أن تمهد للتشيع لآل البيت تشيعا يختلف جملة وتفصيلا عما عرف بالمشرق كما بينا، بحيث نجد أن الرعيل الأول من المغاربة البربر- الذين أطلقنا عليهم قبل الطبقة الثالثة قد تشيعوا لآل البيت بالطريقة التي نص عليها الإسلام وأكدها تصرف بُناته، وهي طريقة تختلف عن تلك التي اختلقها بدس عبد الله بن سبأ، واتخذها بعض الفرس(239) وسيلة استرداد ما سلب منهم، كما ظهر بعد آخر عهد الأمويين وزمن بني العباس، وهم الزيدية والإمامية، ومن لف لفهم أمثال محمد بن الحسين الفارسي المعروف بدندان،

لقد اتسم تشيع المغاربة بروح دينية، وعلى مذهب أهل السنة، الذي يمثله مالك بن أنس (ض)، وقد ظهر ذلك عندما قدم إدريس بن عبد الله الكامل أحد الإخوة العلويين السنيين محمد النفس الزكية، ويحيى، وسليمان، أحفاد الحسن بن علي بن فاطمة الزهراء، فإدريس هو الذي وجد المغاربة في شخصه ضالتهم، وقد تعرفوا على المذاهب التي جدت في الاسلام، باسم السنة، والخوارج، والشيعة، والاعتزال، بل وجود إدريس بالمغرب الأقصى هو الذي مكن للدين كعقيدة، كما مكن لفكرة العروبة ضمن إطار العقيدة، حيث اصبحت اللغة العربية في عهد الدولة الإدريسية أداة الحديث، والكتابة، والخطابة، والارشاد، كما قر في أذهان المغاربة واعتقدوا أن العربية كلغة هي أداة الدين ووسيلة الاتصال بمصادره الأساسية، ورغم أن انتشار اللغة كان أكثر بطأ من انتشار الدين، فإن الفضل كل الفضل يرجع إلى حلول إدريس بالمغرب، فيما يرجع إلى التعريب الحق الذي آنتهى إليه، رغم ذلك البطء الذي يرجع أساساً إلى أن العرب في القرنين الأول والثاني للهجرة، لم يكونوا من الكثرة حتى يؤثروا بلغتهم وثقافتهم في البربر

(239) راجع مادة زيدية في دائرة المعارف الاسلامية ج 1/544- 11/14-20، وفيها كما ورد في كثير من المصادر أن ادريس وقد حسبته الزيدية من الأئمة الإمامية ص 17، ومع ذلك أسس دولة في المغرب على مذهب أهل السنة، ثم راجع تاريخ القرامطة وكيف تعلق بهم الفرس كما تعلقوا بفكرة الشيعة حين انتحلوها بعد الفتنة الكبرى قصد استرجاع سلطانهم المفقود دائرة وجدى 7/712 إلى 734، ط 2: 1971م، أما شيعة علي غير المطعون فيها، والتي كان قصدها الموالاة المشروعة. فهم: عمار بن ياسر، وسلمان، والمقداد، وجابر وأبو ذر الغفارى، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمر، وجرير بن عبد الله البجلي، ودحية بن خليفة ونظرائهم من الصحابة الذين لايظن بهم غير الحق، راجع البدء والتاريخ للمقدسي ج 5/124 ط باريس 1916.

والمغاربة الذين لم تكن لهم رابطة دين أو ولاية يكونون هم حماتها وسدنتها، وبالتالي لم يوجد العرب بالمغرب ويتمكنوا بالقدر الذي يؤثر إلا بعد قيام الدولة الإدريسية وتحت ظلها الذي يختلف عن الظل الزائل للولاة الذين لم تستقر أحوال أحد منهم قط، فالدولة الإدريسية هي التي مكنت للعرب كقوة حتى أصبح لهم السلطان والنفوذ في مختلف جهات المغرب الذي التحق مجتمعه لغويا بالمغرب الأدنى الذي كان أوفر حظاً وأكثر نصيبا في عدد العرب الذين وجدوا بالقيروان مدينة عقبة ومقر إمارة العرب الأولى، وبفضل دولة إدريس الثاني بعد عرفت الجموع من العرب طريقها إلى المغرب الأقصى من المشرق ومن الأندلس وهي مطمئنة آمنة، في عهد إدريس الثاني الذي عرف المغرب فيه تحولا جذريا في كل شيء، إنتهى إلى تحول السلطة العليا من يد البربر إلى أيدي العرب، وكان أمراً حتميا حتى تستمر الدولة وتتركز العقيدة عندما آشتدت محاربة بني العباس للأدارسة بواسطة صنائعهم من بني الأغلب بالقيروان، الذين آستطاعوا تحويل بعض المسؤولين الكبار من البربر في الدولة الإدريسية، إلى عملاء كما سنرى، لكن ماهي الظروف التي رحل فيها إدريس إلى المغرب وكيف؟ كان ذلك؟ ومتى؟

إنتهت دولة بني أمية بالمشرق، ولم تدم كما أراد لها معاوية الذي صنع المستحيل من أجل تركيزها والتمكين لها بكل الوسائل، إنتهت ولم تدم كما ظن المغيرة بن شعبة(240) وعمرو بن العاص، الأول بنصيحته إسناد الملك إلى اليزيد، والثاني بدسائسه ضد علي وبنيه ومن أجل ولاية مصر وخراجها، إنتهت دولة بني أمية بالمشرق بمآسيها ضد آل البيت لتحل محلها دولة بني العباس التي استعملت بدورها آسم آل البيت ذوي الحق المغتصب في القضاء على الأمويين وقد نجحت، لكنها ماكادت تنتهي إلى النصر الكامل حتى قلبت لهم ظهر المجن، ثم قضت على كل العناصر التي يمكنها أن تكون إلى جانب آل البيت سواء من الفرس المتشيعين، أو من العرب، خصوصاً في الحجاز، وإذا ما آستلم السلطة موسى الهادي كما رأينا فإنه لم يقف عند حد الخلاص من شيعة آل البيت، بل دفعه الخوف والحذر من ذوى الشفوف من آل البيت المفترى عليهم، خصوصاً المتطلعون من الأشراف بالحجاز إلى متابعتهم والتضييق عليهم، الأمر الذي دفع

(240) راجع ابن الأثير 198/3.

بالحسين المثلث آبن الحسن المثنى إبن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، إلى الثورة على موسى الهادي، والذي انتصر بمساعدة الإخوة أعمامه أبناء عبد الله الكامل، إدريس وأخويه يحيى، وسليمان، وإذا ما آنضمت إليهم قبائل الحجاز وآستطاعوا القضاء على عامل العباسيين بالمدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله العمري، وكبير جندهم خالد البربري، الذي قتله يحيى عم الحسين(241) أمام باب جبريل خارج المسجد النبوي وبايع الناس الحسين على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم للمرتضى من آل محمد، فإن البيعة لم تكن من أهل المدينة وحدهم، بل كان أنصار العلويين في جهات مختلفة قد أعدوا لهذه الثورة بالمراسلات التي وجهوها من بغداد والمدينة إلى مختلف بلاد الإسلام، وكان ذلك منذ قدم الحسين على المهدي العباسي الذي أعطاه هدية أربعين ألف دينار، فرقها الحسين قبل أن يخرج من بغداد والكوفة، ولما آل الأمر إلى الهادي وقد علم نخوة الحسين الذي كان وقتها ببغداد نازلا في دار محمد بن ابراهيم حين عاد الهادي من جرجان، ثم دعى الحسين الذي ذهب إليه ولا يعلم أحد ما حصل، مما أدى إلى النفور بعدما خرج الحسين ثم اتصل بشيعته وأنصاره الذين ظهر بعد أنهم من وقتها أخذوا يراسلون مختلف الجهات لفائدة الحسين وضد الهادي، وإذا ما انصرف الحسين إلى المدينة التي لاقى كل المضايقات من عاملها من قبل العباسيين وهو القتيل مع قائد الجند أمام «باب جبريل من المسجد النبوي الذي كان الحسين قد قصده ليعلن نفسه خليفة في المدينة، بعدما تعرض لمضايقة العامل عمر بن عبد العزيز العمري، وقد ألقى خطبته المشهورة بعدما صعد المنبر بعد صلاة الصبح، وعليه قميص أبيض قد سدله بين يديه ومن خلفه، وسيفه مسلول قد وضعه بين رجليه فقال: «ياأيها الناس، انا ابن رسول الله، في مسجد رسول الله، على منبر رسول الله، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والاستنقاذ مما تعلمون» ومد بها صوته، وإذا ماقدم عامل المدينة المذكور

(241) راجع العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي ج 256/1 ط الكويت 1960 ، وقد سماه بعضهم خالد بن اليزيدي، الاعلام للزركلي 265/2، وكان الذي قتله هو يحيى بن عبد الله أخو إدريس ضربه ضربة وصفها المؤرخون بشكل يثير التعجب حين ضربه على جبينه وعليه البيضة والمغفر والقلنسوة، فقطع ذلك كله حتى طار تحت رأسه، وسقط عن دابته: المصدر المذكور.

وقائد الجند بقواتهما ضد الحسين، فإنهم انتهوا إلى هلاك، ثم خرج الحسين من المدينة بعد البيعة، وتوجه قاصداً مكة في ثلاثمائة من أصحابه الذين ناصروه من قبائل الحجاز وهم من جهينة ومزينة، وغفار وضمرة، وكان موسم الحج، فلما أقبل على مكة، وجد العباسيين قد أعدوا لمقاومته جيشا قوامه ركب العراق، وبعض أمراء بني العباس، فكانت الحرب التي دارت رحاها بالمكان المعروف «فج»(242) بالجم وليس بالخاء كما ذاع وانتشرا خطأ.

وإذا ما شب القتال بين الحسين وجنود بني العباس يوم السبت 8 ذي الحجة سنة 169 هـ 16 يونيه 786م فإن الحسين استشهد فيه كما استشهد فيه عمه سليمان(243) بن عبد الله الكامل وحز رأس الحسين، ورؤس أكثر من مائة من أصحابه، ويعرف ذلك اليوم بيوم التروية، وإذا ما حملت الرؤوس إلى موسى الهادي، فإن الأخوين إدريس ويحيى فر كل منهما إلى ناحية اختارها حسب تخطيط بلا شك، كان من الذين شاركوا في المعركة، وضمنهم بعض البربر من الموالى الذين كانوا بالمشرق، خصوصا، وأن عبد الرحمن الأموي، وهو ابن البربرية النفزية كان قد توجه إلى المنطقة قبل ثلاثين سنة ولم يكن معه غير خادمه بدر، ثم أصبح له شأن، يضاف إلى ذلك أن وسائل الإعلام كان قوامها وفود الجحيم إلى جانب جموع المغاربة والبربر الذين هم في هذه المرحلة كانوا قد تكاثروا في المشرق إلى درجة أنهم أصبحوا يكونون فرقاً من الجيش مع العباسيين وضدهم مع الخارجين عليهم، وقد أورد الحافظ الذهبي الكثير من أسماء البربر الذين لم

(242) فج: مكان يبعد بستة أميال عن مكة ويعرف بـ «فج» الشهداء لدفن الحسين بن الحسن المثلث فيه هو أنصاره، كما يعرف بالزهراء، وكلمة فج كتبها جل بل كل المؤرخين بالخاء ماعدا الحافظ الذهبي في كتاب العبر في خبر من غبر ج 256/1. وفج جمعه فجاج وأفجة، والفجة: الفرجة بين الجبلين، وافتج: سلك الفجاج. والفجاج: الطريق الواسع، وأما «الفخ» التي هي المصيدة التي يصاد بها الطيور والسباع، وتجمع على فخاخ، وفخوخ، فإنها لاتتفق والمقصود في موضوع ثورة الحسين، والذي يستنتج عن سبب شيوع هذا الخطأ في نظرنا هو نسخ النساخ بتحويل نقطة الجيم إلى أعلى فقرأها الأول خاء وبذلك ذاعت، وكم لها من نظير أحيانا يكون مقصوداً كما رأينا في نسب آل الفاسي القصرى الذي أبدلت فيه القاف فاء والصاد هاء فاصبح: الفهرى، راجع كتابنا (التاريخ المفترى عليه) وحول نصر أبحار بالحاء، وهو الذي ولد فيه المولى اسماعيل، زيدت نقطة فأصبح ابجَار وهو خطأ وقع فيه ابن زيدان، ونقله عنه غير واحد ممن كتبوا حول تاريخ وترجمة المولى اسماعيل... وفخ أوردها ياقوت في معجمه 237/4 الخ..

(243) راجع نسب قريش ص 55 ط 1953، وياقوت 341/6، وابن الاثير 30/6، والطبري حوادث سنة 169، والحافظ الذهبي حوادث 169 ج 256/1.

يقتصر وجودهم بالمشرق على ناحية دون غيرها، بل كان منهم من أصبح من الأئمة بالمدينة كالإمام أبو محمد بن سليمان بن بلال المدني، مولى آل أبي بكر الصديق، الذي روى عن عبد الله بن دينار وطبقته، والذي قال عنه ابن سعيد كما أورد الذهبي، كان بربرياً حسن الهيئة، عاقلا، وكان يفتي بالمدنية، وولى الخراج بها، وفيها توفي سنة 172هـ/788م(244) بل إذا ما تقدم بنا الزمان سنجد أن بربريا هو الذي قتل المقتدر العباسي 320هـ/932م، ثم قطع رأسه عندما قامت الحرب بينه وبين خديمه مؤنس 321-933م الذي بقي في الإمارة نحو الستين سنة، تولى فيها محاربة العبيديين ثم ولاه المقتدر على دمشق، وأخيرا رجع فيه بما أصبح عنده من جند البربر، بل إن البربر في هذه المرحلة مرحلة ثورة الحسين- كانوا بلا شك قد أصبحوا يخوضون في السياسة بالقدر الذي يجعلهم يفرقون بين صاحب الحق الشرعي، والمغتصب الظالم، كما أصبحت ميولاتهم السياسة ضد هذا ومع ذاك.

عندما انتهت المعركة على النحو الذي سبق، فر يحيى بن عبد الله شرقاً إلى بلاد الديلم، حيث بويع له وأصبح قوة فعَّالَة اهتم لها هارون الرشيد الذي استطاع ان يستدرجه بأمان مكتوب، ثم يقتله غيلة بواسطة البرامكة أصحاب سره، أما إدريس فقد اتجه نحو المغرب.

---

(244) العبر للذهبي 1/261.

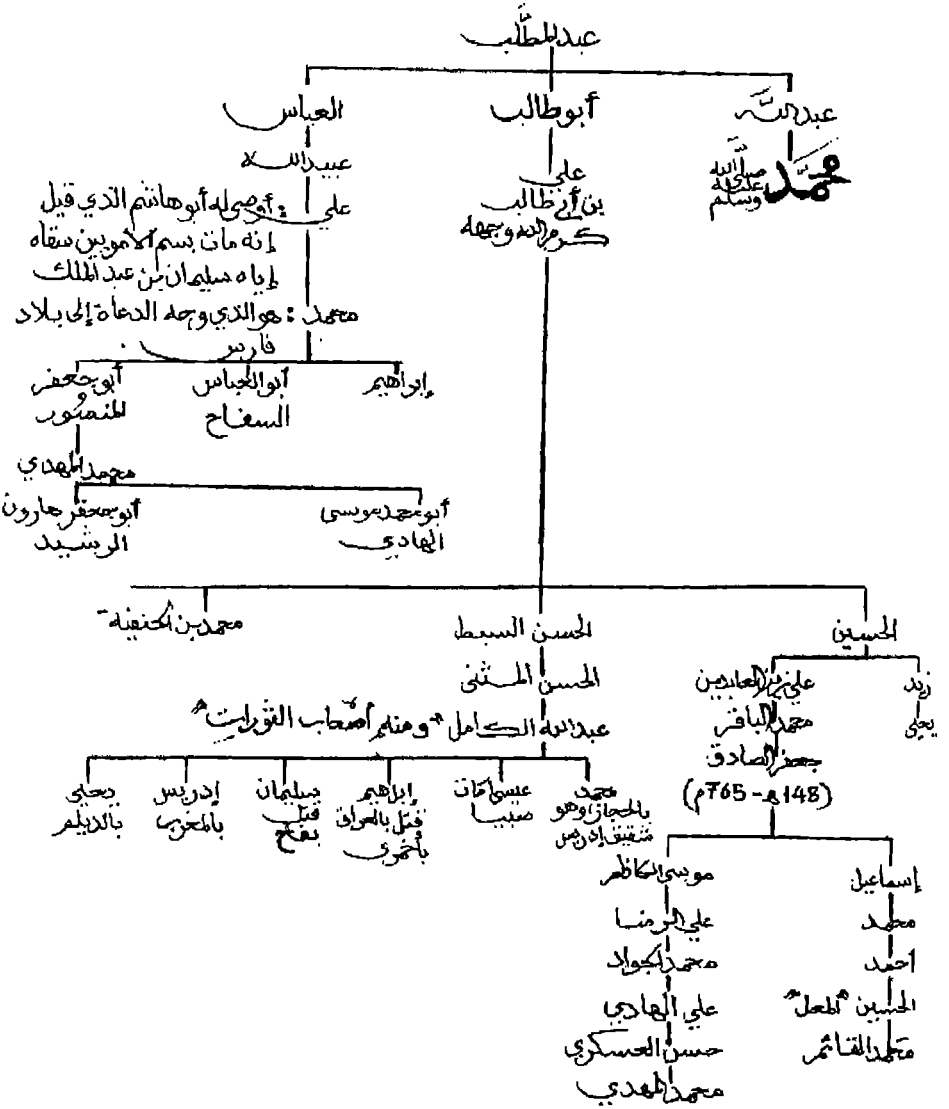
عبد المطلب
عبد الله
محمد صلى الله عليه وسلم
أبو طالب
علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
العباس
عبد الله
علي: أبو صوله أبو هاشم الذي قيل إنه مات بسم الأمويين سقاه إياه سليمان بن عبد الملك
محمد: هو الذي وجه الدعاة إلى بلاد فارس
إبراهيم
أبو العباس السفاح
أبو جعفر المنصور
محمد المهدي
أبو محمد موسى الهادي
أبو جعفر هارون الرشيد
محمد بن الحنفية
الحسن السبط
الحسن المثنى
عبد الله الكامل ومنهم أصحاب القوارير
محمد بالحجاز وهو شقيق إدريس
عيسى كان صبيا
إبراهيم قتل بالعراق بأحمرى
سليمان قتل بفخ
إدريس بالمغرب
يحيى بالديلم
الحسين
علي زين العابدين
محمد الباقر
جعفر الصادق (148هـ - 765م)
زيد
يحيى
موسى الكاظم
علي الرضا
محمد الجواد
علي الهادي
حسن العسكري
محمد المهدي
إسماعيل
محمد
أحمد
الحسين المعلى
محمد القائم

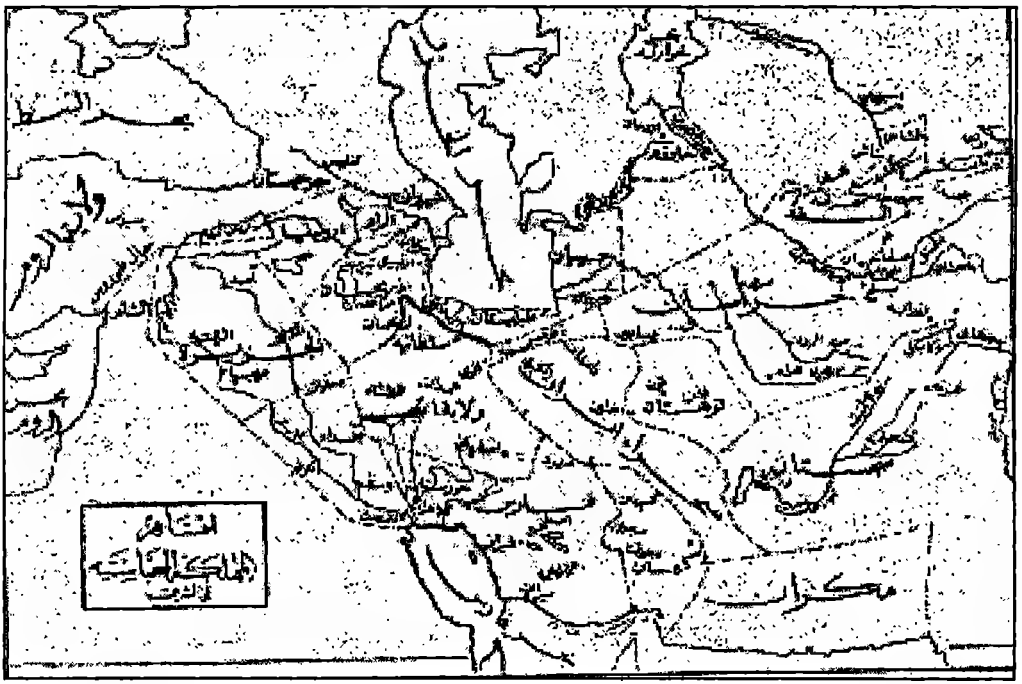
المالك العباسيه

الفصل الثالث و الاربعون

هجرة ادريس بن عبد الله الكامل إلى المغرب

لم يحدثنا التاريخ عن إدريس بن عبد الله قبل هذه المعركة، فهو لم يعرف قبل في ثورة أخيه الشقيق محمد سنة 145هـ بالحجاز، ولا في ثورة أخيه إبراهيم بالبصرة، ولربما كان قاصرا في هذه المرحلة، ولم يكن له حق المشاركة إلا عندما قام آبن أخيه الحسين، لقد قتل والده عبد الله ظلما بيد المنصور العباسي، الذي سجنه سنوات عديدة بالمدينة، ثم نقله إلى سجن الكوفة بدون تهمة، إلا ما كان من تهمة عدم فرض سلطته على ولديه محمد وابراهيم، اللذين كان نشاطهما السياسي قد أزعج المنصور وأقض مضجه، *وإذا ماقتل عبد الله الكامل*(245) *بالتعذيب*، وثار محمد بالحجاز، وإبراهيم الذي بلغ أنصاره أربعة آلاف بالبصرة، ولم يظهر لإدريس ويحيى وسليمان أثر في هذه الثورة، ولم يذكر أن المنصور إهتم بهم فإنهم لا محالة كانوا في هذه المرحلة دون سن المشاركة، وبذلك يكون إدريس عندما توجه إلى المغرب بعد ثورة ابن أخيه الحسن سنة 169 هـ 785م لم يتجاوز الخمسين سنة في الغالب.

قطع إدريس البحر الأحمر إلى النوبة ثم إلى مصر يرافقه خادمه راشد البربري(246) ومن مصر إلى برقة، ثم القيروان، ثم تيهرت وتلمسان وطنجة ثم وليلي، هكذا

---

(245) ولد عبد الله الكامل سنة سبعين للهجرة، وتوفي سنة 145 هـ 762م، راجع الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة 6587، ومقاتل الطالبين 128، وتهذيب ابن عساكر 354/73. وعن مآسي العلويين أيضا وبالاضافة إلى ماسبق من المصادر راجع كذلك نسب قريش لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب الزبيري 156–236هـ تحقيق: ليڤي بروفانسال/ ط دار المعارف بالقاهرة 1953.

(246) هو راشد بن مرشد الزبيدي، قيل إن أباه بربري أسر في إحدى غزوات موسى بن نصير، راجع الروض المعطار للحميرى المذكور قبل، والدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية للسنوسي، ص 43، وهناك رواية تقول إن يحيى بن عبد الله أخو إدريس لما نجا دعى إلى نفسه فبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر، وذهب إلى اليمن فأقام مدة، ودخل مصر والمغرب، وعاد إلى المشرق فدخل العراق متنكرا، وقصد بلاد الري وخراسان، =

وصفت المراحل، ومنهم من بدل غير هذا، ومهما يكن فإن طريق إدريس إلى المغرب وكيف وصل، وماهي الظروف التي كانت تجتازها علاقة العباسيين بسكان المنطقة، كلها تحتاج إلى دراسة وتحليل لأنها تدخل ضمن نطاق التاريخ السياسي للمغرب، وفي أدق مرحلة من مراحله.

كانت حركات التحرر لصالح العلويين قد انتشرت في ربوع مملكة بني العباس شرقا وغربا، وقد عرفت مصر وبلاد المغرب من صداها ما تردد من رثاء لعبد الله الكامل وأبنائه وأحفاده، بل وأجداده، وأصبح بسبب ذلك في إمكان المعارضة السياسية أن تجد لها مجالاً ضد الدولة، بل كانت في شمال إفريقيا وفي المغربين الأوسط والأقصى، قد قويت واشتد ساعدها، بالدول التي ظهرت في الأندلس، وسجلماسة، وتاهرت، بل أصبح للمعارضة أنصاراً وملتزمين في مختلف مراحل الطريق الذي سيمر منه إدريس وخادمه راشد، وهذا ما يؤكده لنا ما حصل لإدريس، وما عرفنا عليه منطق الحوادث وتحليلها من خلال ماأورده المؤرخون الذين سنرى ما بينهم من تباين، حتى في تاريخ وصول إدريس إلى المغرب وكذا نهاية حياته.

لقد انتقل إدريس من المشرق إلى المغرب قاطعاً آلاف الأميال، ماراً بعدد من العواصم ومآت من القرى أو عشرات من القبائل، فكيف أمكنه قطع البحر الأحمر إلى النوبة، ثم مصر حيث يلتقي بصاحب البريد واضح المتشيع كما في الكامل، ويتصل بالوالي عليها منذ عهد موسى الهادي 169هـ وهو علي بن سليمان العباسي سراً، ثم يعلمه أنه في طريقه إلى المغرب، فيتستر عليه يقول الكندي في كتابه «الولاة والقضاة» ص 131 – 132، ولسوف يكون ذلك هو السبب في عزل الوالي، وقتل واضح، صاحب البريد بمصر لكن ما الذي يدفع الوالي وصاحب البربر بمصر إلى عمل كهذا لولا أنه كان للحركة قوتها وأنصارها في مصر التي لا سلطة فيها أعلى عن سلطة شيخ مصر

= فوصل إلى ماوراء النهر، فاشتد الرشيد في طلبه، فانصرف إلى خاقان ملك الترك» ومعه شيعته وأنصاره نحو 170 رجلا فأقام سنتين وستة أشهر، وخرج إلى طبرستان، فبلاد الديلم سنة 175هـ، راجع الأعلام للزركلي 190/9 ط1959م ومافيه من المصادر وعند القلقشندى 195/1 رواية غريبة انفرد بها وهي أن يحيى فر سنة 166هـ أو لربما يكون هو الآخر وقع له ما وقع لغيره من اعتماد على خطأ النَّاسخ الذي يكون قد قلب رقم 9 إلى جانب الرقم 6 فحصل له ما انفرد به.

وعالمها أبو الحارث الليث بن سعد الفهمي الفارسي الأصبهاني الذي قال عنه الشافعي: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به»»(247) ولم تكن مصر وحدها التي قويت فيها شوكة المتشيعين، وحزب المعارضة في هذه المرحلة بل الإدارة المركزية والوزراء أنفسهم وجد فيهم من يعطف على العلويين ويرثى لهم وذلك ما يخبرنا عنه آبن خلكان، والطبري حين كلا مهما عن أبي عبد الله يعقوب(248)المتوفي سنة 187هـ 803م، الذي آخاه المهدي العباسي، ثم استوزره سنة 163هـ/ 779م، ومع ذلك لم يحل هذا الإغراء بينه وبين حبه لآل البيت والعطف عليهم، وهو الحب الذي أدى به إلى السجن زمن المنصور، ثم عاد الوشاة ليثيروا آنفعال المهدي بالدس ليعقوب أنه يحب العلويين، وكان المهدي يعفو عن كل جريمة مهما عظمت إلا «جريمة» من يحب آل البيت فأراد آختبار ولائه وقد آخاه واستوزره، فأمره بقتل أحد العلويين خفية، لكن يعقوب لم يفعل بل مكن العلوي بعدما زوده بالمال والمساعدة من الفرار، وكان المهدي قد رصد عليه العيون في كل مكان حتى في منزله، فاخبرت عنه إحدى الجواري بما حصل منه نحو الشريف بكل دقة وتفصيل، مما دفع المهدي إلى سؤاله عن مصير العلوي، فأخبر أنه مات، وبذلك تحقق للمهدي ولخصوم يعقوب حقيقة المتشيع للعلويين، فأمر بسجنه في مطبق من سنة 167 إلى 175/هـ787– 791م، ولم يطلق سراحه إلا في عهد هارون الرشيد الذي قبل فيه شفاعة البرامكة ثم رد عليه ما له وسمح له بالإقامة في مكة وبها توفي رحمه الله سنة 187هـ/ 803م، ولعل ما لاقاه يعقوب بن داود من المهدي كان أخف بكثير مما لاقاه العالم الجليل سميه إبن السكيت 188–244هـ /802–858م الذي سأله المتوكل العباسي من يحب أكثر ولديه المعتز والمؤيد، أم الحسن والحسين ابني علي، فرد عليه قائلا: والله إن قنبرا خادم

---

(247) توفي يوم الجمعة 15 شعبان سنة 175هـ /791م عن إحدى وثمانين سنة، قال عنه محمد بن رمح:«كان دخله في السنة ثمانين ألف دينار، فما أوجب الله عليه زكاة درهم»، راجع العبر في خبر من عبر للحافظ ج1/266.

(248) هو يعقوب بن داود بن عمر السلمي بالولاء وهو الذي قال فيه بشار:

بني أمية هبو أطال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داورد

راجع وفيات الأعيان 331/2، والبداية والنهاية 147/10، والعبر لإبن خلدون وإبن الأثير 23/6 والطبري10/3–89.

علي خير منك ومن ابنيك» فأمر بقتله بعدما سل لسانه(249) ومزق بطنه الأتراك، ومثل هذه المواقف من كبار رجالات الإسلام كثيرة في هذه الفترة، مما يستدل به على أن حكم العباسيين كان بالحديد والنار، وأن حزب العلويين كان قوياً.

ونعود إلى مصر حيث علي ابن سليمان، والتي مر بها إدريس في عهد ولاية بن سليمان عليها من قبل الرشيد أيضا، والذي أقره عليها، ويقال إن عليا هذا حسنت سيرته في الناس، وكثر عطاؤه بطريقة غيرالتي كان يريد الرشيد، حتى أصبح أهل مصر يقولون بأحقيته للخلافة، وأنه فاتح أهل مصر، وكشف لهم عن طموحه، في الوقت الذي أمر هارون الرشيد يوم 6 ربيع الثاني سنة 171هـ/787م بنقله إلى العراق ليوليه رتبة عالية في الجيش، وقد توفي رحمه الله سنة 178هـ /794م، وقد حل محله في مصر موسى بن عيسى العلوي، ولما يمضي عليه أقل من سنة حتى عزل هو الآخر يوم 14 رمضان 172هـ/788م ليحل مكانه مسلمة بن يحيى الذي وضع له الرشيد رقيبا سياسيا برسم الأموال والخراج، هو عمر بن غيلان، ومع ذلك فقد كان جو مصر وما آلت إليه حركة المعارضة المتعاطفة مع آل البيت، من قوة لم تترك العامل مسلمة ليستقر رغم رقابة عمر بن غيلان، بل سرعان ماعزل ليحل مكانه محمد بن زهير في 5 شعبان 173هـ/ 782م، وهذا آستمر إلى 7 صفر 175هـ –791م ليعود إليها موسى بن عيسى ثم عزل بعد سنة وأعيد ثالثة، ثم أبعد سنة 180 هـ – 796م.

وبالتالي فقد عرفت مصر بسبب ظهور الأدارسة بالمغرب ثمانية عشر والياً ما بين 172هـ–193هـ «راجع مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي ح 1/197–99.

هكذا كانت ظروف حكم العباسيين في الطريق الذي آتجه نحوه إدريس من الحجاز إلى النوبة ثم مصر وقتها، إلى برقة، ثم تونس، وتيهرت أو تلمسان على الأصح، ومنها إلى طنجة ثم وليلي دون أن ينكشف أمره أو يلحقه أذى، إلى أن يحل بقبيلة أوربة وينزل

(249) راجع ابن خلكان 309/2، والمهدي هو ابن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب... وأمه أم موسى بنت المنصور بن عبد الله، راجع الحميرى والقلقشندي 1/175–183، وكتاب الانساب للسيوطي، م.خ.نا. ص2.

على كبيرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد في شهر ربيع الثاني سنة 170هـ/786م.(250) وهكذا لايخبرنا التاريخ عن الذين ساعدوا إدريس في رحلته، وبلا شك كانوا كثرة غير صاحب البريد واضح، الذي قيل إنه قتل وصلب ليعلم الأنصار من المتحزبين للعلويين فيدخلهم الرعب ويكفوا، لكن هيهات، فقد كان ما في المغرب من المحبين والانصار أكثر مما في المشرق بسبب ظلم الحكام وجبروتهم.

وهناك جوانب أخرى لم توضح حول فكرة اتجاه إدريس نحو المغرب، والتي لاشك لها علاقة بالبربرية المغربية في المشرق، ومدى وجود البربر خصوصا في أرض الحجاز، والشام عاصمة بني أمية التي كان الأسرى والسبايا يوجهون إليها بمآت الآلاف ذكراناً وإناثاً، هؤلاء البربر لم يخبرنا التاريخ بتفصيل عن مدى مشاركتهم إلى جانب العلويين، إلا ما كان من راشد وما أشرنا إليه قبل، وراشد هذا من أية قبيلة هو؟ هل من صنهاجة التي كانت قوية وقتها أم من زناتة؟ ولماذا آختار الذهاب إلى طنجة ثم وليلي بالذات؟ إن ذلك يدل على آختيار سياسي متفتح، وإذا لم يكن بدافع التعلق بعصبية لا يمكن أن يكون لبعد المكان فقط. بل تلك هي المنطقة التي عرفت حروبا ساخنة ضد عناصر الأمويين وولاتهم كما سبق وفيها خاض الخوارج تجاربهم الحربية قبل خمسين سنة، منذ 122هـ زمن آبن الحبحاب، بلا شك وقد تمخضت الصراعات فيها من البرغواطية، وأفكار الخوارج، وعصبية بني أمية، والتشيع المعتدل إلى الإستقرار على أفكار أهل السنة المتشبعين بحب ال البيت حبا يبعدهم عن الغلو والخرافات التي يمجها العقل، ويرفضها

---

(250) ذهب بعض المؤرخين وقد انساق معهم الكثيرون أن قدوم إدريس كان سنة 172هـ وهو زعم باطل، ولئن قال الذهبي إنه سنة 169 فهو يعني بذلك سنة فشل الثورة، وابن عذارى قال سنة 170هـ، وهو الوحيد من المصادر الذي انفرد بهذه السنة وهو الاصح، راجع البيان 82/1. ثم راجع الروض المعطار للحميرى 226/2م. خ . نا. ونهاية الأرب للقلشندي 167ط 1959 ، ومآثر الانافة في معالم الخلافة له أيضا ج 1/ 191. ط الكويت 1964م، لقد ذهب ابن أبي زرع وهو الذي أوقع أكثر المؤرخين في الخطأ – إلى أن ادريس تعرف في مصر على رجل بمجرد وقوفه ومعه خادمه راشد قيل يستوعبان رونق دار جميلة المظهر، ولما سألهما صاحب الدار كشف له- راشد عن هويتهما لأول مرة؟ فأواهما، واكتشفا أنه من شيعة العلويين، ويصل الخبر إلى علي بن سليمان والي مصر، وعنده سابق بالأمر بالبحث عن العلويين، ومع ذلك يطلب من صاحب الدار إجلاءهما فيخرجان على موعد إلى برقة، وهذا منتهى التضحية والنصيحة ربما؟ راجع آبن أبي زرع 5/1- 10 والاستقصا 151/1، 160 ط 1954 ، وتاريخ مصر الحديث 166/1 ط1889.

الرأي السليم. بقي لنا آستفهام آخر عن سبب اختيار إدريس لمنطقة طنجة ثم وليلي وهو: ألم يكن ثمة من دعاة الشيعة من تعرف على المنطقة التي بدأت تحتك مع الامويين في الاندلس وخبر ظروفها وما كانت عليه نوايا أهلها، سواء بالنسبة للأمويين الذين جددوا دولتهم في الأندلس، أو الخوارج الذين تطرف بعضهم تطرفاً بعيداً قبل، وأثناء، وبعد موقعه الأشراف بسبتة، لقد عرفنا التاريخ على عدد النقباء المتشيعيين الإثنى عشر، ومعهم الدعاة وعددهم سبعون منذ قتل الأمويون زيد بن علي سنة 121هـ/738م، ثم إبنه يحيى سنة 125هـ/742م وفي هذه المرحلة أيضا حصل ما حصل بعد موقعة الاشراف، وقتل المآت من العرب، ورجالات بني أمية في منطقة سبتة وطنجة، ألم يكن قد وصل أحد ممن ذكرنا إلى المغرب وقتذاك؟ إذا علمنا أن هؤلاء الدعاة جابوا أقطار الأرض في هذه الفترة، تارة باسم التجارة، وتارة أخرى باسم الوعظ والإرشاد وانتحال مايوافق الجو من المذاهب، أفلا يكون قد وصل بعضهم إلى المغرب؟ لقد قيل إن واضح صاحب البريد الذي ثبت للرشيد أنه ساعد إدريس فقطع رأسه ثم صلبه، قيل إنه رافضي كما عند صاحب مختصر البلدان(251)، وأفكار الرافضة لم توجد في المغرب ولم يعرف قط أثرها إلى عهد ظهور المرابطين، لأنها بالنسبة لطبيعة المغاربة وما فطروا عليه منذ ظهور الإسلام، تعتبر من الأفكار المرفوضة، لأن الرافضة هم الإمامية وبعض الزيدية، ولم تكتف الإمامية، والجارودية من الزيدية، بتفضيل علي على غيره، ولا بأن أبا بكر، وعمر، وعثمان، ومن شايعهم أخطأوا إذ قبلوا التقدم على علي وهو أفضل منهم، لم يكتفوا بذلك مما خاض فيه آخرون سفاهة، بل حكموا بكفر هؤلاء جميعاً، وأوجبوا البراءة منهم، لأنهم «جحدوا وصية» رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي، ومنعوه حقه في الخلافة، وذهب السليمانية إلى كفر عثمان وعائشة والزبير، وطلحة أيضا. وتتوقف الصالحية والبترية في الحكم على عثمان رضي الله عنه(252).

هذه الأفكار لم يكن لها أثر ولاوجود في المغرب عبر تاريخه، سواء قبل ظهور

---

(251) لأبي بكر أحمد بن إبراهيم الهمداني المعروف بآبن الفقيه ص 81 ط لندن 1302هـ.

(252) راجع الشهر ستاني في المصدر السابق، ومحاضرات في علم التوحيد لعلي حسب الله مصدر سابق ص: 129 ط1952.

إدريس، وبعد التمكين لدولته وبنيه من بعده، وقد أشرنا قبل إلى ما قيل عن إسحاق الأوربي الذي استقبل إدريس تم تنازل له عن السلطة، وتزعم جمع كبار القبائل حوله، وأنه معتزلي على حد قول الهمداني، وقد أشرنا إلى أنه ربما يكون المقصود بفكرة الاعتزال هنا ماثبت عن بعض الصحابة، والتابعين. أنهم تجنبوا الخوض بالقول والعمل فيما آنتهى إليه الأمر بعد الفتنة الكبرى، وهذا نفسه اعتزال، أما فكرة إعتزال واصل إبن عطاء مجلس الحسن البصري 21–110هـ/ 642–728م. وما عرفته من جدل نحو مرتكب الكبيرة وغير ذلك، فإنها وإن وجدت في أخريات القرن الأول للهجرة لم تعرف في المغرب حتى حين أصبح لها من أساطين الفكر العربي الإسلامي بعد واصل، وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل، وإبراهيم بن يسار النظام231هـ/845م، والجاحظ 255هـ–/868م أولئك الذين كانوا بالبصرة، كما عرف لها في بغداد: بشر بن المعتمر 210هـ/825م وأبو موسى المردار، ونمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبي داود(253). والفكرة الأولى أصح لأنها فكرة موسى بن نصير كما عبر بها عن نفسه لمعاوية، وكما شهد له بها عمر بن عبد العزيز، وأنه لم يقاتل مع معاوية، ولم يشارك في الفتنة الكبرى لا بالقول ولا بالفعل. وبالإضافة إلى هذا، فقد قيل إن يحيى بن عبد الله أخو إدريس قدم إلى المغرب، ويحيى كان يرافقه العشرات من أنصاره(254) الذين لاشك كان منهم من عرف المغرب قبل أن يقدم إليه إدريس أو يحيى إن كانوا من البربر أو من جند الفاتحين.

وقبل أن نستمر مع إدريس، وقد نزل بقبيلة أوربة وجب أن نتعرف على أحوال شرق المغرب الذي فر منه ادريس كذلك، وكما تعرفنا على مصر وأحوال ولاتها). في الفترة التي مر فيها إدريس بتونس كان بالقيروان يزيد بن حاتم بن قبيصة واليا عليها من قبل

(253) راجع تراجمهم، وللمعتزلة أصول خمسة يدور حولها الجدل وهي: 1- العدل 2- التوحيد، وبهما إشتهروا 3- المنزلة بين المنزلتين 4- الوعد والوعيد 5- الأمر بالمعروف والنهي عن النكر. وبفكرة توحيد الذات الإلهية أبطل المعتزلة فكرة ثنوية الفرس أصحاب النور والظلمة، والمشبهة الذين يأخذون بعض آيات القرآن على ظاهرها فيشبهون الله بالانسان ... الخ راجع المعتزلة في تاريخ التحرير لزهدي جار الله ص 51–60 ط 1947 ، ثم راجع معتزلة الموسوعة العربية ص 718، ثم المصدر السابق محاضرات في علم التوحيد ص 77.

(254) راجع تعليق سابق قبل 436، والذي نرجحه هو أنه إن كان دخل مصر، فكثير من مؤرخي المشرق يطلق إسم المغرب على مصر، أما أن يكون دخل المغرب الذي هو ما بعد القيروان، فهذا ما لم نتأكد منه وهو بعيد الاحتمال.

بني العباس من 155 171هـ/ 771 –787م ولما توفي وقبل أن يصل الخبر إلى الرشيد تولى مكانه ولده داود، إلى أن عين مكانه روح بن حاتم أخو يزيد، والذي قيل أنه أخو هارون الرشيد من الرضاعة، وقد استمر من 171 إلى 174هـ/ 787– 790م، لكن كيف لم يتمكن يزيد بن حاتم من معرفة خبر دخول إدريس إلى المنطقة التي كانت تحت حكمه من برقة إلى القيروان، ألم تكن المنطقة وقد كان الجو المتوتر بها ضد بني العباس وضمنها إفريقية التي عرفت الكثير من الثوار الذين ردوا ولاة بني العباس منهزمين حتى انتهى الأمر بعد إلى محمد بن مقاتل العكي، الذي جاء وقد بلغ التذمر منتهاه بعد الثورة المخربة، ألم يكن يزيد بن حاتم في أخريات حياته وقد رأى ما فعل بنو العباس بأصحاب الحق الشرعي الذين تمكنوا بواسطتهم وكذا ما فعلوه بالذين مكنوا لسلطانهم في بلاد الفرس مثل أبو مسلم، وأن بداية العباسيين لم تكن من الحق الاسلامي ولا العربي في شيء، لأنها حادت عن الصفة المميزة للعربي، وهي صفة الصدق والوفاء، ومن أجل ذلك لم يفعل يزيد أي شيء ضد إدريس، كما لم يفعل من قبله أي شيء ضد عبد الرحمان الداخل؟ ثم ألم يكن زيد بن حاتم الذي لم يتعد نفوذه إفريقية، وأن ما بعدها إلى طنجة ثم سجلماسة أصبح بيد المغاربة والبربر، وأن هؤلاء وقد اعتنقوا فكرة الخوارج المتطرفة، لم تردعهم قوة الأمويين ولاقوة العباسيين؟ فكيف يمكن لعلوي أعزل أن يجد فيهم ومنهم ما يشوش به على دولة كدولة الرشيد التي امتدت شرقا وغربا؟ كل هذه الافتراضات وغيرها حسب رأينا أدت بيزيد بن حاتم إلى اتخاذ هذا الموقف إن لم يكن بدافع الضمير الذي تحرك في الاتجاه الصحيح وما لآل البيت من حق، كان السبب في ماعرف من يزيد في هذه الفترة بالذات، وهذا الموقف من ادريس حتى لايثيرها فتنة في المنطقة لم يكن قادراً على مواجهتها وخصوصاً حين يستغلها الخصوم المستجدون.

الفصل الرابع والأربعون

ظروف تأسيس الدولة الادريسية بالمغرب الأقصى

خرج إدريس بن عبد الله كما رأينا من المشرق متوجها إلى المغرب إثر موقعة فج التي قام بها الحسين آبن أخيه الحسن المثلث سنة 169 هـ/ 785م قاطعا البحر الأحمر إلى النوبة ثم مصر، وبرقة، وتونس، والجزائر فإنه وصل إلى المغرب الذي وصل إليه لا محالة في مطلع سنة 170هـ /786م، وهو الصحيح حسب رأي ابن عذاري. وفي هذه المرحلة، كان عبد الرحمان الداخل الذي دخل إلى الأندلس قد قضى فيها ما يزيد على الثلاثين سنة كلها حروب في سبيل التمكين لدولته، لكنه كان في أخريات حياته، وإذا هو أسس دولة عرفت بداية إزدهارها في عهده، فإنه لم يكن مستعداً للدخول في مغامرة النزاع مع المغاربة والبربر الذين استقبلوا إدريس في عدوة المغرب، وربما إن فعل يعطي للمعارضة التي قضى عليها في الأندلس فرصة العودة إلى ما سبق أن قضى عليه من تطاحن القيسية واليمنية، الذي انتقل وبحدة من الشام إلى الأندلس، بل يضاف له رغبة المغاربة والبربر الفاتحين للأندلس، والذين يكونون قوة حال بينهما وبين الوصول إلى الحكم ما تمسك به القوم من نسب قريشي فيما يرجع إلى الإمامة، وإلا لما بقي القوم في تطاحن على الحكم وهم أقلية بالأندلس، بالنسبة للمغاربة خصوصاً البربر(255) أما عدوة المغرب فقد رأينا البرغواطية بضلالها وفساد فهم ذويها، والقبائل المنضوية تحت حكمها مطماطة، وزقارة، وغيرهما من بطون زناتة، والتي كانت في صراع مستمر مع قبيلة

(255) وسنرى بعد كيف ستتمزق الأندلس في مطلع القرن 5هـ، إلى 27 مملكة يعرفون بملوك الطوائف، راجع الأسر الحاكمة/86-92 . أما أوربة من بطون البرانس، فكان دور سياسي منذ ظهور الإسلام وبطونها بجاية ونفاسة ورهكوجة ونعجة ومزيانة، وارغيوة، وديقوسة، وكان أميرهم بين يدي الفتح الاسلامي سركديد بن زوغى بن بارزيات ولي عليهم رئيسا مدة ثلاث وسبعين سنة، وأدرك الفتح الإسلامي، ومات سنة إحدى وسبعين، وولي عليهم بعد كسيلة بن ملاز الأوربي – راجع العبر 296/6 و297.

أوربة ومن كان في حلفها، كما كان تأسيس دولة بني رستم بتاهرت. ودولة بني مدرار بسجلماسة، قد أعطى من النتائج مايدفع أبناء عمومتهم من زناتة إلى البحث عن بديل للوضع الذي لم يزد مع مرور الزمن إلا فساداً، ورغم المحاولات المتكررة التي طالت، والثورات التي تعددت منذ عهد خالد بن حميد الزناتي، وثورته ضد المرادي عمر بن عبد الله، منذ بداية العقد الثالث من القرن الثاني للهجرة. اي عام 122هـ 739م إن القبائل التي ذكر المؤرخون أنها التفت حول إدريس إلى جانب أوربة والتي هي زناتة، وزواغة، وزواوة، وسدراتة، وغياته، ومكناسة، وغمارة، ونفزة، وهي قبائل لم تكن كلها، وخصوصاً وقت قدوم إدريس على اتفاق فيما بينها ومع البوغواطية الضالة التي كانت تحيط بالمغرب من حدودها، فقد كانت زواغة المحكومة بعضها بالبرغواطية متذمرة من سيطرة ولاتها، وكانت المتاخمة للشرق منها تتعرض لمهاجمة بني خزر، كما تعرضت التي كان موقعها في الشمال إلى مساومات وتهديدات الأمويين المنتظرة، وكان جمع هذه القبائل واقتناعها بالإنضواء تحت حلف واحد يمكنها من قهرها لخصومها يحتاج إلى زمن غير قصير، كان هو المدة التي انقضت على قدوم إدريس، وهي مايقرب من سنتين قضاها كبير قبيلة أوربة إسحاق بن عبد الحميد، في ذلك العمل الشاق الذي يقول ابن القاضي في الجذوة1/ 20 أنه انتهى إلى اتفاق يوم الجمعة 14 رمضان سنة 172هـ/6-11-789م، ولماذا كان يوم الجمعة بالذات؟ ألم يكن منطق الحوادث هو أن إدريس لم يبايع بمجرد وصوله إنما كان لغاية حيث قضى فترة من الزمن كان فيها آتفاق القوم الذين لم يكن لهم قبل اتصال بالشريف الوارد حتى يتعرفوا عليه، وإذا ما بويع نراه ينظم حكومته ويبدأ بالغزو والفتوحات، فهل كانت الجيوش التي قادها وهي من مختلف القبائل المذكورة منضوية قبل تحت قيادة أحد؟ ومن قيل إنه إسحاق الأوربي من ولد أورب بن برنس، هل كانت له قوات منظمة من مختلف القبائل؟

لقد كان أول ما قام به إدريس بلا شك، وحسب ما يرضي اتفاق القبائل هو تأليف حكومة مؤتلفة، من أقوى رجالاتها الذين كان في إمكانهم جمع المقاتلين وقيادتهم لقتال خصومهم، من البرغواطية، ثم المجوس، فكان أول ما توجه إليه إدريس في فتوحاته، هي الناحية الغربية ما بين شالة وتادلة، وتامسنا خصوصا في بوغواطة، وما كان له أن

ينتصر بالشكل الذي انتصر به، لولا أن قوات هائلة وكبيرة تجمعت حوله، وما كان لها أن تفعل لولا أنها كانت تتوفر على قيادات قبلية موتورة ممن حولها حتى انتهت إلى سوس وماسة.

بسرعة هائلة انتصر إدريس بقواته على جموع البرغواطية التي تقلصت ولم تزل سنة 173هـ/ 789م، وبعدها اتجه في نفس السنة، وليس في الموالية 174هـ/ 790م(256) إلى الناحية الشرقية إلى أن انتهى به المطاف إلى تلمسان التي كانت تحت حكم محمد بن خزر بن صولات(257) أمير زناتة، والذي استسلم بشكل يدل على أنه تجرد من قوة قومه الذين انضموا لرأى الجماعة، وفي تلمسان بدأ إدريس أول مشاريعه العمرانية فشيد بها أعظم مسجد جامع قائم حتى الآن، ثم المنبر المنسوب إليه، كما شيد بها بنايات تكاد تقول إنه لولا قوة قبيلة أوربة، وعدم رغبتها في مغادرة مدينة وليلي وما حولها، وبالتالي لبس من صالحها أن تترك إدريس وقد تزعمت الدعوة إليه يستقر بتلمسان، لكان قد اختارها، ودليل ذلك هو طول المدة التي قضاها بها إلى أن انزعج منه هارون الرشيد الذي كان بلا شك يتلقى تقارير من وإلى القيروان روح بن حاتم بن قبيصة، ما يزعجه ويشوش أفكاره، وأن إدريس ربما يعتزم غزو إفريقية، ولو فعل لكان نصيبه الفوز،

---

(256) راجع ابن عذارى المصدر السابق وهو خلاف ما عند القلقشندي 202/1، والعبر 23/4- 43 إذ في شهر صفر من سنة 174هـ، بعدما بني مسجد تلمسان كما هو مكتوب على منبره، والبناء لايكون إلا بعد الفتح والاستقرار، وتلمسان القديمة حلت مكان المدينة الرومانية «بوماريا»، بل تلمسان من المدن التي نالت إعجاب كل الرحالة القدامى في مختلف العصور الضاربة في القدم من اليونان والرومان وحول تلمسان وتاريخها عرف الكثير من الخرافات منها أن فيها الجدار المذكور في قصة موسى والخضر والوارد ذكرها في القران العظيم راجع: سلسلة الفن والثقافة تلمسان. نشر وزارة الإعلام والثقافة/ ط مدريد 1975، راجع أيضا الترجمانة الكبرى ص 68-70-80-139-141-142-144-145-146-147-148-151-152-153-289-382-393-462-476--479-480-. ط نفالة المحمدية 1967 تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(257) استسلم، ولم يقاتل إدريس راجع مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي 202/1، وسنرى أن إدريس الثاني يقيم فيها نحو الثلاث سنوات راجع دائرة المعارف الإسلامية ج 455/3، ود. القرن العشرين 664/8، والترجمانة الكبرى للزياني 45/ط 1967، وقد حققناها من نسخة أصلية لم يزد فيها الفاسيون ولا السوديون من افتراءاتهم ما تعودوه مع كثير من أصحاب الأقلام السائلة كقلم أبي القاسم الزياني راجع ط 1967 ص 68-141-153-289-382-393-462.

ثم راجع فضيحة الفاسيين في كتابنا التاريخ المفتري عليه، وفضيحة ادعاء بعض السوديين النسب عام 1318هـ/ كما في الاتحاف لابن زيدان 178/4-179-180، فكانت النتيجة تطويفة والتشهير به.

لكنه ومما يدل على حنكته، وما كان حوله من رجال عارفين لم يغتر ولم يندفع حتى لايمل القوم الذين التفوا حوله، ولعل هذا ما دفع إدريس للعودة إلى وليلي بدل الإقامة في تلمسان التي تدل كل القرائن على أنه أعجب بها. وإذا ما استقر به المقام بمدينة وليلي التي أصبحت الفتوحات وجيوش الغزو توجه منها، فإن الرشيد ببغداد أصبح يفكر في طريقة للقضاء على إدريس بعدما قتل يحيى بالكيد والغدر والذي كان قد فر إلى الديلم، وعاد بالأمان الذي كتبه يحيى البرمكي، ووقعه الرشيد بخط يمينه، فهل يمكن أن يتكرر الفعل مع إدريس وهو في المغرب؟ يقينا إن الطريقة التي يجب القضاء بها عليه هو تدبير ما يتفق والظروف المحيطة بإدريس في المغرب، وإذا كان الحل الذي اشتهر وتكرر حتى بين العباسيين أنفسهم هو السم الذي راح ضحيته السفاح(258) وغيره فهو أليق سلاح عندهم يوجه من بعيد ضد إدريس بن عبد الله العلوي، إتفق الرشيد مع يحيى البرمكي على اختيار من يقوم بالمهمة أحسن قيام، وسوف يجد العون والمساعدة من مختلف ولاة الأقاليم: موسى بن عيسى العباسي بمصر، ولما توفي روح ابن حاتم بالقيروان في رمضان سنة 174هـ /790م فإن الرشيد الذي كان يدبر ضد إدريس قد أرسل بعهده سراً إلى نصر بن حبيب المهلبي،(259) الذي كان عليه أن يهيئ الظروف المناسبة لمن سيقوم بمهمة القضاء على إدريس، وإلا فأي داع للسرية في هذا الموضوع؟ ولسوف يكون لابن الاغلب دور في هذا الموقف.

كان الرشيد قد تعرف على من يقوم بالمهمة الصعبة وهو سليمان بن جرير اليمني مولى المهدي(260) المعروف بسليمان الشماخ، اتفق هارون الرشيد مع الشماخ بمحضر يحيى البرمكي، على أن يتوجه الشماخ إلى المغرب ويستعمل السم في القضاء على إدريس، مع العلم أن التاريخ لم يخبر أن الشماخ تعرف على هذه الديار قبل، ومع ذلك

---

(258) المصدر السابق 171/1.

(259) المصدر السابق 201.

(260) وتقول رواية الهمداني إن واضح صاحب البريد الذي قتله الرشيد، وقد سبق ذكره هو الآخر مولى المهدي ولم يكن مولى لصالح بن منصور كما قال غيره، راجع ص 81. من مختصر البلدان لابن الفقيه ط ليدن1302هـ.

عند المؤرخين وصل إلى مدينة وليلي في صفة قيل عنه ... تاجر.. متشيع للعلويين، وسرعان ما ينضم إلى إدريس، ثم يصبح من خواصه المقربين، وكل ما لديه من بضاعة هو إلمامه بالأدب إلى جانب الفصاحة والذلاقة في الثناء على العلويين بمحضر رجالات البربر في مجلس إدريس، وكأنه نقيب من نقباء الشيعة حتى قيل إن ابن جرير متكلم الزيدية؟

وأخيراً إستطاع سليمان بن جرير الشماخ، أن يصل إلى هدفه هو قتل إدريس بواسطة السم شماً أو سواكاً كما قيل، وبذلك تنتهي حياة إدريس بعدما يقرب من خمس سنوات على دخوله للمغرب، قضى منها ثلاثة أعوام ونصف، في قيادة الدولة التي أنشأها بالمغرب الأقصى، وإذا قال ابن عذارى والحميري في الروض المعطار إنه توفي وبالتحديد في فاتح ربيع الاول سنة 175 هـ/ 790م فإن غيرهما وهم كثرة قالوا إن موته كان أول ربيع الثاني عام 177هـ/ 16 يوليه 793م، وابن عذاري الذي روى عن ابن الرقيق، الذي روى بدوره عن البكري، والنوفلي، في المجموع المفترق، يكون أقرب للصواب، ولعل الذي أوقع أكثر المؤرخين في الخطأ هو ابن أبي زرع(261) الذي نقل بدوره عن البكري(262) والذي وقع في خطأ أكبر حين قال إن الدولتين عاشتا في سلام.

لقد قتل هارون الرشيد العباسي إدريس بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي، بن ابي طالب (ض) مسموماً بالمغرب بواسطة الشماخ الذي ما كان له أن يغامر لولا أن هارون الرشيد ضمن له السلامة إن هو عرف كيف ينجز مهمته التي كان على علم بها صاحب إفريقية نصر بن حبيب الذي عينه الرشيد سراً، كما كان على علم بها العلاء بن سعد، وابن الأغلب الذي لم يكن وقتها قد أصبح صاحب الزاب،

---

(261) روض القرطاس 1/5-10، وابن ابي زرع في اكثر مواقفه غير موثق ولاموفق في قرطاسه.

(262) المسالك 68. ثم راجع ابن عذاري 1/72- 74-217، وابن خلدون 1/143- 4/12- 13، والمؤنس 46، والمسعودي في مروج الذهب 6/193، والطبري 3/560. وجدوة الاقتباس 20-24، والدرر البهية للفضيلي 2/2-7، والدر النفيس للحلبي 79-109، والصحيح في هذا الموضوع في نظرنا هو ما أورده الهمذاني في كتابه مختصر كتاب البلدان، وهو ابو بكر احمد بن إبراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه راجع ص 82 ط ابريل ليدن 1302 مصدر سابق.

وكما سيصرح بعد بذلك متباهيا ومؤكداً أن ما قام به لصالح العباسيين ضد الأدارسة أجدر أن يجعله أهلا للولاية(263) وإذا ما قتل إدريس وكتب عن قتله المؤرخون بتلك السذاجة، حيث يقول بعضهم إن راشد التحق بالشماخ بعد فراره ثم طعنه طعنة قطع بها يمناه وشج رأسه، فرؤي بعد ذلك مقطوع اليد في بغداد في الوقت الذي تؤكد رواية الهمداني أنه وصل سالما إلى ابن الأغلب، وبعدها عينه الرشيد على بريد مصر؟ ونلاحظ هنا ملاحظة تستوجب التنبيه، وهي أن المغاربة لم يكونوا كالفرس في نظرتهم إلى العباسيين عموماً، وهارون الرشيد بالأخص بعد قتله لأسرة البرامكة، ومن أجل ذلك تحول هارون الرشيد في تاريخ الإسلام الذي كتبه الفرس أو الذين نقلوا عنهم، إلى مثال الرجل الفاسق الفاجر الملحد الذي قضى حياته بين الخمور والفجور، ولم يتورع ولم يتعفف في ارتكاب أفظع الجرائم التي منها الزندقة وعدم الإيمان بالشرائع، كل ذلك وغيره من مبالغات الفرس لم تجدها في تاريخ المغاربة ولا فيما تناولوه في كتابتهم حول العباسيين، رغم أن هارون الرشيد الذي قتل إدريس غدراً بواسطة الشماخ فعل ذلك من أجل تحقيق الثروة وبسط النفوذ، وليس من أجل مصلحة عامة، بل وفي الوقت الذي كان المغرب والمغاربة في أمس الحاجة إلى إدريس، الذي عرف المغرب والمغاربة بفضل ظهوره بينهم نوعاً جديدا من التوحيد لصفوفهم، والدفع بهم كقوة في صالح دولة الإسلام في المغرب الأقصى الذي ستكون قوته بعد وفي زمن المرابطين، والموحدين من عوامل توحيد المغرب العربي الكبير وشد أزر الإسلام في الأندلس.

إن أهم مرحلة في تاريخ المغرب السياسي هي المرحلة التي ظهر فيها إدريس بن

---

(263) لو تفرغ بعضهم للبحث لوجد أنه كان للبربر والمغاربة أثر في نهاية دولة العباسيين بدافع الحقد على ما حل بإدريس الذي كان قد أصبح رمزاً لتوحيد المغاربة. راجع العبر لابن خلدون 7/4، وابن الابار في الحلة 9، والمؤنس99، على أن نهاية العباسيين لم تكن حميدة ودليلها نهاية المقتدر سنة 320هـ، راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي350-357 دار الفكر 1974 ، وفيه أن الذي قتل المقتدر بربري من جنود القائد مؤنس الذين كانوا كلهم من المغاربة والبربر كما أشرنا، ألا يكون ذلك زيادة على ما حصل من سوء تصرف المقتدر، ثم من أثر تسمم عقول المغاربة والبربر ضد العباسيين؟ لقد فعل الرشيد ما فعله مع إدريس أو بالأحرى مع حق العلويين في الخلافة في سبيل التوسع وجمع الأموال، راجع جباية الدولة العباسية ونفقاتها في تاريخ التمدن، الإسلامي لجرجي زيدان 152/2 إلى 174 و 118/5-119، والعقد الفريد لابن عبد ربه ج 22/3، والخطط للمقريزي 301/1-419، 155/2.

وابن الأثير 155/2- 103/5 والمسعودي 314/2 وابن خلكان 319/2.

عبد الله الذي مكنت دولته للاسلام بما انتهت إليه القبائل التي ناصرته من اتفاق ووحدة ركزت الفتح ومكنت للدين في نفوس المغاربة والبربر الذين تعلقوا به كل التعلق، وأخلصوا له كل الإخلاص، فكيف تنتهي حياته بتلك الطريقة الغادرة، ولا تهتز القبائل التي آجتمع شملها بإدريس من أجل الثأر لإدريس؟

لقد انتهى إدريس إلى مرحلة لم يعد من السهل على المغاربة أن يتنازلوا عنه بتلك السهولة التي تصورها هارون الرشيد وقومه، وولاة أمصاره، فإدريس والالتفاف حول إدريس هو الذي مكن من وضع أسس قوية ومتينة لدولة لها من الجذور القائمة على الدّين ما يضمن استمرارها والتعلق بفكرة وأصالة رائدها، وبذلك كان عمل هارون الرشيد عبارة عن حطب زاد من لهيب الحرارة، وحرارة العواطف والتعلق بإدريس الذي لم يخلف في حياته، وإنما ترك زوجة له حامل هي كنزة التي قال بعضهم إنها آبنة إسحاق بن محمد الأوربي، و إن كانت في الشهر السابع، فقد كان على الحكومة التي استطاعت أن تتوصل إلى ما عرف من وحدة الصفوف أن تقنع ما حولها من قبائل بانتظار ماسيكون من أمر المولود المنتظر فإن كان ذكرا فذاك هو المقصود، على أن إدريس لم يفارق الحياة إلا بعد أن وضع للدولة من الأسس ما يضمن استمرارها سواء بالنسبة لتحديد السلطات، وتوزيعها، والفصل بينها، وسواء بالنسبة للاقتصاد وقيامه على أساس العملة الذهبية التي ضربت باسمه سنة 174هـ /790م وقد كتب عليها من الوجه الأول «مما أمر به إدريس بن عبد الله» وعلى الوجه الثاني «جاء الحق وزهق الباطل»(264).

بل إن تلك الأسس رغم كل ما أحيط به الأدارسة من حروب قاسية لم تقتصر على تسميم إدريس الأول، والكيد لسدنة الثاني، ثم القضاء على بعضهم، وفي مقدمتهم راشد البربري رفيق ادريس في هجرته من المشرق إلى المغرب، ورغم ذلك فقد عاشت دولة الأدارسة من العلويين أكثر من قرنين كما سنرى .

(264) راجع الصورة في القاموس الإسلامي لأحمد عطية الله 53/1 ط 63 وقد وقع له خلط في السنة.

الفصل الخامس والأربعون

الدولة الادريسية بعد قتل العباسيين لإدريس الأول غدرا بالسم

يقول بعضهم هنا إن راشد خادم إدريس كان السبب في إقناع القوم بالإنتظار، ونسي هؤلاء أن ظروف القوم أنفسهم وما كان سيحل بهم من فرقة تنتهي إلى ضعف لو لم يجمعوا أمرهم على ما اتفقوا عليه من آنتظار، وأنهم لو تفرقوا لاشك سيدفعون ثمن آنتصارهم على خصومهم من البرغواطية وغيرهم في الماضي القريب، كما أن تحركات بني العباس وعملائهم بافريقية وما جد في سياسة بني أمية بالأندلس، والذين لم يكونوا ينتظرون ولاخطر في حسابهم أن دولة علوية ستنشأ بالمغرب، لولا فاصل البحر ولو طالت حياة إدريس، لما كان مصيرهم غير ما حصل بعد موته من صولة تطاولوا بها على الأدارسة الذين عرفوا منهم المتاعب بعد كما سنرى.

كل هذه العوامل جعلت رجالات القبائل ينتظرون المولود (الرمز) الذي ستتجمع حوله قواتهم، بل والذي سيجمع شتاتهم بشكل تكون الدولة فيه قد اجتازت مراحل الخطر، وأخذت عدتها لانتظار ما سيظهر من محاربة سياسية من الشرق ومن الشمال، وفعلا نفست كنزة ولدا في غرة جمادى الثاني يقول أصدق المؤرخين سنة 175 هـ/790م ونحن نقول أنه كان بحق في هذا الموعد عملا بتاريخ الموت الذي حصل، وكنزة حامل من سبعة أشهر كما نص بعضهم على ذلك، ولاداعي للخوض في هذا الموضوع الذي مطله المغرضون، واتخذه خصوم العلويين من العباسيين في الشرق خصوصاً وكذا زمن الأمويين بالأندلس والعبيدين، وسيلة للطعن الكاذب كما آنساق معهم الذين لم يدركوا

الدوافع(265)، ولم يتعرفوا على ما تعرض له العلويون مما يشبه ذلك في جل البلاد التي كان الحكام فيها يرتعدون من سماع ظهور العلويين بها، فضلا أن تكون لهم دولة، بويع إدريس يوم ولادته، وحتى لايحصل من التحاسد والتنافس بين كبار القوم ورجالات الدولة ما يؤدي للفرقة وضعف الدولة، اختير راشد بن مرشد خادم إدريس الأول، ورفيق هجرته من المشرق وصيا على المولود الذي أطلق عليه إسم إدريس الثاني، وفي هذه المرحلة، وقبل أن تصل سنة 187هـ/ 802م والتي سيبايع فيها إدريس ليصبح الآمر الناهي نشطت فيها تحركات عمال بني العباس بشكل أدى إلى الكيد والتنافس بينهم بشكل دفع المتذمرين في المنطقة إلى الثورة اكثر من مرة، وفي إحداها تعرض الكي للهلاك الذي نجاه ابراهيم الأغلب بن سالم التميمي حين واجه الجند، ثم قادهم في حرب مع البزنطيين في صقلية، ليشغلوا عن العكي الذي تعرض للفشل والمضايقة بسبب قتله البهلول، مما جلب عليه كراهية فقهاء المالكية، ثم ثورة عامله بتونس تمام بن تميم التميمي، والذي لولا نجدة ابن الأغلب لكان محمد بن مقاتل العكي الضحية، رغم قرابته من هارون الرشيد عن طريق الرضاعة، وإذا ما علم العكي أن لا مستقبل له في إفريقية وأن إبن الأغلب الذي أنجده كان بلاشك هو المحرض ضده حتى يعلم الرشيد فشله، وبالتالي طلب ابن الأغلب من العكي أن يزكيه عند سيده حتى لايسند ولاية إفريقية لغيره، خصوصا وأن ابن الأغلب بالنسبة للعكي إذا ما أسندت له الولاية، سوف لا يشعر العكي بشماتة الخصوم، وفعلا وقع العكي في شباك ابن الأغلب الذي كان يعلم أن كل

---

(265) وعند آخرين كالبكري وابن أبي زرع وصاحب الحلة، وهو الأصوب أنه ولد يوم الاثنين 3 ربيع 2 عام175هـ ثم راجع الكامل لابن الأثير، وزهرة الاس، وروض القرطاس وبالمناسبة أشير إلى أن معلما في القرويين هو المسمى التقي العلوي المدغري التازناتتي الذي نتج عن غتبة كثير من الشرور كان كلما تطرق لموضوع الأدارسة أو ادريس الثاني إلا وردد بتطاول ما كان ينشره العباسيون، والأمويون من افتراء مكشوف بدافع الخوف من العلويين أصحاب الحق المشروع في الخلافة، الأمر الذي كان يؤذي نوي النفوس النبيلة. وقد كان ذلك منه بدافع التطرف المقيت الشاذ حبا في الظهور، لكن سرعان ما ابتلاه الله وفي مدينة ادريس وبين أولئك الذين كان يؤذيهم بما يردد حيث شل يداً ولساناً، وأصيب بالداء الذي لم يجد له دواء، وكل من مر عليه أورآه من طلبة الأمس القريب إلا ويذكر له ما كان يردد من خزي في جموع الطلبة الذين يحفظون له ذلك، ويردده بعضهم بألم شديد، ثم يحسبه على العلويين في حين أن هذا الموضوع فنده ابن خلدون، وأغرق الذين تناولوه في الأوحال النتنة. العبر 4/13-14 ، وغيره من مصادر التاريخ، ثم راجع تعليق 479 بعد حيث سنتعرض له في التاريخ المناسب.

مايهم الرشيد من ولاية افريقية هو جمع الخراج، ومحاربة الأدارسة، وإذا كانت مصر صاحبة النفوذ على إفريقية ترهق بما ترسله بغداد من ميزانية التسيير البالغ قدرها مائة ألف دينار سنوياً. فإن إبراهيم ابن الأغلب يتعهد لهارون الرشيد بتحمل ذلك بالإضافة إلى أربعين ألف دينار يدفعها سنوياً لبغداد، مقابل أن تسند إليه ولاية إفريقية، خصوصاً وأنه برهن عن ولائه للعباسيين بمساهمة في التدبير الذي أدى إلى قتل إدريس، وبذلك تدرج حتى وصل إلى عمالة الزاب وقيادة الجند في حربهم بصقلية، وإخماد ثورة عامل تونس تمام، ثم إنقاذ العكي، ولايتوفر أحد من رجالات الدولة بإفريقية بعد فشل العكي على هذه المؤهلات التي لاشك كلها مما كان يوافق نفسية الرشيد وميوله غير ابراهيم بن الاغلب، ناهيك وأن أباه الأغلب بن سالم كان أحد دعاة العباسيين في خراسان وكان قد ولاه أبو جعفر المنصور على إفريقية لمدة سنتين 148 إلى 150هـ/ 765– 767م، وإذا هو قتل في حروبه مع حسن بن حرب الكندي عام 150هـ/ 767م اي بعد سنتين من توليته. فإن ولده إبراهيم المولود عام 140هـ، والذي هاجر إلى مصر، وتعلم فيها كان يشغل عامل الزاب، حيث عاش في صراع مع محمد بن مقاتل العكي عامل الرشيد على القيروان منذ 181هـ، بل تطاول كل منهما وتفاخر أمام الرشيد بالمراسلة بقتل ادريس بن عبد الله الكامل، وأخيراً آنتصر ابراهيم علي العكي بمساندة صاحب البريد وهو سليمان الشماخ الذي أيد دعوى ابراهيم فكان ذلك سببا في إبعاد العكي، بل وتوبيخه لأنه لم يكن في المستوى وقد ولاه (الرشيد ولاية افريقية) مكان هرثمة بن أعين وان العكي كان فاسد الخلق، سيء السيرة يتطاول لأنه أخ للرشيد من الرضاع، لكن ذلك جر عليه ثورات الجنود بقيادة تمام بن تميم التميمي في منتصف رمضان 183هـ، والذي احتل القيروان بعدما طرد منها العكي الذي لجأ بأمان من تمام الى طرابلس، ووقتها كان إبراهيم في طبنة بالزاب، فوجدها فرصة تقربه إلى الرشيد أكثر حين انتصر للعكي رغم مابينهما من تنافس، وذلك حتى يؤكد للرشيد صدق ولائه بانتصاره للوالي الشرعي الذي رده من طرابلس إلى القيروان بعدما أخرج تماماً منها، ومع ذلك بقي كل منهما أي ابراهيم والعكي ينافق صاحبه بالرسائل التي حفظها لنا كل من ابن الآبار والنويري وإن كانا معا اتفقا على عداء تمام، فإن الذي فاز عند الرشيد هو إبراهيم بن الأغلب الذي نال

الثناء عند الرشيد من هرثمة بن أعين، ومن استعلامات الرشيد في المنطقة حيث كان إبراهيم فعلا رجل سياسة ومكر ودهاء. وبذلك أصبح في نظر الرشيد أحسن من خبر أحوال المغرب، ويعرف كيف يدس به للدولة الادريسية العلوية الجديدة فيه، وإذا ما اقتنع الرشيد فإنه أسند ولاية افريقية إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي بكتابين الأول في المحرم، والثاني في جمادى الثاني سنة 184هـ/ 800م، وهكذا فإن إبراهيم المجند منذ آل المهلب تلميذ الإمام الليث بن سعد بمصر، والشاعر الخطيب، كان بحق أحسن من يليق بالولاية وقتها لخبرته، وكفاءته، وحسن معاملته لقومه ومن كانوا تحت حكمه، رغم ما ستظهر منه من شرور ضد المغرب والدولة الإدريسية، وإذا كان قد تولى حكم إفريقية وهي كما عرفنا، فإنه سرعان ما نشر فيها الأمن والرخاء، حتى إنه دون غيره من الولاة استطاع أن يتفرغ في السنة الموالية، وهي سنة 185هـ/801م لبناء مدينة تبعد عن القيروان بأربع كيلو مترات اشترى أرضها من آل طالوت كما يقول ابن عذاري، وأطلق عليها إسم «العباسة» وقد أقامها في مكان لائق، ثم أصبحت عاصمته المفضلة(266) التي أصبح يستقبل فيها السفراء وفيها استقبل سفير شارلمان(267).

ورغم أن إبراهيم بن الأغلب كان عليه أن يشتغل بولايته الجديدة حتى يركز فيها سلطانه، ويظهر لهارون الرشيد أنه كفؤ، فإنه تأكيداً لذلك لم يقف نشاطه عند حدود الولاية، بل تعداه إلى تدبير قتل راشد الوصي على إدريس الثاني بالمغرب الاقصى(268)، ثم بهلول من بعده في الوقت الذي لم يجد عملاؤه وسيلة لإدريس الثاني الذي كانت حراسة القوم ووالدته مشددة عليه، وبذلك انتقلت الوصاية على ادريس الثاني إلى الرجل

---

(266) راجع دائرة المعارف الإسلامية 36/1، وابن عذاري 92/1، وابن الاثير 51/6، وخلاصة حسن حسني عبد الوهاب ص 65، والأسر الحاكمة لزامباور 106/1 . مصادر سابقة.

(457) تودد إليه هارون الرشيد ضد بني أمية في الأندلس، وقد حكم فرنسا من سنة 151 إلى 199هـ/768-814م وهو الذي حارب المسلمين في الأندلس عام 778م- 168هـ.

(268) كان ذلك سنة 186هـ 801م. وقد أورد صاحب الاستقصا جـ164/1 شعرا نسبه لإدريس بعث به إلى البهلول الذي كان من خاصة إدريس ثم آختار جانب آبن الأغلب ومبايعة العباسيين على أن ما أورده ابن عذارى في حق آبن الأغلب من صفات تجعل المرء يتشكك في ما نسب إليه راجع إبن عذارى 92/1 والعبر 126/4 -دائرة المعارف الاسلامية 36/1 والكامل لابن الأثير 6/ 51 والخلاصة النقية 33-35. وإعمال الأعلام لابن الخطيب 8. وتوفي ابن الأغلب سنة 192هـ 840م.

الثالث الذي هو: أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي، الذي كان بلا شك كسلفه لم يغير وجوده ولا ذهابه من الواقع المختار من الجماعة المسيرة بعدما قتل بهلول الوصي الثاني، على أن هناك مايلفت النظر إلى أنه كان في افريقية نفسها من كان ولاؤهم لآل البيت وضد هارون الرشيد والعباسيين منذ ماقبل ولاية ابراهيم بن الاغلب الذي كان يدرك ذلك من خلال ثورات الجند الذين أيدوا بن تميم ولذلك عندما آل إليه الامر فكر اول ما فكر في تأسيس جند من العبيد ضد العرب الذين كانوا في نزاع مستمر بين القيسية واليمنية، ثم ضد المغاربة والبربر الذين أصبحوا أمام تطاحن القوم لايستقرون على حال، خصوصا وقد قامت الثورة في تونس عام 186هـ 802م ضد ابراهيم بن الأغلب وكان قائدها حمديس الكندي الذي صرح أنه ضد نفوذ بني العباس فوجه الى ابرهيم قائد جنده عمر ان ابن مخلد في قوات كبيرة قضت على الكندي، لكن سرعان ما تحول عمران نفسه فثار على ابراهيم واستولى على القيروان ثم حاصر إبراهيم لمدة سنة كما عند ابن الاثير، وكانت هذه الثورة كذلك ضد العباسيين مما دفع بالرشيد إلى أن يوجه لابن الاغلب من الأموال مايواجه به ثورة عمران. التي سرعان ما تفكك جمع قوادها وجنودهم بسبب المال الذي شتته بينهم إبراهيم والذي انتصر لينتقم من أهل القيروان بخلع الابواب وهدم الصور.

وليست تلك الثورة هي الأخيرة، بل كانت ثورة هوارة كما ثارت طرابلس فتدخل بنورستم إلى جانبها، وتلك هي الثورة التي أكلت إبراهيم وقضت عليه بعد اثنى عشر عاما قضاها في الحكم حيث مات مبكرا ولما يمض من عمره سوى ست وخمسون سنة وذلك عام 196هـ/ 811م، وذلك في الوقت الذي بدأ إدريس الثاني يزيد فيما شيده والده ووضع من أسس الدولة التي كدرت صفو العباسيين.

ولعل إبراهيم إبن الأغلب لم يقصد بعمله ضد الأدارسة خدمة بني العباس بقدر ما كان يهدف إلى الاستقلال بإفريقية التي ضم إلى ماجنده بها عشرة آلاف من الزنوج، كما ضيق الخناق على العرب الموجودين بولايته، أولئك الذين أبعدهم العباسيون خوفا من تعاطفهم مع العلويين الذين اشتهروا بالميل لهم، وبدافع الشك في ولائهم لبني العباس وعمالهم مما أدى بجموع كبيرة منهم إلى مغادرة إفريقية والذهاب إلى المغرب حيث حلوا

برحاب إدريس، وقد اشتهر منهم أهل القيروان أكثر، ولعل ابن أبي زرع صاحب رواية أن ابن الأغلب، كان يكتب إلى الرشيد بما يدير من اغتيالات في المغرب، وأنه أورد في ذلك شعرا نسب لإبن الأغلب إن لم يكن قيل ونسب إليه كما فعل مع إدريس الثاني في نظرنا.

ألم ترني أرديت بالكيد راشداً ... وأني بأخرى لابن إدريس راصد
تناوله عزمي على نأي داره ... بمختومة في طيهن المكايد
«ثلاثون ألف «؟» سقتهن لقتله» ... لأصلح بالغرب الذي هو فاسد(269)

وهكذا فإن هذا الشعر وماورد فيه غير مقبول، لأن حادثة إدريس بلا شك جعلت القوم يدركون مقاصد العباسيين وعملائهم، ويكونون دوماً على حذر من كل ما يتصل بابن الأغلب، فكيف بآلالاف الوارد ذكرها ناهيك وأن قبائل العرب كثير منها (500 فارس) فروا من ابن الأغلب عام 182هـ/ 798م إلى جوار إدريس، وأن حقدهم بلا شك كان قوياً ضد الأغالبة، وسوف يجني على زيادة الله بن الاغلب، وبالتالي فإن إبراهيم بعدما بدأت نواياه تتكشف قامت ضده ثورات قريبة بعيدة بطرابلس، وأنه في الفترة التي قتل فيها الأوصياء كان مشغولا بأحوال ولايته التي لم تستقر بعد نهائيا، بل امتدت الى سنة189هـ/804م فكيف يعقل أنه تفرغ لكل ما نسب إليه في المغرب وفي ظرف سنتين أو ثلاث على توليه زمام السلطة بالإضافة الى بعد المسافة ونفور زناتة. بل حقد كل القبائل ضد بني العباس وبالتبعية لهم الأغالبة المستجدون في الولاء.

تقول الرواية إن إدريس الثاني قضى سن طفولته في رعاية كبيرة، وعناية بتكوينه أكبر، وإذا علمنا أن مملكته في هذا الزمان أجتمع فيها من الرجالات ما يعتبرون بحق رجال دولة، فإننا نشك فيما نسب لإدريس من نبوغ في العلوم والمعارف وهو لايزال في

(269) ولقد أورد ابن أبي زرع ص 27 ط الرباط 1973م، وعنه نقل صاحب الاستقصاج 164/1 شعرا نسبه لإدريس بعث به إلى البهلول بن عبد الواحد المضغرى الذي كان عند ادريس بمكان، بل الذي كان من خاصة إدريس ثم اختار جانب ابن الأغلب ومبايعة العباسيين بمقابل مادي، على أن ما أورده ابن عذارى في حق ابن الأغلب 92/1، من صفات تجعل المرء يتشكك فيما نسب إليه من شعر راجع إبن عذارى 92/1، والعبر 126/4، دائرة المعارف الإسلامية 36/1، والكامل لإبن الأثير 104/5 و 51/6، والخلاصة النقية 33-35. وأعمال الأعلام لابن الخطيب 197 والحلة لابن الأبار 233-248 وتوفي ابن الأغلب عام 192م 840هـ.

سن مبكر، فرغم أنه بويع في الطفولة، وربما كان ذلك بعمل موجه من العرب الذين تكاثروا في الدولة. يقول من أسموه «السيوطي» م.خ.نا ص 16–17 "عندما تمت بيعة إدريس الثاني كان مجتمع وليلي يتكون من عنصرين: المغاربة، وبربر زناتة وزواغة، ويازغة، وغمرة، وأوربة، ومن العرب وهم: قبائل القيسية، والحسانية، وبني يحصب والأزد. وحتى يضمنوا لأنفسهم وذويهم استمرار الدولة التي ربما إن لم تكن باسم عربي علوي، يكون مصيرهم الضياع ويصبحوا معرضين للخطر، ولذلك تمت البيعة الشرعية لإدريس وسنه أربعة عشر عاماً أي في مستهل ربيع الأول سنة 189هـ/ 804م(270)، وهي السنة التي كان ابراهيم ابن الأغلب مشغولا فيها بحرب طرابلس(271) التي عرفت الثورة ما بين 184–189هـ/800–804م، والتي استمرت بالعداء ضد عبد الله ابن ابراهيم نفسه سنة 196هـ 811م، ومعنى هذا أنه كان لبني الأغلب ما يكفيهم من المشاكل التي استمرت إلى أيام إبراهيم بن سفيان الذي عزله ابن الأغلب، وولى مكانه سفيان بن أبي المهاجر للمرة الثانية، والذي قامت الثورة ضده بزعامة كبار هوارة، هذا بالإضافة إلى أن عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم الذي كان قد تولى بعد أبيه 171–208هـ/ 787–823م كان هو الآخر لايكن وداً للعباسيين، وبالتالي لعملائهم الاغالبة، وعلى نهجه أهل جبل نفوسه، على أننا لانهمل أن ابراهيم بن الأغلب المولود بالزاب سنة 140هـ، والذي كان له الدور المساعد لسليمان الشماخ. بل والذي اختير لذلك لمهارته، وماعرف به عند الرشيد من جانب ومعرفته بواقع المغرب الكبير من جانب آخر، والذي عرف بالحنكة السياسية والثقافية، فهو إن لم يكن في وسعه أن يستعمل جانب القوة ضد الأدارسة مثلا، لا شك كان يستعمل الدس والكيد والمكر بالاتصال مع بعض رجالات الدولة الإدريسية، كما سنرى بعد إسناد ولاية إفريقية إليه مما سيخلق ارتباكا وعدم ثقة بعد ما يقتل بعض رجالات الدولة الإدريسية، وفي مقدمتهم راشد الذي كان يعتزم غزو افريقية آنتقاما لسيده المغدور

(270) هي عند ابن عذارى في المصدر السابق 187، وفي مخطوط الحلبي خ.ع 649 د ص 90 يوم الجمعة 7 وبيع الأول 188 هـ 803م.

(271) راجع ابن الأثير 132/6 وخلاصة حسن حسني65. مصدر سابق وإن كان غير واحد ممن وضعوا للبيعة تاريخاً غير عام 189هـ، فمرجع ذلك إلى اختلاف المصادر المغربية نفسها بدءاً من صاحب القرطاس إلى الأجزنايي وابن الأبار. وابن القاضي، والبكري الخ مصادر سابقة.

بسم الرشيد، ومساعدة عملائه، ثم اسحاق بن عبد الحميد الاوربي نفسه الذي سيقتل غدرا من المنافسين، كما سنرى، وذلك في الفترة التي ولي فيها إدريس ولما يبلغ من الرشد ما يجعله يعرف مقاصد من حوله.

ذلك جانب من الغيوم والاختلاف حول تلك المرحلة، ومن جانب آخر، فمع أخذنا لما هو أقرب للقبول من مبايعة إدريس، فإن ما نسب له من خطبة ألقاها يوم بيعته والتي ورد فيها «يا أيها الناس إنا قد ولينا هذا الامر الذي يضاعف للمحسن فيه الاجر، وللمسيء الوزر، ونحن ولله الحمد على قصد جميل. فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإن ما تطلبونه من إقامة الحق، إنما تجدونه عندنا الخ"(272) ليست لإدريس بل هي لغيره، وإنما انسياق المؤرخين كما نجد عند كثير من الذين لم يستوعبوا ولم يقارنوا. وحتى تكون البيعة كما يريد لها سدنة الدولة، وحتى يكون إدريس في المستوى الذي يجب أن ينظر إليه زوج من بنت محمد النجار، وبذلك أصبح السلطان للعرب الذين كان منهم الوزراء كذلك، وإذا عرفنا التاريخ أن إدريس آستوزر عمير بن مصعب الأزدي، عرفنا ما كان يوجد وقتها من أعداد قبيلته الأزد عصبية عمير، وإذا ما أسند منصب القضاء إلى عامر بن محمد القيسي، أدركنا كذلك ما كانت عليه أعداد القيسية الذين أنهكتهم حروب الأندلس، واندفعت جموعهم بالآلاف إلى المغرب بعد وقعة الربض أيام الحكم. ثم أسند منصب الكتابة إلى أبي الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي، وهو من الأنصار، ومن خلال هذه العناصر نتعرف على ما كان منها حول إدريس وفي مملكته.

هذه المناصب كانت محور سياسة الدولة لاشك، وإذا كان الذي قدم هؤلاء العرب لتلك المناصب فيما يظهر، هو ما كان لهم من كفاءة علمية(273) لم يكن البربر بعد قد تمرسوا عليها، فإنهم إلى جانب ذلك أصبحوا في وضعهم الجديد، يعتمدون إلى جانب

(272) جاء في كتاب الإدارة الإسلامية لمحمد كرد علي ص 73 ط 23 اوالاسلام والحضارة له ايضا ج 2/ط2 مصر 1959 ص153. أن هذه الخطبة لعتبة بن سفيان أخو معاوية، وعتبة كما سبق هو الذي تولى على مصر بعد موت عمرو بن العاص في ذي القعدة من سنة 43هـ/ 663م راجع قبل التعليق أعلاه من هذا الكتاب، وكذا تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان، ص140 ط1889م ومآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج 1 ص 114 ط الكويت 1964. والخطبة منسوبة إلى إدريس الثاني كما أورد صاحب الاستقصا 162/1 ط 1954م نقلاً عن القرطاس وغيره، وما أكثر مثل هذا في تاريخ الإسلام مع الأسف دون التعرض للأصل مثل خطبة طارق بن زياد التي اشرنا إليها قبل.

(273) راجع الاستقصا 163/1.

فرقة المغاربة والبربر -التي ستؤدي إلى ضعفهم وقتل كبار رجالاتهم- أصبح العرب يعتمدون على العصبية العربية التي بلغت بها قوتها المحيطة بإدريس إلى التصادم مع البربر، فكانت قبائل العرب المكونة من القيسية والحسانية، وبني يحصب، ومدحج، والصدف، والأزد، وقريش، يضاف لهم بعض الفرس، يواجهون فريق المغاربة والبربر المكون من زناتة، وزواغة، ويازغة، وأوربة الذين كانت عامتهم من سدنة إدريس، وإذا ما اشتد الخلاف بين طبقة السياسيين منهم، فإن إدريس الذي تقول المصادر عنه أنه رجح جانباً دون آخر في هذه المرحلة، لم يكن سنه وتجاربه في المستوى الذي يؤهله لذلك، إذ هو لم يبلغ العشرين من عمره، ويظهر أن السياسة العليا كانت وقتها بيد النخبة العربية باتفاق مع الجانب المتفق معهم من المغاربة والبربر خصوصاً المزاحمين منهم لأوربة، والذين كانوا ينقمون على بعض أوربة آل أم ادريس وأبيها الذي هو زعيمهم بنزعته الرامية إلى الاستعلاء واحتكار النفوذ إن صح القول، الأمر الذي أدى إلى وجود تواطؤ حاد ضد إسحاق بن عبد الحميد الأوربي، الذي كان في مقدروه تغيير الاتجاه إن هو تمكن، واتحدت معه أقوى العناصر البربرية، وقبل أن يتمكن ويقود الحزب المعارض الذي أخذ يسعى لوجوده. بادر العرب بتدبير مؤامرة أدت إلى زواله، والقضاء عليه تمكينا لسلطة الدولة واستمرارها فيما يظهر، والذي إن حصل يكون عقوقًا ونكرانًا للجميل أخلاقيا.

كانت التهمة التي وجهت لإسحاق هي: موالاته لبني الأغلب؟ وهي تهمة واضحة التلفيق ومثل هذه المواقف من بعض العرب المتسمة بنكران الجميل هي التي أوحت إلى ابن خلدون بما لفقه في حق العرب، لكن الذي يؤيدها في رأي الملفقين وأنصارهم هو ماعرف من مؤامرة ابن الأغلب(274) على الأوصياء راشد وإلياس وخالد، وأن ابن الأغلب ما كان له أن يحقق أهدافه لولا وجود من يعتمد عليه من رجالات الدولة، ولا أحد وقتها أقرب إلى هذا الاتهام من إسحاق الذي كان في قمة المسؤولية، ثم هو لم يفعل شيئا من أجل الإنتقام ضد بني الأغلب، وأنه ما تركهم إلا لينتصر بهم فيما يطمح إليه من

(274) تقول الرواية: إن ابن الأغلب بلغ به الكيد إلى مراسلة بعض خاصة إدريس بعدما فتن بين المغاربة والبربر، ومنهم بهلول بن عبد الواحد المضغري الاستقصا 1/164 وهو نقل عن ابن ابي زرع المشار إليه قبل. على أن صاحب القرطاس كثير الأخطاء.

آغتصاب السلطة من خصومه العرب الذين أصبحوا كل شيء في الدولة بعدما فرقوا بين رجالات البربر، وأصبح لابد من زوال إسحاق حتى يصفو الجو للعرب، وتزول المخاطر التي تهدد الدولة بآعتمادها على العنصر العربي أكثر.

وإذ كان إسحاق أول رجل له الفضل على دولة إدريس كما كان لأبي مسلم الخراساني على العباسيين، ولأبي عبد الله الحسن بن احمد، بن محمد زكريا الصنعاني على الفاطميين بعد مع أخيه أبي العباس، وقد لاقوا جميعا نفس المصير، فإن ما قام به بناة الدولة الإدريسية نحو إسحاق الأوربي رغم أن البربري بطبعه- وحتى اليوم إن وجد فهو منافق وسريع التحول مع الأقوى- كان عملا سياسيا لابد منه بعيداً عن الأخلاق، وذلك ما قام به المستجدون المتخوفون المدبرون من العرب، ولم يكن ليصدر عن إدريس ضد جده للأم، وهو الذي لم يتجاوز النصف من العقد الثاني من العمر إلا بقليل، ناهيك وأن إسحاق قتل سنة 192 هـ/807م أي بعد الرحيل إلى العاصمة الجديدة بقليل، وبعدما ابتعدوا به من وسط قبيلته وعصبيته إلى القرب من القوة المعارضة لسلطته المطلقة وكبير نفوذه(275).

لم تقف تصرفات بناة دولة الأدارسة من العرب عند هذا الحد من تجريد أوربة من قوتها، بل دفعت الملك الشاب إلى التفكير قبل الرحيل من وسط قوة إسحاق وقبيلته، وإذا علمنا أن إدريس قرب إليه عمير إبن مصعب الازدي، وهو الذي بحث عن موقع مدينة فاس واقترحه، ندرك فعالية التخطيط لإنشاء عاصمة جديدة يكون التصرف والقوة والسلطان لصاحبها، وبالتالي تكون عاصمة عربية علوية تتفق وما يليق بمكانة الدولة، بدلا من مدينة وليلي التي يرجع أساسها وكل مافيها إلى التذكير بدولة نشرت الكفر والظلم هي دولة الرومان، وكان اختيار المكان الذي أشتريت أرضه من قبيلة زواغة بثمن وعقد كتبه عبد الله بن مالك المالكي الأنصاري ضمنه ثمن الأرض ستة آلاف دينار ذهبا(276).

---

(275) تقول بعض المصادر أن كنزة بنت عبد الحميد الأوربي. وإذا كانت ماهو موقفها؟ ربما كانت وضعية المرأة -وهو واقع العلويين بالمشرق خلافا للعباسيين- لم يكن لها رأي في السياسة العليا للدولة، وسوف نرى كنزة تتدخل في الوقت المناسب، وبعد أن يؤول الأمر إلى حفيدها محمد بن إدريس 213 هـ فهل هي فعلا ابنة إسحاق الأوربي؟؟ ام هي من نفزة كما قال بعضهم والذي أرجحه أنها بنت إسحاق رغم تضارب الآراء.

(276) حصل نقاش حول تاريخ بناء مدينة فاس حتى زعم بعضهم أنها بنيت في عهد ادريس الأول، بل وفي السنة 172 هـ/ 788 م، وهو رأي نستبعده لأن الظروف التي واجهت إدريس، وماكانت عليه المنطقة، وعلاقة القبائل التي حاصرته مع البرغواطية لم تكن لتسمح لإدريس الأول بإنشائها بتلك السرعة، وإن كان هذا لايمنع أن =

بنيت مدينة فاس سنة 192 هـ/ 808م(277) وبني فيها إدريس قصره والجامع، ثم أمر العرب والبربر ببناء الدور بعدما ملكهم الأرض، كما توارد عليها من عرب القيروان والأندلسيين الذين فروا بعد نهاية هشام بن عبد الرحمان الأموي، وتولية الحكم الذي خلصه يحيى بن يحيى الليثي المصمودي الطنجي القرطبي 152–234هـ/ 769–849م الفقيه الراوي عن مالك، وكان ذلك بعد موقعه الربض باسم أهل الفضل في قرطبة وعزله للهوه ومجونه.

وهكذا ما كادت المدينة التي أصبحت عاصمة الدولة تعمر بأهلها من سدنة الدولة القدامى والجدد، ويصبح فيها العرب قوة ظاهرة، حتى قامت جل القبائل المجاورة بتقديم فروض الطاعة والولاء لإدريس بشكل الحب الصادق الذي أدى إلى التحام جديد قوامه سياسة جديدة بين المغاربة والبربر والعرب، خصوصا وأن كبار القبائل الذين لم يكن لهم

= تكون بالمنطقة آثار بناء وعملة مهرة أمكن أن يلجأ إليهم لضرب العملة التي وجدت وعليها تاريخ 189هـ ثم تعلل بها اليهودي الوهراني المتفرنس ليفي بروفانصال، بل قبله قال بنفس التاريخ المؤرخ القرطبي الرازي أبو بكر الذي ذكره لوطورنو، وهذا أحسن من كتب عن مدينة فاس، وخاض في شيء من هذا العبادي الذي حقق إعلام ابن الخطيب ج 3/198–1201 ط المغرب 1964، أما ابن الأبار في حلته فهو كثيراً مايقع في خلط واضطراب بالنسبة للتواريخ سواء الأحداث أو حتى الميلاد والوفاة، وأقوى منه ابن سعيد المغربي، والقلقشندي المصري الصنهاجي النماري، وقبلهم أبو عبيد البكري، ومهما يكن فإن تاريخ بناء العدوة الاولى التي هي الأندلس على الضفة اليسرى شرق وادي فاس زمن إدريس الثاني الذي وضع الأساس كان يوم 3 ربيع الأول عام 192هـ/808/1/16م، وهو نفسه الذي حين انتهى من بناء الأولى شرع في بناء عدوة اللمطيين اوائل ربيع الثاني عام 193هـ/ آخر يناير 809م، وهكذا ففي رأينا أن ماقيل عن بناء ادريس الأول لا نأخذ به.

(277) عند ابن خلدون 274/4 أنها بنيت سنة 190هـ، وعند غيره 192–193هـ. وأسوأ وصف لباني مدينة فاس لا عن حضارتها ورد عند الحسن بن محمد الوزان في كتابه وصف إفريقيا راجع ط 1983 ترجمة د. محمد حجي ود. محمد الأخضر من ص218 ثم راجع روض القرطاس 10–27، 29–60 وابن عذاري 1/210–225 والبكري122–123 وابن خلدون 4/ من 13 الى 44 والترجمان المعرب للزياني 261م خ نا وعقد اللائي المستضيئة م خ ناص 25 وقد ورد فيه عن مدينة فاس أنها.. ساف... فقلبت فاس لان ساف خربت منذ 1700 سنة كما أخبر بذلك الراهب المختلق الذي وجده إدريس في مكان البناء كما وجد الرهبان في كتبهم يقول صاحب اللالئ: وهو ما قيل حول باني بغداد والمهدية والاسكندرية وغيرها. وأنها سميت بفاس لأنهم وجدوا بالأساس فأسا طولها 4 أشبار؟ وعرضها شبر وقيل صنعوا له فأسا من فضة ليبتدئ بها التدشين سنة192 ولا مجال لما أورده إبن القاضي في الجذوة نقلا عن هذا المصدر بلا شك، والذي نقل عنه كلاما للرسول صلى الله عليه وسلم. جاء في ط الحجرية وحذف من ط الرباط1973.

وقد كتب عن مدينة فاس في الماضي والحاضر روجي لوطورنو ج 1–2 ترجمة د محمد حجي – د محمد الأخضر ط دار الغرب الاسلامي بيروت.

طموح سياسي أصبحت مساكنهم بجانب إدريس وعلى مقربة منه، وأنهم لم يفقدوا من الاعتبار ما يرفعهم ويرضى كبرياءهم، لكن سرعان ماقامت ثورة بقبيلة مصمودة غربا، ثم نفزة شرقا، وجهت عداءها إلى تلمسان، فكانت تلك فرصة جماعة إدريس لامتحان وضعهم الجديد، وسياسة الدولة الجديدة كذلك، ناهيك وأن قبيلة مصمودة، أعلنت الرغبة في استقلالها، الأمر الذي دفع إدريس وجماعته إلى تنظيم قوة الردع والاتجاه بها موحدة الصفوف بين عرب ومغاربة وبربر إلى تلمسان التي غزاها وما حولها بشكل قضى على ماكان يتصوره الأغالبة من قدرة المعارضة على تحقيق أغراضهم وتنفيذ سياستهم، ومن أجل ذلك بقي إدريس بتلمسان مدة ثلاث سنوات لم يغادرها حتى نصب عليها محمدا آبن عمه سليمان بن عبد الله الكامل، الذي كان صغيراً يوم قتل والده في موقعة فج ثم قطعت رأسه سنة 169هـ/785م(278)، وإذا ما تحركت البرغواطية التي كانت تنتظر فرصة قيام الفتن، فإن إدريس توجه إليها بجنوده ثم ضيق عليها الخناق، وفي هذه المرحلة أيضا جدت ثورات في مملكة الأغالبة التي أصبحت على بركان بسبب ظلم أبي العباس عبد الله الذي خلف أباه إبراهيم سنة 196هـ/ 812م، والذي عكر له الصفو أخاه زيادة الله،(279) كما استمر ذلك إلى عهد أبي عقال، أما الأمويون في الأندلس، فقد استطاع إدريس الثاني أن يكسب صداقة الحكم بين هشام 154–206هـ/771–828م الذي هنأه بوفد، ثم طلب منه التحالف ضد الخصم المشترك الذين هم العباسيون وعملاؤهم الأغالبة، كما لم يحصل بينه وبين بني رستم وبني مدرار، مايكدر الصفو كثيراً، وإذا عاش إدريس الثاني في هناء، وعز ومجد بقية حياته التي قضاها في مدينته فاس التي وضع لها هندسة حول الوادي الذي قسمها شطرين أحاط كلاً منهما بسور له أبواب متعددة، فكان الذي على الجانب الأيسر للوادي خاص به وبرجال دولته، والذي على الجانب الأيمن لضفة الوادي خصصه للقبائل الملتفة حوله، ومن التحق بها، حتى أهل قرطبة الذين قيل عنهم ثمانمائية أسرة، وبذلك عرفت المدينة الثانية بأهل الأندلس كما

---

(278) راجع الاستقصا، وقد صحح خطأ ابن خلدون برواية أبي الفدا 155/1، ثم راجع الاعلام للزركلي وما فيه من مصادر حول ترجمة سليمان 19/7 ط 1956/2م.

(279) راجع البيان لابن عذارى 95/1، ومنه خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب، ثم راجع أعمال الأعلام لإبن الخطيب ج 15/3 ط البيضاء 1964م.

عرفت الأولى بأهل القيروان نسبة إلى القيروان المدينة التي شيدها عقبة بن نافع بتونس، وإذا ما إهتم إدريس بمدينته التي ازدهرت كل الازدهار في حياته، فإنه توفي بها رحمه الله ولما يتجاوز السادسة والثلاثين من العمر الذي حمله المؤرخون أكثر مما يتحمل، حيث دفن بغير الضريح المعروف، والذي بقي مجهولاً لم يكتشف إلا سنة 841هـ/1437م كما أشرنا إليه بعد، والذي بناه على الشكل الذي هو عليه اليوم هو السلطان إسماعيل ثالث ملوك الدولة العلوية.

لقد توفي في نهاية ربيع الأول، وليس جمادى الثانية من سنة 213هـ/828م حيث دفن بمسجد الشرفاء من فاس، مخلفاً وراءه مملكة مستقلة ذات سيادة، بعيدة عن نفوذ بني العباس الذين طالما دفعوا الأغالبة ضد الأدارسة، فاندفعوا بالدس والكيد وفاسد الرأي وسوء التدبير، لكن دولة إدريس دامت وتمكنت، وإذا قيل إن سبب موت إدريس حبة عنب شرق بها، فإنه رحمه الله خلف من الأبناء اثني عشر رجلا، ولم يذكر التاريخ له إناثاً؟ في الوقت الذي مات وهو دون السادسة والثلاثين عند بعض المؤرخين، وإن كان في الثامنة والثلاثين حسبما أوردناه عن ميلاده بشهرين بعد وفاة والده إدريس الأول سنة175هـ، وقد تركه وكنزة حاملة به في الشهر السابع، بل لم يمت إدريس إلا بعدما أصبح للعرب نفوذ وسلطان وقوة تحميهم، وتمكن لهم ماديا ومعنويا، كما أصبحت عاصمة الدولة تتمتع بمجتمع إسلامي ظهر فيه العلماء والفقهاء، معتمدة على قوتها الاقتصادية ونفوذها السياسي(280)، بل أصبح المغرب باستثناء دولة بني مدرار في سجلماسة، كله يتعامل بالنقود التي ضربها إدريس في مدينة فاس.

وتدغة، والتي نتوفر على الذهبية والفضية والنحاسية منها، بل لم يغادر إدريس

---

(280) راجع الزياني في الترجمان المغرب 277 م، خ، ثم القرطاس وجذوة الاقتباس وماورد فيهما حول فاس على عهد المرابطين، والموحدين ص 47 ط الرباط 1973، وما حوته من الدور والمساجد والحمامات والفنادق ومراكز التجارة والمعامل ومختلف الصناعات في النحاس والنسيج ودباغة الجلود والزجاج والورق وعدد المطاحن التي كانت حول النهر المخترق للمدينة، ونشير هنا إلى أن ضريح المولى إدريس الثاني لم يكتشف إلا في سنة 841هـ/ 1437م حسب الوثيقة المدونة في الحرم والموضوعة على الحائط الموازي للضريح، والمكتوب في أول سطر منها نقشا «الحمد لله الذي اطلع صبح اليقين» الخ، وكان ذلك في عهد الوزير أبي يحيى بن زيان، والشريف علي بن محمد بن عمران، كما نقل باستشارة الفقيه عبد الله العبدوسي.

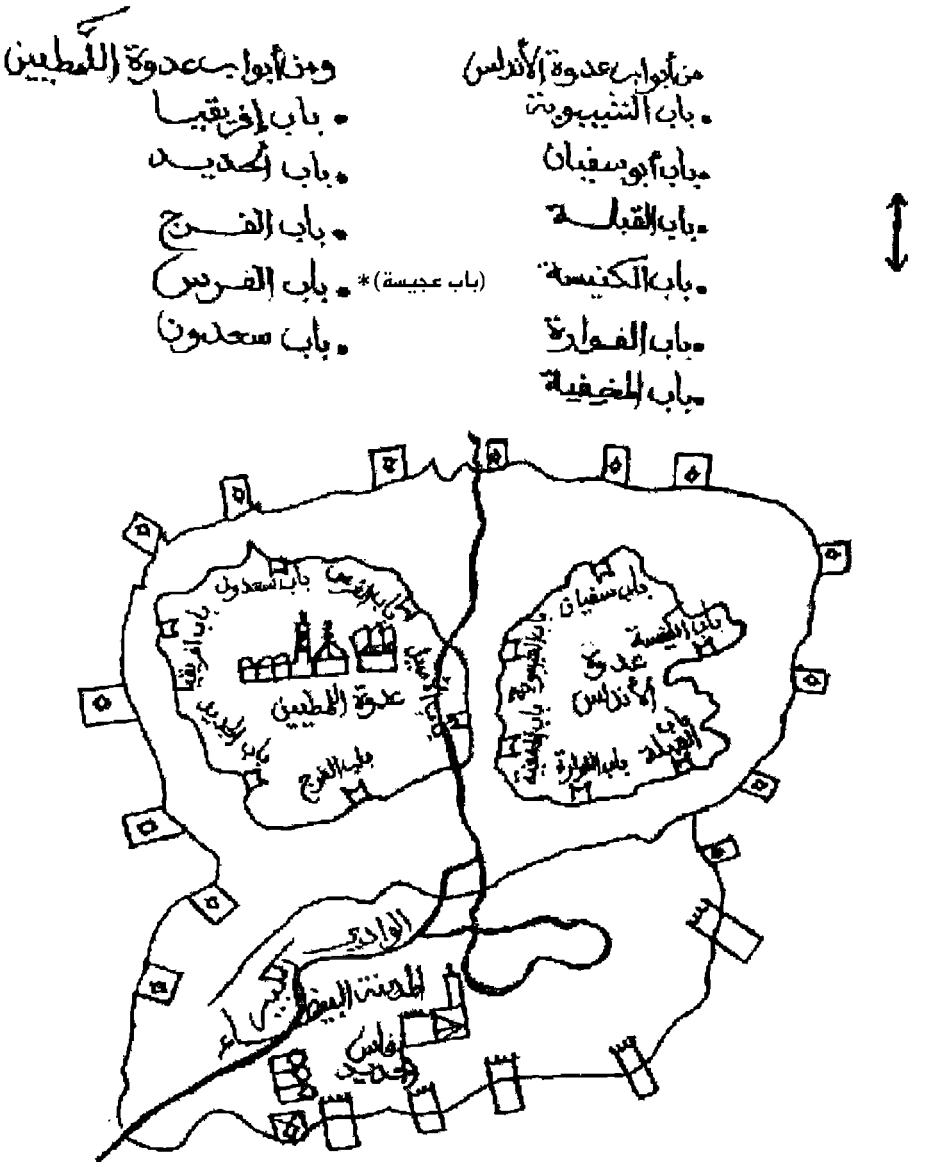

مدينة فاس حسب وحي القرطاس اقتباسا من كتاب لوتورنو عن مدينة فاس
– ونلاحظ على الكاتب الذي ضلل الآخرين أنه كتب "باب عجيسة" حول إلى "باب الكنيسة"
وعجيسة قبيلة بربرية كما عند ابن حزم في الجمهرة 495 ط1971.

الثاني الحياة حتى عرفت مدينته وبلاطه إدارة منظمة للتسيير، قوامها ماكان متداولا في دولة الإسلام، وقد أقتبسه أبن الأغلب عندما إستقل بإفريقية، ولربما كان بواسطة الذين أستقدموا ومعهم تنظيم الادارة في زمن إدريس، وهم أولئك الذين قدموا من القيروان، وقد قدم فيهم الفقهاء المتذمرون والسياسيون المعارضون، والذين هم بلا شك نظموا لحكومة إدريس ماعرف وقتها من دواوين التسيير كديوان الجيش، وديوان الأموال، وديوان الخراج، والسجلات والإنشاء والمستغلات، وماكان لهذه الدواوين من كتاب ومسيرين من أندلسيين وقيروانيين والذين كانت حدود أعمالهم تمتد من وهران إلى أقصى السوس.

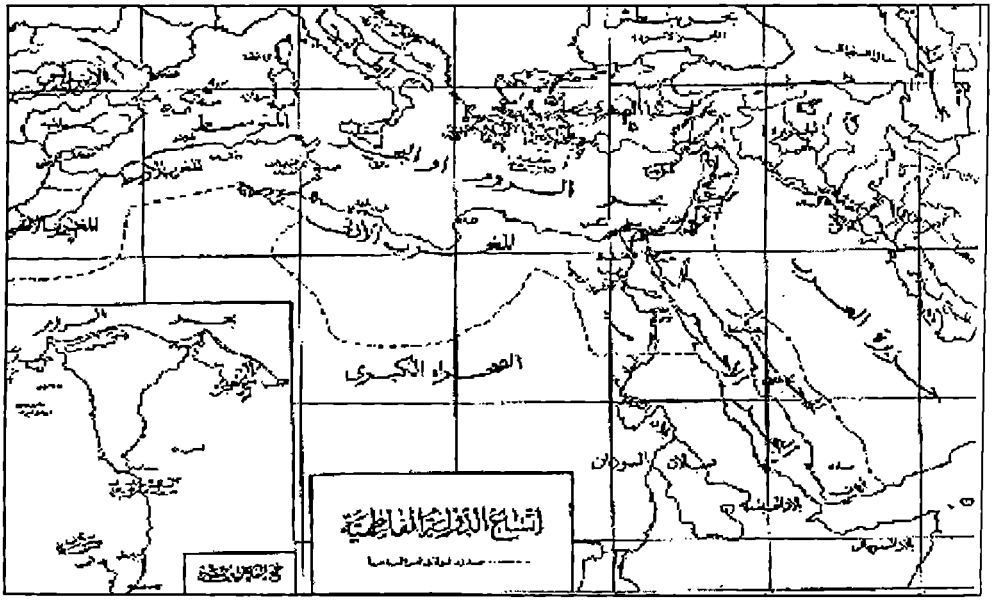

جامع القرويين

مدينة فاس

جامع القرويين بفاس وتظهر الصومعة والزيادة التي أضافها علي بن يوسف بن تاشفين الى الجامع
راجع زهرة الاس لعلي الجزنائي ص67 ط 1967

الفصل السادس والأربعون

صراع دولة الأدارسة مع الفاطميين شرقاً والأمويين في الاندلس

لما توفي إدريس الثاني عام 213هـ/ 828م ترك اثني عشر من الأبناء، وإذا كان الموت فجأة، فإن أحداً من رجالات الدولة، لم يزعم لنفسه حق الوصية، بل كلهم أوصياء وسدنة للخلف الذي هو أكبر الأبناء سنا، وهو محمد بن إدريس، وإذا كانت الجدة كنزة ربما فوق العقد السادس، وهي زوجة المؤسس وأم المركز لسلطان الدولة بالسيف وبالرأي، وأنها كانت في حياة ولدها تتمتع بالإكبار والإجلال من الجميع، فإنها اليوم مدعوة إلى القيام بواجب تطبق من خلاله ما تعلمته في مدرسة الزوج والولد، وما عاشت من صراع ربما كانت تقاسم ولدها الرأي في حلوله من وراء ستار، ولم يعرف منها مايدعوا الأوفياء قبل إلى التخوف أو التحزب، وإذا هي أشرفت على تربية الأبناء الذين كانوا بلا شك من أمهات مختلفات لانعرف آبن البربرية منهم من ابن العربية أو المغربية باستثناء محمد الذي قال عنه صاحب القرطاس إن أمه نفزية، وكذا ولده علي بن محمد أمه رقية بنت عمير بن مصعب الازدي، وإذا كانت كنزة قد علمت ماعاشه القوم من صراع بين الطائفتين على السلطة، فإن إهمال أي كان من أحفادها القادرين يدفع جانبا من جوانب الملتفين حوله إلى خلق الصراع الذي تكون عواقبه ضارة بين الاخوة من جانب، وبالبلاد واستمرار الدولة من جانب آخر.

وهكذا ما كادت بيعة محمد بن إدريس تعلن، حتى أشارت عليه جدته أن يتخذ من إخوته الذين أصبح المغاربة يؤمنون برمزيتهم أعوانه ومساعديه، وأن يوزعهم على جهات المملكة ليرى فيهم المغاربة صورة استمرار إدريس المؤسس وإبنه إدريس المركز، وهكذا

وزع محمد أقاليم المملكة الإدريسية على إخوته التسعة الكبار(281) الذين تولى كل منهم مايلي:

1) محمد بن إدريس وهو كبير الإخوة تولى مدينة فاس العاصمة.
2) حمدون الذي عرف خطأ ب «حمزة» تولى وليلي وما حولها وطيط.
3) أحمد: تولى مدائن مكناسة، وتادلة، وبلاد فازاز
4) عيسى تولى شالة، وسلا، وتامسنا، وأزمور.
5) عبد الله: تولى أغمات، وبلاد نفيس، وبلاد المصامدة، والسوس الأقصى
6) يحيى : تولى أصيلا، والعرائش.
7) داوود: تولى بلاد هوارة(282) وتسول تازة، وجبال غياتة.
8) عمر: تولى تيجنساس، وترغة، وبلاد صنهاجة، وغمارة.
9) القاسم: تولى طنجة، وسبتة، وقلعة حجر النسر، وتطوان، وبلاد مصمودة.

وهكذا تم تنصيب أبناء إدريس كواب لأخيهم محمد إبن إدريس بطريقة يستدل منها على مدى ما أصبح للأدارسة من تقدير واعتبار في نفوس المغاربة، مصدره الحب والتعلق وصادق الولاء، وكيف وقد استطاع إدريس الأول والثاني أن يحققا لدولة الإسلام ماعجزت عنه الفتوحات العربية الاموية بعدما كاد المغرب الذي ارتدت فيه جهات متعددة من تلك التي فتح عقبة، وبعده موسى بن نصير، فتحت من جديد وأصبح الفاتح الصادق هو المشرف الأمين، ولولا اعتبار المغاربة الذين تمكن الإسلام من نفوسهم وأصبحوا

---

(281) اختلف المؤرخون كثيراً ولم يتفقوا على عدد الأبناء، وبالتالي على التقسيم، ولقد كان من أسباب ذلك ماعرف من خلق المؤرخين الذين يضعفون أمام بعض ذوي النفوذ الذين كثيرا ما كان بعضهم ينتحل النسب الذي أصبح عبر التاريخ المركز لكل قوة يتطلع لها سواء اجتماعية كانت أم سياسية، حتى إن بعضهم وقع في كمين بإفترائه الإنتساب لبعض من مات وهو صغير من أبناء إدريس، وقد عد المؤرخون منهم ثمانية أيضا وهم: الحسن، والحسين، وعبد الرحمان، وزيد، وعثمان، وعمران، وجعفر، وكثير، وزاد ابن حزم في الجمهرة ص 42 عبيد الله، وفي هذا تراجع المصادر السابقة، وعن التقسيم تراجع الاسر الحاكمة ج 103/1 ط 1951ودائرة المعارف الإسلامية 549/1، والترجمان المعرب للزياتي 261، وجذوة الاقتباس لابن القاضي. 41/1 ط الرباط 1973.

(282) هناك هوارة في مصر، وليبيا، والجزائر، وفي المغرب بتازة، وبفاس، الناحية، وبأرض سوس، وتافيلالت، وفي الشمال الشرقي لاصيلة، أي في خمس أماكن، ولعل من أسباب تفرقها ما عرف المغرب من حروب وفتن، ولو خصص لها بحث لأمكن الربط بينها جميعا والرجوع بها إلى أصل واحد، وفي هذا دلالة على وحدة شعوب المغرب العربي من صعيد مصر إلى وادي نول.

يعتبرونه المثل الأعلى لجمع صفوفهم ولم شعثهم، والتمكين لهم في أرضهم لكانت الأيام غير الأيام والناس غير الناس.

ما الذي كان يضمن الاستقرار، وقد وزع المغرب وحكم المغاربة بواسطة تسعة من الأبناء لم يتجاوز كبيرهم العقد الثاني من عمره، هل كانت ثمة قوة عسكرية أو قتالية حول كل واحد منهم، وبالقدر الذي يضمن لها السيطرة والقهر ونفوذ السلطان؟ كان هذا ولكن بالقدر الكبير في العاصمة، وحول الملك الذي تحيط به الحكومة المركزية، وحتى قوة العاصمة نفسها، لم تكن بالقدر الذي يحقق لصاحبها الحكم بالقهر والتسلط وعدم الرضى، بل لولا الأسس التي وضعها إدريس بن عبد الله الكامل وإدريس بن إدريس، والتي قوامها الحق، والعدل، والخير، وصادق القصد، لما أخذت الدولة طريقها على النحو الذي عرفها به التاريخ بعد موت إدريس الأول، بل وإدريس الثاني، كيف قبلت كل تلك القبائل على تنوعها واختلاف مفاهيمها، وعدم سابق اتحادها وترابطها، وما عرف عنها من تطاحن قوي وعنيف، كان شغل حياتها في الماضي القريب من أقصى سوس وأرض المصامدة إلى شرق البلاد بأرض زناتة، شعوب مختلفة وطبائع أشد آختلافا، كلها أصبحت تدين بدين الإسلام، وتقبل طائعة حكم من يمثل الإسلام حتى ولو كان في سن الذين تركهم إدريس.

لقد آختص كل واحد من أبناء إدريس الثاني بناحيته التي أصبح له فيها السلطة النافذة بلا مرجع إلا ماكان من الاعتبار السياسي الذي كان لكبيرهم محمد(283) ولم تعرفه دولة الامويين في الأندلس التي شنق فيها المآت من العلماء، وفر منها الآلآف من الأسر التي لجأت إلى المغرب الادريسي لتجد فيه الأمن، والحب، والصفاء. لقد عاشت

---

(283) استهدف محمد بن ادريس بحملة خلقية مفتعلة من بعض عملاء الأمويين أمثال أبي بكر الرازي الذي وصفه بما كان عليه مجتمع الامويين في الاندلس من خمور وفجور، وعنه نقل ابن الأبار في الحلة 1/51-133، مع العلم أن من خيرة ابناء ادريس محمد الذي عرف بالدين، والخلق، والشهامة، والوفاء. وبالتالي فإن الرازي لايعتمد في هذا المجال فهو محمد بن موسى الذي ولد بالري، ثم رحل إلى الأندلس حوالي عام 250هـ 864م، وكان عليه أن يتملق خصوم الادارسة، وهم الامويون. ناهيك وأن الرجل إنما كان تاجرا استقر بقرطبة من أجل التجارة، واتصل بالملك الأموي محمد الاول بن عبد الرحمن، ثم بمن جاء بعده أبي الحكم المنذر، واستخدماه في السفارة، وينسب إليه كتاب الرايات عن فتح الأندلس، وقد توفي عام 273هـ/ 886م، وبالتالي فكل آل الرازي الثلاثة الذين عرفوا بالتاريخ: محمد بن موسى، وأحمد بن محمد، وعيسى بن أحمد عرفوا بعمالتهم للأمويين خصوم الأدارسة.

الدولة بفضل تعلق المغاربة بها في أمن، وسلام، واستقرار، لم يحدث فيها مايكدر الصفو إلا ما كان ما حدث من الأخوة عيسى والقاسم اللذين ثارو على نفوذ أخيهما محمد فتصدى للردع وفرض آحترام سلطة الدولة صنوه الأمير عمر، الذي كان بتيجنساس وترغة من بلاد صنهاجة، ورغم انتصار محمد بمساعدة عمر، فإن ذلك العصيان أوجد السبيل لبعض العناصر المنحرفة التي كانت مكبوتة، والتي لابد من وجودها حتى في مجتمع المدينة الفاضلة، وجدت تلك العناصر المنحرفة طريقها لبذر روح التنافر بين الإخوة غير الأشقاء حتى تحقق أغراضها، كما ظهرت شوكة الأقليات التي أنتج منها إدريس الثاني بالمصاهرة، والتي بقيت مغمورة، لكنها ردت إلى قواعدها بطريقة فيها حكمة وتبصر من سدنة الدولة، وإشارة الأم كنزة بلا شك، ومن غير حادثة عيسى والقاسم عاش محمد بن إدريس الثاني سنواته التي قضاها على رأس الدولة في أمن وسلام وهناء إلى أن وافاه أجله في ربيع الثاني سنة 221هـ/ 386م.

وإذا ما توفي محمد بن إدريس، فإن التاريخ لم يعرفنا أنه أسند ولاية العهد لأحد، وربما لم يفكر فيها لأنه لم يتجاوز نصف العقد الثالث من عمره، يوم وافاه أجله، وإذا لم يفعل فإن الدولة كانت تتوفر على رجالات يحرصون على استمرارها بالقدر الذي كانت الدولة معه موطدة الأركان تحفظ أمنهم واستقرارهم، ومن أجل ذلك أسندت الولاية العامة إلى الولد الكبير الذي خلفه محمد بن إدريس، وهو علي الأول حفيد عمير بن مصعب الأزدي من ابنته رقية بنت اسماعيل، بن عمير، والذي بويع في شهر ربيع الثاني سنة 221هـ 836م وسنه تسعة أعوام، ولعلَ التأخير الذي يحصل لمدة شهر كان بسبب ماجد من رغبة بعض إخوة محمد في الملك، لكن الأمر تم حسب الطريقة التي لاتحدث في الدولة تصدعا، ودام ملك علي الذي حضر مدينة فاس وشيد فيها الكثير من المنشآت في أمن واستقرار، ساهم فيها خلقه، وسلوكه، واستقامته، فاستمر ملكه إلى شهر رجب من سنة 234هـ/ 848م حيث تولى مكانه أخوه يحيى الأول بن محمد الذي شيد في عهده جامع القرويين وجامع الاندلس، ثم بعد يحيى الثاني بن يحيى الأول، ثم علي الثاني، بن عمر بن إدريس الثاني، ثم يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني، ثم يحيى الرابع بن ادريس بن عمر، ثم الحسن الحجام بن محمد بن القاسم، وفي عهده ظهر المغتصب

موسى بن أبي العافية 313هـ/ 925م وقد عرفت الدولة ماعرفت من المحن في هذه الفترة رغم محاولات القاسم كنون بن إبراهيم، بن محمد، وأبو العيش أحمد بن كنون 337هـ/948م والذي استمر إلي سنة 343هـ/ 954م حين ولي الحسن بن كنون وهو الذي ولي البصرة بعد سنة 364هـ 974م من قبل جوهر الصقلي قائد العبيديين ثم عاد إليها سنة 373هـ/ 983م.

لقد عرفت دولة الأدارسة مايزيد على المائة والستين سنة من القوة والسعة والرقي، ورغم كل ما كان يحدث داخلها سواء بين الاخوة فيما بينهم، أو بينهم وبين غيرهم في الداخل، لم يعرضها للضعف والانهيار بالقدر الذي تعرضت لهما من الخارج خصوصا ومن قوة العبيديين الذين كان ظهورهم وبشكل مفاجيء خطراً عليهم وعلى غيرهم، كالاغالبة وبني رستم وبني مدرار، وهي الدول التي لم تصارع كما حصل من الأدارسة الذين أصبحوا بحق قوة سياسية لها خطرها في حياة المغاربة.

لقد تعرضت الدولة لهزة عنيفة بسبب ما اختلق مما قيل عنه غلطة يحيى بن يحيى بن محمد الذي زعموا أنه اعتدى على يهودية، تلك الفرية التي استغلها عبد الرحمان بن سهل الجدامى، وعبد الرزاق الوشقى الأندلسي، الذي قاتله يحيى بن القاسم، بن إدريس وإذا ما قضى على أثر تلك الفتنة عادت الدولة إلى سابق عهدها من الاستقرار إلى زمن ظهور الفاطميين العبيديين الذين انضمت إليهم أعداد كبيرة من قبيلة كتامة وصنهاجة شرقا، فاكتسحوا بها آكتساحاً لم يكن في مقدور الأدارسة مواجهته خصوصا عندما أشتد أمرهم سنة 292هـ/904م، ومع ذلك وجدوا مقاومة شديدة وعنيفة نظمها يحيى الرابع بن عمر بن ادريس، والحسن بن محمد، بن القاسم الملقب بالحجام، ولولا ظهور قائد العبيديين مصالة بين حبوس المكناسي، والمغتصب موسى ابن أبي العافية(284) الذي

(284) بنو العافية هواسم يطلق على أولئك الذين سرحهم بالأندلس سنة 126هـ/743م الخطار حسام بن ضرار الكلبي لما حل محل ثعلبة الذي كان قد جمع الأسرى من الأندلسيين في معسك،ر ثم أراد قتلهم، فلما قدم أبو الخطار أمر بإطلاق سراحهم فسمي عسكرهم عسكر العافية، راجع ابن عذارى 32/2 وأخبار مجموعة 45–46، أما موسى ابن أبي العافية المكناسي فهو بن سيار بن الضحاك بن مجنوب، بن وسيل، بن مراد يس، بن ونيف، بن مكناس، بن وارسطيف، بن زناتة، بن جانا، بن يحيى بن ضريس، بن هوبال، وهو جالوت، كان على قبائل مكناسة ناحية تازة وتسول إلى كرسيف، ولما غزا مصالة ابن حبوس أرض المغرب سنة 305هـ/ 917م، وضم إليه مدينة =

كان واليا على تازة وتسول، حيث قاد مصالة في حربه ضد الأدارسة بفاس سنة 308هـ/920م ثم عاد في السنة الموالية مما أدخل في الدولة ضعفا بسبب الاستنزاف، ولولا ذلك لما كان من السهل القضاء على دولة الأدارسة كما حصل.

لقد استطاعت قوات العبيديين القضاء على دولة الاغالبة وأيمة نفوسة، وبني رستم، وبني مدرار بسرعة خاطفة، إذا قيست مع المقاومة التي حصلت من الأدارسة رغم تعرضهم للاستنزاف.

انتهت دولة أيمة نفوسة بقتل آخر ولاتها أبو يحيى الأرجاني سنة 317هـ/ 923م، ودولة بني رستم قبلهم بيعقوب بن الأفلح سنة 292هـ/ 904م، وبني مدرار بسجلماسة عندما استولى عليها خزرون بن فلفول المغراوي سنة 352هـ/ 963م.

اما دولة الأدارسة التي تعرضت لما سبق، إلى جانب ماجد في سياسة الأمويين، فإنها رغم الانتصار الذي حصل عليه بن أبي العافية ضد يحيى الرابع لم تستسلم، بل قام الحسن بن محمد بن القاسم المعروف بالحجام، وحاول محاولات استمرت بعد غدر مصالة وانتزاعه الإعتراف بمهدي الفاطميين سنة 309 هـ/ 921م، ثم اتفاقه سراً مع ابن أبي العافية الذي قتل من الأدارسة أربعمائة بوادي الشرفاء، فعاد الحسن للقتال وقتل عامل العبيديين بفاس، ريحان الكتامي سنة 310هـ/ 922م، كما شدد قتاله لموسى بن أبي العافية بفحص الواد سنة 311هـ، 923م، والذي انتصر فيه أولا، لكنه آنهزم أخيراً، ثم عاد إلى فاس ليلاقى حتفه غدراً على يد حامد بن حمدان الهمداني الذي قيده بالأغلال، ولما علم آبن أبي العافية طلبه منه ليقتله مكان ولده سهل الذي قتله الحسن، وألفين من رجال موسى، في معارك فحص الواد، التي قتل فيها من رجال الحسن تسعمائة، لكن حامد عاد فأطلق سراح الحسن ليغادر حي اللمطيين إلى حي الأندلس، لكنه مات مستخفيا بفاس الأندلس سنة 319هـ/931م بعدما كسرت ساقه وهو يحاول الفرار. مما

= فاس بعد قتال مع الأدارسة انتهى سنة 317هـ/ 827م ثم تلمسان 319هـ/ 929م، ولما حكم المغربين الأوسط والأقصى انقلب على العبيديين، وأعطى ولاءه للأمويين بالأندلس حيث خطب لعبد الرحمن الناصر، وبذلك تعرض لنقمة المهدي الذي جهز لقتاله جيشاً أذاقه المرارة إلى أن فر، وقتل ناحية ميسور سنة 341هـ/ 952م راجع ابن عذارى 1/ ص194 إلى 214، والعبر 6/134-35، والأنيس المطرب والاستقصا 1/80 الخ.

يستدل به على أنه تعرض للغدر من الاندلسيين، وقد أشار إلى ذلك المولى سليمان في رسالته إلى أهل الاندلس بفاس. راجع كتابنا التاريخ المفترى عليه في المغرب ط1969، ولما تم لابن أبي العافية ماكان يريد بعد محاربته الحسن الحجمام بوادي الرمان قرب تازة، ثم تلمسان التي دافع عنها الحسن بن أبي العيش دخله الطغيان باستيلائه على فاس والنكور(285) سنة 313هـ/925م فخرج عن العبيدين وطرد ولاتهم، كما طرد الأدارسة من فاس إلى جحر النسر قرب سبتة، بل أراد استئصالهم، وولى وجهه نحو الأمويين بالأندلس، الأمر الذي دفع بآخر هو أحمد بن أبي بكر، بن عبد الرحمن الجذامي، أن ينقض على فاس، وقتل عامل موسى عليها حامد بن حمدان، وقتها بادرالعبيديون بإرسال عامل باسمهم هو ميسور الفتي الذي حاصر مدينة فاس حتى استسلمت سنة 32هـ/934م ثم قبض على عاملها، وأرسله مصفدا إلى سيده أبي القاسم بالمهدية من تونس، ونصب عليها الحسن بن قاسم الذي دام إلى سنة 343هـ/954م، ثم تقدم ميسور لمطاردة آبن أبي العافية الذي فر نحو الشمال المغربي حيث قتل بأيدي الأدارسة قرب وادي ملوية سنة 331هـ 942م(286) اما مدينة فاس فقد تحولت تحت ضغط ميسور إلى شيعة العبيديين تحت سلطة عامل نصبه، هو حسن بن قاسم اللواتي، الذي حل مكان أحمد بن بكر الجذامي إلى سنة 335هـ. أما المحاولة الأخيرة فهي تلك التي قام بها شهم آخر من أحفاد إدريس في الشمال، وهو القاسم بن گنون بن محمد بن القاسم بن ادريس الذي توفي سنة337هـ/948م، ثم أبو العيش أحمد بن قاسم گنون المعروف بالفاضل، والذي توفي مجاهدا بالأندلس سنة 341هـ/954م، وآخرهم الحسن(287) بن كنون الذي بايع عبد الرحمن الناصر الأموي،

---

(285) راجع الأسر الحاكمة 103/1.

(286) يظهر خلاف كبير بين الزياني في الترجمان المعرب 261، وغيره من المصادر. إذ قبل هذه المرحلة أي سنة سنة 319هـ /931م تضافرت قوات الأمويين مع العبيديين دون آتفاق على الأدارسة، حيث احتل الأمويون مدينة سبتة، وكانت هذه الضربة القاضية، لكن الأدارسة سيقاومون بعد أكثر من خمسين سنة إلى سنة 375هـ/ 985هـ بل سيؤسسون دولة علوية إدريسية بعدما يقضون على بني أمية القضاء النهائي سنة 407 هـ على يد علي بني حمود كما سنرى.

(287) هو الذي أمر عامله على فاس احمد بن ابي بكر اليفرني بالزيادة في جامع القرويين إذ كان طول الجامع مائة شبر وعرضه مائة ومئذنته محل العنزة ومحرابه محل الثريا الكبرى، فاشترى أصولا وزاد في طوله وعرضه وبني المئذنة التي به حتى الآن ووضع في قمتها سيف إدريس الذي تنازع عليه أبناؤه فقطع نزاعهم وذلك سنة345هـ.

ولما ظهر جوهر الصقلي عامله بما يتفق والظروف، حيث أبدى له الولاء للعبيديين، خصوصاً وأن جوهر قتل يعلي بن محمد اليفرني خليفة الناصر على المغرب سنة349هـ/966م، ولما انصرف جوهر بعد تخريب سنتين أعلن الحسن الدعوة ضد سادة جوهر، وعاد إلى الناصر وولده المنتصر بعده، فأرسل المعز لدين الله العبيدي واليه بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الذي سماه يوسف، والمتوفي 373هـ/984م، وهو الذي اضطر الحسن بن كنون إلى المغادرة من المغرب(288) إلى الأندلس حيث نزل قرطبة التي لم يجد فيها قبولاً، ومنها توجه إلى تونس ثم إلى مصر حيث اجتمع بالعزيز نزار بن المعز365–386هـ/975–996م، ثم عاد ثانية إلى المغرب سنة 373هـ/983م ومعه كتاب إلى بلكين بن زيري ليساعده على إعادة ملكه زمن المنصور بن ابي عامر، الذي وجه لحرب الحسن ابن عمه عسكلاجه الذي أمنه، ثم أرسل إليه برأي عامر من قتله غدراً بعد أمان في شهر جمادى الأولى سنة 375هـ/985م. وبذلك انتهى ملك الأدارسة العلويين بالمغرب وزال سلطانهم المادي، ورغم أنهم تعرضوا ولمدة ثلاثة أرباع القرن لحروب لم يتعرض لها غيرهم في ذلك العهد، فإنهم على مدى قرنين من الزمان تكاثروا بالمغرب، ثم تمكنوا من قلوب أهله بشكل أعطى للعبيدين المنتسبين دونهم، صورة قوية وواضحة عن مدى تعلق الشعب المغربي بهم وبعرشهم وتاريخهم الذي كان وسيبقى على مر التاريخ، القوة التي مكنت للدين ووحدت الصفوف ثم جعلت من المغاربة أمة ذات قيم وحضارة لم ولن تضعف روحياً أو تندثر، وإن ضعفت ماديا ثم تقلصت أمام قوة لاقبل لها بجنودها، وهي قوة الجهل والعقول وطغيان التوحش في نفوس ذوي العاهات من بعض الحكام والملوك الذين ظهروا وقتها.

وهكذا انتهى الأدارسة الذين زالت دولتهم، لكنهم عند الأمويين المتخوفين منهم رغم زوال ملكهم لم ينتهوا؟ فماهو سبب تخوف الأمويين منهم؟ إنه عامل النسب العلوي الذي أقض مضاجع سلفهم من معاوية بن أبي سفيان الذي اشترى قتل الحسن بن علي بالسم

---

(288) يقول الزياني في الترجمان إنه عاد إلى الاعتراف بالعبيديين راجع الترجمان ص 266، ويقول غيره إنهزم بعد قتال وهو الأصح، والواقع أن العبيديين انتقلوا سنة 355هـ/ 968م زمن المعز لدين الله إلى القاهرة، وهو الرابع بعد عبيد الله المهدي، والقائم، والمنصور.

وبوعد كبير لزوجته اسماء بنت الأشعث بن قيس أن يزوجها من ولده اليزيد، وأخيرا دفعها بمائة ألف دينار، وأوسخ منه عمل اليزيد مع الحسين، وهارون الرشيد مع يحيى وإدريس بن عبد الله المؤسس الاول للدولة في المغرب ولولا حراسة سدنة البيت والأم كنزة لتوصل بواسطة الأغالبة لمثل ذلك مع إدريس الثاني لكن شاءت عناية الله أن يتكاثر العلويون في المغرب من سلالة إدريس الثاني، وابن عمه محمد بن سليمان، بشكل أصبحوا معه يكونون قوة مادية بما ألتف حولهم، ومعنوية بأنفسهم العالية التي لم تستسلم رغم قوة القهر بالحديد والنار، التي أحاطت بهم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً خلف البحر.

كان الأمويون بالأندلس يعرفون جيداً أن الأدارسة إن هم وجدوا الفرصة لاشك سيرجعون إلى ملكهم، ولربما بحكم ما كان للمغاربة نحوهم من عطف، سيكون الرجوع بقوة تعرف كيف تصفى حسابها مع الحاقدين، لكن سير التاريخ كان عكس ما ظنه الأمويون الذين اختلقوا فرية ضد الأدارسة حتى يضعفوا الحب الذي كان يغمر القلوب نحوهم، تلك هي فرية أن ادريس الثاني لم يكن إبن ادريس الاول(289). ولكن هذه الفرية المضحكة جاءت متأخرة، بعد قرنين من الزمن تقريباً، وبعدما تبادلوا معهم من الود كما سجل التاريخ، لقد ظهرت هذه الفرية زمن الحكم الثاني المستنصر، بن عبد الرحمن الاموي بقرطبة 350–366هـ/961–976م، وفي عهده كانت دولة العلويين الأدارسة بالمغرب،

---

(289) بل دفعوا محمد بن محمد السمهري إلى هجو القاسم بن إدريس بن إدريس بقوله وهو يدل على مدى الخوف والرعب الذي كان يملأ قلوب الأمويين ومن كانوا على مذهبهم، يقول السمهري شعرا نورده على سبيل التعرف على ما كان عليه الأمويون وشعورهم العدائي الذي لم يضعف ضد العلويين، يقول:

قل للزنيم زنيم طنجة عش بها ... لايحسد نك في بلادك حاسد
منتك نفسك أن تكون خليفة؟ ... هيهات هذا من حديثك بارد
لما رأيتك للّئام مصافيا ... أيقنت حقا أن جدك راشد

عرف الأدارسة هذه الحرب بعنف عنيف، وقسوة زمناً غير قصير، هم وإخوتهم في المشرق والذين كان الإمام علي قد قطع حدهم في الينبع من أرض الحجاز، لكن هيهات ثم هيهات. فقد تمكن الأدارسة وأصبح منهم بعد زوال ملكهم العلماء، والزعماء الذين خلدهم التاريخ وخلد أعمالهم، في الوقت الذي لم يعد أحد في العالمين يعرف حقيقة أين هم الأمويون؟ والعباسيون وسلالاتهم في الأرض وبين شعوب المسلمين إلا في المغرب الذي يحافظ أهله على الانساب أكثر من أي بلد آخر. حيث تتجه الظنون أن هؤلاء من بني العباس في أقصى الجنوب، وأولئك من بقية أمية بن عبد شمس، بن عبد مناف، بن قصي من قريش عاش ومات في الجاهلية وهو الجد الثاني لمعاوية، وبذرة ضئيلة منهم في تطوان كما يقول أبو القاسم الزياني..

وإمارة أبناء عمومتهم السليمانيين بتلمسان قد زالت، بل أصبح لكل من المملكة والإمارة تاريخ طويل في الصراع بينهم وبين العباسيين الذين حلوا محل الامويين في المشرق، بل إن هشام الأول (172–180هـ/ 788–796م) بالاندلس إعترف بإدريس الثاني وتبادل معه السفراء، وطلب منه التحالف ضد العدو المشترك بالمشرق، ولايوجد مصدر من مصادر التاريخ تعرض للأدارسة بمكروه إلا ماكان من شيعة الأمويين وبعض الذين تملقوا بني العباس في العهد الزاهر لدولتهم، ومع ذلك لا نجد لبني أمية اليوم أثر بشري معروف، خلافا للعباسيين الذين يوجد نسلهم ولو بقلة في المشرق وفي سجلماسة وتوات حسب الذي نعرفه بالمغرب إن صح.

إن تاريخ هذه الدولة الادريسية كانت آخر صفحاته ناصعة زاهية كأولى صفحاته التي كتبت من نور، ولا خطأ فيها جميعا إلا خطأ واحد إن صح، وهو ثورة عيسى على أخيه محمد والتي ردها أخو الاثنين عمر.

لقد كان للادارسة على المغاربة فضل يذكره التاريخ بكل اعتزاز، ولكن ملكهم زال بسبب الظروف التي جدت، وفي الزمن الذي أصبحوا فيه بين شقي الرحى، أي الزمن الذي حصل فيه التطاحن على أشده بين القوتين العاملتين داخل الدولة من جانب، ثم بين القوتين المتنافستين، قوة الأمويين وقوة الفاطميين، فإن تأثير هاتين القوتين كان أشد خطراً على الدولة الإدريسية من كل ما حصل في الداخل من بعض الخلافات والأخطاء، التي لاتعبتر إذا قيست بما حصل ويحصل في تاريخ الرجال والدول قديما وحديثا، ومن عدم وجود ما يؤاخذ به الأدارسة في التاريخ نجد المؤرخين يهتزون لما قيل فرية إنه حصل من يحيى الذي قيل إنه «مات بغصته» بسبب ما فرط منه من طيش حين أقدم على «الفتك» بما قيل عنه يهودية، والتي نقول إن هذه الفربة مختلقة وملفقة لكنها وحتى إذا نحن جارينا بعض المؤرخين فهي لاتستحق أكثر من القول «إن الملك الشاب ما كان له أن يندفع بقوته وشبابه وجموح شهوته إلى عمل جنوني في لحظة من حياته، وحوله من الرجال المؤثرين عليه من يحول بينه وبين ذلك الطيش المزري لكنه مع ذلك يقول بعضهم عاد إليه صفاء طويته وتنبه ضميره بشكل أدى إلى فقده الحياة نهائيا من فرط الحسرة، وشدة الآلام والندم، وفي ذلك أقوى حجة للدفاع عن أصالة يحيى الذي لانقول بذلك في حقه.

لقد حقد الأمويون على الأدارسة أكثر في أخريات زمانهم، ولربما كان الدافع هو ماعرف لأواخر الأدارسة وبدافع الظروف من تحول سريع في الولاء، تارة للأمويين وأخرى للفاطميين، هذه مواقف يصفها التاريخ السياسي حضاريا من رجالات الدولة بالخبرة والدهاء وتفادي الوقوع تحت سياط الغالب المقتحم للحمى يدفعه الحقد والرغبة في الانتقام، خصوصا زمن قيام دولة الأدارسة من جديد في الشمال، والتي صارعت آبن أبي العافية حين وجدت الفرصة مع ظهور ميسور الخصي في إفريقية، فاستغلها القاسم وإبراهيم أخوى الحسن الحجام حيث استعاد الأول بعد بيعة الأدارسة جميع بلاد المغرب من يد آل العافية، وكان ولاؤه للعبيديين إلى أن توفي سنة 337 هـ، ثم تولى بعده الفقيه أبو العيش أحمد بن قاسم بن گنون الذي قطع العلاقة مع العبيديين ثم تحول بولائه إلى الأمويين ، بل انتقل بطلب منه إلى الناصر الأموي قصد الجهاد في الأندلس، فقبله أبو المطرف عبد الرحمان الثالث بن محمد بن عبد الله، الذي بقي في الملك نحو الخمسين سنة 300–350هـ/912–961م، وتقول رواية بعضهم أنه بالغ في إكرامه حتى أنه بنى له قصوراً ثلاثين؟ حسب المراحل الثلاثين التي كان عليه أن يقطعها إلى موقع الجهاد، كما خصص له ألف دينار كضيافة لكل يوم؟ وقد مات هذا الملك الأبي النفس أبو العيش الذي آختار الموت شهيداً على قهر سلطان الأمويين الذي ضيق عليه بتدخله الغير المحدود وقتها، ولما خرج أحمد بن قاسم بن گنون، وكان ذلك زمن المعز لدين الله العبيدي الفاطمي الذي غضب هو الآخر لمطلق نفوذ الأمويين على المغرب بواسطة عاملهم عليه يعلى بن محمد اليفرني، كخليفة للناصر والذي كان مقره مدينة طنجة فوجه المعز 341–365هـ /952–975م. خادمه جوهر(290) الذي تزود عام 347هـ/ 958م بعشرين ألف مقاتل قصد بهم المغرب الذي يقول إبن خلدون إن يعلى إستقبل جوهر وبايعه، لكنه قتله غدراً، ولو كان ذلك لما حصلت بيعة ولده يدو من بعده، وذلك بإجماع بني يفرن وزناتة،

(290) راجع وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان ج 118/1 والنجوم الزاهرة 28/4، وابن عساكر3/ 416، ومعجم البلدان 19/7 ، ودائرة المعارف الإسلامية العربية ج 175/7، والموسوعة العربية 673 ط 1965 ، وتاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ج 246/1هـ/ 1306هـ 1889م، وتاريخ الدهور ص 1873/12221. والمقريزي 352/1.

وإذا ماتوجه جوهر إلى سجلماسة وقهر الشاكر لله 321–347هـ /933–958م، ثم ألقى عليه القبض، فإنه عاد إلى مدينة فاس التي كان عليه أن يحاصرها ويقاتل أهلها مدة نصف شهر ثم يقتحمها قائده زيري بن مناد الذي قبض على عاملها من قبل الناصر الأموي أحمد بن أبي بكر الجذامى اليفرني، وذلك بعدما نهبها، وقتل كبارها، ثم سبى ما استطاع منها، وأخيراً هدم أسوارها، وذلك يوم الخميس 20 رمضان سنة 349هـ /960م، وهذا مثال مما فعل في كل مكان حل به جوهر، وأخيراً حمل كبار المغرب مصفدين في الأغلال ثم توجه بهم إلى المعز في عاصمته المهدية، وقد حملهم في أقفاص من خشب على ظهور الجمال. ثم طوف بهم في الأسواق، وأخيراً أودعهم السجن حتى ماتوا جميعا.

كانت هذه الجولة التي قام بها جوهر في ربوع المغرب هي الأولى بعدما كناه المعز بأبي الحسن، وأصبحت رتبته في مقام الوزارة بالإضافة إلى قيادته للجيوش، وإذا ما حقق هذا النصر، فإن على المعز أن يهيئ له رحلة أكبر نحو الشرق يفتح فيها مصر حسب الخطة التي رسمها يعقوب بن كلس الإسلامي للمعز، بل وسيشيد القاهرة بعد عشر سنوات، 359 هـ/969م،

وهذا ما غير اتجاه الفاطميين العبيديين بعيداً عن المغرب وإلا رأى المغاربة من الأهوال أكثر مما عرفوا، تارة من جهة المهدية، وأخرى من ناحية قرطبة.

ونعود لنتابع سيرنا ولسوف نرى أن المواقف التي عرفت من العلويين الأدارسة كانت كلها تدل على النضج السياسي الذي حققته الدولة التي مضى على تأسيسها نحو القرنين ونصف القرن، وأنها بتلك المواقف كان في استطاعتها أن تستمر وتتقوى أكثر لولا ظهور طموحات أخرى من رجل أصبح يتوق إلى تأسيس دولة على أنقاض الأمويين، ذلكم هو الحاجب المنصور بن أبي عامر.

كان التطاحن الذي حصل بين الفاطميين والأمويين على المغرب، في النصف الثاني من القرن الثالث، أشد وأعنف، وخصوصاً ناحية الشمال، حيث كان الحسن بن كنون صاحب جحر النسر ومدينة أصيلة، والذي كان عليه أن ينحاز إلى الأمويين نظراً للظروف التي أوجدوه فيها، لكنه أمام قوة وسيطرة صنهاجة الفاطمية على زناتة وإذلالها لما ذكر

من الدول المشار إليها، أصبح لابد له أن يتجه بولائه للفاطميين حين استيلائهم على البلاد، ولما انصرفوا عاد ليقدمه إلى الأمويين، ولم يكن هذا الموقف فيما يستنتج ليسأل عنه الحسن بن كنون وحده، حتى يوجه الأمويون للأدارسة ماوجهوا لهم من الطعن في هذه الفترة، بل كان زعيم قبيلة زناتة محمد بن خزر كذلك صاحب النفوذ القوي على قومه ممن انحازوا إلى جانب الأمويين مقابل انحياز نده في صنهاجة زيري بن مناد للفاطميين، كما كان في هذا الجانب أيضا جعفر بن حمدون صاحب المسيلة والزاب، وهو صاحب الشاعر ابن هانئ الأندلسي الذي خلده في أمداحه المعروفة، لكن جعفر هذا هو الآخر انقلب وأعطى ولاءه للأمويين، الأمر الذي أدى إلى معارك بين الفريقين اشتدت بعدما تعرض زيري للغدر من بعض أفراد قبيلته زناتة حين كبابه فرسه، فانقضوا عليه ثم ضربوا عنقه وحملوا رأسه إلى قرطبة، حيث علقه الحكم بسوقها، لكن بلكين بن زيري أخذ الثأر بشكل بقي عاره عالقاً بجعفر بن حمدون، ومحمد بن خزر أمير زناتة، حيث تعرضا لنقمة تليق بغدرهما، ففر جعفر إلى قرطبة تاركا المغرب نهائيا، وقتل محمد بن خزر نفسه بعد هزيمة مريرة.

وأمام هذا كان على الحسن بن كنون أن يحول ولاءه إلى بلكين بن زيري مما أغضب الحكم الأموي فوجه إليه إبن طملس محمد بن القاسم قائد عسكره ليقوم بحملة ضد الحسن بن كنون، لكن هذا انتصر عليه فأرسل الحكم ثانية أكبر قواده غالب بقوة لم يكن في مقدور الحسن بن كنون أن يواجهها، مما دفع به إلى الفرار لجحر النسر والإعتصام بقلعتها حتى استسلم بعد حصار طويل كما أشرنا سنة 363 هـ/973م، إلا أن القائد غالب الذي استنفذ كل قواه في إخضاع الحسن بن كنون لم يجن الثمار التي كان ينتظرها، بل ضرب الحكم على يده وجعله تحت آمرة محمد بن أبي عامر الذي عين قاضي القضاة في المنطقة، وإذا ما حمل غالب الحسن بن كنون وأسرته إلى قرطبة، فإن هذه الأسرة التي لقيت إكباراً فرض على الحكم أمام الفقهاء والعلماء الذين كانوا على رأي أهل السنة في احترام آل البيت، سرعان ما تعرضت بعد قتل عميدها غدراً إلى تمزيق وغربة طالت، وكان هذا سبب تحويل مجرى تاريخها، خصوصا بعدما دفع بهم

جعفر المصحفي(291) إلى تونس، وليس السبب كما يقول بعض المؤرخين قطعة العنبر، بل في نظرنا تخلصا مما كان قد خصصه لهم الحكم- وعددهم سبعمائة، والذي شل ثم أسند التسيير إلى المصحفي الذي تعرض بعد موت سيده الحكم صفر 366هـ/ 976م إلى مؤامرات آبن أبي عامر الذي قضى عليه، وعلى القائد غالب بعد مصاهرته بآبنة غالب أسماء سنة 367هـ/ 978م، ثم على جعفر بن علي أمير الزاب الذي قال فيه آبن هانئ الأندلسي.

ولتشكر الدنيا على نيل رتبة فما نلتها إلا وأنت خليق

وإذا هو فعل كل هذا مع الآخرين فإنه ومن قبله لم يستطيعوه مع الأدارسة الذين كان الكل يعرف أصالتهم، ومدى صحة نسبهم، وإكبار الخصوم لهم، واعترافهم بأسبقيتهم قبل غيرهم، وإذا لم يستطيعوا قتلهم فالأحسن إبعادهم.

وهكذا انتهى الصراع بين الأدارسة وخصومهم من الفاطميين الذين سيفقدون المغرب، ومع الأمويين الذين آنهارت دولتهم من الداخل على عكس الأدارسة، فالأمويون خرب ملكهم جماعة قليلة تتقدمهم صبح زوجة الحكم المستنصر الذي ظهر الطعن على الأدارسة في عهده أو بعده، ثم جعفر المصحفي الرناتي صاحب الحكم، وجؤذر، وفائق الخصيان الصقلبيان، ثم الداهية الماكر محمد بن أبي عامر، فكانت بداية الهبوط إلى الهاوية بيعة الطفل هشام يوم 10 صفر 366 هـ/ 976م، بعدها أصبح ابن أبي عامر الذي عرف كيف يستولى على صبح، هو صاحب الشأن ومؤسس الدولة العامرية بدل الأموية بعد.(292).

ولى المنصور ابن أبي عامر على المغرب حسن بن عبد الودود السلمى سنة 376هـ/986م بعدما قتل الحسن بن كنون غدراً كما سبق، وهو في طريقه إلى قرطبة بأمان

---

(291) والمصحفي يقول ابن عذارى 254/2، هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز، بن عبد الله، بن كسيلة، القيسي، وقد ترجم له ابن بسام.

(292) راجع بعض التعاليق السابقة، ومحمد بن أبي عامر من أعظم ما أنجبت الأندلس دهاء وشجاعة رغم ما اتصف به من غدر سواء مع الأمويين أولياء نعمته، أو مع الحسن بن كنون الحسني الذي قتله بعد أمان القائد غالب راجع ما بعد، وتلك هي صفات الأمويين وسلوكهم منذ عهد عبد الملك بن مروان، راجع ماسلكه مع عبد الله بن الزبير وعمرو بن سعيد.

بعد قتال، وامر آبن أبي عامر حسن بن عبد الودود باستمالة البربر في المغرب، خصوصا وأن ابن أبي عامر كان قد آتخذ منهم قوة لإخضاع قبائل العرب بالأندلس حيث ألف منهم حاشيته، وجند منهم الفرق القريبة منه، كما عين زعماءهم في أرقى المناصب، ومثله فعل ابن عبد الودود بعدما نزل بفاس، لكنه فاته أن ما حصل للحسن بن كنون من غدر لاينسيه إلا قتل عامل ابن أبي عامر حسن بن عبد الودود الذي قتل سنة 381هـ/ 991م أثناء غزوة قام بها ضد الخوارج، وهذا أكبر دليل على أن دولة الأدارسة بقيت قائمة في نفوس المغاربة المتعلقين بها، وأنها لم تطعن من الداخل، وقتها اختار ابن أبي عامر زيري ابن عطية زعيم مغراوة لولاية المغرب باسم الأمويين والدعوة لهشام المؤيد محجور المنصور الحاجب، ولاه الحكم من صحراء سوس إلى بلاد الزاب، حيث الخارج عليه أبو البهاء الصنهاجي بن زيري بن مناد، فوجه زيري ابن عطية إلى ابن أبي عامر من الهدايا ما ذكر المؤرخون، وضمنها اللمط المصنوعة في صنهاجة بوادي نول اقتداء بجوهر مع المعز، مما دفع بابن أبي عامر أن يلقب زيري بالوزير، الأمر الذي رفع زيري في نظر صبح إلى أن في استطاعته التشويش على ابن أبي عامر صاحبها القديم، بإشاعته في الناس سلوكه إزاء هشام وتضييقه عليه، أوحت إليه بذلك، فرد زيري بأن قطع اسمه من الخطبة، و طرد عمّاله من المغرب، فوجه ابن أبي عامر مولاه واضح الفتى العامري في جيش إلى المغرب حيث انضمت إليه قبائل صنهاجة، وغمارة، ودامت حرب الفريقين ثلاثة أشهر آنهزم بعدها واضح، لكن المنصور بن أبي عامر جهز هذه المرة أكبر عدد من الجند أشرف على تجهيزه بالجزيرة الخضراء، ثم وضع على رأسه كرمز ولده عبد الملك المظفر الذي عبر إلى سبتة، واستنفر قبائل زناتة وغيرها، فأقبلت عليه، ثم تقدم إلى طنجة ومعه واضح في جيوشه كذلك، والتقى الفريقان بوادي منى من أحواز طنجة حيث دارت الدائرة على زيري الذي جرح بطعنة مدبرة من خادم إسمه سلام، قيل إن زيري قتل أخاه؟ واستولى عبد الملك على قوات كبيرة وذخائر، ثم طارد زيري إلى مكناسة، ومنها فر إلى الصحراء، ودخل عبد الملك فاساً في شهر شوال 387هـ /997م، وكتب إلى أبيه بآنتصاره، فكتب إليه المنصور بعهده على المغرب، وأمر واضح بالعودة مع الجند إلى قرطبة، وبقي عبد الملك بالمغرب مدة ستة أشهر فقط، ثم عاد إلى الأندلس ليخلفه على

المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة، لكنه هذه المرة أذعن معلناً ولاءه لهشام وللمنصور بن أبي عامر، فكتب إلى هذا الأخير يسترضيه، فأعاده إلى منصبه، ولما توفي سنة 397هـ /1000م خلفه ولده المعز بمصادقة المظفر ولد بن أبي عامر، ودام المعز بن زيري على ولائه لبني أمية حتى اختل سلطانهم بالأندلس.

وهكذا إذا ما انتهى الأدارسة بالمغرب، فإن الصراع الذي أنهكهم ثم قضى على دولتهم لم يعد على الأمويين بغير الضعف الذي انتهى بهم إلى زوال أبدي، كما فقد الفاطميون المغرب ولم يعرفوا بعد العزيز الذي توفي يوم 28 رمضان سنة 386هـ/ 996 غير الشقاء الذي جره ابنه الحاكم بأمر الله الذي تعرض لزندقة حمزة الفارسي الباطني (ت 422هـ)(293) حتى ادعى الألوهية، ثم قتل بتدبير من أخته ست الملك عام 411هـ 1021م، لكن ذلك لم يجعل حداً لمذهب درار الذي أباح للاخ الزواج من أخته، والأب من بناته، والام من أبنائها، أما الادارسة في المغرب فكان تاريخهم التمكين للدين الحنيف بالكتاب والسنة، ولسوف يصبحون في المجتمع المغربي بعد زوال ملكهم قوة أكثر فعالية لحفظ الدين، وصيانة أصوله، كما ستعرف لهم دولة أخرى في الأندلس هي دولة بني حمود سيؤسسها أحد أفراد الجيل السادس بعد إدريس الأول سنة 407هـ/1016م، وهو علي بن حمود بن ميمون بن أحمد، بن علي، بن عبد الله، بن عمر بن إدريس الثاني(294) وكان علي هذا أول ملوك بني هاشم في الأندلس يقول ابن عذارى «لقبه» الناصر لدين الله، أمه البيضاء بنت عمه عمر، تولى «الخلافة» في الأندلس وسنه أربع وخمسون سنة وتسعة أشهر، يوم بويع في 22 محرم في السنة المذكورة، وكان أصغر من أخيه القاسم بأربعة أعوام، لكن كيف تم لهذا البطل العظيم وأخيه الوصول بسرعة خاطفة إلى ذلك المقام الذي كان أصحابه بالأمس القريب بل خدامه السبب في النكال بالعلويين الادارسة، حتى انتهوا إلى تمزيق بعدما كانوا يزعمون أنهم ينافسون بغداد، وما كان يزعمه العباسيون في بغداد.

---

(293) راجع ترجمة حمزة في أعلام الزركلي 310/2 ط2: 1954 فهي أحسن ما يقرأ حول بهتان ذلك الضال المفتري.

(294) العبر 455/6، والبيان لابن عذارى 119/1، وفيه نسبه كما يلي: علي، بن حمود، بن علي، بن عبد الله، بن إدريس، الخ، والجمهرة لابن حزم 51/ط1971، دار المعارف بمصر، وفيها أن بدء امرهم بالأندلس كان في شوال سنة 400 هـ ص: 51.

عندما انتهى غالب بمساعدة قائد العرب بالأندلس يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي إلى أسر الحسن بن كنون، ثم قتل غدراً في الطريق إلى قرطبة، فإن ما تبقى من شتات الأدارسة بعد الذي حصل زمن بن أبي العافية، منهم من تنكر لنسبه وأصبح ضمن قافلة البربر الذين نزحوا إلى الأندلس، ومنهم على وأخوه القاسم ابنا حمدون، من بني عمر بن إدريس، ولما انقرضت دولة آبن أبي عامر، وكان البربر سببا في زوالها وتولية سليمان بن الحكم، وسليمان الملقب بالمستعين، في شهر ربيع الأول سنة 400هـ/1009م، وكان علي والقاسم ضمن الذين مكنوا لسليمان وأسند إلى علي بن حمود ولاية طنجة وأعمال غمارة، وأسند إلى القاسم بن حمود ولاية الجزيرة الخضراء، وإذا علمنا أن منطقة آل عمر ابن إدريس، وموطنهم الذي عرف العزَّ بهم، وعرفوا العزبين قومه هي المنطقة التي أصبح عليها علي، وإذا علمنا أن نفوذ البربر بلغ نهاية قوته في قرطبة التي أصبح يتطاحن عليها بالإضافة إلى سليمان، محمد الثاني المهدي بن هشام بن عبد الجبار، ولي عهد عبد الرحمان الناصر، بن محمد المنصور، آخر الحجاب العامريين، الذي تولى في شهر شوال سنة 400هـ/ 1009م، وللمرة الثانية، ثم هشام الثاني المؤيد بن الحكم الذي عاد بعد زوال في شهر ذي الحجة من نفس السنة، وهو الآخر للمرة الثانية، ثم سليمان المخلوع، والذي عاد هو الآخر للمرة الثانية، من شهر شوال 403هـ إلى المحرم 407هـ 1012–1016م.

في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الأمويين كان علي في منطقة أجداده يهيء للإنقلاب الذي ساعده في عدم الكشف عنه أولئك الذين أعياهم مآل إليه أمر دولة قرطبة من البربر. شيعة الأدارسة، والذين لم يكونوا ينتظرون غير الإشارة من علي الذي لم يكن بمجهول عند البربر والعرب، سواء في المغرب أو الأندلس، وإنما برجحان تفكير وحسن تدبير، إختار التقية حتى يعد للأمر عدته، ومثله كان يفعل القاسم الذي يكبره...

وفي شهر المحرم من سنة 407هـ /1016م أعلنت الثورة، وتم الإنقلاب ببيعة علي بن حمود ملكاً علوياً بقرطبة فتلقب بالناصر لدين الله، وأسند الولاية التي كان بها وهي طنجة، إلى ولده يحيي، لكن عليا بن حمود الذي بدأ حياته بالاتصال بالناس ثم فتح أبوابه للعامة، لم يكن مما يرضي البربر الذين ناصروه، لأنه لم يحقق أهدافهم المادية،

وقد كادوا ينحرفون عنه لولا أنه تدارك الموقف، لكنه تداركه بشكل مكن لطغيان البربر الذين كانوا قد انحرفوا عليه، وأصبحوا يفكرون في غيره الذي هو المرتضى عبد الرحمن بن محمد الذي عرف بعبد الرحمن الرابع، الأمر الذي دفع على بن حمود إلى النقمة على أهل قرطبة، فسلط عليهم ألوانا من العذاب أدت إلى قتله في رمضان، حيث بويع عبد الرحمن المذكور، لكن كفة القاسم بن حمود رجحت، وتولى سنة 412هـ/1021م ثم عاد القاسم للمرة الثانية سنة 413هـ/1022م، وتولى بعده عبد الرحمان «الخامس» بن هشام الملقب بالمستظهر في رمضان 414هـ /1023م، ثم محمد «الثالث» بن عبد الرحمان الملقب بالمستكفي في ذي القعدة 414 هـ/1023م، ثم عاد يحيى بن علي بن حمود للمرة الثانية في ربيع الاول 416هـ/1025م بعده تولى هشام «الثالث» بن عبد الرحمان الرابع الملقب بالمعتد، من شهر ربيع ل 418 إلى 422هـ/1027–1030م.

وإلى هنا انقلب الحكم في الاندلس إلى ملوك للطوائف، كما سنرى، أما الحموديون فقد استمروا يحكمون إلى سنة 449هـ/1057م عندما فتح المرابطون عاصمتهم، كما حكم أبناء عمومتهم محمد المهدي بن القاسم بالجزيرة 431هـ/ 1039م، ثم الواثق بن محمد بن القاسم من 440 إلى 450 هـ/1048– 1058م عندما فتح بنو عباد الجزيرة، وأزاحوهم عن حكمها، بل آنقسمت جزيرة الأندلس إلى سبع وعشرين ولاية أطلق علي صاحب كل ولاية لقب ملك رعيته (طائفته)، فقيل عنهم ملوك الطوائف الذين سيوحدهم يوسف بن تاشفين بعد.

وهكذا لم يسجل التاريخ لأسرة ما، ما عرفه للعلويين الأدارسة بالمغرب، والذين لهم الفضل في بناء الدولة المغربية والمحافظة على العقيدة الإسلامية، بل إن الأدارسة هم الذين أخذوا الثأر لإخوتهم من أبناء علي الذين نكل بهم الأمويون، فالأدارسة هم الذين قضوا القضاء النهائي على الأمويين بالأندلس ثم حلوا مكانهم، بل سنرى أن الأدارسة لم ينقرضوا، وأنهم سيفيدون المغرب والمغاربة علما ودينا بين حواضر المغرب وبواديه بعد زوال دولتهم أكثر وأحسن مما كانوا في عهد تلك الدولة، والأدارسة هم الذين سيقفون إلى جانب الذين سيؤسسون دولة الموحدين، ودولة السعديين، في الوقت المناسب، وبالتالي لولا وجود العلويين الأدارسة بالمغرب لما استمر تاريخ الإسلام بهذه الديار التي تخطاها

إلى حدود إفريقية السوداء، ومالي، والنيجر على يد الأدراسة والذين تخرجوا من مدرسة الأدارسة. وهذا هو الجانب الذي غفل عنه المؤرخون ولم يتناوله أحد منهم بما يليق وهو ماسنراه في الفصل الثاني السابع والأربعون بداية الجزء الثاني.

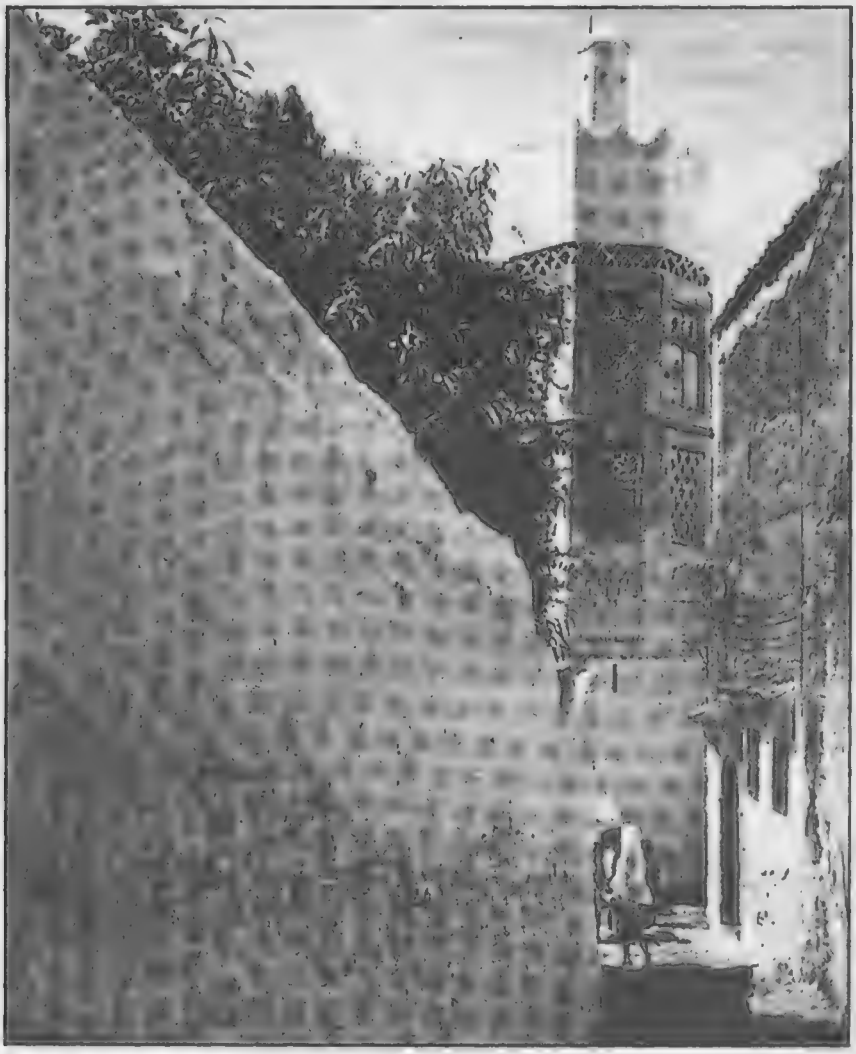

من مدينة الشاون المباركة/

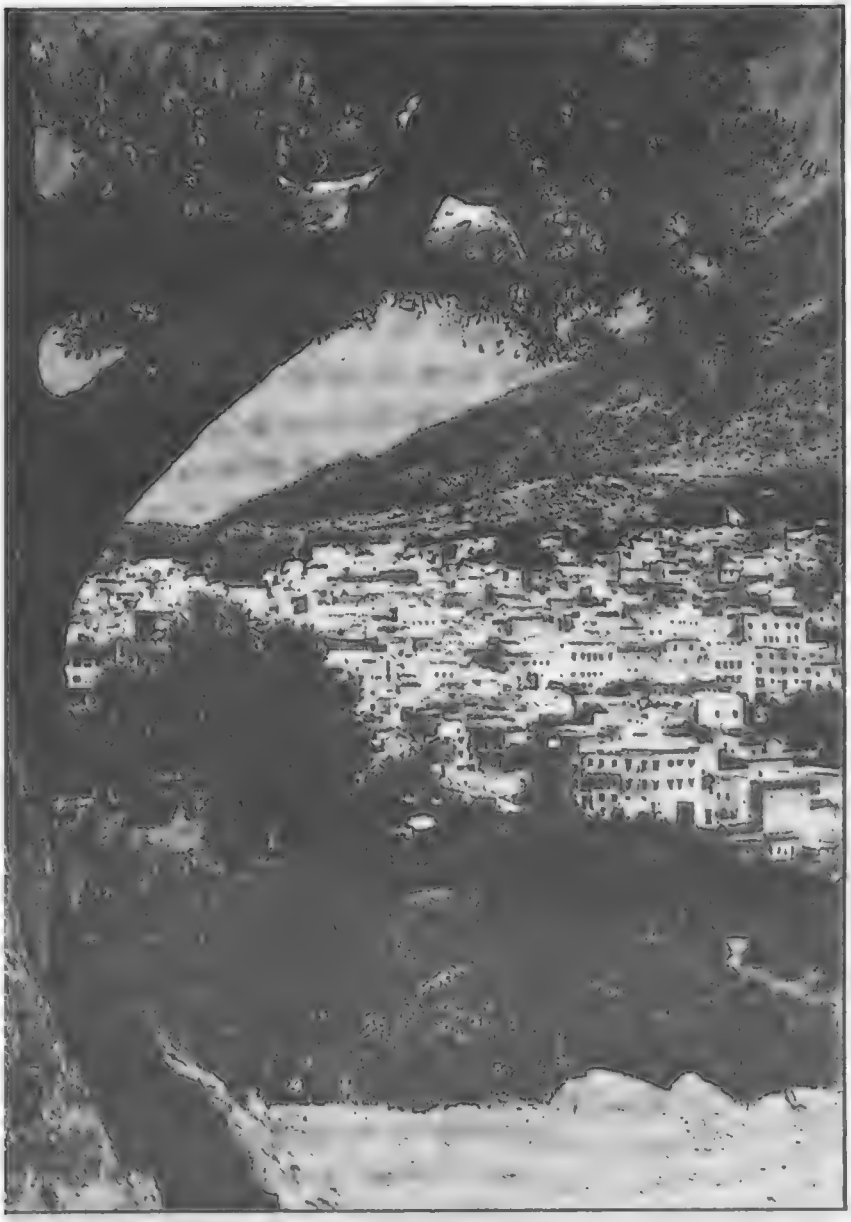

من المدن التي أسسها الإدارسة مدينة الشاون المباركة

آثار لمدينة البصرة التي أسسها
الأدارسة المتأخرون
بشمالي المغرب

ملوك الأدارسة بالمغرب

	هـ	م
1- ادريس بن عبد الله الكامل دخل المغرب سنة 170 هـ وبويع يوم 6 رمضان ولما قتل مسموماً في ربيع الثاني عام 175 حل محله مولاه راشد كوصي على المولى إدريس الثاني	172	788
2- إدريس الثاني ولد سنة 175 وتوفي سنة 213هـ خلافا لرواية مستهل جمادى الثانية	175	791
3- محمد بن إدريس الثاني المنتصر بويع في مستهل ربيع الثاني عام 213هـ وتوفي يوم 21 ربيع الثاني عام 221	213	828
4- علي الأول(295) بن محمد بويع في ربيع الثاني، وتوفي في شهر رجب	221	836
5- يحيى الاول بن محمد	234	848
6- يحيى الثاني بن يحيى الاول (296)	245	
7- علي الثاني بن عمر بن إردريس الثاني	"	"
8- يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس توفي 272 قتله ربيع بن سليمان	"	"
9- يحيى الرابع بن إدريس بن عمر بن إدريس(297) 292-904		
10- الحسن بن محمد بن القاسم الملقب بالحجام صاحب قلعة النسر(298)	310	922
11- أبو العيش أحمد بن كنون «كانون» مات شهيداً بالأندلس	337	851
أيام الناصر الأموي		
12- الحسن بن كنون(299)	343	954

(295) أمه رقية بنت إسماعيل الأزدي، اللالئي م خ نا: 26 وابن أبي زرع 53 ط الرباط 1973.

(296) قيل أراد الفاحشة بيهودية «فقتل»، وتولى حكم البلاد مؤقتا عبد الرحمان بن سهل الجذامى الذي قتله والد زوجة يحيى وابن عمه، كما خرج على هذا أيضا عبد الرزاق الصفري وكان بصفرو، فهرب إلى غمارة، وبعث أهل جوطة محمد بن يحيى الجوطة بن القاسم بن إدريس اللالئي 27 وابن عذارى 212/1.

(297) هو أعظمهم يقول ابن خلدون 31/4 اقتداء بابن عذارى 212/1.

(298) أطلقه عليه ابن عمه أحمد لضربه مقاتليه في المحاجم فقال يحيى في ذلك: راجع آبن عذارى 213/1

وسميت حجاما ولست بحاجم ولكن لضربي في مكان المحاجم

(299) وعند إبن خلدون القاسم أبو الحسن الحجام ج 33/4 ، ثم راجع الأسر الحاكمة لزامباور 103/1 وابن عذارى 235/1.

العبيديون الفاطميون بالمغرب الاقصى

	هـ	م
1- عبيد الله المهدي توفي ليلة الثلاثاء 15 ربيع الاول سنة 322هـ 933 م وهو الذي أنشأ المهدية سنة 305(300) كما احدث من البدع مايدفع للظن في أصوله	296	809
2- القائم بأمر الله كانت له عناية بالبحر، واستولى على جزيرتي كورسكا وسردانية وظهر ضده الثائر مخلد بن كيداد الخارجي	322	933
3- إسماعيل المنصور: قاوم أبا يزيد بن مخلد بن كيداد	334	945
4- المعز لدين الله، وفي عهده إنتقلوا إلى القاهرة سنة 358 هـ وتوفي 362هـ 968- 972م	341	952

بنو يفرن المغرب الأقصى «زناتة الجيل الثاني»

1- يعلى ..... توفي سنة 347هـ/ 958م	365	975
2- يدّوبن يعلى توفي 383 هـ 993م	383	993

الاغالبة بالقيروان

1- إبراهيم الاول .. عـامل الزاب سنة 177هـ 793م ج 2	184	800
2- أبو العباس عبدالله «الأول» ت 6 حجه 201 هـ 816م صفر	197	812
3- أبو محمد زيادة الله «الأول» حجة	201	816

(300) كان قد ظهر بسجلماسة في ذي الحجة سنة 296 هـ/ 908م، ثم بويع بواسطة قوات كتامة، وصنهاجة التي جمعها أبو عبد الله الداعي الذي قتله عبد الله.

4- أبو عقال الأغلب السعدي	14 رجب	223	837
5- أبو العباس محمد الأول	22 ربيع	226	840
ثورة أحمد أخيه منتصف224هـ وعند ابن خلدون 230 هـ			
6- أبو ابراهيم أحمد	2 المحرم	242	856
7- أبو محمد زيادة الله «الثاني»	13 ذي القعدة	249	863
8- أبو عبد الله «أبو الغرائيق» محمد «الثاني»20 ذي القعدة		250	864
9- أبو إسحاق إبراهيم «الثاني»، جمادى الأولى، توفي يوم17 قعدة		261	874
عند كوسنزة بايطاليا 6 ج ل			
10- أبو العباس عبد الله الثاني محمد «قتل في 28 شعبان		290	902
290 هـ 902م» شعبان			
11- أبو مضر زيادة الله «الثالث» توفي بمصر سنة		290	902
299 هـ 911م رمضان			
فرار زيادة الله «الثالث الفتح العبيدي 25 جمادى الثاني		296	918

بنو زيري: صنهاجة افريقية والمغرب الأوسط: الحاضرة القيروان(301)

1- أبو الفتوح يوسف بلكين بن يزي «توفي في 21 حجة			
373 هـ 983م تولى في المحرم، كان أول الأمر من عمال الفاطميين		362	972
2- المنصور أبو يوسف «ولقبه سيف العزيز بالله» 21 ذو الحجة		373	983
3- أبو مناد باديس بن المنصور ناصر الدولة ... ولد في		386	966
13 ربيع ل 374 هـ 984م ت 29 ذي القعدة 406هـ 1015 تولى 3 ربيع لـ			
4- المعز بن باديس شرف الدولة «إستقل بالأمر 417هـ 1260م 30 ذي القعدة		406	1015
5- أبو طاهر تميم بن المعز مستهل شوال 480هـ 1087 (302)		453	1061

(301) الأسر الحاكمة 106/1، وابن خلدون 6 ، وابن عذارى 2/1.

(302) ذكر ابن خلكان 93/1 أنه توفي بوارگلان يوم الأحد لسبع بقين من ذي الحجة، راجع في ابن خلكان ج 104/2-239-241.

6- أبو طاهر يحيى بن تميم قتل في 10 ذي الحجة سنة 509 /15 رجب 501 1107
7- علي بن يحيى 10 ذي الحجة 509 1115
8- أبو يحيى الحسن بن علي «أصبح منذ 555 يحكم المهدية من 515 1121
قبل عبد المومن توفي 563

ملوك الأدارسة بالأندلس «مالقة»(303)

	هـ	م
1- علي الناصر لدين الله بن حمود، بن ميمون، بن أحمد، بن علي، بن عبيد الله، بن عمر، بن ادريس.	407	1016
2- القاسم المامون بن حمود الخ. وعلي هو الذي خلع سليمان المستعين الأموي وتولى «الملك» في قرطبة تولى بعد قتل أخيه	408	1017
3- يحيى المعتلى بالله، بن علي، بن حمود، هو الذي خلع عمه القاسم واعترف به ابن عباد،	412	1021
القاسم للمرة الثانية سنة 413هـ 1022م		
يحيى للمرة الثانية سنة 416هـ 1025م		
4- إدريس الأول المؤيد بالله بن علي	427	1035
5- الحسن المستنصر بالله بن يحيى بن علي	431	1039
6- إدريس الثاني العالي بالله، بن يحيى: حفيده الإدريسي صاحب نزهة المشتاق، في اختراق الافاق، فهو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ولد بسبتة 493 ت و560هـ. راجع معجم المطبوعات ص 415 ط مصر 1928	434	1042
7- محمد الأول المهدي بالله بن إدريس	438	1046
8- إدريس الثالث الموفق بالله بن يحيى	444	1052
إدريس الثاني للمرة الثانية سنة 445 هـ 1053م		
9- محمد الثاني المستعلي بالله بن إدريس: قتله أبو مناد	446	1054
باديس بن حبوس(304) بن ماكس بن زيري		

---

(303) راجع الاسر الحاكمة 86/1، ودائرة المعارف الاسلامية 109/8، والبستاني 229/1-230 و462/6. وهكذا انقسمت الاندلس إلى مايلي.

(304) -.. بنو عباد بإشبيلية من 414 إلى 484هـ 1023- 1091م

- بنو زيري بغرناطة من 403 إلى 483
- بنو برزال بقرمونة؟
- بنوقرة برندة 405- 445هـ
- بنو نوح بمورو 404-445هـ
- بنو رزين بالسهلة من 402 إلى 497
- بنو القاسم ألقنت من 400 إلى 440
- بنو جهور بقرطبة من 422-إلى 469
- بنو الأفطس ببطليوس 413 إلى 487 =

وبالجزيرة

	هـ	م
1 – محمد المهدي بن القاسم بن حمود	431	1039
2 – القاسم الواثق بن محمد بن القاسم.	440	1048

بعده استولى عليها بنو عباد الذين أسسوا مملكتهم سنة 414 هـ،
وكان مؤسسها هو أبو القاسم محمد بن الفقيه اللخمي الأندلسي

بنو حماد(305)

مليلية، طبنة، أشير، بجاية، المغرب الأوسط،الحاضرة: قلعة بني حماد»

	هـ	م
1– حماد بن بلكين بن زيري و«إقامة الخطبة للعباسيين	398	1007
2– القائد بن حمادو «إقامة الخطبة للفاطميين»	419	1028
3– محسن بن القائد	446	1054
4– بلكين بن محمد «قتله الناصر»	447	1055
5– الناصر بن علناس	454	1062
6– المنصور بن الناصر الحاضرة بجاية منذ 483هـ	481	1088
7– باديس بن المنصور	498	1104
8– العزيز بن المنصور	500	1106
9– يحي بن العزيز «توفي 588هـ»	515	1121
10– الفتح الموحدي	547	1152

= – ابن خزرون باركش قبل انضمامها إلى اشبيليا
– البكريون بولبة اشلطيش 402–443
– بنويحي نبلة 414–343هـ
– بنو مرين بشلب 419–444
– بنو هارون سنتمرية 407–444 ثم ضمت إلى اشبيلية
– بنوذى النون بطليطلة
– العامريون ببلنسية من 412–495
– بنو صمادح بالمرية من 449–480
– التناوب على مرسية من 407– 471
– بنوتجيب وبنوهود بسرقسطة من 410 إلى 536
– 20 قلعة أيوب ولاردة وطرطوشة.

– بنو رزين بالسهلة من 402 الى 497
– بنو القاسم بالفنت من 400 إلى 440
– بنو مهور بقرطبة من 422 إلى 469
– بنو الافطس ببطليوس من 413 الى 487
راجع الاسرالحاكمة 92/1 ففيه بقية ما يتعلق بملوك الطوائف والفترة الشاغرة بين المرابطين والموحدين 94–86/1.

(305) راجع الأسر الحاكمة لزامباورج 110/1، ودائرة المعارف الإسلامية ج 7/60–61–62–63 «ملوك بني أمية بالأندلس».

الباب التاسع

الفصل السابع والأربعون

الإسلام وجهود الأدارسة بعد زوال ملكهم

كفى المغرب الأقصى بذلك مفخرا ... وفرع بني الزهراء فيه أثيل
كثيرون في أنحائه وشعوبه ... وهم في سواه نادرون قليل
فلم يخل من أسمائهم عود منبر ... ولم تخل منهم عصبة وقبيل(1)

إذا راجعنا دراسات تطور الجنس البشري، وماجد في موضوع تطور العائلة البشرية، وتصنيف السلالات، ثم تطورها وانتشارها، وماحملت تلك الدراسات من غموض أبعدها عن الوضوح، والموضوعية باعتمادها تلك المقاييس التي منها آراء ذوي الرحلات الذين ابتعدوا بها كثيرا عن الحقائق، كما فعل بعدهم علماء الانثروبولوجيا (علم الإنسان)، والمقاييس المصطلحة لما حق لنا تناول الموضوع الذي نقصد بالطريقة التي تناولناه بها، وهذا غير مقصود من موضوعي هذا، بل الذي أهدف إليه من هذا الفصل وما يليه هو: من هم الأدارسة أصولا وفروعا؟ وما قام به الأدارسة بعد زوال دولتهم أي بعدما قام عليهم مغراوة، ثم اختفوا هنا وهناك، وتفرقوا بين القبائل، وكيف أمكنهم المحافظة على كيان المغرب والمغاربة دينيا، وسياسيا، واجتماعيا، وأنه لولا ما عرفوا من التوزيع علي الخريطة المغربية هم وأبناء عمومتهم من السليمانيين، ومن والاهم من العرب أبناء مدرستهم وعلى الشكل الذي سنرى ، لولا ذلك وتأخر بنا الزمن قليلا لرأينا الردة تنتشر بين البربر من جديد، وبشكل فيه حدة وعنف عنيف، خصوصا وقد رأينا في أعمال العبيديين ومهديهم ما ينفر من الدين مهما كانت الظروف، بل ولولا الأدارسة الذين

---

(1) راجع الاتحاف 393/5 - مصدر سابق .

قاوموا وحطموا ذلك الزيغ حيث استمرت مقاومتهم في كل زمان ومكان بالمغرب، إلى أن كان منهم ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين، وماعرف لهم في سبيل التمكين لبني مرين، وبعث دولة السعديين الذين هم من صميم الأدارسة كما سنرى، بل والذين كان لهم فضل تركيز ما عرف بعدهم، وبعد أحمد بن موسى السوسي صاحب السعديين من موضوع الزوايا التي عرفت بالجهاد وقتها، والتي اعتمدت كذلك على الأدارسة أولا، والعائلات العريقة في العلم ثانيا.

انتهت دولة إدريس الأول سنة 310هـ /922م، ثم تبعتها دولة أحفاده من عمر بن إدريس سنة 375هـ/ 985م، ثم دولة بني حمود في كل من قرطبة، ومالقة، والجزيرة من407 إلى 440هـ /1016–1048م، وفي الفترتين الأولى زمن ابن أبي العافية بدأت هجرة الأدارسة العلويين وانتشارهم بين قبائل المغرب، وإذا نحن عرفنا أنه قد مضى على وجودهم بالمغرب وقت زوال ملكهم الأول والثاني سنة 375هـ/ 985م، نحو القرنين من الزمان، نعرف كم أصبحت أعدادهم ومدى تكاثرهم ونموهم الديمغرافي، مما يحدو بنا إلى إقرار ماأورده صاحب نسب العلويين الأدارسة وغيرهم من آل البيت بعد، ومدى كثرة قوافل الأدارسة التي فرت من ظلم الناقم المعتدي على جموعهم بالقتل الذي لم يقف عند حد الكبار بل تعداهم إلى الأطفال، وبسبب ذلك يقول ابن خلدون « افترق الأدارسة في القبائل، وانتشروا في الأرض، ولاذوا بالاختفاء، إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب، واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة، ولحق بالأندلس في جملة البرابرة من ولد عمر ابن إدريس...»(2)

وفي الفترة الأولى خرج من مدينة فاس وحدها. 70 أسرة توجهوا إلى بلاد غمارة، و12 إلى تادلا، و7 إلى فجيج، و4 إلى سجلماسة، و10 إلى سوس، و4 إلى دكالة ،و4 إلى تامسنا، و7 إلى أوطاط، و5 إلى وادي درعة، و8 إلى الساقية الحمراء، و20 إلى بلاد الأندلس، أما في المرحلة الثانية، وكانوا قد عرفوا نوايا خصومهم ، وهي الفترة التي حمل فيها الحسن بن كنون بأمان ليقتل غدرا تقول الرواية. إنهم حملوا معهم 700 نفر،

(2) العبر لابن خلدون 455/6.

وفي ذلك يقول ابن عذارى قولا تشم منه رائحة الولاء المستمر لآل البيت « فحاصر حسن بن كنون الشريف الحسني، وكان حاول الخروج من الدعوة المروانية، واجتمع إليه خلق من أهل المغرب، وظهر أمره فوصله الجيش العرمرم فلم يجد ملجأ إلا الإستسلام للأمان فأمنه قائد الجيش (غالبا) وحمله إلي قرطبة مراقبا، فلم يمض ابن أبي عامر أمانه، وأمر بقتله ليلا في الطريق بغيا وتعديا لأن أمان قائده أمانه، فقال من شاهد قتله إن ريحا عاصفة هبت عليهم في تلك الليلة التي قتل فيها غدرا ذلك الشريف، صبتهم على وجوههم وسلبتهم أثوابهم، واحتملت رداء حسن المقتول، فلم يجدوه وأظلم عليهم الأفق حتى خافوا على أنفسهم ؟" وفيها تفرق بنو إدريس في البلاد، وملك ابن أبي عامر الغرب وأخرج منه من كان بقي به من الأدارسة "(3). وإذا نحن علمنا قبل أن محمد بن إدريس وزع إخوته الثمانية على جهات مختلفة من المغرب، فإننا نتعرف بذلك على كيفية وجود الأدارسة وقتها على الخريطة المغربية من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب(4) وأن الذين تعرضوا منهم للكشف والتمزيق إنما هم الذين كانوابفاس ثم بالشمال، أما الآخرين فقد اندمجوا في القبائل التي وجدوا بها، كما تسترت عليهم تلك القبائل بشكل عرف بعد، عندما تحرك خصومهم، لكن قوة الأدارسة المعنوية صارعت كل التيارات وانتصرت عليها، وقد عرفوا بتكاثرهم وتجمع كثير من العرب المتواجدين في المغرب حولهم طلبا للحماية من بعض العرب، بل بتوزيع الأدارسة عرف المجتمع المغربي نوعا

---

(3) ابن عذاري 2 /281.

(4) راجع التعاليق اللاحقة: ولقد أطلق البربر على الأدارسة الذين كانوا يفرون ثم يلجؤن إلى الاحتماء بالقبائل خصوصا في الأطلس المتوسط حيث كانوا يعرفون بـ « تخامت دي أتفو» أي «الخيمة التي تصبح بين الخيام»، ذلك أن الأسرة من الأدارسة التي كانت تريد الإنضمام إلى أية قبيلة تختار الوقت المناسب لذلك وهو الليل، فتصبح وقد نصبت خيمتها بين الخيام، وبذلك تصبح القبيلة ملزمة بحمايتها والدفاع عنها ، وهذا متداول بين بربر صنهاجة، مثل آيت عيسى مع الأشراف من آيت علي وبورك الأدارسة المتواجدون بكرامة ، وبودراع بايت عياش ومع ايت إزدك، والمعروفون "بإيگرا من أي الشرفاء" ومثل شرفاء وادي زيز البوكليين أبناء أبووكيل ميمون، والصغروشنيين أبناء علي بن عمرو، بن عبد الله بن إدريس ، وآيت إبراهيم بآيت احديدو ، والذين هم من ذرية عيسى بن إدريس، والفزازيين بجبل فازاز، وغيرهم من الأشراف الذين تبربرت ألسنتهم كما سنرى بعد، والذين تمسكوا بأسماء القبائل التي التجأوا إليها، ثم آوتهم وحمتهم وذلك وفاء منها وردا للجميل، فنجد من الأدارسة من يعرف باسم الصغروشني والفزازي، والبوركي، والغماري الخ .

آخر من الإمتزاج الذي تركز باسم الدين تارة، والسياسة أخرى، مما أدى إلى استقرار بعض القبائل وتساكنها، ثم تمازج العربية بالبربرية منها، وذلك تحقيقا لفكرة التحالف التي كانت في كثير من فترات تاريخ المغرب، الوسيلة التي لا يمكن الاستقرار بدونها، خصوصا إذا عرفنا أن المواجهة الضرورية للغزو القبلي الذي كان وسيلة الحياة وقتها ، كان يحتم إما وحدة القبيلة لتصد الأخرى الغازية، أو وحدة القبائل لمواجهة الغزو الخارجي، والذي كان يقوم بهذا الدور بين القبيلة وأخرى أو بين مجموعة من القبائل هم الأدارسة، وقد أصبحوا أكثر فعالية في المجالين السياسي والاجتماعي بما جد في حياتهم بعد التوزيع من زوايا، ورباطات، ومراكز علمية، جعلت منهم ومن الذين اشتهروا منهم قوة جامعة للصفوف(5)، وللتقريب والربط والتصالح بين الأفراد والجماعات والقبائل كلما حدث تنافر وظهر أنه سينتهى إلى تدمير، وإذا ما تحقق لهم هذا المركز الممتاز، فإنهم ولزمن غير قصير استعملوه في رعاية الدين والمحافظة على العقيدة والأخلاق والسلوك العام، وبذلك عرفهم التاريخ ومصادره في المغرب، كما عرف أبناء عمومتهم بما يشبه ذلك في مختلف بلاد الإسلام، ففي المغرب لايفقد الباحث آثارهم من جزيرة أبا، والنوبة، ومصر معرجا على واحة سيوة، وليبيا، ثم تونس والجزائر، والمغرب، إلى أرض سوس، ووادي نول، وهم أبناء إدريس ومحمد بن سليمان، وموسى الجون(6)، وكذا الحسينيين أهل سبتة الذين التحقوا بأبناء عمومتهم الحسنيين بعد، ومن هنا جاء اهتمام المغاربة في كل العصور بآل البيت عموما، وبالعلويين الأدارسة الذين أرخ لهم رجالات المغرب والمشرق بنوع خاص، وبقدر ما كان للأدارسة من المحبين المخلصين، وجد لهم في فترات خاصة خصوما ناقمين، لم يجاهروا بنقمتهم التي حولوها إلى تكريم كلامي، وهي

---

(5) ظهرت الشيعة الرافضة ضدهم، وهي التي تأسست باسم عبد الله البجيلي والمعروفة بالبجيلة أيام عبد الله الشيعي، والذين استمروا إلى زمن المرابطين، وقد كانت مواطنهم تارودانت قاعدة السوس، راجع البكري في المسالك 161، والأعلام لابن الخطيب229/3 والمراكشي= 456/6 والموسوعة المغربية 53-106.

(6) راجع العبر 156/1 - 273/6 - 281 - 440 وما بعدها، والأسر الحاكمة المصدر السابق وما فيه عن مدى تواجدهم في مختلف جهات العالم الإسلامي كحكام، ويخبرنا ابن عذاري 455/3 عن اهتمام أبي دبوس عمر المرتضى آخر الموحدين بالأدارسة الذين خصص العطاء لأهل عين الفطر منهم بآزمور وهم الأمغاريون ثم راجع أيضا خ.ع 1343د 7-8.

الفترات التي تولي فيها السلطة وبناء الدول بعض الذين تاقت أنفسهم إلى الخلافة بسبب توسع سلطانهم ولم يكن لهم من النسب مايؤهلهم لذلك ، مثل دولة الموحدين، ففي هذه الفترة وبعد موت المهدي الذي يرجع نسبه إلى عبد الله بن إدريس كما سنرى، تولى عبد المومن الكومي باختيار من الموحدين وحدهم دون عامة الشعب وعلمائه، مما أوجد بعض الطعن عليه، وفي هذه المرحلة وجدنا جدلا خفيا في بعض الفتاوي وعقائديا ظاهرا ومتداولا حول صحة « الإمامة » في غير قريش، بعدما انتهى دور الجدل حول صفة الإمام، ولم يكن الجدل في هذه المرحلة بالشكل الذي طرحه الخوارج والشيعة وأهل السنة، بل بطريقة ليس فيها من التحامل ما يدخل في تخطيط المعارضة التي عرفت قبل ردع قوة ال البيت، بل استعمل فيها نوع من الدراسة القائمة على الاقتناع ثم الاقناع مما يعتبر عملا رفيعا بحق في مجال الدراسات النظرية ، مثل ما فعله ابن رشد في كتابه المفقود « كفاية المقتصد »(7) والذي تناول فيه موضوع الإمامة باقتراح من الوزير الذي سماه رضوان الحافظ، ورغم أن ابن رشد لم يفصح عن ذلك بشكل مكشوف، إلا أن إلحاحه على عدم صحة شرط القرشية يوحي بما قررناه قبل.

لقد اهتم المغاربة وربما أكثر من غيرهم باستثناء بعض جهات « جاوة » من المشرق الأقصى حيث يعرف آل البيت(8) بالسادة – اهتم المغاربة بآل البيت امتثالا للوصية الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في حق علي، وهو اهتمام لا يخلو منه بلد من بلاد الإسلام في ذلك العهد، بل أصبح الأدارسة قوة معنوية فرضت احترامها على الدول المتعاقبة على حكم المغرب، فأحدثوا لهم نظاما خاصا بهم يتسم في جوهره بما يجب من حرمة وتقدير يرضيان شعور المغاربة نحوهم، بل أحيانا نجد الدافع لفرض ذلك الاحترام إجماع القبيلة ومبادرتها بتنبيه أولي الأمر، مما أدى في بعض الفترات إلى

---

(7) م خ ناخاص رقم 380 به 173، وقد قسمه ابن رشد قسمين : القسم الأول عقيدة وجيزة يكتفي بها المقتصد، مشتملة على ذكر أعيان مسائل العقائد، محتوية على ما تمس الحاجة إليها من أدلتها أما القسم الثاني وهو الذي تطرق فيه للإمامة بشكل مبسط وبأدلة واضحة . مخطوطة خزانتنا

(8) لقد خلف الإمام علي كثيرا من الأبناء المذكور منهم : الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، والعباس بن الكلبية، وعمر بن المطاتية، والمشارقة لافرق عندهم بين الجميع، راجع مادة آل البيت في دائرة المعارف لفؤاد افرام البستاني جـ1، : 315 – 323 – ط بيروت 1956م.

أن تعمل الدولة القائمة على مجاملات ذوي المكانة العالية في القبائل التي يوجدون بها، ولذلك كثيرا ما كانت الدولة خصوصا منذ عهد بني مرين، تلجأ إلي إحداث ديوان خاص بعلاقة الأشراف والدولة، ولمعرفة الأسر الشريفة كانت تمنح وثيقة تعريف يطلق عليها «ظهير التوقير والاحترام » وهو يعني التحرير من الإلتزامات الواجب على غير الشريف أداؤها أو القيام بها من جندية أثناء الحروب، وجبايات، وخدمات للمشاريع في وقت السلم، وكان هذا حسب رغبة المواطنين الذين كانوا يتنافسون في وجود هذا النوع من الأشراف بينهم، بل كثيرا ما كان يحصل بطلب من رجال القبائل إذا ما أغفلت أسرة لسبب من الأسباب، وإذا لم تقع استجابة من الدولة كانت القبيلة باجمعها تفرض على مجموع العائلات بها ما يلزم أفراد الأسرة أوكبار الأسر المتواجدين فيها، وقد عرفنا هذه الحماية لآل البيت منذ أواخر الموحدين وبداية بني مرين الذين اتخذوا منها ومن التقرب إلى المتصوفة وسيلة اهتدوا بها إلى التمكن من انقياد القبائل بلا مقاومة وللطريقة التي نهجوها، في سياستهم المالية إزاء بقية المواطنين الذين أرهقوهم بالمغارم والمكوس وكثرة الجبايات التي كان الأشراف يميزون بالتحرير منها حتى يكونوا عونا لهم، بل بلغ حب آل البيت عند المغاربة درجة عالية، حتى انتهى إلى نوع من الغلو، ولنسمع إلى قول أحد الغلاة الذي نظمه شعرا يقول فيه:

السب لا يجوز في آل النبي ... ولو بدلوا أو غيروا في المذهب؟
من سب في آل نبي الله ... فهو عدو كافر بالله؟
ولا يصلى خلفه فرض ولا ... يجوز في شهادة إن نزلا؟
يقتل شرعا بإتفاق العلما ... إن لم يتب في قوله "ويندما"؟
إن مات عند الناس لا يكفن ... وفي قبور المشركين يدفن؟

لقد استغل كثير من الناس هذا الشعور فانتحلوا النسبة، وارتكبوا من الفواحش ما الله ورسوله منها براء، كما عرف لبعضهم من الأعمال ما كان السبب في افتضاحه والكشف عن أصله الذي لم يكن من آل البيت في شيء، بل أدى هذا الغلو إلى تطرف آخرين في اتجاه آخر فكتب « خلاصة الأدب في الرد على من قال إن شرف العلم أفضل من شرف النسب، راجع خ ع ك : 1220.

على أن هذه الامتيازات دفعت الكثير ممن وجدوا في بعض القبائل ولم يكونوا أصلا منها أن يدعوا النسب بمجرد أنهم من قبيلة عربية، أولانهم يحملون اسم المكان الذي عرفت به أسرة ما من أشهر أسر الأدارسة، كود غيري نسبة إلى قصر الوادغريين أصح أنساب الأدارسة، أو عمراني، أو وزاني ، أو علمي، أو وكيلي نسبة إلى أبي وكيل دفين زيز(9)، ولهذا فكرت الدولة في تنظيم أليق بالأشراف فأحدثت وظيفة النقابة * اقتداء بالشرق والتي عرفت قدرا عاليا في عهد بني مرين زمن أبي عنان بالأخص، وكان النقيب يعرف في البربرية بـ «المزوار»، والذي أصبح له نفوذ روحي ومادي إلى آخر عهد بني مرين، وازداد في عهد السعديين الذين بلغ من تعظيم المنصور لقدر النقيب أن أحدث ديوانا للأشراف أكثر ضبطا من عهود المرينيين الأوائل، وذلك كرد فعل لما عرفه الأدارسة من مضايقة في عهد أبي سعيد عثمان بن أحمد، كما كان المنصور يقف ومن معه إجلالا عند دخول النقيب عليه، وذلك اقتداء بما كان يفعله بنو مرين(10) الذين بلغ من تعظيمهم

(9) يعرفون بأهل الزاوية، وقد وقفت عندهم على كثير من الظهائر قبل وفي عهد العلويين يحتفظون بها، ويعرف جدهم أبو كيل السجاوتي، كما يعرفون بشرفاء زيز، راجع الاتحاف لإبن زيدان 239/3 حيث نص على شعبتهم السلطان محمد بن عبد الله ضمن مجموع الشعب الثمانية الذين أعطاهم الحق في متروك المنقطعين بفاس، وذلك بظهير مؤرخ ب 27 جمادى الثانية سنة 1201هـ، ونص على أنهم من سلالة القاسم بن إدريس

*راجع نظام النقابة عند ابن زيدان في كتابه العز والصولة جـ 2/ 72 ط الرباط 1962.

(10) كان هذا المنصب يسند أحيانا لغير منتسب في عهد الأمويين وبني العباس كما يقول ابن خلدون، ولموضوع الوقوف احتراما للنقيب قصة حصلت للمقري الجد، وهو محمد بن محمد بن أحمد القرشي، الذي كان بمجلس أبي عنان عندما قدم عليه نقيب الأشراف، ثم قام الملك ولم يقم الفقيه فلاحظ عليه النقيب مما أدى بالمقري إلي قولته المشهورة « ليس على فروجهن أقفال... أما شرفك فظني، وأما شرفي فحقيقي وهو يعني شرف العلم ، ولعل ما صدر من المقري يدخل في باب التحدي لا في مجال الإنكار على المنتسب المشهود بصحة نسبه، راجع ازهار الرياض ج 1 / 38 – 39 – 42 ط 1939، ونفح الطيب 166/6م، والاتحاف 236/3 – 239، وحول ديوان الأشراف العز والصولة 72/2، ونشر المثاني الخ، ومرآة المحاسن 85اط حجر ولقد تنبه لهذا الموقف بشكل آخر وحتى لا يتكرر ويحدث من الانشقاق ما لايليق كتب الأستاذ المؤرخ محمد بن الطيب القادري م خ ع 157 ص 2174 حيث قال عن المقري، وربما يكون التعليق من القادري، راجع المصدر المذكور ص 255 حول أول نقيب عينه أبو سالم المريني ابن السلطان أبي الحسن وهو محمد، بن محمد، بن عمران، بن عبد الواحد، الجوطى، وفي نفس المصدر قيد القادري أولئك المنتحلين المندسين من الذين لم يثبت نسبهم، ولا يزال بعضهم حتى اليوم وقد عاد إلى الادعاء، راجع المخطوط المذكور خ ع 1574 ص 261، وقد بقيت النقابة في مصر إلى عهد نابليون الذي تدخل فيها ، حيث نصب فيها خليل البكري في شهر ربيع الأول 1213هـ/ 1798م راجع تاريخ مصر الحديث 176/2، وفيه أيضا أن الذي حارب نابليون بالأسكندرية إنما هو الشريف الإدريسي محمد كريم الذي قتله نابليون وطوف برأسه في شهر ربيع الأول سنة 1213هـ/ 1798م.

للأشراف أنه كان يعد لعطاء الشريف السبتي أبو العباس أحمد بن محمد الحسني ، وهو من سلالة جعفر الصادق، دينارا مسكوكا يصنع بمدينة مراكش زنته مائة دينار ذهبا(11) كما كان للأشراف جرايات تتناسب وقدر كل في قومه، ومدى علاقته بالدولة، وأحيانا كانت للإتلاف وقتل الطموح السياسي، ولقد تمكنت وظيفة « المزوار أي النقيب» في عهد العلويين منذ عهد السلطان إسماعيل الذي استرجع الكثير من الأدارسة إلي المغرب وكانوا مشتتين قبل في كل من تونس و الجزائر، وتمكنت النقابة إلى درجة أن أصبح الأشراف حين يحدث بينهم ما يستوجب تدخل السلطة لا يتقاضون أمام المحاكم وإنما أمام « النقيب المزوار » وكان هذا في البادية والحاضرة سواء، ولم يكن القصد منه الامتياز الطبقي، بل كانت الغاية حفظ النسب أولا، وإحراج الشريف أمام من لا يشعر نحوه بضعف أو استعلاء ثانية، وحتى لا يعود لما بدر منه مما لا يتفق ومكانته في الإسلام، وبهذه الطريقة حصل الضبط في الأنساب وأصبح المدعي سرعان ما يكشف أمره ويعزر، وقد حصل هذا في عهد السلطان إسماعيل(12) الذي أسس ديوانا للأشراف. يقول الحوات (1123هـ 1712م) وحفيديه محمد بن عبد الله ، وسليمان، حيث جردت كثير من الأسر من الزعم بتحقيق دقيق جدا اقتضى الجمع للظهائر، والتحقيق فيها تحقيقات متوالية، آخره ما قام به النقيب سليمان الحوات(13) في عهد السلطان المولى سليمان،

---

(11) أزهار الرياض 1 / 32 – 44 . مصدر سابق.

(12) راجع مخطوط القادري المشار إليه سابقا، وفيها أن نقيب الأشراف على عهد المولى إسماعيل هو أبو الحسن علي بن عبد السلام العلمي الحسني، والعز والصولة لابن زيدان ج 72/2 – 114.

(13) راجع السر الظاهر للحوات، وقد أطال في الرد على كلمة المقري التي قال فيها إن القرشية صعبة التحقيق بعد مضي سبعمائة سنة، أما ديوان الأشراف في عهد السلطان إسماعيل العلوي، راجع حوله م.خ.ع 1576ك وقد وضعه سنة 1123هـ/1712م وكان من محققيه أبو الحسن علي بن عبد السلام العلمي، وقد حصلت لبعض السوديين فضيحة حين ادعى بعضهم النسب، فكذبه البعض الآخر منهم كما سبق، وكان كذلك في عهد المولى سليمان الذي بالغ معهم، وللأسف فقد بقي بعض السوديين ولا يزالون يعانون من هذا المركب حتى أنهم اعتادوا إضافة ما يقصدون به التظاهر ولو بالإضافة إلى مؤلفات الآخرين كما حصل لهم مع الزياني في الترجمانة، راجعها ثم راجع موضوع ادعائهم النسب في الاتحاف لابن زيدان 179/4 ، وماتبع ذلك من فضيحة، مع أن حقيقة المدعين إنما هم من غرناطة وقد نسوا أن الإسلام يجب ما قبله.

وكان بمدينة فاس، وفي الشمال بصفة أكثر، مما دفع الإخوة القادريين للقيام بكتابات متعددة في الأنساب، حتى أصبح الأدعياء أو الذين في أفواههم ماء يكتبون وينسبون لهم، خصوصا في القرن الحادي عشر للهجرة، وهو الزمن الذي عرفت فيه أفواج البلديين بعد الهجرة من الأندلس سنة 1017هـ/1608م، وقبل القادريين قام بنفس الدور أبو عبد الله القصار اقتداء بمحمد الغرديس كما سنرى.

وبسبب ما حصل في فترة السلطان سليمان ألزم الأشراف بتقييد المواليد في سجل كان يشرف عليه النقيب، وحصل التشدد في المراقبة حتى أصبح الأموات يسجلون كذلك، بل أصبح من غير المسموح للشريف أن يتزوج غير الشريفة، وبالعكس، ولم تزل هذه «العادة» إلى العهد الأخير، وكان الذي حاربها بمقتضى الكتاب والسنة شيخ الاسلام محمد بن العربي العلوي الذي تعرض للأذى من أجل ذلك زمن المولى يوسف، لأنه تزوج من غير آل البيت، لكنه تمسك برأيه، ولم يتنازل عنه إلى أن ثبته بين المغاربة.

وقبل أن يعرف ما قررته الدولة في عهد السلطان، سليمان، فإن التاريخ يؤكد أن العلويين والأدارسة حافظوا على نسبهم كما حافظ الشعب المغربي عليهم، ذلك أن الأدارسة في عهود انتشار الجهل كان فيهم أكثر العلماء الذين مكنوا للدين وعلومه بروح عالية في مختلف جهات المغرب، وبعيدا عن الرياء وروح الاستعلاء، وبجولة في آثارهم وما خلفوه لنا من تراث تعج به الخزائن العامة والخاصة تؤكد هذه الحقيقة، رغم ما تعرض له الأدارسة بعد زمن أبي سعيد عثمان « الثاني » بن أحمد 801 – 831هـ/ 1398 – 1427م الذي طالت مدة حكمه فتجبر بشكل أدى به إلى التضييق على الأشراف خوفا منهم، وإلى نقض ما كان قد أصبح قاعدة من قواعد الدولة من احترام وإكبار آل البيت الذين كانوا سندا معنويا لدولة بني مرين، بل زاد في تحديه، فقطع الاحتفال بالمولد النبوي الذي أصبح له موعدا سنويا للدولة والشعب ، يستعد له في جميع الجهات، في هذه الفترة فقط تعرض الأدارسة وغيرهم من الأشراف إلى محنة الطعن والتجريح الذي نشأ بسبب سيطرة فئة طاغية انتهت سياستها التي استمرت مدة أبي سعيد، وبعد قتله إلى القضاء على خلفه أبو محمد عبد الحق الذي سيذبح، بل والقضاء على دولة بني مرين، وتولية فرع الوطاسيين بولاية الوصي المحنك أبو زكريا يحيى بن زيان الوطاسي، بمساعدة الحفصيين، وتلك هي المرحلة التي تعرض فيها نسب بعض الأشراف الأدارسة إلى الطعن

كما تخبرنا بذلك المصادر، وكما عند الونشريسي في المعيار 2/408 – 410– 411، 425–437 والتي كان للأشراف بالبوادي وكرد فعل مساهمتهم في القضاء عليها كما حصل في مدينة فاس نفسها، لكننا بعد نجد أن الأشراف تنفسوا الصعداء بعملهم في مقدمة رجالات الدين والعلماء للجهاد ضد البرتغاليين الذين احتلوا مدينة سبتة سنة 818هـ/1415م، والتي أخذها المغاربة منهم قسرا، ولذلك مهدوا لقيام دولة السعديين كما سنرى.

والأدارسة والعلويون في مغرب الأمس وانيوم لا يمكن تمييزهم ولاغيرهم من آل البيت الحسنيين والحسنيين بنوع من الامتياز الذي كان قبل ، والمستمد من فكرة الخراج والخمس في الإسلام. ورغم أن العادة بتجديد ظهير التوقير والاحترام بقيت إلى سنة 1382هـ/ 1962م ضمن التنظيمات الباقية في الدولة، والذين يطلبون التجديد هم الذين يتوفرون علي ظهائر تثبت الإعتراف القديم ، على أن هناك أسر لم تكن في حاجة إلى حمل تلك الظهائر أو تجديدها لأنها معلومة ومشهورة بالقدر الذي كان يجعل المسؤولين يلجؤون إليها كلما ظهر نزاع في الموضوع، ومن هذه الأسر التي كانت تتوفر على كبار العلماء أسرة الودغيريين الذين انتهت نقابة الأدارسة إلى فرع من فروعهم وهم بنو جمال، الذين يعرفون في مدينة فاس بالبدراويين(14)ورغم ماجد في بلاد الإسلام من غزو الإيديولوجيات التي تتزعمها الصهيونية، كما فعلت قبل قيام الثورات وكما دست في القوانين التي ظهرت بعد الثورة الفرنسية والثورات باسم « الديمقراطية» من استنكار للتمسك بالآصالة في الوقت الذي نراها تعمل بالطرق البعيدة عن الحضارة والمتأصلة في

(14) اشتهر الكثير منهم بالعلم، وعلم القراآت بكثرة في فجيج، حيث كونوا لهم مجتمعا دينيا قوامه المعرفة، يستدل على ماضيها بالجامع العتيق بقصر الوادغيريين الذي يرجع تاريخه إلى بداية القرن الخامس تقريبا، ولا يزال كما أسس باستثناء بعض الترميم الخارجي لصومعته أنفق عليه مهاجر محمد العربي بن أحمد الصغير الودغيري سنة 1400هـ/ 1980م، كما عرف منهم في فاس الكثيرون نذكر منهم إدريس بن عبد الله الودغيري صاحب كتاب « التوضيح والبيان» راجع التاريخ المفترى عليه للمؤلف ص96 = ط 1969 ، ومنهم محمد بن الحسن الوادغيري المخلوفي، له كتاب فيما اشتهر وصح نسبه من شرفاء الوادغيريين، وقد كان حيا سنة 1290هـ/ 1073م، وتوجد نسخة منه بمكتبة خاصة لمحمد بن المامون البدراوي، كما عرف من علمائهم الكثير من أولاد زيان، وفيهم الرشيديون الحسينيون وهم سلسلة من العلماء بالتتابع من عهد السعديين، ويعرفون بـ أولاد محمد بالضم، وقد وقفنا على كثير من آثارهم العلمية بفجيج، ومعهم كان اتصال الملوك العلويون من عهد الرشيد بن الشريف في كل ما يتعلق بسياسة الدولة في الجنوب الشرقي، وذكرهم متداول بين المؤرخين المغاربة والأجانب كما مر وسنرى في هذا الكتاب، راجع مادة فرنسا والصحراء الموسوعة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله ص 158 ط 1976 وحول وثائق إقليم توات ص 19ـ ط الملكة 1962 . ثم راجع كتاب الأخ العربي هلالي: فجيج : تاريخ وثائق ومعالم ط 1981.

الهمجية لاحتلال أرض تزعم أنها كانت قبل ثلاثة الاف من السنين موطنا لتراثها، بل نجد اليهود أنفسهم يستمسكون كل التمسك بالمحافظة على دم ذرية هارون الذين يعرفون بـ « كوهين » وذرية «شاؤول » الخ، ويدفعون الآخرين لاستنكار ما أطلقوا عليه العرقية إيهاما للمهمشين في مجتمع الإسلام.

إن المغاربة وقد عرفهم التاريخ أن لا قيام للدولة الصالحة، وأن لا خير في الشعب مالم يقم بناؤه على أساس من الدين، وأن من صميم الدين الاعتراف بالإكبار والتقدير لآل البيت، وذلك مظهر من مظاهر الأصالة الدالة على روح الاستقرار، وليس معنى هذا الانقياد لكل مدعى، فالمغاربة أكثر من غيرهم في بلاد الإسلام الذين لا يزالون متشبثين بالأصالة الدالة على روح الاستقرار، والتمسك بالقيم، وكان الذي ركز هذه المعاني في كل جهات المغرب هم الحسنيون الأدارسة، حتى إننا لنجد بعض علماء الأندلس «كما يخبرنا ابن مرزوق في «المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن أبي الحسن» وهو العالم المحدث أبو القاسم الملاحي ، وضع شجرة نسب فيها يعقوب بن عبد الحق المريني إلى الحسين بن علي، ولما حملها «المراني» إليه وهو محاصر لتلمسان وقرأها بين يديه حيث جاء فيها أن «يعقوب بن عبد الحق، بن محيو، بن أبي بكر، بن حمامة، بن محمد بن علي، بن تاشفين، بن يحيى، بن علي، بن إبراهيم، بن إسماعيل ، بن عمر؟ بن حسين، بن علي بن أبي طالب (ض)، فقال له المنصور قل لابن مرزوق أما هذا فقد شكرنا تهمك به، وحمدنا لك مسعاك، وهذا شيء إن كان على ما قلته فنرجو النفع به عند الله في العقبى، وإن كان غير ذلك فلا خير لنا في الشك بما فيه مطعن علينا» لكن لماذا ردهم المنتحل إلى الحسين، ونسبهم صريح في زناتة التي حاول ابن مرزوق نفسه تعريبها بكل وسيلة في الباب الأول من كتابه المذكور (ص 107)، ولماذا لم ينسبهم المنتحل إلى أبناء الحسن بدل الحسين؟ لأن نسب الحسنيين في المغرب أصبح معلوما لكثرة اهتمام المغاربة بالأدارسة أولا ، ثم بكثرة ما أصبح الأدارسة يتوفرون عليه من علماء اشتهروا بمعرفتهم الواسعة في الأنساب، بالإضافة إلى انتشارهم الواسع في عموم المغرب، مما لو تجرأ الكاتب لقامت عليه ضجة تنتهي إلى مصيبة كان المنصور في غنى عنها، ومثل هذا حصل لصاحب " قلائد العقيان في نسب بني زيان» الذين هم من بني عبد الواد أبناء عمومة المرينيين.الخ.

الفصل الثامن والأربعون

الأدارسة يؤرخون لأنفسهم بالثبات والصمود

في كل ركن من أركان المغرب كما أشرنا لا نجد اليوم قبيلة إن لم نقل جل القبائل تخلو من وجود قليل أو كثير من الأدارسة، وعندما فكرت في إدراج هذا الموضوع الجديد ضمن كتاب التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير طرأت علي فكرة البحث عن الظهائر في جهات مختلفة، وقد اتصلت بالكثيرين من سوس إلى فجيج، ومن تافيلالت إلى أرض غمارة، وبعدها وجدت أن فكرة عرض محتوى الظهائر لايفي بالمقصود بالقدر الذي يحققه البحث عن الأصول من خلال المخطوطات التي توجد بكثرة في هذا المجال، وبنظرة خاطفة إلى الفهارس ندرك مدى اهتمام كبار العلماء ورجالات التاريخ بهذا الموضوع، ولم يكن اهتمامهم عبثا، بل لما في الموضوع من فائدة تتجلى في معرفة التاريخ أولا، وتكوين الشعب ثانية، وتحقيق فكرة التاريخ كما وردت في قوله تعالى: «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وشرح الآية واضح جلي لايحتاج معه إلى فلسفة علم الاجتماع، ولا إلى نظريات أوجيست كونت، ودوركيم، وابن خلدون.

لقد توفرت على كتاب منسوب للجلال السيوطي، وهو للابن عبد الرحمن بن أبي بكر، وآخر للأب، أبو بكر بن محمد السيوطي، وغيرهما المنسوب للعشماوي، كما وقفت على مدى استعمال الكثير من المؤرخين لهذه الكتب التي تناولت أنساب الأدارسة، دون أن أجد واحدا من المؤرخين ناقش هذه الكتب إلا ما كان من بعض الذين رفضوا كتاب السيوطي جملة وتفصيلا ، كما رفض الكتاب المنسوب للمقري الجد، بل قال عن المقرى إنه مجهول(15) وقد عرفنا به ونتوفر على إنتاج المقرى الجد المفترى عليه الكتاب المهزوز، إذ نحن نقول ببطلان الكتاب، وصحة وجود المقرى المفترى عليه الكتاب،، ويكفي القول أن

سبب الافتراء هو موقفه مع النقيب بمجلس السلطان، أما مانسب إلى السيوطي(16) والمسمى «اللآلئ المستضيئة »، فقد أخذ عنه صاحب نشر المثاني الذي هو القادري محمد بن الطيب، وصاحب الحادي المطرب الذي هو محمد الطالب بن الحاج(17) وغيرهما، على أننا نجد الكثير من المغاربة الذين تناولوا هذا الموضوع استمدوا مادته من مصادر شرقية، مثل هداية الطالب في نسب آل أبي طالب لتاج الدين الحسيني(18) وتحفة الطالب فيما ينسب إلى عبد الله وأبي طالب للسمرقندي، وبحر الأنساب فيما للسبيطين من الأعقاب للآزرقاني، ونصح ملوك الإسلام للسكاك، وروض الإكتفا في نسب الشرفاء، ولم يقف اهتمامهم على الأدارسة وإنما شمل كل من دخل المغرب، أو بالأحرى إفريقيا من آل البيت، وبالطبع ما كان للمغاربة المسلمين أن يستمدوا تاريخ أصولهم القديمة والمستجدة سواء فيما يتعلق بالأجناس أو الحضارة التي عرفتها أقطار المغرب اجتماعيا وثقافيا من غير المشارقة(19) فالدين جاء إلى المغرب من المشرق، وعلوم الدين استقدمت من المشرق، وأبطال المغرب الفاتحين من المشرق، لكن كتبا تحدثت عن الأنساب وتفرع العائلات بين مختلف القرى والمدن في المغرب نسبت إلى المشرق، هذا ما يبعث على الاستغراب والاستفهام حول صحتها، رغم أن ما تحتوي عليه يتوفر في الكثير الغالب على الحقائق التي تؤكدها الوثائق والدراسة الميدانية ونعني بذلك ما نسب لجلال الدين

---

(15) راجع مانشره العميل المفضوح عبد الحفيظ الفاسي« المؤرخ الرسمي لأيام ابن عرفة » تحت موضوع رياض الجنة ج 2 ص 136، ط 1350 وقد اقتدى به فيما يرجع للسيوطي فهرس خ ع ج 161/2 ط 1958م.

(16) توجد، في خ نا نسختان تختلف الواحدة منهما عن الأخرى بعض الشيء الأولى للأب أبي بكر بن محمد، والثانية للابن عبد الرحمان بن أبي بكر، وكلاهما في خزانتنا، مما يبطل قول الذين نسبوا السيوطي، فقالوا عنه المكناسي، راجع الأشراف لابن الحاج م خ نا ص 39، على أن كتاب ابن الحاج لا يعتمد في بعض تناولاته.

(17) راجع خ.غ 653د. والدر النفيس للقادري 649و1156د.خ ع، ثم 1256د. وأنساب الشرفاء في مجموع خ ع 457 و 771 د 1636د، وقد قال عنه أنه مكناسي كان يلقب بالسيوطي ص 12م خ نا ؟؟؟

(18) أخذ عنه ابن الحاج راجع ص 29، ثم راجع م خ ع – 1499د، و1315د، و 1343د، و1348د، و1457د، وقد اعتمد القادري محمد بن الطيب جل هذه المصادر خصوصا ما يتعلق منها بالأدارسة في المغرب، والذين اهتم بهم المغاربة كل الاهتمام حتى الذين تبربروا لغة.

(19) راجع مختلف المعاجم مثل كشف الظنون ومعجم المطبوعات لشركس، وفهارس خ ع، ومصادر التاريخ، كالمقدسي في البدء، والتاريخ، والذهبي في العبر في خبر من غبر، والقلقشندي علي البكري في المسالك، والهمذاني في كتاب البلدان، وياقوت في معجمه الخ فعنهم أخذ ابن حزم وابن عذارى، والمراكشي، وابن خلدون، والزياني وغيرهم.

السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد 849 – 911هـ/ 1449 – 1505م والمسمى بأسماء متعددة وهي « البستان في أخبار الزمان »و« عقد اللائي المستضيئة النورانية لنفي ظلام التلبيس في سلالة مولانا إدريس بن إدريس»(20) ومثله بل يختلف عليه في آخره زيادة ما نسب للأب، كما نسج على منواله ما نسب للعشماوي(21) على أننا لم نتطرق في بحثنا واستقصائنا لغير ما ورد باسم الجلال السيوطي، ثم باسم أبيه الذي سنتعرف على الأسباب التي دفعت إلى نسبته مرة إلى الابن وأخرى إلى الأب حسبما يظهر لنا.

مهما يكن فقد أجمع المؤرخون على صحة نسب الأدارسة سواء مؤرخو المغرب أو المشرق، ونستدل بكبيرهم عبد الرحمان ابن خلدون(22) الذي يقول: نسب الأدارسة من بني إدريس بمواطنهم من فاس وسائر ديار المغرب ، قد بلغ الشهرة و الوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في إدراكه، إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف(23) وفيما سجله القصار 1004هـ/ 1595م من شجرة الأدارسة مما يعتبر من الدقة بمكان، وما نقله العربي الفاسي يرجع في أصله إلى ما ورد في الكتاب المنسوب للسيوطي الذي اعتمده ابن القاضي في الجذوة أيضا .

---

(20) م خ نا رقم 144 و 196 وخ ع . 103ا د . ومما يؤكد مغربية الكاتب والكتاب أنه ورد فيه ص 25. أنه كان لدراس بن إسماعيل دفين باب الفتوح قبل بناء باب الحمراء 362هـ كتب في الانساب منها:« تحفة الظرفا في نسب الشرفاء »وما كان له أن يعرف مثل هذه المصادر المفقودة لو لم يكن كما قررنا حول الكتاب، وصاحب الكتاب، وأنه مغربي حتى النخاع.

(21) سماه « التحقيق في النسب الوثيق »، والعشماوي هذا سماه أحمد بن محمد بن أبي القاسم، بن أحمد، بن محمد المكي»، كما قال عنه أنه كان موجودا سنة 1142هـ –1729م، راجع الخزانة ع 1049د، والفهرس ج 157/2 وتاريخ هذا قريب نسبيا، وقد وجد في هذا العهد من المؤرخين المغاربة من كتبوا بطريقة أكثر براعة وتوثيقا، على أننا لم نقف بين العشماويين على الاسم المذكور، ويقول المؤلف أنه ما أقدم على التأليف إلا بعد ما رأى كثيرا من الناس يدعى الشرف، فطمع الناس فيهم ، للطعن قولا واعتقادا، ولذلك طلب منه بعض الإخوان أن يكتب كتابا في الأنساب ، فكتب كتابه المذكور، وكان لايدرج أي فرع من فروع النسبة، إلا بعد أن يعرضه على الثقات أمثال أ) صالح بن يوسف السعدي ب) شرحبيل بن أنس الآسفي. ج) هاشم بن عبد الله المواسي د) الشيخ العالم التقي عبد الرحمن الأرضي، ويخبرنا «العشماوي» عن مصادره التي ذكر منها السيوطي، وابن حزم، وابن خلدون، والاسكندري صاحب غاية الجهد، وصاحب روضة العابد، وكفاية المحتاج لأحمد بابا، والتنسي، بل والبكري، ومحمد بن عبد العظيم التونسي الخ

(22) راجع فيه نسب الطالبيين ج 244/4

(23) راجع مرآة المحاسن 179ط حجر، وفيها الشجرة نقلا عن القصار، كما توجد في نشر المثاني 1 /193، والجذوة 211/1 . هي نفسها.

وقد وقفت على مصادر جد موثوقة عند بعض الأشراف الأدارسة بقصر تابع صامت من إقليم تافيلالت سجلماسة يرجع تاريخ بعضها إلى عهد ازدهار سجلماسة، عليها خطوط كبار العلماء والقضاة قبل القرن الثامن الهجري ، وقد جددت بالتوالي إلى القرن العاشر، كما رأيت مثلها في فجيج عند أولاد بني عزة فرع من أولاد مخلوف بن خلف الله، بن عبد الله سلطان، بن عبد الرحمن الشريف الخ بالإضافة إلي رسوم التركات، وعقود الأنكحة والمواريث، والوقف، وبعد مراجعتها مع الأصول الواردة في الكتاب المنسوب للسيوطي لم نجد خلافا إلا فيما جد من الفروع بعد نهاية القرن التاسع الهجري، على أن نسخة(24) من نسخ الكتاب المذكور جاء في آخرها ما يؤكد صحة ما في الكتاب، بغض النظر عن

---

(24) النسخة عتيقة وبخط مجوهر جميل، من متروك الشريف العالم أحمد امحمد، بقيت عند ع ج أمعلى وهي الآن في حوزة السيد هلالي العربي الودغيري، وقد جاء في آخره« وجدت بأصل المنتسخ منها ما نصه: قوبلت وبشهد بصحة المقابلة، عبد الله أحمد المقري، كما شهد بصحة المقابلة محمد بن مرزوق سنة 781هـ/ 1379م؟ وعبد الرحمان بن أبي بكر بن سليمان الحسني السوسي الجزولي 861هـ/ 1456م وعرف بتوقيعه إبراهيم بن جابر الأندلسي المراكشي، وعبد الواحد الوانشريسي، وأبو القاسم بن خجو 984هـ/ 1479م، وعبد الواحد بن أحمد الحميدي نسبة إلى قصر بوحاميد بمدغرة سجلماسة، وهو العالم الشهير زمن السعديين في 4 شوال 1018هـ /1609م، وأحمد بن سعد لمجيلدي 1020هـ/ 1611م، وتحمل النسخة شهادة قاضي الجماعة بفجيج ونواحيها أبو القاسم بن عبد الجبار، ونسخها تم في مستهل جمادى الثاني 1284 هـ/ 1867م ؟ وهو طبعا أبو القاسم المتوفي سنة 1011هـ/ 1603م ويظهر أن هؤلاء جميعا، لم يهتموا بنسبة الكتابة إلى السيوطي بقدر اهتمامهم بصحة الأنساب المذكورة في الكتاب، والذين ربما بلا شك كان لهم من المصادر ما يرجعون إليها في الموضوع ، راجع التعليق اللاحق بعد(19)، وهذا مثال من محفوظات بعض الاسر بفجيج حيث وقفت على « شجرة» أولاد بن عزة الوادغيريين، والبالغ طولها ثمانية أشبار وعرضها شبر ونصف، وهي متخلفة من متروك الفقيه عبد الرحمن بن البشير بن عزة، وفي حوزة ولده محمد، وأسرته بقصر الوادغيريين ويرجع تاريخها إلى أواسط القعدة عام 817هـ، وهي عبارة عن مجموعة من الرسوم ، الأول والثاني من كتابة قاضي سجلماسة وقتها عبد الملك بن الحسن بن العاقلة التميمي، جاء ، « ووثق الرسم الأول في السنة المذكورة الحاج محمد بن موسى بن علي، والودغيري، والشيخ مديل ، بن الحاج، والشيخ محمد بن عبد الله زيتون شهودا، والشيخ أبو القاسم بن محمد بن الحسن بن العاتي، والحاج أبو يحي بن علال بن قدوج التاج، ومحمد الخاطبي الخطابي الطالب، وأبو ثابت محمد بن ميمون، وأبي حسين ابن موسى، بن علي اليعقوبي، والقائد يوسف بن محمد، والشيخ أحمد بن يوسف بن موسى، بن علي الودغيري ، ومحمد بن الحسن بن الخير، ويوسف بن علي الخاطبي، ومحمد بن عمر، وعلي بن محمد بن المعلم شهودا ، والشيخ أبو القاسم بن عمر الورتاجني، والكاتب محمد بن أبي القاسم الصبرنشي، ومحمد بن يحيى بن عيسى، والكاتب أبو غالب بن محمد بن السماح شهودا، والأمين راعون خدور التاجر، ومحمد بن محمد بن حفص التجني التاجر، وحسن بن محمد بن عبد الله بن علي، والأمين شقرون بن عبد الله بن حاتم شهودا، وأبو عنان محمد بن علي الطالب، ويوسف بن محمد بن الحسن بن المعلم، وأحمد بن محمد الرباع، والشريف عبد الرحمن بن علي الحسني، والحاج أبو يحيى =

المنسوب إليه، ورغم إشارة المعاجم إلى هذه النسبة، وما ورد في الكتاب من خطوط وأسماء العلماء حسب تاريخ وجودهم، يثبت أن الكتاب وجد قبل أن يولد الجلال السيوطي بواحد وسبعين سنة إذ السيوطي عبد الرحمان من مواليد 849هـ/1445م وأول شاهدين بصحة المقابلة هما أحمد المقري بن محمد بن جزي وقاضي القضاة عز الدين أبو القاسم بن سعيد العفاني التلمساني، أرخا شهادتهما حرفيا بتاريخ ربيع الأول سنة 778هـ/ 1376م.

أما سبب نسبة الكتاب إلى السيوطي فلعله جاء بعد، ويرجع إلى أسباب سياسة عرفها الأدارسة أواخر عهد بني مرين شبيهة بتلك التي حصلت زمن ابن أبي العافية، وذلك في عهد أبي سعيد كما أشرنا قبل، ثم زمن الوطاسيين ووزارتي اليهوديين هارون، وشاويل، فمنذ نهاية القرن الثامن للهجرة، كما سنرى، وبعد ما تولى أبو سعيد عثمان بن أبي العباس مملكة بني مرين المشار إليه قبل، بعد موت أبي عامر أحمد المستنصر الذي أشرفت دولة بني مرين في عهده على الزوال، والبلاد في انحطاط إلي نهاية عبد الحق الصغير، حيث الثورة التي حركها الفقيه عبد العزيز الورياغلي بفاس، التي تولى حكمها الشريف الجوطي، أبو عبد الله محمد بن علي وذبح فيها عبد الحق، ثم بقي الشريف الجوطي حاكما للمدينة من يوم الجمعة 28 رمضان سنة 869هـ إلى نهاية سنة 870هـ 1464– 1470م ثم نزعه من الحكم يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي، وقتها فرّ الحفيد وأعداد كبيرة من الأدارسة إلى تونس إلى أن استرجع أعقابهم السلطان إسماعيل

= بن إبراهيم، وعلي بن الحسن النجار، وابن عبد الرحمان مالك الصنهاجي، ومحمد بن علي بن الحسن، وعبد الرحمان بن موسى الورتاجني، وأبو القاسم بن محمد بن مكي، وعبد الرحمان بن أحمد بن حامد بن أبي مروان، ومحمد بن أبي القاسم.

ومثله الرسم الثاني ، وقد صادق عليه جماعة من العلماء، منهم عبد الرحمن بن إبراهيم اليزناسني وقاضي مدينة فاس عبد الرحيم بن إبراهيم، وهو بتاريخ أواخر عام 831هـ.

والثالث : عليه خطوط العلماء: محمد الفارسي، وعلي بن أحمد الفيلالي، وعمر بن يوسف الفيلالي، ومحمد بن عبد الله الميموني، ومحمد بن يحيى، وعبد الله بن أحمد، وأبو القاسم بن علي الفيلالي، وكل هؤلاء من سجلماسة ، والثالث بخطوط جماعة من علماء فاس صادق عليه نائب القاضي أبو القاسم عبد الرحمان الحميدي، وهو بتاريخ المحرم 935هـ، وهكذا فالرسوم الثلاثة كلها من أجل تأكيد نسب أبي القاسم بن أبي بكر، بن علي، بن محمد العربي، بن أبي بكر، بن شعيب، بن عمر، بن علي، بن يزيد، بن ميمون، بن مناصر، بن عيسى، بن عبد الرحمان، بن يعلى، بن عبد العلي، بن أحمد، بن محمد بن إدريس، بن إدريس.

العلوي سنة 1121هـ/ 1707م، وفي تلك المرحلة 870هـ كان عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي قد بلغ ذروة المجد في جل أقطار الإسلام بما ذا ع وانتشر من كتبه وملخصاته التي ما إن مات حتى بلغت أكثر من خمسمائة، كلها نسبت إليه، وإذا كان الحفيد الذي فر الى تونس حيث يكون صدى السيوطي اكثر ترديدا، وأن ما ينسب إليه أحق بالثقة، ألم يكن الحفيد قد حمل معه سجلاً به أصول وفروع الأدارسة المضطهد كبيرهم، من المغرب عن قومه وعشيرته، وأنه ليثبت لرجالات الدولة الحفصية أن عصبيته في المغرب أقوى من أن يستند لها يوسف بن منصور الوطاسي، وأخته التي حكمت فاس الجديد وقتها، وأن الحفيد لو وجد مساندة لرجع إلى موطنه حيث يجد القوة والعون من قومه وذويه الذين لا تخلو منهم جهة من جهات المغرب ، هذا جانب من الاستنتاج. أو بشكل آخر بعيدا عن الرغبة في الحكم، ألم يكن الحفيد وقتها توجه معه كثير من الأدارسة العلماء الذين لايرغبون في نشر اسمائهم تقية من مكر الماكرين، وأنهم حتى لايعرضوا ما بأيديهم من وثائق للضياع، وحتى لاتندثر أو تزول من الأذهان فيضيع معها نسب كثير من العائلات التي تتواجد في أماكن نائية وبعيدة عن العمران والمعرفة، وحتى يبعد القارئ عن الشك والتأويل للأهداف، قام الكاتب بجولة حول نسب الأشراف عامة وأماكنهم في الحجاز، والعراق، واليمن، ومصر، ثم انتقل إلى تونس والجزائر وتلمسان ليتفرغ لتاريخ الأدارسة بالمغرب، في الجبل والسهل، وفي القرى والمدن، ولما انتهى من عمله والظروف السياسة كما أشرنا لا تسمح باتخاذ تونس ـ التي تحكم بالحفصيين الذين حاولوا التعلق بالنسب القرشي- ولم يثبت لهم ميدانا للعمل السياسي الذي هو التعريف بآل البيت أصحاب الإعتبار والإكبار في مختلف البلاد الإسلامية عموما والمغرب العربي بالأخص.

ومهما يكن فالنسختان معا، ما نسب للسيوطي الأب، وما نسب للأبن، نتوفر عليهما ومن أسلوبهما يفهم بلا تردد أنهما من وضع مغربي في ظروف سياسية تتسم بالإضطراب الذي عرفته البلاد في الفترة التي كان السيوطي فيها قد بلغ درجة من الشهرة أدت إلى جدل حول ادعائه الاجتهاد المطلق، الأمر الذي دفع إلى الرد على هذا

الزعم كما ورد في الذيل على طبقات الشعراني(25). بل وإذا علمنا أن السيوطي كتب في موضوع الأنساب كتابه الذي سماه «لب اللباب في تحرير الأنساب »(26) الذي اختصره في عشرة أيام كما صرح بذلك آخرها يوم الاثنين سابع عشر صفر سنة 873هـ من نسخة صحيحة مقابلة على أصل ابن الأثير(27) والذي كان هذا قد انتهى من تأليفه يوم الثلاثاء 20 جمادى الأولى سنة 615هـ/ 1213م والكتاب ألفه السيوطي على حروف المعجم، ولم يسلك فيه طريق تعداد الآباء، بل اقتصر فيه على ما ينسب إليه الشخص أبا كان أم بلدا ، وفي هذه المرحلة أيضا اشتهر اسم السيوطي بين المغاربة بكل إجلال ووقار مما دفع إلى أن ينسب إليه كتاب في الأنساب.

أما الكتاب الذي نحن بصدده فقد تفرغ لتحقيق تسلسل الاباء بشكل فيه كثير من التطابق مع الوثائق المنتشرة قديما هنا وهناك، والتي تتوفر عليها جل العائلات العريقة التي تطرق إليها الكتاب، وقد أشرنا إلى صحة ماورد في الكتاب، بدليل استعمال المؤرخين المغاربة الذين كانت لهم جولات موفقة قديما وغير غامضة في مجال الأنساب، ويكفي في نظرنا أن يستعمله محمد بن الطيب القادري المشار إليه قبل، والذي ذكره كمصدر من المصادر التي استعملها، أما غيره أفادوا منه، ثم أوردوا منه نصوصا دون أن يذكروه، منهم كثرة خانتهم الأمانة أو أنهم أخذوا عن من أخذ عنه ولم يذكره ولذلك أغفلوه ، ومثل هذا حصل لغير اللآلئ المستضيئة مثل «الأنوار الحسنية» لأحمد بن عبد العزيز التيعرمتي صاحب أول كتاب كتب عن العلويين من ابناء الحسن بن

---

(25) مخطوطتنا رقم 492 ص 1.

(26) نشره الأستاذ ويث، ثم طبع له زيادات وتحقيق بعد التصحيح والمعارضة، بكتاب الأنساب للسمعاني راجع معجم المطبوعات 1083 ، وهو مختصر نقح فيه اللباب لابن الأثير.

راجع طبعة المثنى ببغداد ، وحيث أعيد طبعه بالأوفسيط بدون تاريخ، وهذا الكتاب هو الذي يفصل في العلاقة بين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي والمغرب والمغاربة وما في الكتاب المنسوب إليه فهو في كتاب اللباب يكاد يجهل ما في المغرب من أعلام العمران فضلا عن الأنساب فمثلا عنده في اللباب ص 104 الدرعي نسبة إلى درعة مدينة بالمغرب وفي ص 106 الدكالي بالفتح والتشديد إلى دكالة بلد في المغرب، وفي ص 62 الجراوي إلى جراوة بالضم موضع في المغرب الخ ولب اللباب أصلا وفصلا للسيوطي اختصره كما أكد ذلك آخر الكتاب، 28 « في عشرة أيام متوالية آخرها يوم الاثنين 17 من شهر صفر سنة 873هـ من نسخة صحيحة مقابلة على أصل بن الأثير» الخ .

(27) راجع ط المثنى ص 286 بدون تاريخ.

قاسم الداخل في المغرب، والذي استعمله اليفراني بشكل واسع في روضة التعريف(28).

وقليل هي المواضع التي يشير فيها بقوله : قال صاحب الأنوار، وعن اليفراني أخذ الفضيلي في « الدرر البهية » والزكي في « الشجرة الشماء» ، والزياني في «البستان الظريف» الخ، وهذه المصادر استعملها جل من جاء بعدهم وكتب بعد ظهورها.

وبعضهم يطعن في كتاب الانساب المنسوب للسيوطي بقوله « صادر عن فكر بدوي...» وهو رأي سمعته من الرجل الذي عرف بالسطو على إنتاج الآخرين، والذي اعتمده في رأيه هذا هو اهتمام الكتاب بالأسر التي اتخذت سكنى البادية أكثر، ولضعف هذا الرأي أهملت ذكر فضائح صاحبه الذي قال إنه لم يتعرف على الكتاب، مع أنه أكثر انتشارا من غيره، وعنه أخذ الذين كتبوا في موضوع الأنساب قبل ومع ذلك عرض بصاحبه، لأنه تعرض لكل الأدارسة في مختلف البلاد، بل حتى الذين غفل عنهم ، في الكتاب الذي باسم الإبن استدركهم في ما نسب للأب الذي هو « أبو بكر » ، والذي يؤخذ على الكتاب بل يعرضه للنقمة هو عدم وجود الأصول التي انتسب إليها بعض المدعين المستجدين الذين لا يقدرون على إنكار صحة ما ورد فيه، وإنما يصفوه بأنه من بدوي غير ثبت ، وإذا قيل أن به ما هو غير محقق، فإنه يوجد بأيدينا اليوم من المصادر ما يمكننا بواسطتها تحقيق ما قيل إنه غير محقق ، ناهيك وأن التحقيق في أنساب الأدراسة من الحسنيين وغيرهم ، أبناء عمومتهم من الحسينيين بطريقة تختلف عن التحقيق المتأثر بالمطامع والأهواء ، وذلكم هو تحقيق صاحب ديوان الأشراف أحمد المنصور السعدي الذي يرجع نسبه هو الآخر إلى عبد الله بن إدريس الثاني كما سنرى خلافا لما عرف من خرافة استقدام جده زيدان من المشرق، كما قام بنفس التحقيق كذلك

(28) راجع طبعة المطبعة الملكية بتاريخ 1962 لروضة التعريف، والأنوار الحسنية الذي حققناه ثم طبع سنة1966، ثم قارن بينهما مع أن اليفراني لم يذكر صاحب الأنوار إلا بعدما سطا منه على الكثير نثرا ونظما من ص1 إلى ص23، وفي ص24 ذكره مرتين. كما جاء في التعليق رقم1 ص 32 من الروضة اسم قصر أبحار باء وحاء مشددة قلبه الناشر إلى أمجار بميم وجيم، وقد نقل نفس الخطأ الدكتور عبد الله العمراني في كتابه عن السلطان إسماعيل ص 28 وهو كتاب لا يعتمد لماورد فيه حول عمود النسب، وتاريخ الذين أوردهم فيه بل الكتاب في مجموعه مديح، وبه شطحات مرفوضة. واستمر اليفراني إلى ص 58 ثم قال « فذكر صاحب الأنوار » وبه ختم ص 72 قبل أن يتم روضته ص 73، كما استعمله أيضا في كتابه نزهه الحادي راجع ص 289 ط مكتبة الطالب تقديم د. ممدوح حقي، الخ الخ.

السلطان إسماعيل(29) وحفيده محمد بن عبد الله، وابنه سليمان وحفيد ابن أخيه المولى الحسن رحم الله الجميع.

وفي مختلف تلك التحقيقات حصل التشديد على الذين ادعوا، حتى بطلت ادعاءات المتهوسين، وقد بقيت الأنساب محفوظة إلى ذلك العهد، وإن عرفت ادعاء أكثر زمن الاستقلال الذي عرف الإختلاق، والإفتراء، والتزوير ولا رقيب ، كما عرفت زمن الفطرة، راجع العز والصولة 95/2، وما به نقلا عن كناشة اليحمدي من أسماء القبائل التي ادعت النسب زمن السلطان إسماعيل، إذ هو الذي أورد قبائل الأدارسة الثمانية في نظره جـ 2 من صفحة 72 إلى 113 ط الرباط 1962.

إن الفكرة التي نقصد من بعض تركيزنا على الأدارسة في هذه الفترة بعد شتاتهم واندثار دولتهم هي: أنهم بما أشاعوه بين المغاربة من نور وعرفان ركزوا به الإسلام دينا والعربية لغة، كما جمعوا شتات الفئات المتنافرة في كل مكان ، وبين القبائل المستوطنة ما بين تيهرت ووادي نول بالأخص، وإذا كان للغة أثرها إلى جانب العقيدة فيما يرجع إلى الوحدة السياسية التي تحققت بين المغاربة، فإنهم أكثر من ذلك عملوا وبكل أمانة للقضاء علي نزعة العرق والجنس وإقليمية القبيلة فيما مضى، ولم يكن قبل لغير الأدارسة فضل في محاربة تلك الرذائل سواهم ، فهم الذين انتشروا بين السهول والهضاب، وحول

---

(29) راجع مجموع القادري المشار إليه خ. ع 1574 كـ. ومثله فعل حفيده محمد بن عبد الله. راجع الاتحاف 226/3-233، ثم ابن الحفيد المولى سليمان ، وقد أورد صاحب الاتحاف المذكور في ص 234 ظهيرا أسند بموجبه متروك المنقطعين بفاس للاشراف الذين عد فرقهم وهم :

1) أهل دار القيطون 2) الطاهريون 3) العمرانيون 4) الطالبيون 5) الغالبيون 6) الصقليون 7) العراقيون 8)المسفريون 9) الدباغيون 10) الكنانيون 11) الكانونيون 12) الشفشاونيون 13) الفضيليون 14) أهل مكناسة من أهل الحمام الجديدة 15) أولاد سيدي علي منون ومن هو متأهل بفاس من بني عمنا، فهؤلاء القبائل المذكورة حفظهم الله هم الذين وهبنا عليهم متخلف المنقطعين « من لاوارث له » بفاس سواء كان أثاثا أو عقارا أو غير ذلك، لايدخل معهم غيرهم، ولا يخرج من كان شرفاء فاس قاطنا بغيرها كالدباغيين الذين بمراكش هبة مؤبدة ممنوعة أسباب النقض إنشاء الله إلى يوم الدين ... الخ؟ وتاريخ الظهير 10 ربيع الثاني سنة 1190هـ، ويقول ابن الحاج في كتابه الأشراف ص57 - 58 م خ إن السلطان محمد بن عبد الله ، كان يجري في طريقته نحو الأشراف على نهج ملوك الفرس الذين كانوا يضبطون أهل البيت على ضوابط أسلافهم ويمنعونهم من الابتذال والدخول في الصنائع والحرف التي تزري بهم، ومن منا كحة من لا يليق بهم، وأما إحسانه إليهم فشيء شهير... في جميع أقطار المغرب والحرمين والحجاز والينبع ومصروالشام ... الخ.

الأنهار، وعلى جنبات الأطلسين الكبير والمتوسط، وعلى امتدادهما في المغرب الأقصى أكثر، بل إن الذين قصدوا أكثر الأماكن وعورة مما لم يستطعه غيرهم قبل، هم أولئك الذين تبربروا لهجة ، في سوس، وآيت حديدو ، وآيت صغروشن، وآيت ورا، وبقية القبائل إلى بني يزناسن وأرض زواوة وبسائط تونس إلى الأسكندرية بمصر، فهم الذين استطاعوا بفضل تقديس البربر للنسب وحمايتهم لآل البيت، أن يشدوهم بقوة العاطفة والسلوك إلى ما أصبح البربر يعرفون به من حب للدين وتمسك به، بل ساهم الأدارسة في جميع جهات المغرب شرقا وغربا شمالا وجنوبا أكبر وأهم مساهمة بالامتزاج الدموي والمصاهرة مع المغاربة والبربر والعرب، في التمهيد لتساكن العنصرين والقضاء على الروح المعادية التي كانت متوقدة ضد العرب بين جموع البربر الذين لولا وجود الأدارسة زمن ظهور صنهاجة المرابطين، ومصمودة الموحدين، وزناتة المرينيين لعرف المغرب تمزيقا تضيع به كل الجهود، بسبب ما عرفته البلاد في عهود هذه الدول من محاولات الصنهاجيين، والمصامدة ، والزناتيين وماعرفوا به من حروب طاحنة اتسمت في ظروف متعددة بالعنصرية القاتلة.وأكبر مثال شاهد على ما سبق واقع لمتونة وما وجدها عليه عبد الله بن ياسين وعدم تمكنها من الدين حيث لم يصلها الأدارسة بسبب موقعها الوعر البعيد الخ.

وبالتالي فالمغرب الكبير من برقة إلى وادي نول، مدين للأدارسة بما قاموا به من محاربة للرذيلة ونشر للفضيلة، وبالتالي القضاء على تلك الشرور التي علقت في اذهان المتربصين الذين سد الأدارسة في وجوههم كل الأبواب التي طالما حاولوا فتحها تارة باسم القومية، وأخرى باسم التراث ، قومية العرب وما يحيط بها من شعوبية خربت بلاد الأمة العربية، وتارة باسم الحضارة الفرعونية، وأخرى باسم الاديولوجية الغربية أو الشرقية قبل أن تلبس ماجد من الثياب، وتحيي ما مات من روح الطائفية، وفي مغربنا كان الذي حارب كل هذه الرذائل في صمت وصمود وتمسك بالقيم والأخلاق هم الأدارسة في الدرجة الأولى وأبناء مدرستهم اتباعا.

إن الإهتمام بهذا الجانب من التاريخ الذي نعرف به من نحن، وما مجتمعنا ، وكيف تكون وما مقومات تكوينه ، كان محل اهتمام رجالات التاريخ على مر العصور،

لكنه كان بطريقة لم يعد في مقدور الذين أنهكتهم تيارات الاستعمار الجديدة، بما سلطه عليه من إنتاج ماركس ولنين وماو، وسارتر وغيرهم من الذين عاشوا في ظروف لم تسمح لهم بمعرفة غير ما أنتجوا لشعوبهم كما أنتج خصومهم من الغربيين ما لم يخرج في رأي المسلم الواعي عن دائرة الآخرين ، هؤلاء الذين تعرضوا لغزو الشرق أو الغرب ، لا يمكنهم أن يسبروا غور ماضي المغرب بموقعه وظروفه القاسية، والذي لولا الإسلام ومقوماته التي مكن لها الأدارسة وأبناء عمومتهم من آل البيت في مرحلة ما قبل العبيديين وبعدها. لما حفظ الدهر لهذا الشعب تراثا ولا تحقق له كيان ولا وجود، وبالتالي فإنه لولا روح الإسلام، وجهود الأدارسة، آل البيت في التمكين له ، لما بقي للدول التي تعاقبت على المغرب بعد الأدارسة ما تعتمد عليه في تأسيسها والتمكين لها، باستمرار الذاتية المغربية حتى بعد زوالها.

إن القصد الذي أهدف إليه من اهتمامي بالأدارسة، وبهذه الطريقة التي لم يسبق لمؤرخ أن عالج بها حقيقة أثر وجودهم في المجتمع المغربي، هي أن يتعرف الدارس لتاريخ المغرب على أهم عامل في تكوين وحدة المغاربة و المحافظة على كيانهم عبر التاريخ، بل إن الاهتمام بالأدارسة من بعضهم كان بطريقة لا تشرف الأدارسة أنفسهم ذلك أن بعضهم ممن تعرض لتاريخهم يدخلهم ضمن قافلة الذين لا يشرف الاسلام أن يحسبوا عليه ، هم متصوفة الإبتزاز والافتراء على الدين باسم الكرامات ، و «المعجزات وخوارق العادات »، وأن بعضهم قد عرف له من تلك الخرافات ما يدعو إلى النفور ويبعث على السخرية، وهذا الجانب من الحياة الاجتماعية الذي لا يشرف لا يليق أن يلسق بهم ،ولذلك لم أعره التفاتا فيما أكتبه عن الأدارسة كعنصر أهم من عناصر تكوين المجتمع المغربي دينا وسياسة، وهو الذي حاول بعضهم أن يتخذه وصفا لبعض الأدارسة الذين أصاب بعضهم ما أصاب غيرهم في عصور الإنحطاط السياسي كعصرنا الذي نحياه، والاجتماعي الذي نعاني من ويلات ومفاسد المستأسدين فيه بالظلم والطغيان والافتراء على الله والناس، باسم الاعتزاز بالدين، دين المواسم، ونشر الخرافات، والتمكين للضلال، حتى أصبح المغاربة لا يعرفون من وجوه الذين تقام المواسم حول أضرحتهم من الأدارسة ومن غير الأدارسة وهم الكثرة الكبيرة في المغرب، إلا ما يتعلق بجانب

«الفولكلور » ولا أبالغ إذا قلت إن الذين يوجهون إحياء تراث المغرب هذه الوجهة المزرية لم يكونوا غير عملاء بعمولة بخسة لهدم أعظم وأكرم ما يمكن للمغاربة أن ينهضوا به من قيم ومثل عليا ومعان سامية، تتمثل في حياة رجالاتنا وعباقرة تاريخنا، من الأدارسة السابقين وغيرهم من الذين وضعوا لبناتهم التي لم يبليها الزمان وتقادم العهد في تاريخ المغرب وبنائه الشامخ.

شجرة التقاء الأنساب بين آل البيت

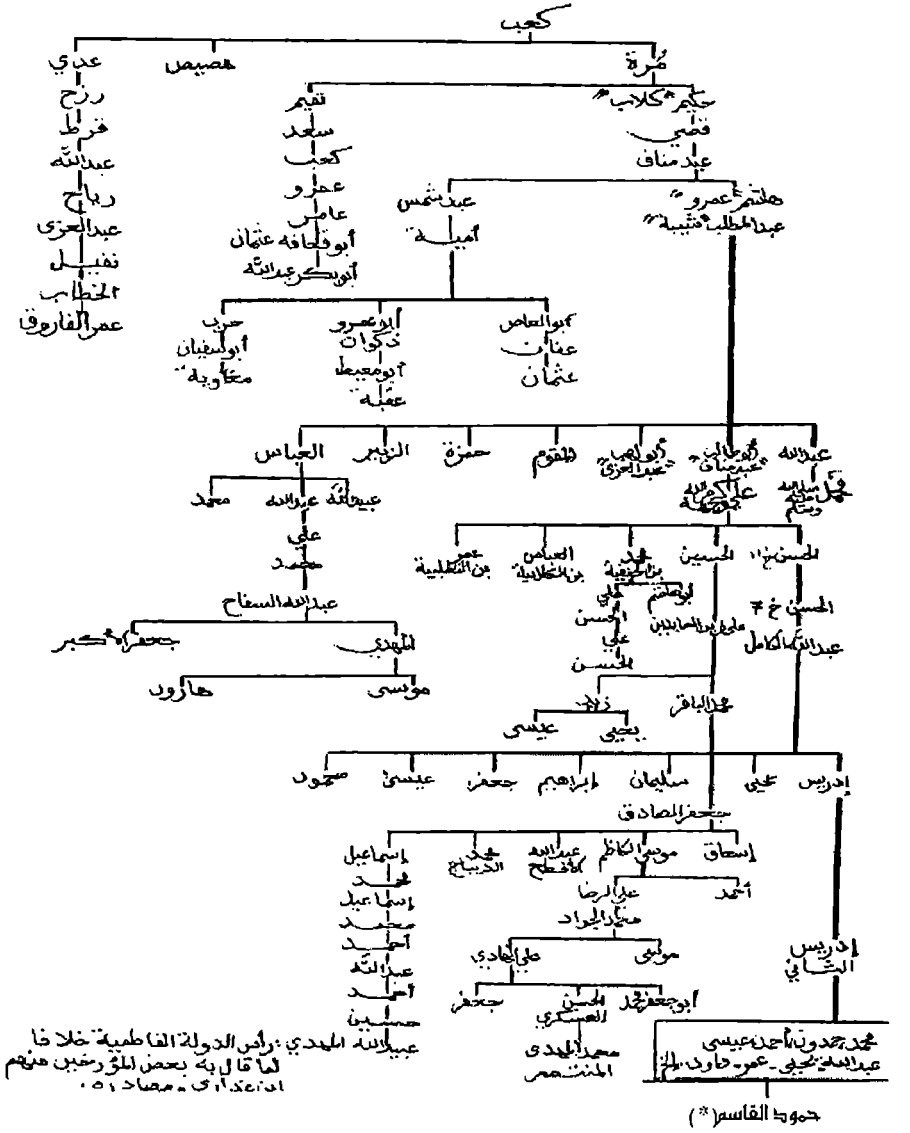

* راجع الجمهرة لابن حزم 51-66. والعقد الفريد 248/3 إلى 317 ط1953 ونهاية الأرب للقلقشندي ونهاية الارب للنويري والعبر لابن خلدون، والبيان والاعراب للمقريزي الخ. وتحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب للزياني خ..

الفصل التاسع والأربعون

مكانة الأشراف الأدارسة بين قبائل المغرب ودوله في المغرب العربي الكبير

قال تعالى في كتابه الكريم، "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون" وقال تعالى: "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون "وقال تعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"تعلموا من النسب وعلم التاريخ ما تصلون به أرحامكم وتعرفون به بلادكم" حديث شريف.

ورحم الله من قال:

قل لمن يفخر جهلا بالنسب إنما الناس لأم ثم أب
أتراهم خلقوا من فضة أو حديد أو نحاس أو ذهب
إنما الفخر بفعل صالح وبأخلاق كرام وأدب

ومثله ما ورد في لامية ابن الوردي:

لا تقل أصلي وفصلي أبدا إنما أصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرء من غير أب وبحسن السبك قد يبقى الزغل

وقول الحمدونية:

لا تقل أصلي وفـــرعي إنه لقـصـيـر من على هذا آتكل
إنما أصل المسك نجس ودم وبهي الورد من شوك حصل

منذ أقدم العصور عرفت المجتمعات التي تحضرت نظام طبقتين إن لم تكن طبقات، فدول الهند والفرس والفراعنة والروم، عرفت أعرافها ودساتيرها بروح التمييز بين طبقتي الأشراف والعامة، وفي مجتمع روما الذي انتهى الى أعلى درجات الرقي، كانت الطبقة الأولى فيه تتكون من أبناء الأسر الشهيرة من القبائل التي آندمجت واتحدت لتكون روما، وكان لهم الحق في التصويت في الجمعية العمومية، وحق الخدمة في الجيش، والاستيلاء وحدهم على الوظائف الدينية ذات الإمتياز الاجتماعي في الدولة، أما الطبقة الثانية وهي طبقة العامة الذين لا حق لهم فيما سبق لأن حالتهم تتوقف على أصلهم، إذ البعض منهم كانوا عبيدا منحهم الأسياد حريتهم، ولكنهم كانوا مرتبطين على الدوام بهؤلاء الأسياد، ولا يقتصر ذلك الارتباط على حياتهم بل يتعداه الى ذريتهم من بعدهم، أما البعض الآخر فقد كان يتكون من سكان البلاد المفتوحة الذين أرسلوا إلى روما وكان يختص بهم بعض الأشراف، وهذا الصنف الأخير وجد في صدر الإسلام زمن الأمويين، وهو الذي أدى لقيام الثورات عليهم في كل البلاد التي فتحوها كما سبق لنا، وكان الذين يحاربون هذا النوع من الاستغلال الذي يمقته الإسلام هم الأشراف من آل علي ومن كان على شاكلتهم من الصحابة والتابعين.

وإن دراستنا لهذا الموضوع الذي وضحنا مقاصده في المغرب لا تعني العرقية التي مزقت كيان العرب زمن الشعوبية التي نتجت بسبب التمييز الذي انتهجه المتأثرون بالقيصرية والكسروية من العرب، بل العرقية كذلك هي التي مزقت أوربا، والتي تمسكت بها النازية ثم آتخذتها وسيلة لمحق اليهود في الحرب الكونية الثانية 1939–1945م، فكان رد الفعل من اليهود أنهم أصبحوا تحت رحمة الصهيونية أخت النازية وأشد حقدا في تطرفها ضد الإنسانية قاطبة، حتى دفعت بهم إلى آرتكاب أفظع الجرائم في فلسطين وكما نرى ونعيش في سلوك الصرب ضد البوسنة والهرسك.

نحن لا نعني بدراستنا في هذا الفصل أي نوع من التمييز الطبقي المشار إليه، ولا تلك العرقية التي تحدث عنها الكاتب الفرنسي "آرنودو جوبينو" وغيره من بعض كتاب العرب(31) الذين آتخذوا الكتابة في هذا الموضوع وسيلة لبث "الإيديولوجيات" بطريقة فيها من التملق للشرق ما يدفع لمقاومة الغرب وبالعكس، بل إن غاية ما نقصد هو ما تطرق له العقاد(32) رحمه الله في كتبه عن الأشراف ضمن العبقريات التي استهوته بما كان لها من أثر في خدمة الإنسانية وبناء الحضارة الإسلامية العربية شرقا وغربا.

وإذا كانت الأمم والشعوب عادة تتميز بسمو أخلاقها وعاداتهاوتقاليدها المتوارثة، والتي تعتمد أساسا على الدين وأصوله، فإن للمغاربة ذوي الأصالة في هذا المجال تاريخ عريق وطويل، لم ولن تستطيع كل الوسائل المقيتة والحقيرة التي يستعملها المندسون اليوم من قريب، وبتوجيه من بعيد، بل ولا المتسلطون بالقهر والمكر والتزوير، أن يطمسوه أويبدلوه، وإن آستطاعوا تشويه معالمه بثمن عال وخطير عليهم وعليهم وحدهم، لأن التاريخ وخصوصا في هذا العصر الذي صغر فيه العالم، لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وسجلها، بأقلام ولغات لا تكاد تحصى، ومنها إجرام بعض الذين يحملون ألقاب آل البيت زورا من الذين شوهوا كل جميل في هذا البلد.

لقد تعرض المغرب عبر تاريخه لهزات عنيفة، كما تعرض شعبه للقهر والإذلال بالعنف العنيف من إدارة الحماية الفرنسية، لكن ذلك لم يفعل بنفسية المغاربة ما فعلته قلة قليلة من الذين كونهم الاستعمار الفرنسي ثم خلفهم لصالحه ضد المغاربة، ودين المغاربة ومقومات المغاربة، ثم أصبحوا قوة بالقهر في عهد الاستقلال ، وحتى إذا ما انتهوا الى نهاية الدرب المغلق بما نشروا من تفسخ وانحلال بل وخمور وفجور ومخدرات

---

(31) راجع مدخل الى علم السياسة لدو فيرجيه ص29-38 ترجمة د.جمال الأتاسي ود. سامي الدروبي ط دار دمشق بدون تاريخ.

(32) راجع كتابه "إنسان القرآن وإنسان القرن العشرين للعقاد وخصوصا من موضوع" أسرة واحدة" ص49-56. راجع مادة "شريف دائرة المعارف الإسلامية 13/266-279، مع التعليق على مالم يدركه الكاتب رغم استيعابه الى ص 282 للدكتور محمد يوسف موسى، على أن هذا النوع من الدراسة وجد بطريقة موسعة جدا منذ القرن 3هـ، كما عند البلاذري في كتابه "أنساب الاشراف وأخبارهم" والذي يقع في عشرين مجلدا راجع كشف الظنون 1/179ط 1241، ولعل أول من ألف في الأنساب هو هشام الكلبي الذي صنف فيه خمس مؤلفات، ثم بعده الإمام أبو سعيد السمعاني، وله كتاب فيه ثماني مجلدات.

حتى يشتغل الناس عنهم وعن أهدافهم، إلتفتوا خلفهم ليجدوا دخان ولهيب النار التي أشعلوها يطاردانهم بنفس الطريقة التي طاردوا بها أخلاق المغاربة ومالهم من جميل التعلق بالدين والمثل العليا وحب آل البيت. واذا هم اليوم يتساقطون كأوراق الخريف فإن ما خلفوه للمغاربة من فساد يحتاج القضاء عليه إذا صح العزم الى زمن طويل.

إن تاريخ المغرب الإسلامي العربي مهما حاول المرجفون فصله عن التاريخ العربي الإسلامي العام، لم ولن يكون لهم ذلك، وتاريخ الإسلام مذ كان وكما عرفته الشعوب، كان من فصوله ذات الاعتبار الاهتمام بالاشراف الصالحين من آل البيت(33) وهم الذين قال في حقهم أبو بكر الصديق قولته المشار إليها، فهم الذين حرمت عليهم الصدقة، وللتحريم معان سامية عمل على نشرها وتطبيقها في المغرب بين المعاصرين شيخ الإسلام الإمام السلفي محمد بن العربي العلوي(34) وحتى لا يتعرض غير القادرين منهم على الكسب للإهانة، كانت دول الإسلام في المشرق كما كانت في المغرب وكما سنرى وهو ما اقتبسه الغرب الأوروبي، وطبقه في حياة شعوبه اجتماعيا بحيث كان غير القادرين على الكسب وخصوصا آل البيت تهتم بهم الدولة ماديا ومعنويا، حيث كانت لهم رواتب من الدولة لسد حاجاتهم، وكان لهم قضاء مستقل يتولاه نقيبهم الذي لم يكن في مدينة دون أخرى ولا في قطر دون آخر من أقطار الإسلام، وبعد توزيع الأدارسة وظهور آثارهم المجيدة في حياة الشعب المغربي، وبعد قدوم أفواج أخرى من الحسنيين والحسينيين الى المغرب، وتكاثر جموعهم بشكل أصبح يحتم على الذين عرفوا فضلهم على هذا المجتمع من الحكام أن يمكنوا لنظام النقابة وأن يعمموه في كل ركن من أركان البلاد، وقد كان للدول

---

(33) لقد وصف المؤرخون العرب حقيقة من ينتمي لآل البيت وصفا لا نجده في تاريخ أمة أخرى غير المسلمين راجع: الأحكام السلطانية للماوردي، والمنتظم لابن الجوزي 115 والمعرب لابن سعيد 44 والفرج بعد الشدة للتنوخي 43/2 والإرشاد لياقوت 256/1.

(34) لقد أعلنها حربا قاسية على ضعاف النفوس من بعض العلويين سكان مدغرة الذين كانوا يتجولون بين القبائل يستجدون الصدقات ثم حول بعضهم بتوجيه الى مثقفين شاركوا في نهضة التعليم الحر قبل الإستقلال، ومع ذلك بقيت في بعضهم تلك الرذيلة التي عادت الى الظهور بعد موته، حتى إن بعضهم حاضر مشيدا بأحمد التجاني وطريقته في المؤتمر السياسي الذي أقيم بالمغرب لهدم الدين أواخر شهر 1985/12، على أن هذا النوع من مرضى النفوس، قاصر على بعض الذين اعتادوا التجول للاستجداء بين قبائل البربر، هذا في الوقت الذي كان قبل وفي حياة الشيخ ت 1964يتملقه بحماسه للسلفية. ونو الوجهين يلقى الله ولا وجه له.

المتعاقبة فيه نفع كبير، لأن النقيب عادة كان يختار من ذوي الفقه والخبرة بالأنساب إلى جانب الدين والخلق المستمد من الذي وصفه الله بقوله تعالى "وإنك لعلى خلق عظيم"، وبذلك كان النقباء إلى جانب من حولهم من الأشراف هم رسل السلام بين الأفراد والجماعات والقبائل، وبذلك عرفت الدول لهم هذه المهمة التي جلبت للشعب الأمن والاستقرار والحب والسلام، وكم رأينا في هذا المجال من وثائق يستدل منها أنه لولا هذا النوع من التدخل بين القبائل في خصومات بعضهم للبعض وهو ما يمتاز به تاريخ المغرب، لكانت تكاليف كثير من الملوك حياتهم قبل أن يتوصل الملك إلى ردع إحدى الطائفين، أما الجانب الآخر من جوانب الاهتمام بآل البيت في المغرب اقتداء بالمشرق، هو أن المشرق العربي عند بداية الفتح شرقا، عرف الكثير من العناصر التي دخلت في الإسلام، وقد عرفت ما يجب لآل البيت من إجلال وإكبار في مجمتع المسلمين، وكانت الى جانب شرقيتها تتسم بسمات لا تختلف كثيرا عن عادات وتقاليد بعضها، مثل الفرس والهنود وغيرهم، كذلك عرف المحتمع المغربي في الوقت الذي تفرق فيه الادارسة والتحق به من قبائل العرب بعد تكوينا آستلزم تنظيم إدارة خاصة للمحافظة على انسابهم من جهة، ومن جهة أخرى حتى لا يتعرض النسب للادعياء.

وإذا عرفنا أن المغرب عرف نزوح كثير من القبائل العربية سواء من الجزيرة أو الشام، أو مصر، كما عرف نزوح كثير من العناصر التي كانت موجودة في جزيرة إيبيريا من يونان ورومان وفرنجة ووندال، وقوط، ويهود، منهم من اعتنق الإسلام وذاب في المجتمع الجديد، ومنهم من بقي على دينه، والذين أسلموا منهم من أخلص، ومنهم من تصنع، وإذا علمنا أن حالة المغاربة والبربر وقتها لم يكونوا قادرين على الفصل والتمييز، حتى إن الذين هاجروا من ألمرية بلدة بالأندلس حولوا نسبتهم بدلا من البلد الى مرة بطن من غطفان، ومن عبد القيس، ومن جهينة، ومن طيء الخ(35)، بل تغطية نجد من استعمل المرية وهو حقامن غرناطة اليهود كما يسميها المؤرخون، زاد عليها نعوتا أخرى

(35) لب الألباب في تحرير الانساب 243 للسيوطي ط بغداد بدون تاريخ، وقبائل العرب للقلقشندي418 ط 1959 وعمر كحالة.

عربية(36) مثل بعض السودييين الذين لم يقتصروا على ما ذكر بل منهم من إدعى النسب الشريف المهدي حتى قام البعض الأخر منهم عمه مستنكرا ومكذبا، وقد حصل ذلك في عهد انتهى الناس فيه إلى جهل بالأنساب مثل عصرنا الذي نحياه في الوقت الذي كانت الدولة والشعب يميزان ذوي الأنساب الثابتة بما عرف لآل البيت من إكبار وتقدير، لهذا كان على المسؤولين الذين تجاوبوا مع الشعب المغربي وقد أصبحت له حساسية في هذا الجانب مصدرها الحب الصادق لال البيت، أن يستجيبوا لرغبة الشعب في المحافظة عليهم بصيانة الأنساب الواضحة الصريحة التي بقيت غير مختلطة، وبعيدة عن الشك والظن والوهم الذي يدفع الآخرين للادعاء، وإذا ما كانت العروبة وعلى رأسها النسب الشريف هما اللذان قادا معارك الصيانة والتمكين للدين الذي أصبح هو كل شيء في المغرب، فإن الانتساب لا إلى آل البيت وإنما إلى العروبة وهو سهل، أصبح كثير الاحتمال

---

(36) راجع كتابنا التاريخ المفتري عليه في المغرب ص17-18ط الصومعة بالرباط 1969، ثم راجع فضيحة أدعاء بعض السودييين الغرناطيين النسب فيما كتب بتاريخ 12 قعدة 1318هـ في الاتحاف لابن زيدان جـ الذي استنكر ما حصل من المهدي السودي وغيره الذي أضاف الى القصيدة ما ليس منها أصلا بشهادة من أشار إليه. ابن زيدان جـ 4/178-179 180-181. وليس في مجال النسب فحسب، بل حتى مجال العلم عرف بعضهم بالافتراء راجع الفكر السامي جـ 2/294 والذي كشف فيه أن آبن سودة المتوفى 1209 هـ المدعى ما سمي بـ "تحفة الحكام" إنما لخصه من شرح ميارة وغيره، ومن فضائح هؤلاء السودييين ما أورده الزياني في كتابه تحفة النبهاء عن المأبون عبد الملك المري وعبد الواحد السودي زور البيعة ضد المولى سليمان، راجع كتابنا التاريخ المفترى عليه في المغرب ص70ط 1969، وعبد الواحد هذا هو حفيد سميه الذي قتل حدا في أواخر شعبان1142هـ. كما ورد في الاتحاف لابن زيدان 4/399، وقد سار على نهج السابقين عبد القادر البوحاطي الذي أرتكب جريمة اللواط في طفل فرنسي ثم آستجار بقبر الماريشال ليوطي في الرباط، ثم ولده عبد السلام الذي عرف بخيانته السافرة أيام آبن عرفة والذي طوعه آل الفاسي حتى كتب في حقهم ما الصدق والتاريخ منه برآء، راجع ما كتبه حول الترجمانة الكبرى في مجلة البحث العلمي عدد 13 السنة 5 ص162 بتاريخ يناير 1968م والتي نشرناها بعد التحقيق من نسخة ممتازة كتبت في عهد المؤلف وهي خالية من زيادات القوم وقد اعتاد الكثيرون من الذين كانوا يعلمون أن الزياني سجل في حقهم ما عرف من مخازي اعتادوا إما إحراق كتبه أو نسخها والزيادة فيها بإضافة ما يختلقون من المكرمات لابائهم على لسانه، وقد وقفنا على ذلك وفضحناه، مما أدى بآل الفاسي القصري إلى دفع السودي لكتابة ما نشر دون أعتماد على مصدر صحيح،بل على نسخة من الترجمانة نسخت 1316هـ اتخذها وسيلة للطعن في التي كتبت في متم ذي الحجة 1233هـ أي في حياة المؤلف. على أن ما كتبه سليمان الحوات حول السودييين على ما سماه الروضة المقصودة قد بينا في كتابنا التاريخ المفتري عليه أن دافعه شخصي ولا داعي للزيادة في كشف الدوافع للحوات الذي تدخل له السودي عند القاضي الهواري، فأطلق سرحه من السجن بمناسبة عيد المولد النبوي. كما أشار الهواري في كتابه للقاضي السودي، والسبب في ذلك لا داعي لذكره رحم الله سليمان الحوات وعامله بفضله.

من الذين نزحوا من هنا وهناك، ولا أحد يعرف أصولهم، ناهيك وأن المغاربة وعلماء المغاربة في عهود دول البربر، كانوا يكبرون آل البيت ويلحقون بهم ذووا النسب العربي، مما فتح الباب للذين لم يستطيعوا آدعاء الحسنية او الحسينية أن يدعوا العروبة، وكثير منهم بدأ عن طريق الولاء الذي كان مشروعا، فكان لهم الجاه والنفوذ الذي لم يكن لغيرهم، مما أدى بعد التقدم والتقادم وتوفر شرط الحيازة إلى آكتسابهم الصفة الجديدة، رغم أن الناس يعرفونهم ويعرفون أصولهم التي لا علاقة لها بما أصبحوا يعرفون به،

ولقد انتشر هذا بشكل فظيع لو أوردنا له أمثلة لما وسعنا الزمان والمكان، على أن المؤرخين ذوي الشأن من المغاربة لم يفتهم هذا، مثل آبن حزم في الجمهرة وابن خلدون في العبر، وأبو القاسم الزياني في البستان، وكثير من كتبه ولذلك اهتم الدارسون للتاريخ في المغرب على نهج ما سلكه المشارقة الذين وجد بينهم هذا النوع من التاريخ منذ أقدم العصور(37).

بل أصبحت الدراسات في مجال الأنساب من مستلزمات الشرع عند المغاربة كما هي عند غيرهم، لأنها وثيقة الصلة بالحياة الدينية والدنيوية، ذلك أن المسلم ملزم بمعرفة ترجمة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حتى يصح إيمانه، وأن الجهل بذلك لا

---

(37) لقد اسهم العرب في هذا المجال بنصيب هو خير ما يعتزون به، حيث كان منهم: أمثال: دغفل بن حنظلة السدوسي، وقد أدرك النبي صلى الله عليه سلم، وعبيد بن شريه الجرهمي، وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وزيد بن كيس النمري من بني عوف بن سعد، والحارث بن أوس بن الحارث بن هند العدواني من قضاعة، والنسابة البكري، ولسان الحمرة، وهو وقاء بن الأشعر أبو كلاب كان انسب العرب وأعظمهم بصرا، وصحار بن عباس العبدي، وعمرة بن ضمضم، وصالح الحنفي وآسمه عبد الرحمن بن قيس، وعبد الله بن عمرو الكواء وصالح بن عمران الصغدي، وأبو الوليد عيسى بن داب بن يزيد بن بكر، وعوانة بن الحكم، بن عياض بن وزير، بن عبد الحارث الكلبي، وشبيل بن عروة الضبعي ويكنى أبا عمر، وكان أبو بكر(ض) نسابة، وسعيد بن المسيب، وأبو القاسم حماد الراوية بن سابور، بن المبارك، بن عبيد، المتوفى سنة 150هـ 766م، وقبله أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة 151هـ 768م، ولوط بن يحيي بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي، وجده سليم روى عن النبي صلي الله عليه وسلم، وأبو اليقظان سليم بن حفص تـ 190هـ 805م وهشام الكلبي ت 206هـ 821م صاحب كتاب النسب الكبير وهو يحتوي على أنساب القبائل من العدنانية والقحطانية، ومنه نسخ خطية في باريز والإسكوريال وإكسفورد يقول صاحب تاريخ الأدب العربي محمود مصطفى 194/3 ط القاهرة 1934م، والهيثم بن عدى الكوفي، في العصر العباسي ت207هـ 822م، والمدائني 225هـ-839م وعلان الشعوبي والزبير بن بكار، وغيرهم ممن تعرض لهم صاحب الأغاني، راجع هذه التراجم في مختلف المعاجم التي آخترنا ترك أرقامها.

يتم معه الإيمان، وعرف المغرب على غرار ما ظهر بالمشرق في الأحكام السلطانية للماوردي حول الإمامة، دراسات وأبحاث ذات وزن سياسي واجتماعي لعياض اليحصبي476-544هـ 1083-1149م، وابن رشد 520-595/1126-1198م، ومثلهم فعل آبن خلدون وغيره من الذين اعتمدوا الأصول الصحيحة لمصادر التشريع الاسلامي التي خصصت الإمامة العظمى لقريش، خصوصا إذا كان القرشي من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا علمنا أن المذهب الذي ساد في المغرب ولم يقبل المغاربة به بديلا هو مذهب مالك آبن أنس، الذي تعرض من أجل دفاعه عن آل البيت للاذى، أدركنا السبب ومدى قيام الأدارسة بهذه المهمة، بل إن مشكل الخلافة أخذ له دورا في المغرب ومن المرابطين بسبب وجود الأدارسة وقيام غيرهم، وقد أدرك هذه الحقيقة يوسف بن تاشفين الذي آكتفى بالأمير، بل إن بعض الفقهاء لم يقتصر على دراسة نسب آل البيت من الأدارسة كمادة تاريخية، بل أدخلوا عليه الكثير من وسائل الصيانة تخويفا وترهيبا للمندسين والمدعين، كما أحاطوا السليم البين عندهم بكثير من التحليل والتركيز إبعادا للطعون التي يختلقها مرضى النفوس بإسم المساواة في الوقت الذي ما سبق لآل البيت من الأدارسة وغيرهم أنهم آدعوا استعلاء فوق الآخرين(38) كما تناول المغاربة إنتاج

(38) راجع إنتاج القادريين الثلاثة، خصوصا عبد السلام بن الطيب، والحوات، في كتابه السر الظاهر ط حجر 14-15-16-17، وإذا كان ثمة من داء أصاب نفوس بعضهم في المغرب، فإن مصدره ما عرف بالمتصوفة حول شرحهم لقوله تعالى "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، وما أولوه مما أصبح شبه معتقد في زعم بعضهم حسب إملاء محيي الدين بن عربي في الفتوحات، وما نقله الشيخ زروق في القواعد، والنصيحة، وجعله من المعتقدات الواجبة شرعا وهو أن الله "تجاوز عن جميع سيئاتهم بسابق عناية منه لهم"، إذ قال تعالى "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت" (الآية 33 سورة الأحزاب)، فعند المتصوفة ومنهم زروق ان الحكم معلق بالإرادة التي لا تتبدل أحكامها، وهو مذهب الصوفية، كما في شرح المشيشية للشيخ مصطفى البكري، ثم راجع الأشراف لمحمد بن الحاج م خ ص 57. بل حول تلك المبالغات الباهتة، ثم راجع كتاب "تاج الحسن الباهر في أهل النسب الطاهر" م خ نا وفي الخزانة العامة رقم 538 والخزانة الملكية 3355 فهرس ج1، وفيه نسب المؤلف الذي هو الشيخ محمد العربي المدغري الحسني من ذرية عمرو بن الحسن بن يوسف بن علي الشريف نسبه الكاتب بـ "الحسني" راجع فهرس ح.ع ج 234/1 على أنه لا ينكر أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله آصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم" وفي روايات أخرى "فأنا خيركم بيتا وخيركم نسبا "راجع طبقات بن سعد ج1/1، وابن عبد ربه 246/2، ونسيم الرياض للخفاجي 429/1. لكنه صلى الله عليه وسلم قال لابنته فاطمة "ولا أنا إلا أن يتغمد ني الله برحمته". الحديث

ومهما يكن فقد كان للأشراف في المغرب الأقصى من التقدير ما لم يعرف في غيره من أقطار المغرب العربي الكبير، راجع موضوع النقابة في كتابه العز والصولة لابن زيدان ج2/72-113 ط الرباط 1962. مصدر سابق.

المشارقة أنفسهم في مجال الأنساب كمصادر مصعب والمسعودي، والأزرقاني، والسمرقندي، وصححوا ما وقع فيه بعضهم من الخلط بين من عقب ومن لم يعقب من ذرية الحسن السبط، والحسن المثنى، بل أمعنوا في البحث عن أمهاتهم وجميع فروعهم بشكل يدل على عناية خاصة، لم يعرف مثلها في أكثر بلاد الإسلام، الأمر الذي جعل الأدارسة في المغرب لم تندثر أصولهم رغم مرور الزمن وتعاقب الدول وتشتتهم بين القبائل بشكل ألبسهم أحيانا ثوب القبيلة البربرية التي وجدوا بينها، بل أدت كلمة المقرى... يصعب تصحيح نسب سبعة قرون إلى ردود وأبحاث ودراسات أغنت هذا الجانب من التاريخ(39).

وبالتالي فقد عرف مجال الأنساب في المغرب آهتماما لم يقتصر على طائفة الكتاب والعلماء والفقهاء والمؤرخين، بل من الحكام كذلك حتى جعل السلطان إسماعيل ومن بين النقباء مجلسا ضم إليه علية الفقهاء للتحقيق في الأنساب، ومن وجد دخيلا أو مدعيا أبعد، ومنهم من ضرب وعزر ثم طوف به في البلاد، ثم سجن حتى مات، وقد آنقرض عقبه كما يقول الحوات(40)، وقد سجل عبد السلام بن الطيب القادري الكثير من تلك النزاعات التي عرفتها مدينة فاس ومثله فعل الزياني، على أن مجال البادية بإستثناء ناحية الشمال المغربي كما سجل لنا القادري، مجموع خ.ع. 1574 لم يعرف هذا الصراع الذي كان سببه أكثر ما عرفته مدينة فاس مما أدى إلى كثرة المؤلفات في هذا المجال، ذلك لأن مدينة فاس بسبب ما جد فيها من العناصر التي نزحت من الأندلس، بل والمستجدة في الإسلام، أو جد فيها نوعا خاصا من المضايقة لما عرف بينهم باسم البلديين، وهم الذين ذاقوا المرارة بسبب ما كان بينهم من التحاسد والتباغض، وما كان ينسب لهم من أعمال مريبة، وتصرفات يرفضها المجتمع الذي ضايقهم، حتى إن بعضهم الذي ظن أن التقادم يسمح له بآرتداء ما لم يكن له من الثياب، لكن ما كاد يفعل حتى قامت من حوله ضجة الكشف والتشهير، وهو ما لم يعرفه التاريخ، سواء في البوادي أو في سجلماسة حيث تفرع الحسنيون من سلالة الحسن بن قاسم الداخل وهم أبناء عمومة

(39) راجع الحوات المصدر السابق ص15-20 وبتفصيل أكثر في د. الإسلامية 13/266-279.

(40) السر الظاهر الطبعة الحجرية ومخطوط خ.ع. 1574ك ص 220-278.

الأدارسة الذين يلتقون وإياهم في عبد الله الكامل، بل إن جدلا طويلا قام حول نسبة السعديين(41) الذين هم في نظرنا وكما تحقق لنا يرجعون أصلا إلى الآدارسة(42). وكما أثبت البحث ذلك.

وقد ظهرت كتابات كثيرة في مجال القذف والإثبات مما أدى إلى التأليف المقصود في مجال الأسر، من ذلك ما كتبه عبد السلام بن الطيب القادري 1058–1110هـ/1648–1698م والذي له 1–الدر السني في بعض من بفاس، من أهل النسب الحسني، وفيه أغفل الكلام عن السعديين(43) 2– العرف العاطر، فيمن بفاس من أبناء الشيخ عبد القادر 3– مطلع الإشراق في الاشراف الواردين من العراق(44) وهم من سلالة إبراهيم المرتضى، بن موسى الكاظم، وللوليد العراقي المتوفى 1263هـ/ 1849م، كتاب في نسب العراقيين، سماه "الدر النفيس فيمن بفاس من بني محمد بن نفيس" وللمسناوي محمد بن أحمد الدلائي المتوفى 1137هـ/ 1721م كتاب في القادريين سماه "نتيجة التحقيق في بعض أهل الشرف الوثيق"(45) وللطاهري حمدون 1191هـ /1777ك كتاب في الوزانيين سماه تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وازان(46)، وللنقيب سليمان الحوات الشفشاوني كتاب في القادريين سماه "السر الظاهر" وآخر في الدباغيين "قرة العيون

---

(41) راجع نزهة الحادي لليفراني ص3 ط 1888م، والزياني في الترجمانة المصدر السابق.

(42) سنتناول هذا الموضوع بتفصيل في كلامنا عن السعديين.

(43) ط حجر 1303 و1308هـ.

(44) لقد عرفت أسرة العراقيين بكثرة ما أنجبت من العلماء، وقد تعرضوا للأذى بسبب ذلك ولما كان لهم من أثر على ظهور بعض ذوى المركب والأذناب من الاستعماريين كآل عبد الله الفاسي القصري، ثم عبد الحي الكتاني، كما تشهد مذكرات عبد الحفيظ الفاسي مخطوطتنا، وأن الكتاني قال في تقريره للاقامة العامة الفرنسية وبالحرف يوم قوبل بالرفض من دائرة علماء القرويين، والسبب كثرة أصوات العراقيين، في هذه الفترة وذلك في فاتح ذي القعدة 1340هـ "إن القرويين أصبحت عراقية"، وأكثر من الوشاية ضدهم لدى إدارة الحماية، أما أسباب نقمة الفاسيين من آل القصري فقد أشرنا إليها في كتابنا التاريخ المفتري عليه في المغرب 73–74 ط 1969 ، وخصوصا ما ورد في قصة البلديين لعبد الرحمن الفاسي والتي ألسقوها بأبي القاسم الزياني.

(45) نشر بتونس 1296هـ، وبفاس 1309هـ وإذا كان هذا هو نفس رجالات العلم مع القادرين كذلك وناهيك بإكبار الدلائي، فإنهم أيضا لا قوا من آل الفاسي الكيد والدس زمن ظهور العلويين، راجع المصدر السابق: التاريخ المفتري عليه في المغرب، وما فيه عن وشاية عبد الرحمن الفاسي ضد اليوسي والدلائيين أصهار القادريين.

(46)ط. 1321هـ.

في الشرفاء القاطنين بالعيون"(47)، وللشيخ محمد بن المدني گنون كتاب سماه "الدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة"(48) ولأحمد بن إدريس الفضيلي العلوي ت1316هـ/1898م كتاب "الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية(49)، "ومنتهى النقول ومشتهى العقول" لعلي السوسي م.خ.ع 633.د و2125د. وإذا ما كتب مؤرخ في غير آل البيت بالمغرب لأسباب، فإنه كثيرا ما يتعرض للنقد والتجريح، خصوصا إذا نسبهم بدافع مشبوه كما حصل لابن خلدون وأبو زكريا الحضرمي المتوفى بتلمسان 780هـ/1378م، والذي قتله أبو تاشفين الثاني، وهو صاحب بغية الرواد في أخبار ملوك بني عبد الواد، والتنسي تلميذ آبن مرزوق المتوفى 899هـ/1493م، وهو صاحب

---

(47) حي من أحياء فاس.

(48) وللفاسيين أيضا مع هذه الأسرة جولات في مجال الحسد، أنتهت الى كلام يحمل في طياته الدافع المكشوف لأن مواقف الشيخ محمد گنون أيام السلطان المولى الحسن مما يجب أن تدون ضمن مواقف كرام العلماء، وكانت معاملة آل الفاسي للگنونيين لا دفاعا عن فكرة نبيلة، وإنما لغرض مكشوف سببه مواقف گنون ضد شعوذة الفاسيين والكتانيين الذين جمع بينهم عبد الحفيظ الفاسي، راجع ما كتبه حولهم في "رياض الجنة" ج2/ ص168 ط فاس 1350هـ، حين قال وبالحرف "آعترض بعضهم على ما ذكرته من ترجمة المذكور من نسب أولاد گنون وأنهم ليسوا من الأشراف، وقال إنني تجازفت في ذلك، وأغفلت ما بيدهم من الرسوم القديمة، وهو اعتراض لا سبب له الا عدم الإنصاف وعدم تأييد الحق، وليس ذلك من شأن أهل العلم، والحال أنني، ما تجازفت، بل تكلمت بالعلم وأوردت الحجة الصحيحة حسبما يعترف بذلك من يقف عليه من أهل العلم الذين لا غرض لهم الخ". على أن الذي جر عبد الحفيظ الاستعماري الخائن الجهول المغرض الى ما زعم ضد آل گنون هو ما أورده علي السوسي المتوفى 19 جمادى الثاني 1311هـ بلا سند في كتابه حول الأنساب "منتهى النقول ومشتهى العقول"، حيث قال: إن الگنونيين من أبناء عمر بن إدريس، وذلك بقوله:

الشاذليون والحموديون ... بعمر الإدريسي لاحقون
ومثلهم حقا بنو گنون ... وفي بني مسار ساكنون
ومن بفاس عندهم ملموز ... والله أعلم بمن يفوز؟

راجع م.خ.ع/633 د 2125.

هذا مع العلم أن محمد گانون الذي ينتسب إليه آل گنون هو ابن قاسم بن ادريس، وليس ابن عمر مما يستدل به على عدم اعتمادنا ما أورده علي السوسي الذي لم يتعرف عليه الفاسي. ويعود عبد الحفيظ هذا حقيرا ذليلا فيكتب "تحت عنوان" إستنزال السكينة الرحمانية بالتحديث بالأربعين البلدانية" ط 1373هـ 1953م اي بعد 22 سنة ثم يضع الكتاب بين يدي عبد الله كنون ليكتب له التقديم فيسميه "تقديم العلامة الكبير السيد عبد الله گنون الحسني" ط المهدية تطوان، ثم راجع "الشرف المصون لآل گنون" لمحمد حشلاف الخ. وجمهرة ابن حزم ص46/ط مصر 1971. وهو الذي قال: إن گنون بالبربرية معناها القمر.

(49) ط. حجر موسع.

كتاب "الدر والعقيان في شرف بني زيان"(50) الذين نسبهم لمحمد بن سليمان، هذا رغم أن فرع زيان من بني عبد الواد هم أبناء عمومة آل عبد الحق من بني مرين الزناتيين، وأما بنو زيان الأشراف فهم الفرع الثالث من الواد غيريين أحفاد عبد الرحمن الشريف الشهير بفجيج، كما سنرى بعد، إذ فروعهم أبناء جمال الدين، وخلف الله، وزيان، ولا وجه للمقارنة.

ولقد آخترت أن أضع جدولا يوضح أنساب الحسنيين الأدارسة وأصولهم، وأما عن العلويين الحسنيين بسجلماسة، فهم بتفصيل في كتاب الأنوار الحسنية لأحمد بن عبد العزيز الذي حققناه ونشر عام 1966م، وسنتعرض لهم كذلك بعد، وسأتابع ذكر الأدارسة عبر الخريطة المغربية لنعرف كيف توزعوا بين قبائل المغرب، ولذلك كانت مهمتهم من أكرم وأنبل ما قامت به أسرة من آل البيت في شعب، ولولاها وحسب معطيات التاريخ والواقع، لكان المصير في المغرب غير المصير والناس غير الناس دينا ودنيا في هذا البلد.

أما آختياري لطريقة الرسم فذلك آقتناعا بما أورده آبن خلدون حول فكرة رسم الأنساب، وقد تبعه في ذلك أبو القاسم الزياني، وهي فكرة بحق ينطبق عليها ما قاله المؤرخ العظيم "وحتى تتصل الأنساب عمودا وفروعا بأصلها الجامع لها، ظاهرة للعيان، في صفحة واحدة، فترسم في الخيال دفعة، ويكون ذلك أعون على تصور الأنساب وتشعبها، فإن الصور الحسية أقرب الي الإرتسام في الخيال من المعاني المتعلقة.

ومهما يكن مما عرف للمغاربة من تقدير لآل البيت فإنهم قدروا الذي كان بحق يمثلهم خلقا وسلوكا، وما لم يكن فإنه لم يحظ منهم بتقدير، بل هم الذين صنفوهم حيث قالوا: الأشراف أحد إثنين: لا حق أو ماحق. أي لاحق بالنسب، أو ماحق له إذا كان خلقه وسلوكه مما لا يليق بالمنتسب لآل البيت، وهذا لم يعرف من ذوي النسب السليم أبدا.

---

(50) خ.ع. 453د-944ق.

الفصل الخمسون

أصول الحسنيين الأدارسة وفروعهم بالمشرق والمغرب

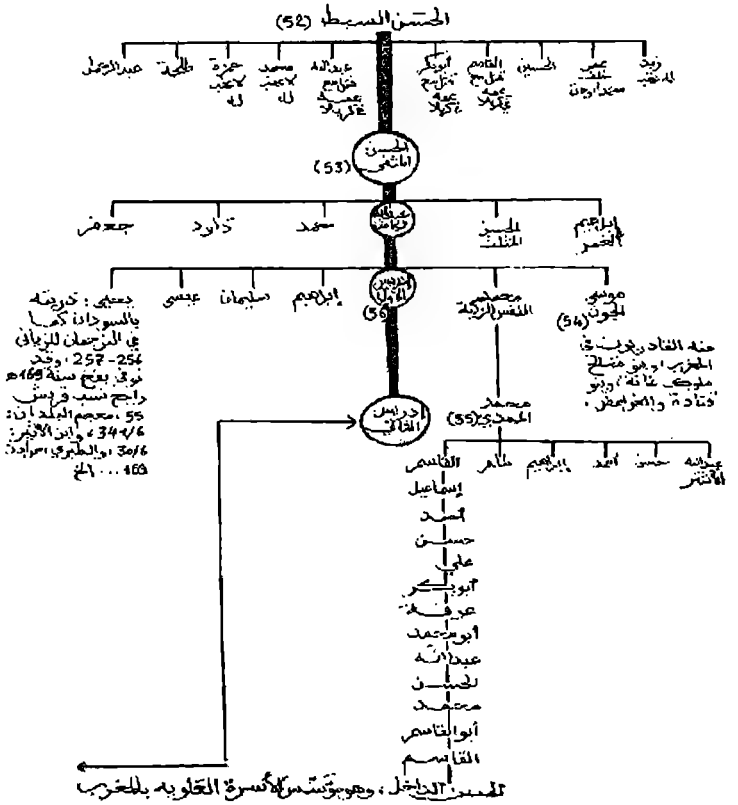

(52) يقول الزياني في تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب مخطوط ص1 "إن عليا بن ابي طالب خلف من الذكور 21 على المشهور، ولم يعقب منهم الا خمسة، والذي يعنينا هنا هو الحسن بن علي يقال مصعب = إنه ولد بالمدينة في النصف من رمضان وقال غيره في شعبان سنة 3هـ 624م وسماه جده صلى الله عليه وسلم، وكان شبيها به، وتوفي بسم سقته إياه زوجته التي مناها معاوية بن أبي سفيان بالزواج من اليزيد بن معاوية في 5 ربيع الأول سنة 51هـ 671م، وتولى الخلافة لمدة ثلاثة أشهر و3 أيام. راجع مادة شريف ب د. الإسلامية 13/266–282 وما فيها من مصادر، ثم الحوات وفيه 5 أشهر و20 يوما.

(53) لقبه النسابون بالمثنى، أمه خولة بنت منظور بن زيان الفزارية 97هـ/ 715م. =

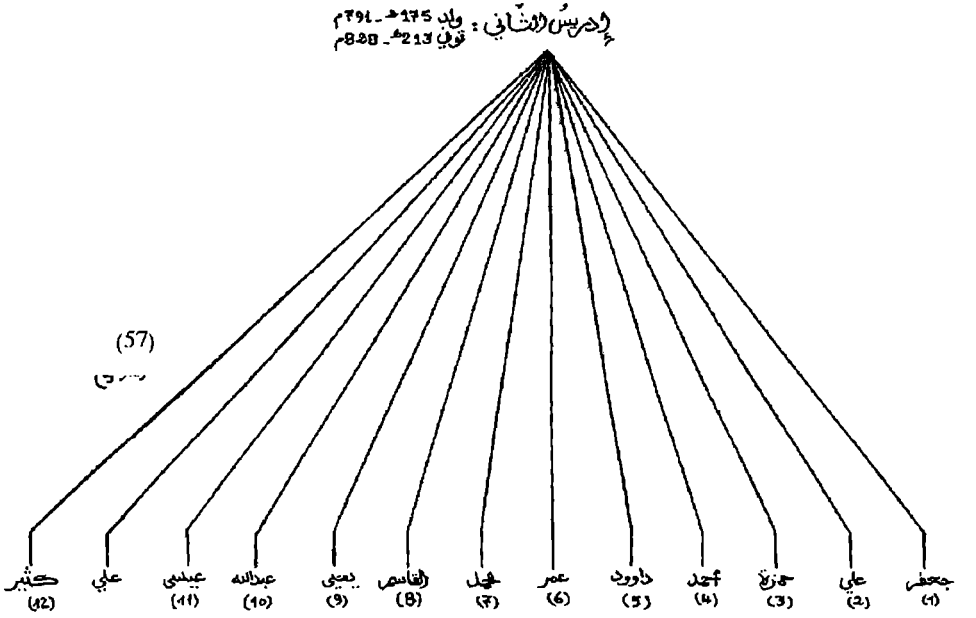

(54) جد القادرين، وبني صالح ملوك غانة، راجع الترجمان للزياني 287، والسر الظاهر للحوات وقد أخطأ حين نسب العلويين من أبناء علي الشريف إليه، راجع الأنوار الحسنية لأحمد بن عبد العزيز ط 1968م، والترجمان، والترجمانه، والبستان م.خ.ع. وموسى ومحمد النفس الزكية وابراهيم أشقاء، أمهم هند الأسدية بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة الصحابي الجليل بن الأسود بن المطلب.

(55) راجع مصادر التاريخ العربي كالذهبي والقلقشندي، والمقدسي، وغيرهم ثم الترجمان المعرب ص256 خ.ع. 658د.

(56) إدريس، وسليمان، وعيسى أشقاء أمهم عاتكة المخزومية بنت عبد الملك بن الحارث بن خالد بن العاص، بن هشام، أما عيسى فقد مات صغيرا وأما يحيى فقد تعرضنا له قبل مع العباسيين زمن الرشيد، الذي سمه بعد أمان، وأولاده بكثرة يوجدون في السودان ويعرفون بـ"الكامليين، ومنهم سليمان الجزولي، راجع المصادر السابقة الدرر البهية 200/2، وأما إبراهيم الغمر، راجع البستاني 222/1. وأما سليمان فقد مات في وقعة فج، ولم يعقب غير ولد واحد قدم المغرب وخلف عشرة كما سنرى، راجع العبر 23/4 الى 50، وروضة النسرين خ نا، والترجمان للزياني256، وحاضر العالم الإسلامي 1315، وزاد بعضهم جعفر في ذرية عبد الله الكامل، وهو عند كبار المؤرخين غير معروف، وقد نسبوا له محمد بن سليمان الجزولي الحسني رضي الله عنه كما أشرنا، راجع السر الطاهر ط حجر ص127.

(57-1) مات صغيرا

(57-2) مات صغيرا

(57-3) قيل تولى وليلي وأعمالها

(57-4) أحمد تولى حكم مدينة مكناس وبلاد فازاز وتادلا، أولا، ثم حول الى الهبط مما أدى به إلى الثورة، وليس هو الذي فر إلى جبال زواوة بل حفيد محمد بن إدريس كما عند المقري ،محمد بن الطالب ج م ع. كتاب الاشراف 653د ص 54ل شعبان راجع رقم (4) بعد. =

إن فروع الأدارسة في مختلف بلاد المغرب يقدرون بالعشرات، أما شعبهم أو أصولهم حسب الذي في رسوم الدولة ووثائقها منذ عهد السلطان إسماعيل الذي حقق تلك الشعب مما وجد في سجلات أحمد المنصور السعدي، فقد عدت بثمانية شعب كأصول هي كما يلي وحسب المدون في وثائق السلطان محمد بن عبد الله المستمدة مما ذكر، والتي أوردها صاحب الاتحاف ابن زيدان ج 239/3 وذلك بمناسبة الإنعام عليهم بمتروك المنقطعين بفاس ليقسم على الادارسة المنصوص عليهم فيما يلي:

1) أبناء القاسم بن إدريس، وعدد شعبهم، والجوطيون على عدد شعبهم، ومنهم

= (5-57) داوود تولى حكم تازة وقبائل تسول ومكناسة وغياته وتلمسان وخلف من الأبناء: محمد وأحمد والحسن، والقاسم، وادريس، ومنه شعب 14 راجع رقم7 بعد

(6-57) كان عمر الى جانب وزارته لاخيه محمد يتولى حكم تيجيساس وتارغة، وصنهاجة، وبها توفي ثم نقل إلى فاس، وخلف من الأبناء 4 محمد وعلي، جد الحموديين بالأندلس، وادريس وعبد الله، ومنه شعب اربعة راجع رقم 5 بعد.

(7-57) هو الذي خلف والده وحكم فاسا من 213 إلى 221 828-836م وخلف من الأبناء 4 تولى الحكم بعده ولده علي وسنه سبع سنوات، وهو من رقية بنت إسماعيل الأزدي، ثم خلفه غيره وهو عبد الله، ويحيى بن محمد، وأحمد، وابراهيم، وعمران، وفي عهد يحيى الذي ولى أخواله الحكم واشتغل بنفسه فبدا استقلال الأعمام وفروعه 12 راجع رقم3 بعد.

(8-57) تولى حكم طنجة وسبتة والبصرة وقلعة حجر النسر التي بناها بعد حفيده محمد، بن ابراهيم، بن محمد، بن القاسم وأصيله، لكنه ثار على أخيه محمد فتولى ردعه عمر في ألف فارس من زناتة وخلف القاسم 3 من الابناء كان منهم خلف كثير نفرد لهم مجالا أوسع بعد، فروعه كثيرة راجع رقم (4).

(9-57) تولى يحيى حكم البصرة وأصيلا، ثم حول إلى سلجماسة ودرعة وخلف يقول الزياني زيادة على إدريس علي، وعبد الرحمان، وعبد الله، ويحى، ت 257 ويقول صاحب الدرر 200/2 ان الذين في الأطلس المتوسط ، تونفيت من أبنائه يرجعون الى يحيى بن عبد الله الكامل، وهو خطأ، وقيل منه آل يحيى بد مئات وهو خطأ، من دريته الزكاريون أهل حاحة.

(10-57) عبد الله حكم أغمات وأريكة ووادي نفيس من بلاد المصامدة وسوس، حيث توجد ذريته بكثرة، وهو جد السغروشنيين والمنجريين، وموسى بن علي دفين العباد، ومشيد مدينة تامدلت راجع الروض المعطارج/اص138م خ نا 201 وفيها أنه توفي بـ إكلي وبها قبره ومنه شعب كثيرة راجع رقم"6" بعد.

(11-57) تولى حكم شالة وأزمور وتامسنا حيث برغواطة وله ذرية في الأطلس المتوسط كما سنرى في أيت احديدو، وغيرها ومنه شعب راجع رقم "2" بعد.

(12-57) قال الزياني في الترجمان إليه ينسب الكثيرون بفاس، ولم يذكره مصعب ولا ابن خلدون ولا ابن حزم، من أبناء إدريس: إدريس الثالث، وعبيد الله، والحسن، والحسين الجمهرة 49 ط المعارف بمصر 1971، ثم راجع الترجمان/ المصدر السابق ص351، وهناك من ذكر أبا بكر وسليمان وهو علي السوسي في منظومته منتهى النقول، مصدر سابق.

الشبيهيون، والغالبيون ولاة ضريح إدريس الأكبر، والطاهريون، والطالبيون، والعمرانيون، ومنهم بنو إدريس ولاة ضريح إدريس "الثاني" والفرجيون، والغالبيون، وأولاد آبن طاهر، وأبناء عمهم أهل حمام الجديد بمكناس، والكنونيون، وأولاد أبي العيش، على عدد شعبهم، والداوديون، وأما أولاد آبن العياشي، ثم أولاد الشماع فقد آنقرضوا، وأولاد الشدادي، وأهل المصدر، والوكيليون أولاد أبو وكيل السجاوتي أهل زيز، والزكاريون، وأولاد بوسرغين، وهناك العمرانيون بجبال غمارة، وهم من أبناء عبد الله بن إدريس وليسوا من العمرانيين الجوطيين، فهم أبناء عمران بن يزيد بن صفوان بن خالد بن يزيد بن عبد الله بن إدريس.

2)ومن بني عيسى بن إدريس(58) ستة شعب: الدباغيون، والمناليون يعرفون بالزياديين، بعضهم بـ تمنطيط بصحراء توات، وقد حرفها في الاتحاف 239/3 إلى "تخطيط"، وهم على عدد شعبهم، والبوزيديون بتلمسان، وفاس، وزرهون منهم أولاد بن المجذوب، واليعقوبيون، والشنويون، والعرهبيون، كما سنرى وقد حرفهم صاحب الاتحاف في الرقم أعلاه إلى "المرهبيون"، ثم زاد معلقا بقوله "انقرضوا" وهو خطأ، فهم بفجيج، ثم بايت احديدو ابناء حدو بن يحيى بن عيسى بن إدريس.

3) ومن الأدارسة أولاد محمد بن إدريس وفروعهم 11 منهم العلميون على عدد شعبهم، والودغيريون وحتى أولاد النيار، وابن الطائع، وأولاد آبن الحسن المراكشي، وأولاد المسواك، وأولاد بن عدو، وأولاد محمد بن هاشم، وأولاد بني عمرو، والحموميون ببني زروال، والشبانيون والكثيريون.

4) أولاد أحمد بن إدريس وعددهم شعبتان: الدرقاويون، وأولاد گنون أهل الزواقين ببوبريح بني زروال وهم غير الگنونيين أبناء القاسم.

5) أولاد عمر آبن إدريس وعددهم أربعة شعب، أولاد المرى وأولاد الحصال،

---

(58) هو دفين آيت عتاب من بلاد تادلة، ومن شرفاء آيت عتاب من الأدارسة من سكن غرناطة، من جزيرة الأندلس، ومنهم الشريف الغرناطي شارح مقصورة حازم، والخزرجي كانوا يدعون بالسلاويين لما قدموا من سلا إلى فاس، وبعضهم بمراكش، وبعضهم بسوس الأقصى بمنالة، ويقال لها أيضا إلا لة أي النسبة إلالى، وهي غير الوالالي الذين هم من قريش اختلطوا بايت عطا كما عند أحمد ابن يعقوب الوالالي كما سبق.

والبلغيثيون، وهم غير العلويين أولاد عبد الواحد بن الشريف المكنى أبو الغيث، والحموديون القائمون بالأندلس بعد المائة الرابعة، ومن أولاد عمر بن إدريس، أبو الحسن الشاذلي، كما حرره القصار، وصاحب الدر السني، راجع مرآة المحاسن "178 ط حجر1324"، والقصار هذا هو غير القاضي أحمد بن علي ابن عبد الرحمان الفشتالي المتوفى يوم الجمعة 29 ربيع الأول عام 802هـ بل المتوفى 1004 كما سبق.

6) ثم أبناء عبد الله بن إدريس وشعبهم متعددة منهم السبعيون أهل تلسينت بالأطلس المتوسط، ومنهم العمرانيون، بالقبائل الهبطية، وهم من ولد عمران بن زيد، بن خالد، بن صفوان، بن يزيد، بن عبد الله، بن إدريس وفيهم الدخلاء يقول صاحب الاتحاف 240/3 ت2، ومنهم أهل الفحص، وقبيلة بني شداد، وتلنبوط وهم أولاد النجار، وأولاد التبر، والمنصوريون شعبتان، وأولاد بن تاسعدنت، وأولاد القريب والمناويون، والمغاريون، وأولاد بوقشابة.

7) ومنهم أبناء داود وعدد شعبهم 14، منهم أولاد أبي عثمان، والد باغيون، والقصاريون والتونسيون.

8) ثم أولاد يحيى بن إدريس، وهم الزكاريون أهل حاحة.

ومن أولاد موسى الجون القادريون، والمومنانيون، والزيدانيون، من بني محمد بن عبد الله الكامل، "ومن بني الحسن المثلث الجزوليون أهل سملالة" وأمرنا نجلنا المذكور – يقصد المامون– أن يمكنه بيد النقيب المذكور– يعني رشيد الدرقاوي ليخرج به من الظلمات الى النور واياك ممن شرفه كشرف أشبار الذي آدعى الشرف، وكشرف بني فارس، ولم يثبت لهما نسب(59).

وهكذا فقد سجل لنا السلطان محمد بن عبد الله شعب الأدارسة حين أشار في الظهير الذي بعث به إلى ولده المامون، خليفته بفاس سنة 1201هـ 1786م وأنه يقول: إعتمد فيما تعرض له من فروع الأدارسة على ما كان في ديوان جده السلطان إسماعيل، حيث قال: "إن النسب المقطوع به في غربنا من غير شك ولا ريب، هو ما أدخل في دفتر مولانا الجد رحمه الله، بعد ما تحقق أمره، لأن ملكه آتبع القرى والمداشر والحواضر، وشهدت

(59) راجع كتاب العز والصولة 72 و113. مصدر سابق.

إدريس الثاني وبنوه في الرواية الثانية(60)

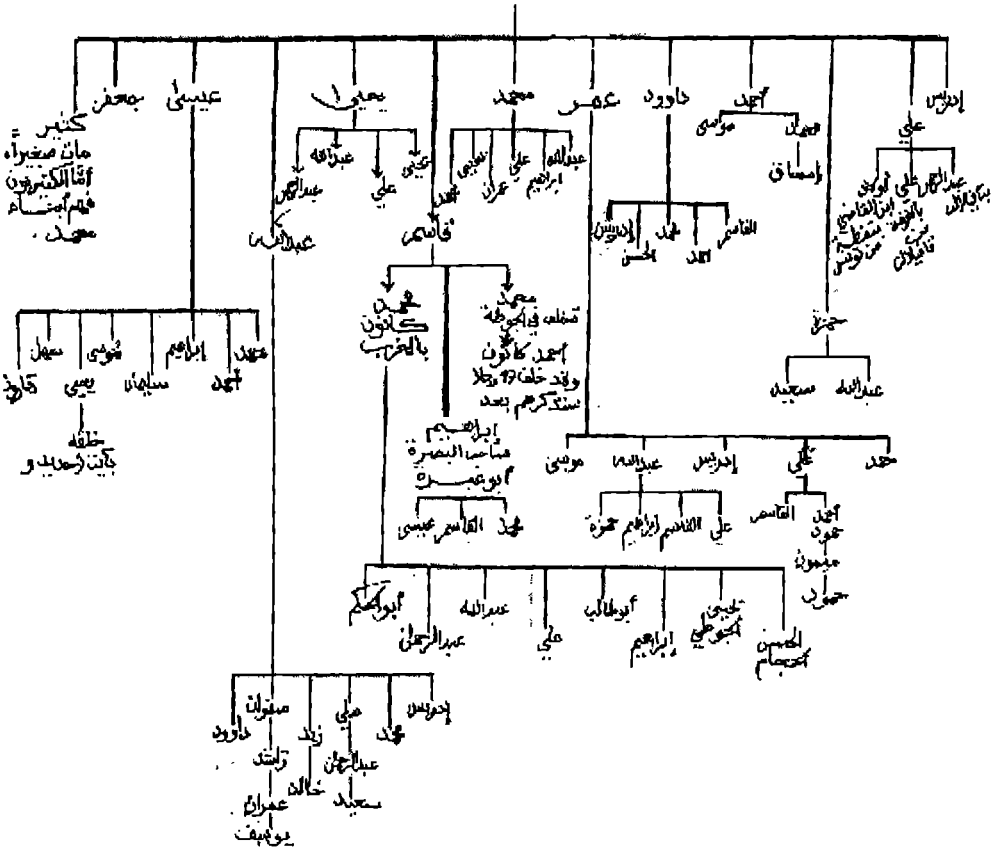

(60) راجع الأسر الحاكمة لزامباور 102/1، والجمهرة لابن حزم 49، والعبر لابن خلدون، والبيان لابن عذارى، والترجمان للزياني 257 واللآلئ المستضيئة، 31، وكتاب الأشراف لمحمد بن الطالب بن الحاج خ.ع.ص.54: 653د. والدرر البهية للفضيلي 200/2، وقد زاد ابن حزم على العدد الوارد لأبناء إدريس الثاني ثلاثة وهم الحسن والحسين وعبيد الله، وقال الزياني عن كثير: إليه ينسب الكثيريون بفاس، ولم يذكره مصعب ولا ابن خلدون ولا ابن حزم وقد ذكر صاحب اللالئ ذريته، أما عند ابن قنفذ، فهم إثنى عشر فقط (ذرية إدريس الثاني).

لهم به الكافة والجمهور، وحقق من دفتر أبي العباس المنصور، وبحث فيه أولا وثانيا فإذا هو مشهور، وبوجوده رحمه الله انقطعت شوكة أهل الظلم والجور، والجرأة والعناد، بالكذب على سيد العباد، وطالع ما سطر بالطرة يمنته" الخطاب موجه من السلطان محمد بن عبد الله لولده وخليفته بناس المأمون، حسبما احتوت عليه ترجمة المشاهير في الدفتر الشريف الذين صحت نسبتهم من بني إدريس، وعددهم ثمانية قبائل، على حسب ما رسم أسفلها من الشعب المشاهير، فأولهم بنو القاسم بن إدريس، وآخرهم بنو أخيه يحيى بن إدريس، ثم بنو أعمامهم بنو عبد الله الكامل، إلا أبناء عمنا أخرناهم عنهم، ليلا يصابوا منهم أو يصابوا منا، وأما الحسينيون فلا يحتاج إثباتهم في هذا الظهير الكريم، وأمرهم معلوم بينهم، ونحن وإياهم في ظل الله وظل جدهم... فعلى هذا العد أخرجت صلة مولانا الجد رحمه الله، إذ هو المقطوع به. ولا يجمل لنا أن نهمل ما أظهره الله بالمواجب الشرعية، والظهائر السلطانية، لأن الملوك الأقدمين كانوا لا يجددون جديدا إلا بعد شهادة أهل بلادهم لهم بتحقيق نسبهم، ولذلك أضربنا عن هذا الأمر صفحا وطوينا دون الكلام فيه كشحا، وخرجنا من عهدة ذلك، وغضضنا الطرف عما هنالك، ووكلنا النظر في أمر المستترين لعامة كل بلد، وإليهم أسند الأمر في ميز الشريف من المتشرف، كما فعله سيدنا الجد رحمه الله، فعلى هذا يكون الأمل، والله يتقبل العمل، وبعد مطالعتك إياه، طالع عليه الفقيه المذكور، ومكنه للشريف الاجل الناصح الأكمل مولاي الرشيد بن عبد الهادي بن عبد النبي، الدرقاوي، الحسني، فقد وليناه خطة النقابة، والبحث في شؤونها، وشروطها، وأن يجد ويجتهد في الحواضر والقرى وأن يأخذ ما هو لجانبها معروف، وعلى خطتها موقوف، وعليه بتقوى الله في سره ونجواه، ولا تأخذه في الله لومة لائم والسلام، وفي سابع وعشري جمادى الأخيرة عام واحد ومائتين وألف(61).

إن تفصيلنا لهم قبل توزيع أبناء إدريس بن إدريس على الخريطة المغربية ارتأينا أن نبداه بمحمد إبن إدريس وأبنائه ثم نتابعه بمن بعده، وهكذا نجد أن محمد بن إدريس الذي تولى حكم فاس من 213 إلى 221هـ خلف من الأبناء خمسة هم: علي الذي بويع

(61) راجع كتاب الاتحاف لابن زيدان 238/3.

وحول النقابة وديوان الأشراف في عهد السلطان إسماعيل راجع العز والصولة ج79/2-114. مصدر سابق.

وسنه سبع سنوات، وقد دام حكمه من 221 إلى 234هـ وأمه رقية بنت إسماعيل الأزدي، أما إخوة علي، فهم يحيى، وأحمد وإبراهيم وعمران وعبد الله، وفي عهد يحيى الذي ولي أخواله الحكم إلى جانبه، واشتغل بنفسه بدأ آستقلال الأعمام بمناطق حكمهم مما نشأ عنه ما عرفت الدولة من ضعف كما سبق.

أما القاسم وخلفه أكثر عددا وانتشارا، فقد خلف ثلاثة من الأبناء هم: محمد صاحب الجوطة، ومنه أحمد كانون، ولما لهذا الشريف من كثرة الأبناء كان لأكثرهم دوره في حياة المغرب السياسية، إخترنا أن نضع لهم جدولا على الطريقة التي سبقت الإشارة الى رجحانها.

ولقد آنتشرت ذرية أحمد كانون بن محمد بن قاسم بن إدريس في مختلف جهات المغرب، من الشمال إلى وادي زيز، كما سنرى، وإذا كان القاسم خليفة لأخيه ببلاد هسكورة، وفازاز، فإنهم بلا شك آنطلقوا من هناك في كل الاتجاهات، كما آنطلق أحمد نفسه إلى الصحراء، ثم آنتقل أبناؤه بعد الى بني مسارة، وتطوان، ودشرة الكوف، وفاس، حيث يعرفون فيها بالزواقيين، أما الجد الجامع لهم من الخلف أي للكنونيين، فهو

كنون بن عمران، بن عبد الرحمان، بن سليمان، بن الحسن، بن عمران، بن محمد، بن أحمد كنون بن محمد بن قاسم، بن إدريس الثاني بن إدريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أحمد كانون بن قاسم بن إدريس

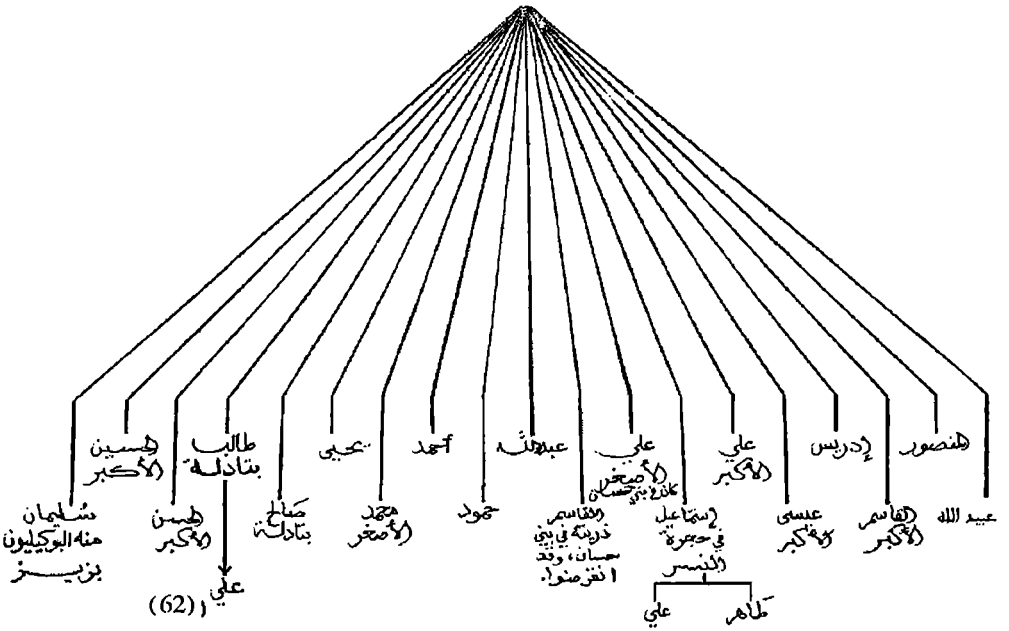

(62) وعلي هذا هو جد الكانوني صاحب كتاب الخمول، وهو يعقوب بن يوسف بن علي بن الحسن الأعور المذكور بتادلة وفاس، ومنهم أولاد أبو العيش بإشبيلية، وهم أولاد علي بن القاسم بن إدريس، ومنهم أمير الجيش بسبتة أبو الفضل، وبالبصرة أولاد الحسين بن محمد بن إبراهيم بن القاسم، الذين انقرض ملكهم سنة 375هـ/985م كما سبق وكلمة گنون قال عنها ابن حزم كلمة بربرية معناها القمر: الجمهرة 49 ط 1971 دار المعارف مصر، وفيها رفع أبناء أحمد گنون إلى واحد وعشرين، وفي تعليق على ظهير للسلطان محمد بن عبد الله أورده صاحب الإتحاف ج240/3 لم يزد على أن جعلهم أي أبناء أحمد بن إدريس في فاس شعبتان الدرقاويون، وأولاد گنون أهل الزواقين كما سبق رقم 4 أعلاه. وهو عم لهذا الذي هو أحمد كانون بن محمد بن قاسم بن إدريس.

ولمحمد بن القاسم أخوين هما: إبراهيم صاحب البصرة، ومحمد كانون بن القاسم، ولمحمد هذا كذلك كثير من الأولاد أما ابناء إدريس وحسب المشهور من خلفهم فهم كما يلي:

---

(63) ابن عذارى 1/211 والترجمان 256-257 م خ ع. 658د.

(64) اقتصر الزياني على الثلاثة ص257 وزاد غيره عبد الرحمان وأما الفضيلي فقد وقع في خلط حين نسب أبناءه بالأطلس المتوسط "بتونفيت" إلى يحيى بن عبد الله الكامل الدرر 200/2 ومع ذلك قال إن له أكثر من الأبناء مع أن غيره ذكر من ذريته أيت يحيى بد منات وغيرهم كما سنرى.

(65) لا أساس لما ورد عند السيد حشلاف في كتابه سلسلة الأصول الجزائرية والمطبوع 1929م بالمطبعة التونسية ص75 حيث نسب الكانونيين إلى أحمد بن إدريس كما عند المقري، ومحمد الطالب بن الحاج في =

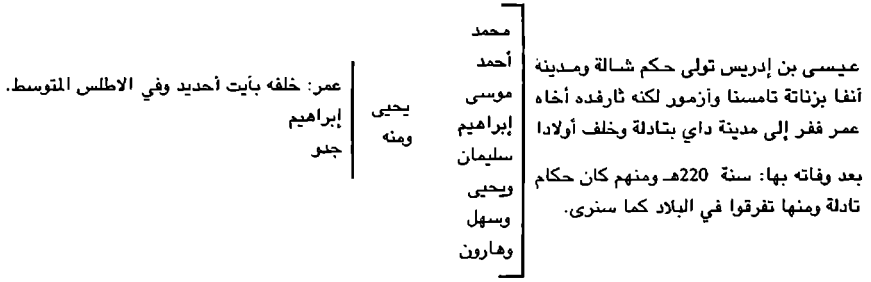

= كتاب الأشراف خ.م 653د ص54 وهو الصحيح.

(66) الزياني المصدر السابق 257.

(67) وسنرى بعد أن السعديين من سلالة سعيد بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل.

(68) راجع تعليق (471–ج 1) قبل على أننا وجدنا ما يؤكد رواية صاحب اللآلئ وأن علي بن إدريس خلف عبد الرحمان وعلي، كما عند الزياني وأن أولاد عبد الرحمان يوجدون بتافيلالت ومعهم الوادغيريين بقصرهم من الغرفة راجع الترجمان 257.

الفصل الواحد والخمسون

بقية فروع الأدارسة والسليمانيين وغيرهم من الحسنيين والحسينيين بالمغرب

إننا لو أردنا أن نستقصى أصول وفروع البيوتات التي سنتعرض لذكرها من الأدارسة لما وسعنا مؤلف خاص شبيه بما فعل صاحب الدرر الفضيلي، وابن الحاج في كتابه الاشراف وغيرهما، لكننا آخترنا أن نتعرض لبيوتات الأدارسة حسب الطريقة التي أشرنا إليها، وذلك حتى نؤكد ما سبق من القول أن توزيعهم بالمغرب أدى أكبر خدمة للدين والمجتمع، ولولاهم لما قدر للمغرب المسلم العربي أن يكون كما عرفه التاريخ والناس في القرون الخوالي، فالأدارسة هم الذين مكنوا لروح الإسلام وثقافة الإسلام ولغة حملة رسالة الإسلام، حتى أنهم في سبيل ذلك دفع بعضهم ضريبة غالية جدا تمثلت في شتاتهم، بل شتات العائلة الواحدة منهم بشكل لم يعرف لغيرهم، على أنه مما يزيد هذه الأسرة عظمة وإكبارا هو أنها لم تفقد أصالتها وإن فقدت لغتها في جهات مختلفة من جهات المغرب.

ولنبدأ بال علي بن عمرو، بن إدريس الذين يعرفون بالصغر شنيين أوآل السبع، ولقد آخترت أن أبدأ بهم إكراما للمجاهد العظيم، والعالم الكبير، أحمد بن محمد، بن الحسن السبعي(69) رحمه الله، ولأنهم كما سنرى أدوا خدمة كبيرة للدين في هذا البلد.

---

(69) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد فتحا بن محمد، بن أبي القاسم بن محمد السبع، الذي حارب الاستعمار الفرنسي أكثر من 35 سنة منذ ظهرت طلائعه بأرض توات الى سنة 1916م حين غلب على أمره بعد معركة خاضها ضده الطيران بشدة كما سنرى بعد حين كلامنا عن المقاومة من خلال الوثائق، وقد كتب عنه الفرنسيون كثيرا مثل فوانو في الملاحم المغربية، وهنري دي بوردو حول بورنازيل وغيرهما كما سنرى بعد.

ولهذا البطل العظيم تآليف متعددة ومنظومات كثيرة في الفقه والنحو، ومنظومته الله الصمد" التي وضع عليها شرحا سماه "فتح الله المعتمد في تبيين معاني قصيدة الله الصمد". =

والسبعيون هم آل علي بن عمرو ابن أحمد، بن محمد، بن أبي بكر، بن أحمد، بن علي، بن محمد، بن سعيد، بن عبد الرحمان، بن القاسم، بن عيسى، بن علي، بن عبد الله، بن عمران، بن زيد، بن صفوان، بن خالد، بن زيد، بن عبد الله، بن إدريس الثاني، بن إدريس الأول.

وعلي بن عمرو هذا توفي يوم الجمعة 8 ذي الحجة 557هـ /1161م بوادي العرجا، وله إخوة منهم أبو بكر، دفين قصر تانيجيوت بتافيلالت، وهو لم يعقب، وسليمان بن عمرو. آنتهى شرقا إلى توات، وقد خلف بتمي خمسة من الأبناء ذكرهم المؤرخون هم: علي، وعبد الحق، وعبد الله وعبد الصمد، وموسى، أما علي وذريته الذين كانوا أكثر عددا وانتشارا فهم كما يلي:

= ولقد تعرضت هذه الأسرة الشهيرة في الأطلس المتوسط بجهادها الى تزوير وافتراء عبد الوهاب بن منصور الذي جر عليها ما التاريخ منه براء حيث نسب اليها المحجوبي أحرطان أي الحرطاني، وهي تحريف الحراثي كما سبق، والذي عرف قبل بالزعري، بل والذي يرجع فريق قبيله كخدم الى قصر تيلوين بالجنوب حيث نزحت أسرته أيام السيبة بسبب قتل روح في عين السبيت من أرض ازعيرإلى والماس حيث تبربرت وهذا معروف عند المواطنين بعين سبيت في أرض زعير حيث لا يزالون يذكرون القصة بتفصيل، وعميد هذه القبيلة بل كبيرها حي يرزق وهو الحاج مصطفى بن عبد الله بن القايد قدور، بن عبد الله المعروف في عهد السلطان عبد الحفيظ، ولهذا يكون ما كتبه الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة هو المسؤول عنه راجع كتاب "أعلامه للمغرب" 2/215-216 المطبعة الملكية 1979م، وإذا كان آبن منصور قد عرف بسرقاته وتزويره للتاريخ كما هو في كتابه "عن قبائل المغرب" المسروق أكثره من مصدرين هما ج5 من دائرة البستاني ص276-284، وكتاب الجغرافية السياسية. للدكتور رفلة حرفيا ص382 التي يقابلها من القبائل المذكور ص29 وما بعدها، بل أخذ منه سرقة 84 صفحة بجداوليها، فإنه وقد أمكنه بحكم ما آلت إليه الأوضاع من شذوذ في هذا البلد، أن يكتب ما يريد وينشر من البهتان والافتراء على تاريخ العلويين بزعمه ما يشاء، لكن عليه أن يتحمل نتيجة ذلك ومنها كشفه، والدافع الذي انتهى به إلى تشويه، تاريخ المغرب بدافع خوفه من ماضيه وتملقه للذين شرفهم خوفا من الماضي المريب الذي سنتعرض له بعد حين كلامنا عن المغاربة المتلبسين المتعاونين مع الاستعمار. إن عمله لا يسمح بالسكوت، وقد عرض أشرف نسب يعتز به المغاربة الى الافتراء والتزوير، وقد رأينا بعضهم يعتمده عن جهل وعدم معرفة، بل ولا من يقول هذا منكر حرام، وكل ذلك يحسب على رمزيتنا ومقدساتنا كما يردد المغرضون من الجبناء. بل آندفع بعض الجزائريين نقمة الى التطاول بسبب تطاول الذي حكموا بقتله جزاء خيانته، بيد أنه أصبح يكيل لابطالهم الضربات تلويحا بالحجارة بعدما أدرك أنه في مأمن.

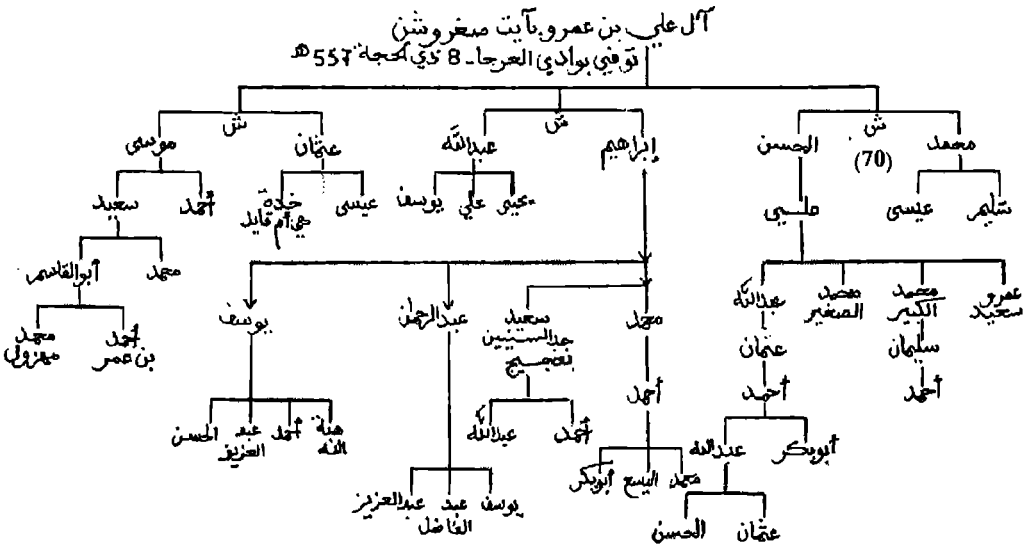

(70) حرف الشين إشارة إلى الشقيقين من الإخوة، وأشير الى ان المتفرعين من الأصول الواردة في هذا الجدول سوف تعترضنا فروعهم فيما يلي من الفصول.

أما توزيع هذه الأسر على مختلف جهات المغرب فإنهم يوجدون في كل ناحية من نواحيه، فذرية، محمد بن علي، بن عمرو، دفين ايت بسري بآيت عطا، وهم خلف سليم، وعيسى، يعرفون بها بآيت سيدي محمد، وآيت علي وعيسى، كما يعرفون بهذا الإسم في قبيلة بني حسان، كما يوجد بها أيضا -أي آيت عطا- أبناء عثمان ولحسن بن عبد الله، بن أحمد، بن عثمان، بن عبد الله، بن علي، بن الحسن، بن علي، بن عمرو.

ويعرف منهم آيت سعيد وعمرو، وآيت الصغير، بأولاد علي بن لحسن، وآيت يوسف الحسن، وآيت بوبكر والحسن، وآيت أحمد بن عمرو دفين أموكر بالأطلس المتوسط.

وأولاد الصغروشني ببني يزناسن، وأولاد عبد القادر والعياشي بها أيضا، وأولاد عبد الله بن يعيش في خنق بني يزناسن، وفي قصر بني يطى.

وفي فجيج، بقصر تاشرافت، يعرفون آيت جبور، أشاون، ويطلقون عليهم اليوم آل السني(71)، كما يوجد أولاد الحسن بن يوسف بن إبرهيم، بن علي، بن عمرو، في قصر لمعيز بفجيج، كذلك.

وهؤلاء، وأولئك تفرقوا بعد فتنة حصلت في غزوان، حيث كان جدهم الحسن بن يوسف آبن إبراهيم، بن علي بن عمرو.

كما يوجد في تامسلمت أبناء سعيد بن إبراهيم أبناء عمومة آل السني بفجيج، وفي قصر تانيجيوت بتافيلالت، يعرفون بأولاد موسى بن عمرو، وهم أيضا من ذرية الحسين بن يوسف، بن علي، بن عمرو، الذين خرجوا من زغوان، بعد الفتنة المذكورة، وفي غزوان نفسه يعرفون بأولاد عبد الله بن عبد الله.

وفي ناحية مراكش والساقية الحمراء أبناء أحمد بن موسى بن علي بن عمرو(72) وبهذا الإسم يعرفون في سوس، هكذا أرخ لهم الشيخ الكبير إمام المجاهدين(73) في

---

(71) هم أبناء سعيد بن إبراهيم بن علي بن عمرو، وتعرفنا منهم بفجيج على الشيخ المسن المرحوم دودو جبور أحمد بن جبور"، وقد أشرف علي المائة والذي توفي رحمه الله في العشر الاواخر من ديسمبر 1981.

(72) استخرجت الجدول، وأماكن وجود السبعيين مما كتبه عمديهم المجاهد في مخطوط خاص وفيه نص عن الأشقاء وأمهاتهم وآباء الأمهات، والقبيل الذي ينتمون إليه كما إهتمت بهم مصادر التاريخ المغربي، راجع الدرر البهية 168/2، والضعيف م خ نا. 195، والاستقصا 112/4.

(73) وعن حروب الشيخ أحمد بن الحسن السبعي، راجع مجلة للبستراسيون، وجريدة السعادة، والصحافة الفرنسية من 1908-1916م والمعسول للمختار السوسي ج16، وقد توفي السبعي رحمه الله يوم الأحد 28 ذي القعدة1335هـ/ 1916م، ودفن في برج آيت الرامي ناحية النجيل بولمان بعدما دفن أولا بقصر آيت سليمان. وسنعرض لأبناء عمومتهم حين ذكرنا للعمرانيين بعد.

عصرنا المولى أحمد بن محمد، بن الحسن، السبعي رحمه الله، ومركز هذه الأسرة قرية تالسينت بالأطلس المتوسط، دائرة الريش، كما يوجدون بموزار، وأبناء عمومتهم أيضا من أعلى هم آل ماء العينين، الذين يرجعون الى عبد الله بن إدريس، وقد اشتهر منهم محمد المصطفى ماء العينين بن محمد فاضل، بن محمد بن الطالب أخيار بن محمد الجية، بن المختار، بن محمد الحبيب، بن محمد أعلى، بن محمد، بن يحيى الصغير، بن عال، بن شمس الله، بن محمد، بن يحيى الكبير القلقمي، بن محمد، بن عثمان، بن أبي بكر، بن يحيى، بن عبد الرحمان، بن أران، بن أتلان، بن أجملان، بن إبراهيم، بن مسعود، بن عيسى، بن عثمان، بن إسماعيل، بن عبد الوهاب، بن يوسف، بن عمر، بن يحيى، بن عبد الله، بن أحمد، بن عبد الله، بن إدريس الثاني.

ويوجد أبناء عبد الله بن إدريس كذلك بجبل بني سنوس، وفي ترارة منهم أولاد جلاب أبناء عمومة بني راشد، وبني زيان بن منصور ولهم فروع أكثر في الجزائر وهم يلتقون في موسى بن عمران، بن زيد بن صفوان، بن خالد، بن زيد، بن عبد الله، بن إدريس.

وبتوزر الجديدة منهم ميمون، وابن غلاب(74)، وسيدي عبيد بن خضير من أولاد سيدي عبد الشارف المقبور ببلدة تعرف بالجامع بظهر النمامشة قرب خنقة سيدي ناجي، وله ولذريته بهذه البلاد الإفريقية صيت، وذريته كثيرة الآن تبلغ آلافا محترمين عند الأمراء، وهم من أولاد أبي السبع سكان سوس الأقصى. يقول الناصري وعنه نقل المراكشي في الاعلام 200/5، والذي نسبهم الى "أولاد أبي السبع سكان سوس"، وهؤلاء السبعيين بسوس هم أولاد أحمد بن موسى، بن علي، بن عمرو، بن أحمد، بن محمد، بن أبي بكر، بن أحمد، بن علي، بن محمد، بن سعيد، بن عبد الرحمان، بن القاسم، بن عيسى، بن علي، بن عبد الله، بن عمران، بن زيد، بن صفوان بن خالد بن زيد

(74) أورد هذا الرحالة محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى 1239هـ في رحلته الحجازية التي بدأت يوم الخميس 3 جمادى الثانية سنة 1196هـ، وعنه أخذ صاحب الاعلام المراكشي ج200/5ط1938. ومنهم أولاد غلاب بفاس وعميدهم عبد الهادي غلاب الناظر بالزاوية الإدريسية زرهون زمن المولى عبد العزيز عن وثيقة خاصة بخط يده تاريخها 3 نو الحجة 1320هـ وهو الجد المباشر لأخينا الأستاذ عبد الكريم.

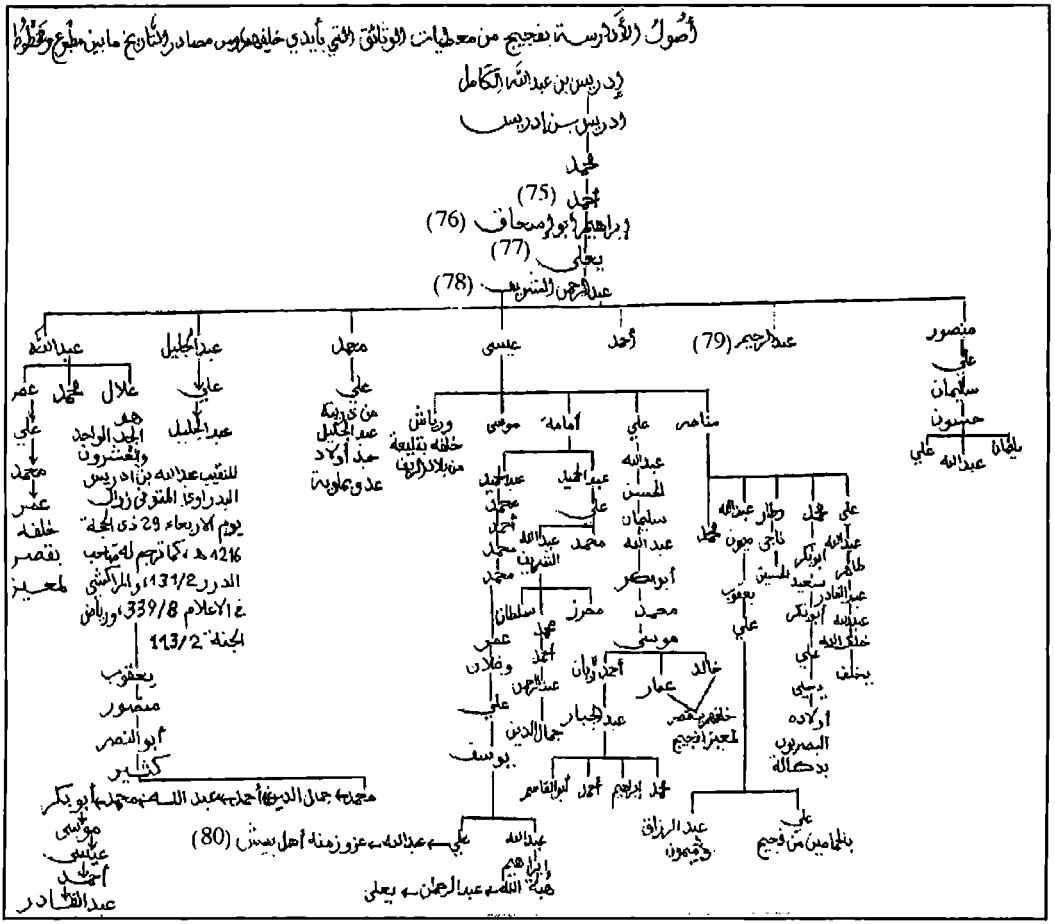

(75) دفين جراوة بمدينة فاس.

(76) دفين ضفة وادي مصمودة بفاس.

(77) دفين الطالعة بفاس م.خ.ع. 771د، والدرر 128/1.

(78) خرج من فاس 313هـ/ 925م ولذلك كثيرا ما يلقبه المؤرخون بالخارج.

(79) إستوطن غرناطة، ثم رحل أبناؤه الى تلمسان وغيرها، وقد عده السنوسي في نظمه من فرق الوادغيريين.

راجع م.خ.ع 633 د ص10، وعند صاحب الدرر 128/1 أنهم انتقلوا من الوادي الأخضر بتادلا الى وادي گير ثم سجلماسة وقد عرفوا عند أبي سالم العياشي في الرحلة ج 44/1 ط حجر 13/6 ان "ولت دغير" مرحلة في طريق حجاج سجلماسة وهو بئر واحد غزير الماء في بسيط من الأرض لا يخلو من العمارة.

(80) ونجد علي السوسي فيما سماه "منتهى النقول ومشتهى العقول ص100 خ.ع 633 د-2125 د يقول إن فروع الوادغيريين هم : 1-الزيانيون 2- الجماليون 3- الخلوفيون 4- البزازيون 5- اللحيانيون 6- =

بن عبد الله بن إدريس الثاني بن إدريس الأول بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي. ومنهم إگرامن بآيت عيسى وآيت ازدك حيث لهم شهرة بآيت عيسى گرامة إذ يوجدون في القصور الثلاثة: القصر الكبير، وقصر آيت علي ابن علي أبورك، ثم قصر آيت سعيد أعمرو، وايگرامن في اصطلاح المنطقة هم الذين يلتف حولهم كثير من بربر الأطلس المتوسط، إذ هم الذين يقومون بدور الوساطة كلما دعى داع لذلك حول ما يحصل من المنازعات، ومنهم آيت بورك الذين يرجع نسبهم إلى علي واحساين صاحب زاوية تامكا أخت زاوية اسعيد أحصال -بدون نون- وهي التي بآيت عطا واويزغت أزيلال، والتي لها كذلك نفس الدور بين تلك القبائل بما فيها آيت شخمان... إلخ.

وهكذا نتابع فروع الأدارسة حيث نتبع آل علي بن عمرو بإخوانهم الوادغيريين شرفاء وادي غير في الجنوب الشرقي للمغرب الذين يعتبرهم مؤرخو المغرب من أكثر الأدارسة حفاظا على أنسابهم، إلى درجة التشديد، وبذلك لم يدخلهم دخيل، ناهيك وأن هذه الأسرة أعطت الكثير من العلماء الذين آنتشروا في كل جهات المغرب، بدءا من مدينة فاس موطنهم الأصلي الذي عاد إليه بعضهم كالبدراويين الجماليين وغيرهم، وهكذا سنتعرض في الجدول التالي لأشهر فروعهم، إذ لا يمكننا جمعهم في مختلف جهات المغرب العربي الكبير وقد آنتشروا فيه شرقا، وشمالا وجنوبا من فجيج الى تلمسان ومن بني يزناسن، والريف وفاس، وسوس وسجلماسة، كما آنتشرت بعض فروعهم في الجزائر وتونس والاسكندرية، بل منهم من خرج من الأندلس تحت حماية الأتراك، ولما حاولوا الملك في الاسكندرية زمن المماليك أبعدوا منها كما أبعد من كان معهم إلى مالطة. حيث أكرهوا على التنصر فيها.

= العزوزيون 7- الميمونيون 8- المناجيون 9- الزكونيون 10- العثمانيون، على أن السوسي هذا يتسم بالاضطراب، وأحيانا بالتناقض والخلط. كخلطه بين عبد الرحمن الشريف وهو الجد الأعلى للوادغيريين وعبد الرحمن بن يحيى حيث قال ص19:

والودغيري عابد الرحمن ... نجل ليحيى واضح البرهان

وفي ص100 عاد ليقول:

فلأحمد الودغيريون ينسبون ... فروعهم كثيرة لا يجهلون
الزيانيون (1) والجماليون (2) ... الزكونيون(3) والعثمانيون(4)
الخلوفيون(5) والبزازيون (6) ... اللحيانيون(7) والعزوزيون(8)
الميمونيون(9) والمناجيون (10) ... بفجيج للآن ساكنون

وعن الوادغيريين يقول الزياني في كتابه الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب أنهم أكثر انتشارا في المغرب. ونحن نضيف أن أهل فجيج القصور السبعة هم كذلك في مختلف أقطار المغرب العربي الكبير فهم يتسمون بالهمة العالية والأخلاق الفاضلة يلقنها السلف للخلف، بل في اعتبارنا من وجد فيه خلل، فهو ليس من فجيج لكن الذي اشتهر أكثر من أصول الوادغيريين، أصول ثلاثة وهم كما دونهم المؤرخون مما يعتبرون أصولا لبقية الفروع المستمدة من عيسى بن عبد الرحمن الشريف.

أولا: بنو جمال: إذ هم أبناء جمال الدين بن عبد الرحمان، بن أحمد، بن محمد، بن عبد الله، بن علي، بن عبد الحميد، بن أبي أمامة، بن عيسى، بن عبد الرحمان الشريف، بن يعلى، بن أبي إسحاق إبراهيم، بن أحمد، بن محمد، بن إدريس الثاني، بن إدريس الأول، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي وفاطمة (ض)، ومنهم أولاد معلى وجبور، وبلعيد، وعزة الذين يعرفون بـ "عزى" وهو من أخطاء النسخ.

ثانيا: بنو يخلف: ويقال لهم أولاد مخلوف بن خلف الله، بن عبد الله، بن عبد القادر، بن طاهر، بن عبد الله، بن علي، بن مناصر، بن عيسى،، بن عبد الرحمان الشريف بن يعلى، ومنهم أولاد بوعريش، وأولاد علي بن دليم، وبن عزة، ومزيان، وشقرون، ومنهم أيضا أولاد عبد الرحمن بقصر الغرفة تافيلالت واللحيانيين بتيزيمي أرفود.

ثالثا : بنو زيان، ويقال لهم أولاد زيان بن عبد الرحمان، بن أحمد بن زيان، بن محمد بن عبد الله، بن عبد الحميد، بن أمامة، بن عيسى، بن عبد الرحمن، بن يعلى الخ، ومنهم أولاد الصغير بن أحمد بن محمد بن أحمد بن زيان منهم أربع فرق، وأولاد "عبو" عبد الله، بن عبد الرحمان، بن أحمد، بن محمد، بن أحمد، بن زيان، وأولاد التنوري، بن أحمد، بن محمد، بن أحمد، بن زيان وأولاد زيان فيهم خمس فرق: أولاد الطيب، وأولاد حدو ،وأولاد بالي، وأولاد مزيان، وأولاد أبو مدين، وأولاد أبوزيان بن أحمد، بن محمد بن أحمد، بن زيان، بن محمد، بن محرز، بن عبد الرحمان الشريف. والوادغيريون خصوصا أبناء عيسى متفرقون في مختلف جهات المغرب من سوس إلى الجزائر وليس بين غير المتواجدين منهم بفجيج رابطة، فمنهم أولاد بوزيان بإتزر الأطلس المتوسط، وأولاد أبو زيان بتزيمي تافيلالت، وهم قسم من أولاد بنعيسى من أعلى، كما سنرى، ومنهم

الورياشيون بقبيلة قلعية بالريف وآيت عبد الله بسوس، وأولاد عبد الرحمان بتافيلات(81) والحمزاويين بالأطلس المتوسط أهل الزاوية العياشية نسبة إلى أبي سالم العياشي صاحب الرحلة العياشية. ماء الموائد المشهورة والذي آنتسب إلى خليط قبيلة آيت عياش بالولاء، كما ينتسب آخرون إلى الصغروشنيين والعطاويين والحديدويين الخ.

وبالتالي سنتعرف على بعض فروعهم في ربوع المغرب الكبير بعد، ولايفوتنا أن نلاحظ أن هؤلاء الأشراف الأدارسة الذين عرفوا بالوادغيريين نسبة الى وادي گير بالكاف المعطشة، وهو واد من أودية جنوب شرق المغرب، كما آنتسب إخوة لهم قبل إلى الوادي الأخضر، وآخرين إلى وادي زيز، فكانوا ولاتزال بعض المصادر تعرفهم بشرفاء الوادي الأخضر أو شرفاء وادي زيز، الخ، ومع مرور الزمن حذفت الألف للاختصار فأصبحوا يعرفون بالودغيريين وفي مدينة فاس يقال لهم البدراويون...الخ.

وفي بعض الوثائق يكتب وتدغير بتشديد التاء الخ، وهو عند العياشي في الرحلة علم على مرحلة فيها بئر في الطريق الى سجلماسة. وهكذا فالودغيريون يرجعون جميعا الي أصل واحد هو عبد الرحمن الشريف الملقب بالخارج(82) والذي توجه الى الوادي الاخضر بتادلة حيث كانت ذريته، لكنهم بعد الاستقرار الطويل في منطقة فجيج أصبحوا يعرفون بشرفاء وادي گير، وقد خلف عبد الرحمن الشريف الكثير من الأولاد نذكر منهم عيسى وهو أكثرهم خلفا، وعبد الرحيم، وعبد الله، وأحمد ،ومحمد ،ومنصور، وعبد الجليل وقد عرفت منهم الفرق التي أشرنا إليها في الجدول أعلاه.

كما عرف منهم بنو عرهب الذين آنتشروا في جهات متعددة، وعرهب معناه العربي، وهو آبن محمد بن يعقوب نزل أولاده قصر الوادي بگير من فجيج، ويقول عنهم بعض المؤرخين إنهم من ذرية عيسى آبن إدريس وأن جدهم العربي نزل قصر الوادغير، وفر ولده من الشكران إلى تادلة فنزل وادي أم الربيع وهو الحاج يوسف، بن صالح،

---

(81) قصر من قصور المنطقة التي تعرف بـ (الغرفة) وهي امسيفي والجديد...الخ.

(*) سكان قصر أولاد عبد الرحمان بالغرفة تافيلالت اصلهم من أولاد مخلوف بن خلف الله الفرع الثاني من الشرفاء الوادغيريين بفجيج فهم أولاد يوسف وأولاد حسن.

(82) أي الخارج من مدينة فاس 313هـ 925م راجع الدرر البهية1/141، وأوراق منها بخط لفضيلي نفسه، وفي مخطوط خ. ع 3005ك. وقد خرج زمن موسى بن أبي العافية المكناسي المذكور قبل.

بن حسن بن قاسم بن العربي بن محمد بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الشريف من فجيج(83) على أن الكثير من الروايات المشار اليها أعلاه تقول إن عبد الرحمان الشريف نفسه توجه الي الوادي الأخضر، أما أولاد عيسى بن عبد الرحمن الشريف فقد نزلوا فجيج مع أبيهم عيسى، وأما أولاد عبد الرحيم بن عبد الرحمان الذي آستوطن غرناطة فقد توجه بعضهم إلى شرويل مع أبناء عمهم عبد الله بن عبد الرحمان الذين هم في البدائر من ناحية تلمسان، أي ما بين فجيج وتلمسان، وأما أولاد محمد بن عبد الله، فهم في قصر فجيج المعروف بقصر الزاوية، كما يوجد به أولاد مخلوف، وميمون وعثمان وبني عطية وأخوال هؤلاء بمديونة من بني سنوس، ومن بني لحسن، وبني ولهاص وفي فاس، وكما يوجد في قصر الزاوية كذلك بني وطار، وبني عزوز الذين آنتقلوا الى بيش، وبني غيلان، وبني يوسف، وبني سلطان، وبني زيان، وبني محرز، وبني عدو، وبني اسمير، وبني خالد، وأحمد وعمار في قصر لمعيز، وفيه أيضا بنو حمو كما يوجد بنو عمر بن محمد، وبنو المصامدة في قصر الزاوية، وبني موسى في قصر أولاد اسليمان بن حسون بفجيج وللاسف فإن بعض الأشراف الوادغيريين الذين نزحوا من فجيج إلى جهات أخرى أصبحوا يعرفون بالنسبة الى تلك المواطن، وأحيانا لا تذكر لهم النسبة الأصلية فمثلا عبد الله بن حسون دفين سلا، والذي هاجر مع أخيه علي إلى إسلاس، فأصبح يعرف مع أخيه بـ "عبد الله بن حسون السلاسي"، والأصل أنه شريف حسني ودغيري من فجيج، إذ هم من ذرية يخلف بن خلف الله، بن عبد الله، بن عبد القادر، بن طاهر، بن عبد الله، بن علي، بن مناصر، بن عيسى، بن عبد الرحمن الشريف، بن يعلى، بن ابراهيم، بن أحمد، بن محمد، بن ادريس، بن ادريس بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي وفاطمة الزهراء.

---

(83) مخطوط خ.ع 1103 ص 99، وفي رواية النقيب عبو الشبيهي الذي كلفه السلطان المولى الرشيد العلوي1080م بضبط الأنساب مخطوط خ.ع 1457 د ص 79، ومخطوط ابن الحاج المذكور قبل إن الشريف عبد الرحمان ترك من الأولاد ثمانية، وهي رواية اللالئ أيضا راجع م خ ع 771 د، وفي الدرر البهية 128/1 للفضيلي أن شريف وادي گير آنتقل الى غرناطة، وأنه كان وقومه يركبون في 500 فارس، وأنه ترك من الأولاد خمسة عشر ولدا ذكرهم خ.ع. 1457د ص 79.

ثم راجع حول أبناء عيسى بن إدريس الإتحاف لإبن زيدان 239/3. ط1931.

وفي تافيلالت يعرفون في قصر لهم بأولاد يوسف ومعهم الأمغاريون.

أما جدهم حسون الذي اشتهروا به فهو حسون بن سليمان بن علي بن منصور بن عبد الرحمن الشريف بقصر الزاوية بفجيج، وهم اليوم في مدينة سلا، وفيها تفرعوا ويعرفون بالحسونيين، وآل التادلي بالرباط، والذين أصبحوا يعرفون بالنسبة إلى تادلة، والواقع أنهم أشراف ودغيريون كما نص على ذالك مؤرخ الرباط بوجندار في كتابه الاعتباط بتراجم أعلام الرباط – ترجمة محمد بن عبد الرحمن التادلي جـ1/214 خ.ع. والتادلي هذا من كبار العلماء الذين تكون عليهم أديب الرباط الكبير المكي البطاوري الرباطي الشرشالي أصلا، وكذا الوزير الصدر أحمد بن موسى بن أحمد.

ومن الوادغيريين كذلك بنو مناول، وبنو عثمان، وبنو يعقوب بمازونة، وبنو سعيد اللحياني وبنو عمار، وبنو إبراهيم، وبنو جمال الدين، وبنو العز السكوني، وبنو أبي بكر، وبنو علي بن عمر وبنو محمد بن عمر والشكران هؤلاء جميعا، كما عددت المصادر من ذرية عيسى بن عبد الرحمان الشريف الوادغيريين، وقد تفرقوا شرقا وغربا في ربوع المغرب العربي الكبير.

ومنهم أيضا أولاد المنصور بن عبد القادر، بن طاهر، بن عبد الله، بن علي بن، مناصر بن عيسى، بن عبد الرحمان، وبنو منصور في قصر الزاوية هم ذرية موسى بن سليمان بن حسون بن سليمان، بن علي، بن منصور، بن عبد الرحمان الشريف، ومن أولاد يحيى حفيد مناصر أي المنصور البصريون بدكالة فهم بنو يحيى بن علي، بن أبي بكر، بن سعيد، بن أبي بكر، بن محمد، بن عبد الله، بن علي، بن محمد، بن عبد الرحمان الشريف، وإخوان هؤلاء يقول مؤرخو الشرفاء في غرناطة، وفي فجيج، وتلمسان(84) ومنهم أي من الودغيريين الأدارسة أيضا البدراويون، فهم فرقتان بفاس هما الجماليون، والشماسيون انتقلوا كلهم من فجيج ومقر أسلافهم بوادي گير، وقد سكنوا وادي الرتب بسجلماسة "اوفوس اليوم"، ثم عادوا إلى فاس نقلهم إليها المولى سليمان الذي كانت له علاقة ود مع بعضهم كزملاء أيام الدراسة، أما أصولهم فهي لازالت بفجيج ويعرفون بالجماليين نسبة إلى جمال الدين بن عبد الرحمن حفيد أمامة كما عرفنا قبل، وكما هم

(84) المصدر السابق ص13.

عند أهل فجيج، وقد نسبهم بعضهم إلى جمال الدين بن محمد، بن كثير، بن أبي النصر حفيد عبد الله بن عبد الرحمن الشريف(85)، مع العلم أن فيهم آنتهت نقابة الأشراف البدراويين بفاس، ومنهم العالم الجليل عبد الله بن إدريس صاحب المؤلف المعروف في التجويد (راجع الدرر البهية 128/2 ط حجر) بل وصاحب المولى سليمان السلطان.

ومن إخوة الوادغيريين الذين يلتقون معهم في عبد الرحمان الشريف المناويون في الصحراء فهم أولاد محمد بن منصور، جدهم علي بن عبد الله، بن محمد، بن موسى، بن عبد الله، بن علي، بن عيسى، بن عبد الرحمن ذكرهم الفضيلي في الدرر(86) واخوانهم أولاد حمداني في السكاك، وأولاد عيسى في شرويل والشامل والنكور وفي مگران وولهاصة بتلمسان، فهم إخوة الوادغيريين كلهم أولاد محمد بن عثمان، بن يوسف، بن يعقوب، وهناك المناويون الذين يعرفون بالزياديين في سوس، وهم غير السابقين(87).

ومن أبناء عمومة الوادغيريين الذين يلتقون معهم في أحمد بن محمد بن إدريس اليعقوبيون أهل أوطاط الذين آستجاروا بأولاد بن لحلو، هم وإخوانهم أولاد يامون وبنو خليفة، وبنو عمران، الذي خلف خمسة من الذكور، هم بخت، ومحمد، وعبد الله، وأبو القاسم، وعلى، جدهم جميعا أبو العباس أحمد بن سهل، بن محمد، بن عبد الرحمان، بن يعقوب، بن سهل، بن السوال، بن عبد الرحمن، بن ناصر، بن قطرب، بن يحيى، بن أبي القاسم، بن ميمون، بن جابر، بن الحسن، بن هاشم، بن أحمد، بن محمد، بن إدريس الثاني... إلخ.

ومن هؤلاء شرفاء أوطاط وميسور الأدارسة ذرية أحمد بن إدريس الذي كان لخلفه إمارة في تهامة وعسير واليمن بالجزيرة العربية(88).

ومن شرفاء أوطاط أيضا أولاد بنعيسى بتيزيمي، وهم أولاد أبو زيان أهل سجلماسة الذين تعرض لهم الكتاب المنسوب لـ "العشماوي"(89) وغيرهم. والذين هم وسط

---

(85) راجع ابن خلدون 67/6.
(86) الدرر البهية 134/1.
(87) نفس المصدر 143/2-183.
(88) الأعلام للزركي 90/1.
(89) مخطوط خاص ص39.

عرب الصباح، فهم من ذرية بنعيسى دفين بونخلة بعين تيساف من بلدة أوطاط أولاد الحاج قرب ميسور، قدم منهم إلى المكان المذكور حوالي أوائل القرن 7هـ سليمان، ومحمد المدعو عنان، وذرية هذا الأخير هي التي آشتهرت بسبب مصاهرته لمحمد البحري، جد سكان قصر أولاد بحر بن سوادة بطن من الأزد من القحطان بتيزمي، ومنهم أولاد علي، وأولاد بوبكر، وأولاد أحمد الطالب كسكاس، وأولاد مولود، وأولاد أبو زيان وأولاد عبد العلي، وأولاد عبد الرازق الذين يعرفون بـ: أرزيقات أصل هؤلاء جميعا يرجع الي: عيسى بن محمد بن ناصر، بن محمد، بن سليمان، بن عبد القادر، بن محمد فتحا بن عبد الله، بن يعلي، بن محمد العالم، بن أحمد، بن محمد بن إدريس لكن فروع هؤلاء آندمجت وسط عرب الصباح الذين يرجع نسبهم الى عرب المعقل المعافرة، كما يوجد بينهم المنبات من ذوي منصور كأولاد احسين بقصور السيفة وسليم(90) في بعض قصور وادي إيفلي بتافيلالت، ومن إخوة الوادغيريين أولاد ميمون في الحمامين بفجيج، وهم أولاد الأخوين عبد الرزاق وميمون، أبو هما يدعى ميمون بن عبد الله، بن ناصر، بن عيسى، بن عبد الرحمان الشريف، وجدهم عند مؤرخي الشرفاء عبد العزيز بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن مناصر بن عيسى، بن عبد الرحمان الشريف،وإخوانهم في قصر الحجار بتوات حيث توجد ذرية الحسن، بن مناجي، بن وطار، بن مناصر، بن عيسى، بن عبد الرحمان الشريف، كما يوجد في قصر هارون بتافيلالت أولاد عثمان بن عطية، بن أحمد بن محرز، بن يعقوب، بن ميمون، بن عبد الله، بن مناصر، بن عيسى، بن عبد الرحمان الشريف سكناهم الحمامين بفجيج.

---

(90) العبر 67/6، وبطون الصباح منها بطن من الرياحنة من المطارفة إحدى عشائر البلقان.

ومنها حي من عذرة.

ومنها بطن من غني بن أعصر من قيس بن غيلان من العدنانية.

ومنها فرقة من الفريجة من الروالة من عنزة.

ومنها صباح بن طريف بطن من ضبة من العدنانية ،وهم بنو صباح ،بن طريف، بن زيد، بن عمرو ،بن عامر، بن ربيعة، بن كعب، بن عميرة، بن سعد، بن ضبة، بن أد، بن طابخة.

ومنها صباح بن لكيز بطن من عبد القيس من العدنانية.. الخ.

وصباح وادي زيز بتافيلالت هم فخذة من حجيلات، من كرفة، من أثبج، من بني هلال بن عامر، من العدنانية. ثم راجع قبائل العرب لكحالة 628/2–629، ولسان العرب لابن منظور 338/1، ونهاية الارب للنويري 329/2، ونسب عدنان وقحطان للمبرد: 118، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي 312/ط القاهرة 1959، والجمهرة لابن حزم 295–306–446، تحقيق عبد السلام محمد هارون ط دار المعارف بمصر 1391هـ 727م.

وفي قصر لمعيز من قصور فجيج يوجد أولاد الإخوة الثلاثة خالد بن موسى، وعمار بن موسى، وأحمد بن موسى، وموسى هو ابن محمد، بن أبي بكر، بن عبد الله، بن سليمان، بن الحسن، بن عبد الله، بن علي، بن عيسى، بن عبد الرحمان الشريف. أما أحمد بن موسى البرزوزي فهو والد العالم الجليل عبد الجبار ومن عبد الجبار أحمد، وإبراهيم، ومحمد، وأبو القاسم، وقد اشتهر عبد الجبار وأبناؤه الأربعة بالعلم الغزير في مختلف مجالات المعرفة(91)، وأبناء عمومتهم في قصر لمعيز هم أبناء عمر بن محمد بن علي بن عمر بن عبد الله، بن عبد الرحمن الشريف وهم بنو الإخوة صالح وعثمان ومحمد ورياش الذي يعرف أبناؤه في قبيلة قلعية الريف بالساحل ببني ورياش، ومن شرفاء فجيج أولاد المسواك من ذرية عبد الرحيم بن عبد الرحمن الشريف الذين كانوا بغرناطة، ثم انتقلوا الى تلمسان كما في "الدرر(92)".

ومنهم أولاد سلطان، وهم أولاد عبد الله الشريف، بن سلطان، بن عبد الله، بن زيان بن محمد، بن محرز، بن عبد الله، بن جمال الدين، بن أحمد، بن محمد، بن عبد الله، بن عبد الحميد، بن أمامة، بن عيسى، بن عبد الرحمن الشريف. أما ذرية الحسن بن مناجي، بن وطار بن عبد الله بن مناصر بن عيسى بن عبد الرحمن الشريف المذكور قبل فإخوتهم في أصيلة بنو غيلان(93) جدهم ميمون بن يعلى بن عبد الرحمن بن هبة الله،

---

(91) راجع الحركة الفكرية في المغرب للاكتور محمد حجي 2/511-514، وعبد الجبار هو ابن أحمد بن موسى، بن محمد بن أبي بكر، بن عبد الله، بن سليمان، بن الحسن بن عبد الله، بن علي، بن عيسى، بن عبد الرحمان الشريف، بن يعلى بن أبي إبراهيم، بن أحمد، بن محمد، بن إدريس الثاني. على أن حفيدته صليحة رحو في بحثها لنيل الاجازة في اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب -جامعة محمد الخامس- الرباط السنة الجامعية 1984م-1985م نسبته في بحثها ص26 الى سعيد بن إدريس وهو خطأ إذ لم يعرف لإدريس بهذا الإسم ولد كما سبق -راجع الجدول أعلاه .

ونفس الخلط حصل لصاحب الحركة الفكرية في جانب آخر، بل إن صاحبة البحث نسبت ما أورده على السوسي عن الوادغيريين في منظومته "منتهى النقول، ومشتهى العقول" نسبته الى إبراهيم بن عبد الجبار راجع ص25 من البحث المذكور، ومنظومة علي السوسي ص100 رقم 633 د.خ.ع. ثم رقم 2125 د. ولعل الذي أوقعها في خطإ نسبة الأبيات لغير صاحبها هو ما ورد فيما كتبه الأخ هلالي العربي حول فجيج تاريخ ووثائق ص75/ط1981.

(92) الدرر 1/141.

(93) منهم لخضر غيلان الذي قضى عليه المولي الرشيد بن الشريف المؤسس الثاني للدولة العلوية.

ولخضر غيلان كان من المجاهدين الى جانب العياشي المالكي وأولاد النقسيس بتطوان كما سنرى بعد آخر عهد السعديين.

بن إبراهيم، بن عبد الله، بن يوسف، بن علي، بن وغلان، بن عبد الله الشريف، إبن عبد الحميد، بن أمامة، بن عيسى، بن عبد الرحمان وأبناء عمومتهم في ييش هم أولاد عزوز بن عبد الله، بن علي، بن يوسف، بن علي، بن وغلان، بن عبد الله الشريف، بن عبد الحميد، بن أمامة، بن عيسى، بن عبد الرحمن، كما يعرف أبناء عمومتهم في الشلالة، وهم الشليون، والحنشيون في عين الحنش، وأولاد الصلاح باللام المشددة، وفي قصر أولاد عبد الرحمان، من قصور الغرفة بتافيلالت فهم جميعا أولاد محمد بن عمر جدهم محمد بن أحمد، بن محمد، بن عبد المجيد، بن أمامة، بن عيسى، بن عبد الرحمن، بن يعلى، بن أبي إسحاق، بن أحمد، بن محمد، بن إدريس، وهم يتوفرون على ظهائر ترجع الى عهود الدول المتعاقبة على حكم المغرب، هم وشرفاء بني الحاج الذين يطلق عليهم أهل تافيلالت "شَرْفَتْ بَحَاج"، فهم بنو الحاج يوسف بن غانم، بن صفوان، بن محمد، بن داوود، بن مهدي، بن علي، بن محمد آبن إدريس، ومن أبناء عمومة هؤلاء أهل قصر "تابع صامت" بتافيلالت الذين أسكنهم المولي الرشيد العلوي بالقصر بعدما أخلاه من الزبيريين حلفاء بودميعة أبي حسون السملالي صاحب إليغ، وبعد مقتل أخيه المولى محمد بن الشريف، وكان سكان قصر "تابع صامت" قبل من الصفرية الخوارج، كما أسكن قصر أولاد يوسف والشبيلي ببني محمد، بالادارسة الامغاريين وعرب أنكاد الذين ساندوه في معركته الفاصلة والتي قتل فيها صنوه محمد بن الشريف وعرب انكاد هم أصلا من المعقل.

ومن الأدارسة أيضا الودغيريين كذلك، أولاد عدو من أبناء عبد الجليل، بن علي، بن محمد بن عبد الرحمن الشريف، وكانوا بإفريقية في بلاد الجريد بتونس، ثم آنتقلوا الى تلمسان مع بني عمهم سعيد بن إبراهيم، بن عبد الله، بن محمد، وأبناء أحمد بن عطية بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمد، ثم آنتقلوا الى تاسلة، ومديونة، من سوس، وقد خلف عبد الجليل بن علي أربعة من الأبناء هم الأصغرين صالح ومحمد وعبد الله وعلي وعبد الجليل وهو إبن إبراهيم بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الرحمان الشريف.

وهناك أولاد عدو الذين يطلق عليهم البربر بملوية "إعد لين" هؤلاء جدهم: خلف سبعة من الرجال وهم سعيد، بن عثمان، بن عبد الرحمان بن داوود بن عمر بن محمد بن

عبد الرحمان الشريف، كما يوجد أولاد عدو في المدينة الحمراء بملوية، أما الرجال السبعة المشار إليهم فهم عند صاحب اللالئ سليمان، وسعيد، وأحمد، وقاسم، ويسف بفتح الياء، وتشديد السين، وسكون الفاء، وعبد الرحمان وذرية هؤلاء متفرقة في ملوية، وسوس، وفي الشاوية، والبرانس يعرفون بآيت حمو.

ومن الادارسة كذلك أبناء عيسى آبن إدريس بنو عرهب: العربي، وهؤلاء بعضهم في قصر الوادغيريين، وقد آنفصلوا قبل عن إخوانهم ثم ذهبوا الى تلمسان، لكنهم عادوا فالتحقوا بهم بفجيج، وهم يتكونون من الفرق التالية غير فرقة الوادغيريين.

الفرقة الأولى: توجد بورغة، وفي تادلة، والشكران، ويطلق على بعضهم شقرون بدل الشكران بالكاف المعطشة ويوجدون ببني قرمان بالشكران، حيث دفن جدهم عبد الله بن يعقوب.

الفرقة الثانية: توجد بسوس بدشرة آيت عبد الله وأولاد آدفال بقرية لكتاوة، أحد قصور درعة.

الفرقة الثالثة: بتازروالت بسوس، بمنت آتثليت، وهم أولاد محمد، بن يعقوب السملالي العرهبي، وجدهم مدفون بأيت اعتاب من تيسقي، فهم أحفاد عيسى إبن إدريس وإخوانهم الدباغيون، في الشلال، بآيت اعتاب ومراكش وفي تلمسان، يعرفون بأولاد زايدة وأولاد عفيف، وفي فجيج أولاد عرهب، وفي تادلة لعراهبة، وجدهم إسحاق بن أبي السوال، بن يحيى بن موسى بن عيسى بن إدريس.

ومن الأدارسة كذلك: الحموميون بقبيلة بني زروال، فهم من الوادغيريين أهل فجيج سلالة محمد بن إدريس، إذ هم أبناء أحمد بن عيسى، بن الحسين، بن علي، بن عبد الله بن محمد، بن عبد الرحمن، بن محمد، بن عبد الله، بن محمد، بن عبد الله، بن عيسى، بن سالم، بن يحيى، بن عبد الواحد، بن علي الملقب بـ "يعلى"، ابن أبي إسحاق الملقب بـ"العلا" ابن أحمد بن محمد، بن إدريس، بن إدريس بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الأدارسة: العمرانيون بالشمال جبل العلم، وسوس هشتوكة والخنابيب كما رأيت بخط الشيخ أبي شعيب الدكالي، لصديقنا شيخ المقاومين الحاج محمد الخنبوبي،

ودرعة، والأطلس المتوسط، فهم أبناء الإخوة الأربعة عمران، وعلال، وأبو بكر، ومحمد جدهم منين بن يحيى، بن سعيد، بن مسعود، بن عامر، بن عمر، بن موسى، بن عمران، بن صفوان، بن خالد بن زيد بن عبد الله بن إدريس فهم أبناء عمومة آل علي بن عمرو السبعيون السابق ذكرهم، ومنهم من سكن الأخماس، وغمارة وبني دركول، ويعرفون بأولاد الهاشمي، وأولاد المنصور، وأولاد الشرقي، وأولاد الغزواني، وأولاد يوسف في الجاية، وأولاد موسى في بادس، وقد أورد صاحب المرآة(94) أن من العمرانيين كذلك الطالبيين بني أبي طالب بن سليمان، بن محمد، بن قاسم، وهم من ذرية القاسم بن إدريس، كما يوجد طالبيون اخرون ليسوا منهم، والطاهريون قاسموا العمرانيين النقابة(95) ومن العمرانيين أولاد الشريف بن عاصم، بن فتوح، بن يعزا، بن كولان، بن عتيق، ويعرفون لعتيكيين بالمعطشة(96) وأبناء عمومتهم الغزوانيون أولاد الشرقي، بن محمد، بن عمران، بن يحيى الحسني ويلتقون مع العمرانيين الهشتوكيين بالسوس أبناء الإخوة الثلاثة محمد وعمران، وعمر جدهم أحمد بن موسى بن عمران بن يحيى بن عبد الرحمن، بن أحمد، بن موسى، بن عمران، بن محمد، بن داود، بن موسى، بن عمران، بن زيد، بن صفوان، بن خالد، بن عبد الله، بن إدريس. كما يلتقون مع الشرفاء المعروفين: بشرفاء دار البقر، المحرفة من دار الوقار وهم محمد، وعمران، وعلي، وأحمد، والحسن، والقاسم، وعبد السلام، كما يوجد الهاشميون بالسوس، وجدهم أبو العباس أحمد بن محمد الهاشمي، بن عبد الرحمن بن عمران بن يحيى الحسني.

وأما شرفاء حاحة فهم أولاد موسى بن ملوك، بن علي، بن عبد الله، بن زكريا، بن إسماعيل جد أولاد إيمغران في الجنوب والذي هو: عبد الله بن عبد العظيم، بن سعيد بن عبد الرحمان بن زيد بن عبد الله بن إدريس.

---

(94) ط حجر ص184-185.

(95) نفس المصدر، وقد أورد فيه شجرة نقلها عن القصار القيسي الغرناطي كما نص على تداول النقابة بينهم حتى سنة 1004 وهو ما في نشر المثاني وجذوة الاقتباس 2/1 ط1974.

(96) ويعرف أيضا العتيقي بالقاف غيرهم نسبة الى الخزرج، ومنهم على بن عتيق، بن مومن الأنصاري، الجذوة 482/2 ط 1974، ثم مخطوط خ.ع 771 د ص 76، وما بعدها و م خ 1103 د ص98، وعلى مائدة الغذاء للمرحوم المختار السوسي ص10 طالرباط وفيه يعرفون آل منو وهم في "إدا وبا عقيل" أيضا بسوس.

ومن فروع الأدارسة الذين تبربروا بالأطلس المتوسط بآيت حديدوا ذرية عيسى بن إدريس دفين قرية إيقادوس بآيت اعتاب أبناء الإخوة الثلاثة الذين يطلق عليهم "ايت كرات" وهم محمد بن يحيى، وحدو بن يحيى، ويعرف خلفهم آيت يگو وعمرو، وحدو وعمرو، وقد تفرع من هذا الأخير علي وحدو، عمرو واعلي، واحساين واعلي، ومن أحساين وعلي، إبراهيم واحساين، وسعيد وأحساين وأحماد واحساين، وعلي واحساين، كما تعرف لهم بطون آنضوت ضمن آيت الثلث، بآيت إزدگ وتنطق بالمثناة بايت عتو وموسى، وآيت سعيد احدو وآيت اعلي ويكو بتشديد الكاف، وآيت سعيد احدو ،وآيت اعمرو اوحدو، وآيت إبراهيم.

هذه البطون الخمسة من الأشراف بايت احديدو يميزون عن آيت إيعزا التي ترجع في الأصل الى البربر من صنهاجة.

ومن بطون أدارسة آيت حديدو كذلك، بعض أهل قصر برم، بفتح الباء وتشديد الراء وسكون الميم، وهم اليوم ضمن قبيلة ايت إزدك بسكون الزاي، والكاف المعطشة، وهؤلاء من نسل حدو بن يحيى من آل عيسى بن إدريس، ولقد اشتهر من هؤلاء الأشراف في عهد الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي الشريف المعروف بـ سيدي بن احماد الذي قاد معاركهم الطاحنة بجبل بادو 1934م. على أن بعضهم قال إنه من أشراف سوس ومن الأدارسة الذين تجمعوا بنفس المنطقة البوكيليون المشار إليهم قبل، وهم الذين يعرفون بأهل الزاوية، أو شرفاء وادي زيز كما أسماهم المولى إسماعيل العلوي(97) فيما بأيدهم من ظهائر التوقير والاحترام، وقد كان مركزهم الأول بالوادي الأخضر من تادلة، فهم أبناء "أبو وكيل ميمون بن مسعود، بن موسى، بن عيسى، بن معزوز، بن عبد العزيز، بن علي، بن جابر، بن عمران، بن سليمان، بن أحمد، بن محمد، بن القاسم، بن إدريس، إذ هم من ذرية أحمد بن محمد كانون ويعرفون في ظهائر التوقير من ملوك الدول بشرفاء وادي زيز(98).

ومن الأدارسة كذلك الشداديون الحسنيون أهل سريف من قبيلة كتامة، وأبناء

---

(97) جددت بمقتضى ما بأيديهم من عهد المنصور السعدي، وقد وقفت عليها، وهناك بنو وكيل بن سحنون بآيت اسماحة، وأبو وكيل الصنهاجي دفين دكالة، وأبو وكيل بن زيد دفين الصحراء، وهؤلاء ليسو بالشرفاء يقول الزياني في البستان م خ نا ص 195ولقد ردهم إلى السوس القاسم بن إدريس خ.ع رقم 633ذ، وذكرهم صاحب الاستقصا ج 132/8 فيمن ذكر من الأشراف الذين كان يصلهم المولى سليمان نقلا عن صاحب الجيش السوسي.

(98) راجع ك.خ.ع. 771د ص55 والعز والصولة 72/2-113.

عمومتهم السقفيون الحسنيون، إذ هم بنو الحسن بن أبي القاسم، بن محمد، بن عبد الله بن إدريس، وهناك الشداديون أولاد سعيد بن عدو، بن عبد الرحمان، بن داوود، بن عمر، بن محمد، بن عبد الرحمن، بن أبي إسحاق بن محمد بن أحمد بن إدريس.

ومن الأدارسة الذين عادوا من غرناطة الرفاعيون من حفدة أحمد الرفاعي الأندلسي الغرناطي، إذهم من ذرية الشيخ موسى بن أحمد البطاش، دفين أفزاز من بلاد تامسنا بن موسى، بن أحمد الرفاعي الغرناطي، بن عبد الله، بن أحمد، بن عبد الله، بن أحمد بن عبد الله، بن كولان جد بني كولان المشار إليهم قبل بوادي زاء، بن عبد الله، بن سعيد، بن عيسى بن عثمان، بن إسماعيل، بن عبد الوهاب، بن يوسف، بن سيد، بن عامر، بن يحيى، بن عبد الله، بن أحمد، بن محمد، بن إدريس(99).

ومن الأدارسة أولاد آبن اعجيبة بالشمال، فهم من ذرية أحمد بن إدريس كما ورد في فهرست أحمد بن محمد المهدي، بن الحسن، بن محمد، بن اعجيبة الحجوجي، بن عبد الله المستقر بالخمس، ثم الى سحنون بن إبراهيم بن موسى بن عبد الله. يقول صاحب الفهرس إنه رأى ذلك بخط جده الحسين(100).

---

(99) راجع الاعلام للمراكشي 211/2 وفيه أورد المصدر المعتمد على شهادة علماء مدينة الرباط ورجالاتها وقاضيها صالح بن أحمد الحكمي وقد كان الرفاعي أحمد القسطالي من كتاب السلطان المولى سليمان الذي عينه لتعليم أولاده، ثم استعمله في ولاية فاس بدل ابن عبد الصادق الريفي، وذلك عام 1232هـ، لكنه عاد فعز له لعجزه، وولى مكانه الحاج محمد الصفار 1233هـ. وبعد عزله عاد لمرافقة المولى سليمان، ثم المولى عبد الرحمن ثم أولادهما إلى أن توفي 1256هـ. أما شيخه الأول فهو السيد عبد السلام سباطة الأندلسي.

وللرفاعي منظومة في الخط أشار عليه بنظمها عمر بن المكي، بن المعطي، بن الصالح الشرقي العمري الفيلالي أيام كان الرفاعي يعلم الأمير عمر بن المولى سليمان، وسماها: "نظم لئالئ السمط في حسن تقويم بديع الخط" ثم وضع لها شرحا سماه: "حلية الكتاب ومنية الطلاب" رتبه على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة. وبهذه المنظومة ختم بوجندار ترجمة الرفاعي رحم الله الجميع.

راجع ج1 من الاغتباط خ ص42، وفيه يقول: إنه روى هذا النسب كما وقف عليه مرفوعا في ورقة شهادة تلميذه محمد بن التهامي مؤرخة بغرة ربيع النبوي 1243هـ، وعطف عليه العالم المفتي محمد المكي بن عبد الله بن محمد بن عبد السلام بناني الرباطي، ثم محمد بن محمد في ربيع الثاني عام 1248هـ، ووقف على هذه الشهادة صالح بن أحمد الحكمي قاضي الرباط قائلا: جميع ما تضمنته شهادة السادة الجلة وعلماء الملة المرسومة أشكالهم أعلاه حق وصدق، وأنا أشهد لسادتنا المتمسكين بمضمونه إذ هو ما أستفاض، ثم عطف عليه محمد بن عبد الله بو علو، وأحمد بن المختار الغربي، ومحمد بن عبد الرحمن ومحمد الأوسي، وأحمد الطالبي الاندلسي، وأحمد بن الطيب، ومحمد بن محمد البوعزاوي، وعبد القادر بن بوعياد الخطيب بالجامع الأعظم والطاهر بن الحسين بوحد(إلخ).

(100) راجع فهرست ابن اعجيبة الزبيدي خ.ع. على أن زبيد إحدى بطون مدحج، راجع العبر لابن خلدون11/6.

ومن الأدارسة أولاد مغراو ناحية مازونة، فهم من خلف يعقوب بن عبد الله بن عمر، بن صفوان بن يسار بن سليمان بن يحيي، بن موسى، بن عيسى، ابن إدريس، ويوجدون في الشگران ناحية مستغانم، وبوادي ملوية، وفجيج، كما سبق وهناك مغراوة من البربر كما سبق أيضا.

ومن الأدارسة أولاد محمد بن إدريس الثاني كذلك أولاد أبو عنان من ذرية محمد بن إدريس أبناء عمومة الوادغيريين جدهم أبو عنان بن الحسن بن ثابت، بن علي، بن محمد، بن عبد الحميد، بن عمر، بن محمد، بن إدريس، إنتقلت طائفة منهم إلى دكالة من ناحية مراكش من أبي حماص، وقد خلف بوعنان بها ثلاثة من الرجال مع أبناء عمومتهم، أولاد ملوك بن علي بن أحمد بن إدريس ويوجد أولاد بوعنان أيضا بتلمسان، ومنهم أولاد الصفيصيفية، وهم المناصرة ومنهم وجرة بن إبراهيم بن محمد بن إدريس الذي آنتقل إلى تادلة واستقر بها وخلف أبو بكر بن عطا الذي نزل امزاب وتامسكانت، ومنهم الحسن بن أبي بكر الحسني الذي نزل آزمور(101).

ومن الأدارسة كذلك العلميون أهل جبل العلم من سلالة محمد بن إدريس الثاني أيضا جدهم أبو بكر الذي خلف من الأولاد علي، وأحمد، ويونس، والمهدي، وفتوح، وميمون، ومشيش، الذي خلف أشهر العلميين وهو العالم الجليل المولى عبد السلام بن مشيش(102) دفين جبل العلم والذي آشتهر من ذريته: أولاد محمد المعروفين بأولادعبد الوهاب، جدهم محمد بن عمر بن إبراهيم، بن عبد الوهاب، بن عبد الكريم، بن محمد، بن عبد السلام، بن مشيش، بن أبي بكر، ومن ذريته كذلك أولاد آبن حليمة جدهم يوسف بن محمد بن عبد الوهاب.

كما تعرف ذرية علي، بن عبد السلام، بن مشيش الذين آنتقلوا إلى تقليت وعين اللوح بآيت مولى إيعسابن بالأطلس المتوسط، وهم ايت عبد السلام، فرقة منهم بمراكش، وهسكورة، وغرزيم، جدهم جميعا يعقوب، بن علي، بن سعيد، بن عبد الوهاب، بن عبد السلام بن مشيش.

ومن ذرية عبد السلام بن مشيش عبد الصمد جد أولاد أحمد، وأولاد العربي الذين انتقلوا الى قبائل زواوة، ثم تونس، وعادت فرقة منهم يعرفون بأولاد محمد، وأولاد

(101) الترجمان المعرب للزياني م.خ. 257-258، ومحمد بن عبد العظيم الأزموري صاحب بهجة الناظر خ.ع. 1343د.

(102) قتل غدرا قتله "أبو الطواجين" سنة 561هـ 1165م.

عبد القادر وتخلف بتونس أولاد يونس بن أحمد بن محمد بن يحيى بن أحمد، بن موسى، بن مشيش، ومنهم أولاد أحمد المعروف بأبي العباس(103) غرب الجزائر.

ومنهم الريسونيون، وجدهم محمد بن عبد الله، بن يونس، بن أبي بكر، ومنهم اليملحيون، وأولاد إبراهيم، وأولاد راشد، في الهبط، وبنو حرمة، والخرشفيون قرب سبتة وبنو جرمون قرب فجيج، وقد كانوا هم كذلك بمنطقة الرتب اوفوس إقليم تافيلالت حيث يعرف قصرهم حتى اليوم بـ "قصر اجرامنة". وبنو ليث بن مرزوق، وبنو خالد، وأولاد الدگون في الخمس، جدهم يحيى بن إبراهيم، بن عبد الرحمان، بن الفضل، بن أحمد، بن عبد الواحد، بن عبد الله، بن عبد الكريم، بن محمد، بن عبد السلام، بن مشيش، بن أبي بكر، بن علي، بن محمد، بن حرمة، بن عيسى، بن سلام، بن مزوار، بن علي حيدرة، بن محمد بن إدريس(104).

ومن الأدارسة بسجلماسة الحسنيون أبناء الحسن بن مهدي بن محمد بن علي بن أحمد بن موسى بن جعفر بن علي بن محمد بن إدريس.

والجندوليون بآزمور، من ذرية الحسن بن محمد بن عبد الوارث بن محمد بن عمران بن يحي بن عمران بن محمد بن داوود بن موسى بن عمران بن صفوان بن خالد بن زيد بن عبد الله بن إدريس.

ومن الأدارسة السراغنة ناحية تازة، من بلد كلوان، وفي بني ليث، وبني يازغة والمغارة من غزوان قرب آسفي، وزمور الشلح، وفي أزمور، وفي سجلماسة يعرف لهم قصر أسرغين بالغرفة، كما يوجدون بالقرب من وادي سبو جدهم بصفرو، وهو سليمان المكنى بأبي سرغين بن إبراهيم بن عبد الحليم بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن أبي القاسم بن إدريس(105).

ومن الذين أفسدوا في الدين، وقد قيل إنهم أدارسة وهم غير موثقون الكتانيون،

---

(103) باسم خلفه عرفت مدينة "سيدي بلعباس بالجزائر".

(104) راجع عن العلميين المخطوطات التالية خ ع 1344 د–1484د – 2015د – ثم مرآة المحاسن ط 1324 ص167–178–187، وفيها منهم أي الادارسة العلميون: الترغيون، وبنو راشد، وبنو حليمة ص179–182. وتحفة الحادي المطرب للزياني، والاشراف لابن الحاج.

(105) راجع الدرر 58/2، والمرآة، المصدر السابق:

تلك جولات مع الأدارسة في مختلف جهات المغرب وفي شمال إفريقيا لم أهدف منها إلى الحصر، بقدر ما أهدف الى إظهار ما قام به الأدارسة من مساهمة فعالة في بناء حضارة الإسلام والتمكين لها في هذا البلد، كما أثير الانتباه الى ما سيكون لهم من مشاركة فعالة في التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، وأنهم بحق وفي كل=

فقد قال عنهم ابن صهرهم وهو محمد ابن الحاج المرداسي المتوفى 1274هـ/1857م في كتابه الاشراف على من بفاس من مشاهير الاشراف، والزياني في تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب م خ نا ص38–40 إنهم من سلالة يحيى بن عمران، بن عبد الجليل، بن يحيى، بن يحيى، بن محمد، بن إدريس، مع أن الكتانيين الذين بفاس يقولون إنهم قدموا من زواوة بالجزائر، وأنهم لم يقدموا لمدينة فاس إلا في أواسط المائة العاشرة للهجرة، وأول قادم هو محمد بن أبي القاسم، الذي سكن خلفه في عقبة بن صوال، وقد عدد من أجداده ستة عشر، إلى إدريس في زمن يقدر بثمانية قرون، فهم عنده اعتمادا على الوثيقة المذكورة في القرن العاشر يبدأون بـ:محمد] بن القاسم] بن عبد الواحد] بن علي] بن محمد–فتحا–] بن علي] بن موسى] بن أبي بكر] بن محمد] بن عبد الله] بن هادي] بن يحيى المدعو "أمير الناس"] بن عمران] بن عبد الجليل] بن يحيى] بن ادريس.

على ان كل المصادر التي وقفنا عليها لم تذكر ليحي خلف اسمه عبد الجليل، وهذا الإسم نفسه لم يكن شائعا في القرن الثاني للهجرة، بل ومن حيث العدد 16 في 8 قرون غير مقبول، في الوقت الذي نجد فيه المؤرخ محمد بن الطيب القادري المتوفى سنة1187هـ–1773م يفصل بينه وبين علي بن أبي طالب من الآباء ثلاثة وثلاثون.

ثم يقولون إنهم قدموا من زواوة بالجزائر، وقد حصل للذي قدم من زواوة ما حصل من كشف، بل يأتي قبل ابن الحاج أبو القاسم الزياني في كتابه "تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب" مخطوط، فيقول عن الذين سجلوا في ديوان الأشراف على عهد المولى إسماعيل، وأكده النقيب عبو الشبيهي إدريس بن عبد الوهاب، وأنهم ليسوا بأشراف حيث يقول:"وشهدوا على السيد محمد بن عبد الله المثبولي زاعما أنه من زواوة، فلم يات بحجة فأبطلوا دعواه"، ثم استمر في سرد أسماء المدعين.

كما نجد أن الكتانيين بحكم الوراثة يستدل على أصولهم من سلوكهم المشهور، بل ومن خلال كيد بعض أفراد هذه الأسرة للإسلام في المغرب، وما نشره "محمد الباقر" من

= زمان يمثلون التمسك والأصالة في تاريخ المغرب، ولم يقتصر وجودهم ونشاطهم على المغرب الاقصى فقط بل عرفوا بالأصالة في أقطاره الأربعة، بل وفي مصر، وصقلية، وجزيرة العرب وتمبكتو، وبرنو، وهوصة، وبولان من أقطار السودان. راجع أيضا زامباور الأسر الحاكمة 1/197–98، وجزيرة العرب لحافظ وهبة وملوك المسلمين المعاصرون لأمين سعيد1/198، وتاريخ سينا لنعوم شقير 660، والاعلام للزركلي 1/95-7/196، ونزهة الحادي ص17 ط 1888الخ.

ترجمة لأبيه عام 1962م، وهو الضال الذي مد يده للاستعمار مبكرا، كما يؤكد ذلك الزعيم علال الفاسي في كتابه الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ص153/ط القاهرة 1948، وكذا ما أورده صاحب الرحلة المراكشية جـ1/165-173إلخ، وهو ما سوف نفصل فيه حين كلامنا عن السلفية في المغرب بعد، ومن خلال خطوط محمد بن عبد الكبير. ومهما يكن فإن الخلط الذي وقع فيه المدعون من الكايتانيين الذين عدوا لهم من الآباء إلي على بن أبي طالب(29) في ظرف(13)قرنا، وعند ابن الحاج الذي قال: إنهم قدموا أواسط المائة العاشرة(16) قد فصل فيه عبد الحي الكايتاني الذي رجع إلى أصله حيث هرب بخيانته إلى إيطاليا إثر الاستقلال وفيها مات بعضة كلب... إلخ نعود فنؤكد أن ما أورده ابن الحاج غير سليم لأن القاعدة التي وضعها ابن خلدون وتبين أنها مقبولة هي ثلاثة أجيال لكل قرن، هذا زيادة على أن ابن الحاج قال إنه اعتمد في ما كتبه عنهم، على رسم أنشئ بمكناس؟ أوائل المائة العاشرة، وقد قال صاحب "الدر السني فيمن بفاس من النسب الحسني، والحسيني "عبد السلام بن الطيب القادري" إنه لم يقف على نسبهم، وإذا علمنا مكانة هذا الرجل وأخويه في البحث والتاريخ، وأنه عاش ما بين عام 1058-1110هـ/1648-1698م- وبذلك يكون أقرب إلى زمن الرسم الذي أشار إليه ابن الحاج ابن صهر الكتانيين، المتوفى 1274هـ 857م، ومهما يكن فإن إدعاء الكتانيين في نظرنا يحتاج الي تحقيق خصوصا إذا نحن آستوعبنا سلوك أكثر الذين تعرفنا عليهم منهم سواء قبيل الحماية محمد بن عبد الكبير، وفي عهد الحماية، وما كان لبعضهم يتقدمهم الخائن المجرم الحقير عبد الحي بن عبد الكبير(106)من أدوار ساقطة إلى جانب الفرنسيين ضد البلاد والعباد، وكذا ما عرف عنه من كتابة حول شقيقه محمد القتيل تحت السياط، والذي كفره صراحة، والذي سنتعرف عليه بعد في عهد السلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ بل وعلي خلفه. الخ.

وعن أنساب الأدارسة بسوس راجع كتاب سوس العالمة "لصديقنا الأستاذ محمد المختار السوسي رحمه الله وما فيه من دراسات عن الأنساب الخ.

---

(106) حكم علي عبد الحي بعد الاستقلال بالخيانة العظمى، ففر والتجأ الى إيطاليا ليعود الى أصله كما قال بعضهم وقتها حيث تعرف أسرة كايتاني المستشرق المعروف بكتاباته حول تاريخ الإسلام، وفي دائرة المعارف الاسلامية راجع الموسوعة ع1438، بل وفي مدينة فاس توجد عائلة "كيتان"، بل إن لهؤلاء الكتانيين أنفسهم فرق منها مثلا أولاد الحلبية. ويتنكر بعضهم لبعض، وبالتالي فهم أهل شعوذة ودجل مكشوف، الى جانب فضائح خلقية وصلت الى المحاكم بين الذين هم في سلا مع أسرة الطالبي الذين استنكروا دفن إبراهيم الكتاني بزاويتهم، وقد اشتهر بما اشتهر به بينهم، ولذلك اغلقوا زاويتهم نهائيا حيث لا تزال كذلك في انتظار الفصل الخ.

الفصل الثاني والخمسون

السليمانيون والحسينيون الطاهريون والصقليون والعراقيون ثم القادريون الحسنيون

السليمانيون هم أبناء عمومة الأدارسة، فهم أبناء سليمان بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، وسليمان توفي في موقعة فخ حسب أصح الروايات وكما ورد عند مصعب وابن حزم، وابن أبي زرع(107) والزياني وابن الحاج وعلى السوسي، وان كان النوفلي وابن خلدون وغيرهما يقولون، أنه دخل المغرب، في حين أن الذي نزل عين مطغرة قرب مدينة الجدار(108) ودفن في مهاجة، من إقليم وهران هو محمد بن سليمان(109).

وخلف محمد بن سليمان من الأولاد عشرة، ستة منهم لم يخلفوا، وهم الحسن والحسين وناصر، ويوسف، وعلي، وعبد الرحمان، وفي رواية آبن حزم الذي آقتصر على ذكر من أعقب ذكر منهم الحسن، وعلي، المشار اليهما وكذا باقي الإخوة إدريس، وعيسى، وابراهيم، واحمد، والحسن(110) وقد تفرعت ذريتهم أكثر في قطر الجزائر، وعد المؤرخون منها ثمان فرق هي كما يلي(111).

الفرقة الأولى: أولاد طاع الله الذين سكنوا بيدر، وهم بنو طاع الله بن علي بن القاسم، بن محمد، بن احمد، بن محمد، بن سليمان.

---

(107) الجمهرة 48 ط دار المعارف 1971، على أن غيره كثير ممن قال إنه دخل المغرب وقصد تاهرت الخ؟!

(108) العبر 34/4، والدرر 281/2.

(109) الترجمان للزياني م خ 256–257.

(110) ابن حزم المصدر السابق، وعند صاحب اللالئ زيادة عبد الله المحدث كما لقب الحسن الذي عقب بالصغير.

(111) سقط منها واحدة عند ابن حزم هم أولاد عبد الحي.

الفرقة الثانية: بنو عبد الحي سكنوا توات، ووادي شلف، ويرجعون كذلك إلى أحمد، بن محمد سليمان.

الفرقة الثالثة: بنو إبراهيم سكنوا تونس كما سكنها أبناء عمومتهم الأدارسة في القرن التاسع الهجري.

الفرقة الرابعة: بنو عيسى، سكنوا سكدال، وخبر جدهم حمزة بن علي، في بيدر مع أخويه شعيب بن علي، ومحمد بن علي، وحمزة بن علي، بن محمد، بن عيسى، بن إبراهيم ،بن إدريس، بن محمد، بن سليمان، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، بن علي وفاطمة.

الفرقة الخامسة: أولاد فطوش(112) بن حناش الذين سكنوا تاهرت، وزواوة وهم من فطوش بن حناش، بن الحسن، بن أبي العيش، بن إدريس، بن محمد، بن سليمان الخ.

الفرقة السادسة: بنو عبد الرحمان بالجزائر عين الحوت، ولهم إخوة بسجلماسة وهم أهل قصر أبي عبد الله بمدغرة، ومنهم البطل المجاهد حمزة الحوتي الذي سوف نتعرف عليه وقت غزو الفرنسيين للمغرب(113) جدهم عبد الرحمان، بن علي، بن مخلوف، بن زيد، بن أحمد، بن محمد، بن القاسم، بن محمد، بن إبراهيم، بن عيسى، بن إدريس، بن محمد بن سليمان، الخ وهم غير أولاد عبد الرحمن بن علي، بن إدريس، أهل تابع صامت بتافيلالت.

الفرقة السابعة: بنو العابد سكنوا ترارة، وكانوا ببيدر مدة أربعين سنة، وجدهم الشيخ العابد محمد، بن علي، بن موسى بن سعيد، بن أحمد، بن محمد، بن سليمان، بن عبد الله الكامل الخ.

الفرقة الثامنة: أولاد الطاهر بن علي، بن أبي القاسم، بن محمد، بن أحمد، بن محمد بن سليمان.

وهكذا نجد السليمانيين هم الآخرين قد انتشروا من مهاجة إلى عين الحوت ومن

---

(112) عند غير ابن حزم فطوش بالفاء، وفي نفس ص48 ت 2 بطرش وهو تصحيف.

(113) منهم الشهيد المرحوم حمزة الحوتي الذي سنتحدث عنه في موضوع مقاومة الاستعمار الفرنسي بتافيلالت، إذ هو من شهداء المعاضيد بتافيلالت عام 1916م كما سنرى بعد.

وهران إلى الشرق والجنوب، وفي فشتالة وواد شلف، ووادي الرمان، وأرشكول، كما انتشروا في أقطار أخرى مثل سوس، وكانت لهم صولة، ثم انتقلوا الى مصر والسودان والحبشة(114) وكما يقول ابن خلدون: "ومن السليمانيين إبراهيم صاحب أرشكول، ومن ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى، بن إبراهيم، صاحب سوق إبراهيم(115) ويقول ابن حزم: وهم بالمغرب كثيرون جدا، وكان لهم بها مماليك، وقد بطل جميعها، ولم يبق منهم بها رئيس بنواحي بجاية"، ومنهم بنو حمزة الذين حملهم جوهر إلى القيروان، وبقيت منهم بقايا في الجبال، والأطراف معروفون هناك عند البربر(116) وقد كان لبني حمزة هؤلاء دور في نكبة أبي الحسن المريني بتونس كما سنرى في عهده(117). ومن السليمانيين المنجريون، وأولاد إبن معزوز بفاس، ويوجدون بزرهون، وعين الشعير وتوات، وغيرها من جهات المغرب أيضا حتى إن ابن خلدون رد ابن تومرت إليهم، والواقع أنه إدريسي كما سنرى. فهو من سلالة عبد الله بن إدريس الذي كان باغمات إذ هناك المنجريون أولاد سعيد بن عبد الله بن إدريس كما سبق.

الحسينيون والقادريون الحسنيون

والحسينيون بالمغرب منهم الطاهريون الذين كان جدهم محمد بن طاهر الحسيني حيا بفاس زمن الموحدين، حيث ولي القضاء بل منصب قاضي الجماعة زمن يعقوب المنصور الموحدي، وقد مدحه القاضي محمد بن نوح الغافقي قاضي بلنسية بقصيدة تعرض فيها لنسبه(118) والطاهريون الحسينيون من سلالة أحمد بن علي، بن محمد،

(114) الأنوار الحسنية لأحمد بن عبد العزيز 24-25ط 1966 تحقيق المؤلف والترجمان المعرب للزياني م خ256-257.

(115) العبر لابن خلدون 36/4، ثم الدرر البهية ج181/2، وفيه أن إدريس بن محمد بن سليمان خلف تسعة أولاد نزل منهم إبراهيم تونس، وعيسى أرشكول، والحسن تاهرت، ويحيى توات، وعلي بوادي شلف، والحناش ترارة، ومحمد العابد بالشقران ومستغانم، ويعقوب ما زونة، وحمزة في بيدر قرب تلمسان، وقيل إن يعقوب نزل أيضا بمازونة.

(116) العبر المصدر السابق.

(117) راجع العبر 567/7.

(118) راجع الذخيرة السنية ص 48ط الرباط 1972 وتوفي القاضي محمد بن نوح سنة 614هـ 1217م راجع ص50.

بن أحمد، بن محمد، بن محمد، بن علي، بن محمد، بن طاهر، بن علي، بن يحي، بن محمد، بن علي، بن حسين، بن محمد، بن عبد الله، بن طاهر، بن حسن، بن موهوب، بن أحمد، بن محمد، بن طاهر، بن حسين، بن علي، بن محمد، بن علي، بن موسى، بن جعفر، بن محمد، بن الحسين، بن علي، بن أبي طالب(119). ومنهم الصقليون أهل سبتة من سلالة جعفر الصادق، والذين آنتقلوا الى مدينة فاس، وأبناء عمومتهم بنو حمزة، والحگونيون أولاد الحكون الذين آنتقلوا الى قرية ترغة من أرض غمارة، فمنهم أولاد أحمد بن حگون، بن محمد، بن حمزة، بن جعفر، بن إسماعيل، بن جعفر، بن محمد، بن الحسين، بن علي، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن علي، بن زين العابدين، بن الحسين السبط، بن علي، بن أبي طالب(120)، وقد تعرض السكاك لفرق الصقليين، ثم قسمهم ثلاث فرق، واحدة بعدوة القرويين، واثنتان بالأندلس، إحداهما آنقرضت بموت محمد بن العربي الصقلي 1059هـ/1649م.

ومن الحسينيين كذلك العراقيون أيضا فهم أبناء العابد بن أحمد، بن العابد، بن محمد، بن أحمد، بن القاسم، بن محمد، بن علي، بن محمد، بن أبي القاسم، بن علي، بن محمد الهادي، بن نفيس، بن عبد الله، بن الحسن، بن علي، بن عبد الله، إبن أبي الطيب طاهر، بن الحارث، بن إسماعيل، بن إبراهيم، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن علي، بن زين العابدين، بن الحسين، بن علي، بن أبي طالب(121).

وكانوا بفاس يقول آبن الطيب القادري، يتفرعون إلي ثلاث فرق: واحدة آنقرضت وهم المعروفون بالسبتيين(122) وأن أول من قدم منهم المغرب هو السيد نفيس بن عبد الله العراقي، ومنه تفرقت فرقتان وقد كتب عنهم السيد أحمد بن علي البوسعيدي، كما وجد بخط الإمام علي بن هارون ومثله القصار المتوفى عام 1004هـ/1595م، والذي نقل عن محمد بن طاهر الصقلي الذي قال كان بنو مرين يعظمون العراقيين، ولعله يقصد زمن أبي سعيد يوسف المريني(123).

---

(119) مخطوط لقادري خ.ع 1574 د ص 55.

(120) راجع ازهار الرياض للمقري 1/32-33.

(121) خ ع 1574 ص154.

(122) نفس المصدر 152 نسبة الى مدينة سبتة.

(123) المصدر السابق 1153، ومراة المحاسن ط حجر 1324 ص 86، والروض المعطار للحميري م خ تا2/117.

ونختم هذه الجولة بالشرفاء القادريين نسبة الى عبد القادر الكيلاني، والذين كتب فيهم النقيب سليمان الحوات 1160–1231هـ/1747–1816م كتابا أسماه "السر الظاهر"(124)، كما كتب عنهم الفاسي العربي وغيره(125)، وقد فصل الحوات في نسبهم بطريقة مكنته من توثيق نسب القادريين، وما كان لهم من فضل كبير على العلم وإشاعته بين المغاربة، وتمسكهم بالدين، ونشره والتمكين له في أرض السودان بحكم ما لهم من رحم مع ملوك غانة الحسنيين السابق ذكرهم وأن نسبهم جميعا يرجع الى عبد القادر الكيلاني دفين بغداد، وإذا نحن أخذنا آسم المؤرخ الشهير محمد بن الطيب القادري صاحب نشر المثاني المتوفى بفاس في 25 شعبان 1187هـ/ 11/11/1773م، والذي اتخذه الحوات منطلقا للصعود بنسب القادريين الى عبد الله الكامل، نجده كما يلي فهو عنده: محمد بن الطيب بن عبد الرحمن بن الطيب بن عبد السلام، بن الطيب، بن محمد، بن محمد، بن محمد، بن محمد، بن محمد، بن محمد، بن سعد، بن أحمد، بن أحمد، بن محمد، بن علي، بن أحمد، بن إبراهيم، بن عبد القادر، بن أبي صالح موسى، بن عبد الله، بن يحي الزاهد، بن محمد، بن داوود، بن موسى، بن عبد الله، بن أبي بكر، بن موسى الجون، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي، بن أبي طالب(126)، رحم الله الجميع، والقادريون عند الزياني في "الروضة(127) يوجدون بفاس ومكناسة ومراكش وسوس وأبناء عمومتهم الهواشم ملوك مكة، وبنو أبي عزيز ملوكها أيضا وغيرهم كما هو في ظهير السلطان محمد بن عبد الله في العز والصولة ج 111/2 ط1961(128).

هذه بعض الأمثلة على آنتشار الأشراف الأدارسة وأبناء عمومتهم بربوع المغرب الكبير وغيره في هذه المرحلة، وإذا كان القصد كما أشرت هو الاستدلال على مدى

(124) ط حجر بفاس . فرغ منه 1206هـ.

(125) المصدر السابق مرآة المحاسن، وعند الحوات في السر الظاهر ص126 ان الشبوكيين من الحسنيين، وهو ما عند المسناوي في كتابه النصرة كما نص.

(126) السر الظاهر للحوات ط حجر بدون تاريخ ص118، راجع المنظومة ص 120–121 في 77 بيت، وفي كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني للشيخ عبد القادر الكيلاني ط3 ط 1379 أسقط من عمود النسب ما بين عبد الله المحض والحسن المثنى، وهم أبو بكر وموسى الجون وعبد الله الكامل".

(127) الروضة السليمانية م.خ.

(128) راجع العز والصولة لابن زيدان ج111/2 ط الرباط 1961م.

تواجدهم في جهات مختلفة، فإنهم حيثما وجدوا كانوا مصدر قوة وتمكين للدين ورسالته، كما أن المجتمع الذي كانوا يظهرون فيه، لا يمكن أن يتسرب الضعف في العقيدة الى أهله، وتلك كانت رسالتهم، وإذا ما طغى سلطان دولة، أو ولاتها، وتعرض الأشراف الى مضايقات فإنهم قط لم يستسلموا بالشكل الذي ينتهي بهم الى فناء، بل كانوا في كل مكان سرعان ما يسترجعون أنفاسهم، ويبادرون بطريقة أو بأخرى للقضاء على الطغيان، وتلك كانت حياتهم عبر تاريخ المغرب السياسي، منذ عهد الأدارسة ودولتهم، الى عهد محمد المهدي بن تومرت، وما بعد أبي سعيد، ومولد الطفل عبد الحق من دولة بني مرين، إلى عهد السعديين الأدارسة، ثم عهد العلويين أبناء علي الشريف حفيد الحسن الداخل.

وبالتالي فأنا لست أهدف من وراء الأمثلة السابقة إلى تحقيق الأنساب في المغرب قاطبة، لأن لذلك طريقة أخرى ونهج آخر من الدراسة، وتاريخ المغرب يتوفر على الكثير من الكتب في هذا المجال(129) كما أنني لم أقصد إلى التحقيق فيما عرف لبعض الذين تناولوا هذا الموضوع من أخطاء مثل العربي بن يوسف الفاسي الذي أسقط من عمود نسب الجوطيين ثلاثة من الآباء(130) بل الذي أهدف إليه من هذه الأمثلة هو ما سيعترضنا في تاريخ المغرب السياسي، وما كان للأشراف الادارسة فيه من أثر لم ينتبه له المؤرخون، وهو التمكين للإسلام والمحافظة على الذاتية المغربية، خصوصا إذا علمنا مما سبق أن غاية بعض الفاتحين في عهد الأمويين لم تكن لغير ما قررناه قبل من سبي وغنائم، لولا أن تداركها عمر بن عبد العزيز الذي لم تطل مدته، فالأدارسة هم الذين سينشؤون الرباطات بعد للجهاد، وهم الذين سيعرفون السواد من قبائل البربر أن دين الإسلام عقيدة ومعاملات، وبالتالي فمنهم وعنهم ستنشأ الزوايا كوسيلة لرد عاديات المتربصين بالمغرب، حين تؤول دولة بني مرين وأعقابها من الوطاسيين الى الضعف

---

(129) في مقدمتها الجمهرة لابن حزم ط دار المعارف مصر1971، وكتب القادريين المذكورة قبل الدر السني خ ع 1156د، والاشراف للسلمي خ ع 653د، وأنساب الشرفاء للشبيهي في مجموع من ورقة 75 إلى 113 ب رقم1457 د خ ع ثم الدر النفيس للطبي 649د ونسب العلميين للقادري. 771د، وتقييد في الجوطيين له في مجموع1394د، والسر الظاهر للحوات ط حجر، والدرر البهية لادريس الفضيلي ط حجر الخ، وتحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب لأبي القاسم الزياني. الخ.

(130) راجع الجدول في المرآة، ثم راجع السر الطاهر للحوات ص128.

وتظهر أطماع البرتغاليين والاسبانيين، مما سيؤدي إلى ظهور حركة السعديين، ومن بعدهم حركة المتصوفين كالعياشي والدلائيين، وغيرهم كما سنرى.

وحتى يكتمل في تصورنا واقع المجتمع المغربي، نتعرف كذلك على مافيه من بقية أنساب العرب وقبائلهم في المغرب العربي الكبير الذين تعرض تاريخهم -أي العرب- فيه إلى تمزيق ساهم فيه المستعمرون وأذنابهم بعملهم المفضوح هذا بربري، وهذا عربي، ولا غاية غير التمكين لفساد الإرهاق والاستبداد.

الفصل الثالث والخمسون
طبقات الأنساب وقبائل العرب
بالمغرب العربي الكبير

حكى أبو عبيدة أن طبقات النسل التي عليها العرب سبع وهي: الشعب(131)، ثم القبيلة(132)، ثم العمارة(133)، ثم البطن(134)، ثم الفخذ(135)، ثم الفصيلة(136)، ثم العشيرة(137)، وكل واحد منها يدخل فيما قبله، فالعشائر تحت الفصائل، والفصائل تحت الأفخاذ، والأفخاذ تحت البطون، والبطون تحت العمائر والعمائر تحت القبائل والقبائل تحت الشعوب، فجذيمة وكنانة قبيلة وقريش عمارة، وقصي بطن، وعبد مناف فخذ، وهاشم فصيلة، والعباس عشيرة، وكانهم ركبوا ذلك على بنية الإنسان، فجعلوا الشعب بمثابة أعلى الرأس، وهي القطع المشعوب بعضها الى بعض تتصل بها الشؤون، وهي القنوات التي في القحف لجريان الدم، وجعلوا العمارة تلو ذلك إقامة للشعب والقبيلة مقام الأساس من البناء، وبعد الأساس تكون العمارة، وهي بمثابة العنق والصدر، وجعلوا الفخذ تلو البطن، لأن الفخذ من الإنسان بعد البطن، وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ، لأنها

---

(131) يجمع على شعوب، وهو النسب الأبعد، وسمي شعبا لأن القبائل تتشعب فيه كما أورد القلقشندي نقلا عن الزمخشري والماوردي.

(132) هي ما انقسم فيها الشعب كربيعة، ومضر، وسميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها، وربما سميت جماجم، كما عند الجوهري، وجماجم العرب، هي القبائل التي تجمع البطون.

(133) تجمع عمارات وعمائر، وهي ما انقسم فيه أقسام القبيلة كقريش وكنانة.

(134) يجمع على بطون، وهو ما انقسم فيه أقسام العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم.

(135) يجمع أفخاذ، وهو ما انقسم من أقسام البطن كبني هاشم وبني أمية.

(136) وهي ما انقسم فيه أقسام الفخذ كبني العباس.

(137) يجمع عشائر، وعشيرة الرجل رهطه، راجع القلقشندي في نهاية الأرب ص13 ط 59، والتهذيب في أصول التعريب د. أحمد عيسى ص28 ط 1923.

النسب الأدنى الذي يفصل عنه الرجل بمثابة الساق والقدم، إذ المراد بالفصيلة العشيرة الأدنون، ودليل قوله تعالى "وفصيلته التي تؤويه" أي تضمه إليها ولا يضم الرجل إليه إلا أقرب عشيرته.

تلك هي الطريقة التي تناول بها علماء التاريخ النسب ودراسة الأنساب، وذلك ما سلكه آبن خلدون فيما يرجع إلى أنساب العرب والبربر، ومثله فصل السابقون قبله مثل إبن حزم وغيره(138).

وقد آهتم العرب أكثر من غيرهم بالنسب لأنه كما يقول أحمد بن محمد بن عبد ربه المتوفى عام 328هـ/939م سبب التعارف، وسلم الى التواصل، به تتعاطف الأرحام الواشجة، وعليه تحافظ الأواصر القريبة، ولم يعرف التاريخ العام أمة آعتنت بحفظ النسب كالعرب، ولهم في ذلك نوادر عجيبة تدل على ما كان لهم من الهمة والولع بحفظ الأنساب(139) وقد نبغ الكثير جدا من العرب في علم الأنساب كما سبق أن ذكرنا بعضهم قبل، حين كلامنا عن العرب بصفة عامة قحطانية وعدنانية" الباب 4 الفصل 23 وكذا ما أشرنا إليه من تواجد العرب الفاتحين بالأندلس وتعدد قبائلهم، ثم تفرقهم في جهات مختلفة من العدوتين، وهو موضوع يحتاج الى تعمق أكثر لأنه الذي يوضح لنا عروبة المغرب العربي الكبير أكثر.

أما عن وجود القبائل العربية بالمغرب فبعد جولتنا مع الأدارسة وتوزيعهم في المغرب الكبير وخارجه حيث رأينا كيف أصبحت ملامح المجتمع المغربي، وقد تغيرت، بل أصبح مطعما بما جد فيه من عناصر، بل إن حضارة الإسلام أرست قواعدها في القيروان، وتاهرت وسجلماسة، وأغمات، وفاس، والأندلس وما فيها من المدن التي أخذت طابعها من الفكر العربي ومعطياته، بعدما أصبح العرب قادرين على المزاحمة وفرض سلطانهم في المجال السياسي بالمغرب الكبير.

وإذا عرفنا أن أول عهد إدريس الثاني عرف هجرات متعددة لقبائل متعددة من

---

(138) العبر من ج1 إلى 7 وما فيها من جداول وشجرات.

(139) راجع ما بعد ت108 قبل وبعد ت 128.

العرب(140) فإنه ما كادت الدولة تشيخ بعد قرنين، حتى كانت جموعهم قد تكاثرت بشكل مكنهم من مساندة الهلاليين الذين سيفدون على المغرب بعد، كما يقرر ذلك آبن خلدون الذي سبق له أن قال حين كلامه عن الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة "لأن العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن... وأما آخر مواطن العرب فكانت برقة"(141) هذا في الوقت الذي سبق له أن قرر حقيقة يفهم منها أن العرب تواجدوا بالمغرب الأقصى بجموع كثيرة ترجع في أصولها إلى مختلف قبائل العرب، "وأنهم :انتشروا في الأرض وأصبحوا قوة في دولة الاسلام، وافترقوا في الثغور البعيدة والأقطار البائنة، فنزلوا حامية، ومرابطين، عصبا، وفرادى"، فعرف المغرب فرقا مقاتلة من قريش، وكنانة، وخزاعة، وبني أسد، وهذيل، وتميم، وغطفان، وسليم، وبطونها من ثقيف، وسعد بن بكر، وعامر بن صعصعة، ومن إليهم من الشعوب، والبطون، والأفخاذ، والعشائر، كما عرف المغرب من بين ربيعة بنو تغلب بن وائل، وبنو بكر بن وائل، وكافة شعوبهم من بني شكر(142) وبني حنيفة، وبني عجل وبني ذهل، وبني شيبان، وتيم الله، وبني النمر بن قاسط بن عبد القيس، ومن إليهم، كما عرف من اليمنية، ومن كهلان بن سبأ أنصار الله الخزرج، والأوس أبناء فيلة من شعوب غسان وسائر قبائل الأزد، همذان خثعم وبجيلة ثم مدحج، وكافة بطونها من عبس، ومراد، وزبيد، والنخع، والاشعريين، وبني الحارث بن كعب ثم لحي وبطونها الخ(143). هذه البطون، والأفخاذ، والفصائل، والعشائر كلها عرفت المغرب منذ زمن الفتح، وعرفها المغاربة كذلك، واختلطوا بها واختلطت بهم، حقا إن أكثرها كما قال آبن خلدون إستقر بمصر وبرقة ولم ينتشروا أكثر الا بعد زمن عمر بن

---

(140) راجع ما بعد تعليق 320 فصل 34جـ أول من هذا الكتاب، ويخبرنا الزياني في كتاب "الشكوى والحال" ص290 م خ نا رقم 108 أن قبيلة لحياينة من طيئ قبيلة حاتم الطائي المشهورة، ويقول في الروضة السليمانية م خ نا رقم 106 ص 330، وليس بمغربنا من قبائل اليمن غير لحياينة، وبني حسن من طئ، وأولاد عطية من حمير، وباقي عرب المغرب كلها من قضاعة ومضر".

(141) ج 8/6.

(142) شكر بطن من محمد بن عبد الله بن علي من بني قرة من قبيلة القمور التي تلتحق بالأثبج من هلال بن عامر من العدنانية وهم منتشرون بالمغرب العربي الكبير. راجع العبر 25/6، وذلك حين كلامه على بني قرة، والقلقشندي 397 مصدر سابق.

(143) 13/4.

الخطاب الذي كان لا يسمح بأن يفصل بين العرب ومواطنهم الأصيلة ببحر، لكن زمن بني أمية وبني العباس وكما رأينا عرف العرب فيهما آنتشارا كانت الدولة الثانية تهدف من ورائه إلى قتل المعارضة والقضاء عليها أكثر مما فعلت الأولى التي كان آهتمامها أكثر بالسبايا والغنائم كما وضحنا ذلك قبل بتفصيل.

لقد آنساق بعضهم وراء كلمة آبن خلدون "العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن"(144) فقالوا إنه لم يكن للعرب وجود قبل هجرة الهلاليين، ونسي آبن خلدون نفسه أنه قال بعروبة كتامة، وصنهاجة وأنها من قبائل حمير قدم بهما إفريقش بن صيفي الذي سميت إفريقية بإسمه، وهو رأي لو عاش آبن خلدون الى عصرنا لعاد إلى نفي هذا الزعم الذي ربما آستقاه من بعض مؤرخي المشرق ذوي الروايات، ولو أخذنا بقول آبن خلدون لقلنا إن نصف سكان المغرب قبل الإسلام كانوا من العرب مادامت كتامة وصنهاجة عربيتان.

ومهما يكن فإن الذي يعنينا هو أن العرب قدموا مع الفتح، وتركزوا بعده، ثم أصبحوا قوة سياسة واجهت صراعات متعددة ومعارضات متعددة كذلك، ثم هي عاشت بين مد وجزر منذ بداية الفتح 18–22هـ الى 122هـ، حين حصلت موقعة الأشراف بسبتة، ثم كونوا لهم دولا بعدما عبروا المغرب من القيروان إلى سجلماسة، وإذا ما تمكنت دولة الأدارسة فإنهم آمتزجوا أكثر بالبربر والمغاربة، حتى إذا ما تعرضت الدول التي كان للعرب فيها نفوذ الى الزوال، أقامت أحياء العرب في صحاري الجنوب من المغرب والمشرق بإفريقية(145) كما بقيت منها جموع بناحية فاس ساهمت في القتال الى جانب المعز بن باديس ضد سادته العبيديين وأنصارهم، كما أقر ذلك آبن خلدون نفسه(146) ويوكد الزياني(147) رأي وجود العرب من ربيعة، ومضر، وقضاعة منذ الفتح، وهو ما ذهب

---

(144) 26/6، وقد سبقت إشارتنا إلى قول الزياني في الروضة السليمانية ص330م خ نا. حيث قال وليس بمغربنا من قبائل اليمن غير لحياينة وبني حسن من طئ، وأولاد بوعطية من حمير، وباقي عرب المغرب كلها من قضاعة ومضر ت111، مما يستدل به على أن العرب تواجدوا في المغرب بجميع قبائلهم.

(145) العبر 7/4.

(146) نفس المصدر 38/4.

(147) الترجمان المعرب ص400 خ.ع 2115–658د.

اليه القلقشندي(148)، بل إن ابن خلدون قال لنا إن بقايا العرب الفاتحين كانوا قوة في هذه المرحلة، وكان من شيوخهم ماضي بن مقرب، وكان عندهم معلم للقرآن إسمه الوليد بن هشام ينسب إلى بني أمية، أدعى وناصره بربر مزاته وزناتة ولواتة، ونصبه بنو قرة على برقة سنة 315هـ/ 927م.

أما الزمن الذي دخل فيه بنو هلال وسليم إلى المغرب فهو زمن العبيديين بعد أنتقالهم الي مصر بعد فتحها سنة 358هـ/968م وبنائهم القاهرة بواسطة جوهر 361هـ/971م وقتها أنتقل إليها المعز بن المنصور الذي هو معد أبو تميم، والذي توفي فيها بعد ثلاث سنوات تولى الملك بعدها خلفه العزيز بن المعز 365هـ 386هـ/975–996م، ثم الحاكم بأمر الله الذي هو أبو علي المنصور 386–411هـ 996–1021م ثم الظاهر بن الحاكم 411–427هـ/ 1021–1036م ولما توفي الظاهر في منتصف شعبان بويع أبنه أبو تميم مكانه، ولقب بالمستنصر بالله، ولم يكن سنه قد جاوز أكثر من سبع سنوات، وكانت أمه جارية سوداء أبتاعها الظاهر من تاجر يهودي أسمه أبو سعيد سهل بن هارون التستري، فلما رأت أبنها وقد أصبح ملكا أتت بسيدها الأصلي وولته الاستشارة؟ وكانت مدة المستنصر أطول من مدة كل السابقين واللاحقين من العبديين الفاطميين، ساهمت فيها أمه بما أستطاعت من التدخلات التي أدت إلى فساد الوضع مما أدى إلى قيام الثورات هنا وهناك، فانفصلت سوريا التي اخضعها إمبراطور اليونان مع حلب 434هـ 1042م، كما ظهر بمصر شخص أدعى أنه الحاكم بأمر الله الذي كان قد لقي حتفه بتدبير من أخته ست الملك بعدما أدعى الألوهية، لكن المدعي الذي أسمه سكين، سرعان ما فشل وقبض عليه، وإذا ما تنفست أم المستنصر، فإنها عادت لتتدخل في تغيير الوزارة، ثم نقلت الإدارة السياسية من يد أحمد بن علي ليد حسن بن العنبري، ومنه الى صدقة الفلاحي، وهذا مثل سلفه سنة 440هـ 1048م، حكم عليه بالقتل، فأبدل بحسن الجرجاني الذي قبض عليه هو الآخر، وأرسل منفيا الى سوريا سنة 441هـ 1049م ليحل محله أبو الفضل

(148) نهاية الارب 6ط 1959، وإذا علمنا أن أثني عشر قبيلة من قريش قيس وجهينة، والازد، وحمير، ولخم، حلت بمصر، كما حلت بها من الشام في العهد الفاطمي قبائل أخرى مثل بني هلال، وبني سليم، وخزام، ثم أنتقلت من الغرب الى الشرق مصر أيضا، كل من كتامة وصنهاجة وهوارة زمن الفاطميين ندرك مدى الإمتزاج الذي حصل قبل وبعد.

بن مسعود، والقاضي الحسن بن علي اليازوري الفلسطيني الذي حاز كل الرضى، فقربه المستنصر حتى أعطاه جل الألقاب الخاصة بالملوك الفاطميين، بل ضربت النقود بإسمهما معا، الأمر الذي آنتهى باليازوري، الى طغيان لم ينفر المعز بن باديس صاحب إفريقية فقط، بل نفر كذلك معز الدولة بحلب، حيث أعلن آنفصاله واستقلاله بها كما أشرنا سنة436هـ/ 1051م، فأنفد إليه ناصر الدولة بن أبي الهيجاء في جيش فكسره، ثم أرسل عوضا عنه أميرين هما طرف، ورفيق يقودان جيوشا مصرية، ولم يكن حظهما أحسن من سلفهما، الأمر الذي دفع الى عقد صلح مع معز الدولة بحلب، عقده المستنصر مع زوجة معز الدولة وابنه اللذين أرسلهما الى مصر تقول المصادر، وكانت زوجته بديعة الجمال، فأخذت بمجامع قلب المستنصر، فوافقها بالتنازل عن حلب لزوجها(149). وهذا النوع من البشر يطلق عليه بعضهم آسم الخليفة.

وهكذا إذا ما آنتهت حلب الى هذا المصير، فلم لا يقتدي بها المعز بن باديس في المغرب ويحاول بعدما تعرض لإهانة اليازوري ومراسلاته العدوانية، وذلك ما فعله المعز بن باديس حين أعلن ولاءه للقائم أبي جعفر بن القادر العباسي سنة 437هـ 1045م الذي بادر هو الآخر فأرسل إليه صك التولية، مما دفع بآبن باديس إلى هدم دار الإسماعيلية ونشر الرايات السود، ولما بلغ الخبر الى اليازوري، وكان مشغولا بما جد من آضطرابات داخلية. آلت الى سفك الدماء، بين قبيلتين من العرب 437هـ 1045م–443هـ 1051م(150) فرأى اليازوري أن يستدرك ما بالداخل قبل الخارج مما أعطى مهلة للمعز آبن باديس الصنهاجي من 437 إلى 443هـ، وهي السنة التي آستطاع فيها اليازوري بعد مفاوضات بينه وبين عرب هلال، وسليم آبن منصور أن يوجههم لغزو إفريقية التي سيصبح ما استولى عليه العرب منها ملكا لهم مناصفة مع الدولة، وبهذا العرض السخي آستطاع اليازوري إغراء مشايخ العرب بصعيد مصر، حيث كانت جشم، والأثبج، وزغبة، ورياح، وربيعة، وعدي خصوصا وقد قدم لكل واحد دينارا وجملا، وإذا هم تقدموا في جموعهم

(149) تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ج1/264 ط1889م طبعة المقتطف.
(150) راجع الخطط للمقريزي مصدر سابق.

الغفيرة التي آستطاعوا بها آحتلال برقة، وتخريب المدن في كل من برقة وطرابلس، بل وفي تونس حيث القيروان، فإن ذلك شجعهم على آستجلاب ما أمكن من إخوانهم الذين تخلفوا بمصر، والذين قويت رغبتهم في اللحاق بإخوانهم بعدما سمعوا ما حققوه من مكاسب، وبذلك كانت الهجرة الثانية بعد عام 468هـ/ 1075م، فكان أول من دخل منهم المغرب في هذه المرحلة أمير رياح أبو العيون(151) مؤنس بن يحي«الصنبري، لكن المعز بن باديس آستطاع أن يستميله ويصهر إليه(152)، إلا أن مؤنس وقد عرف المهمة التي قدم من أجلها وتعهده لليازوري، سرعان ما آنقلب على المعز بن باديس، خصوصا وأن جيوش العرب كانت مطعمة بكثير من لواته سدنة العبيديين، الأمر الذي دفع بالمعز الى الاستنجاد بآبن عمه حامد بن بلكين صاحب القلعة الذي أنجده بألف فارس، ومثلها من المستنصر آبن خزرون المغراوي، وكانت رياح وزغبة وعدى حيدران من جهة فاس(153) لكن الثلاثين ألفا التي كانت إلى جانب المعز لم تصمد أمام جحافل العرب، خصوصا عندما آنحاز العرب المشار إليهم ناحية فاس الواردين من القيروان قبل كما سبق الى عرب الهلاليين، كما خانت المعز بن باديس كل من زناتة، وصنهاجة، فكانت الهزيمة عليه، ثم فر بنفسه وخاصته الى القيروان بعدما قتل من قومه نحو الثلاثة آلاف يقول ابن خلدون، ولما آشتد الحصار عليه وعلى من معه فر القوم الى تونس وسوسة، وتم الحكم للعرب سنة 445هـ 1053م، وهي السنة التي تم فيها السلطان لدولة المرابطين بالمغرب الأقصى، كما سنرى، وقد بقي المعز يصارع الى أن توفي عام 453هـ 1061م،

وهكذا أصبحت القيروان من نصيب زغبة، ورياح من بني هلال بعدما كان لها طرابلس وما حولها، وقابس، كما أصبحت باجة وما حولها لمرادس بن رياح، الا أن هذا التقسيم لم يكن نهائيا، إذ سرعان ما قامت الحروب بين العرب أنفسهم، فأعيد التقسيم

---

(151) قيل إنه سمي بذلك لأمره قومه أن يضربوا خصومهم وكانوا مدججين بالدروع في العيون، المصدر السابق 265، ثم راجع نهاية الارب للقلقشندي 266 ط1959.

(152) العبر 27/6 صاهر المعز ببناته ثلاثة من أمراء العرب، فارس بن أبي الغيث، وأخاه عائذا، والفضل بن أبي علي المرداسي.

(153) 32/6، وابن عذارى 288/1، ونزهة المشتاق ورحلة التجاني، وابن الأثير: ج10. ونشير إلى أن هناك مدينة باديس بالجزائر، وقد اندثرت ولم يعد لها من أثر، وهناك مدينة باديس في شمال المغرب.

وأصبح لهلال من تونس الى المغرب، وهم رياح، وزغبة، والمعقل، وجشم، وقرة، والاثيح، والخلط وسفيان، وإذا ما آستمر العرب في تقدمهم فإنهم آستولوا على تلمسان التي كانت بيد أعقاب محمد بن خزرون الذي جهز قائده أبا سعدى اليفرني ليقاوم تقدم العرب، لكنه قتل وانتهى العرب الى جبل راشد ومصاب، "مزاب" من المغرب الأوسط، إلا أن آنتصارات العرب تعرضت لكيد الناصر بن علناس صاحب القلعة الذي جمع فلول زناتة لمعاودة الحرب التي تظاهر فيها المعز بن زيري المغراوي صاحب فاس إلى جانب بن علناس ونزلوا الأريس فلقيهم رياح وزغبة، لكن المعز بن زيري غدر بالناصر بن علناس يقول ابن خلدون(154) بدسيسة من تميم، بن المعز، بن باديس صاحب القيروان، فجر عليهم الهزيمة واستباح العرب وزناتة خزائن الناصر ومضاربه، ولا حقوه بعدما قتل أخوه القاسم، وحاصروه بالقلعة بعدما خربوا جنباتها، ومثل ذلك فعلوا بطبنة في المسيلة وغوروا المياه، واحتطبوا الأشجار، وأخرجوا ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالهم من الأمصار، وضيقوا على الناصر بن علناس إلى أن غادر القلعة واختط مدينة بجاية، فكان ما حصل بين العرب والبربر في هذه الفترة من الزمن قد هيأه القدر لقيام دولة اللمتونيين من صنهاجة الصحراء.

أما بنو مالك، والخلط، وسفيان، وهوارة، فكانوا بالتبعية لهم. ومثلهم أولاد بني شبل، وأولاد مهدي، وأولاد جرير، وأولاد نايل إخوانهم آيت إبراهيم القاطنين بشتوكة سوس والسويد إخوانهم ناحية وهران.

وأما القبائل المجاورة لمدينة تازة، والتي كان يطلق عليها القدماء في تلك الأصقاع "دقيوس"، فمنهم أولاد منصور إخوان لعمور، من منصور بن سليمان العامر، وإخوانهم أولاد حقون القاطنين بواد الساورة.

ثم أولاد انهار وأولاد الساوري، وأولاد عبد الكريم القاطنين بوادي الساورة، فهم من أولاد محمد بن عبد الله، بن إلياس، بن محمد بن كثي، محمد بن إلياس، بن عبد المجيد، بن محمد، بن إلياس بن فايد بن عمر بن الخطاب.

---

(154) العبر 6/42-43، وقد أورد الزياني في الترجمان، جدولا خاصا بجمهرة من بالمغرب من ربيعة ومضر م خ ع 638 د ص440-41 ثم راجع ما بعد تعليق 108 الى 112 أعلاه.

أما المغافرة القاطنين بالسوس، وأولاد دليم فهم عرب وادي نول، إخوانهم الرحامنة الساكنين بحوز مراكش وإخوانهم أولاد عابد بملوية.

أما الحياينة، فهم من اليمنيين كما يقول الزياني، وقيل خطأ إنهم من لمتونة، بل هم من ولد حيان بن موسى، وذريته بوادي ورغة كذلك، وإخوتهم بني يازغة وأمجاص والتسول. كما عند الزياني.

أما أولاد جابر: الذين كان لهم قصر بفجيج فأصلهم من أرشيدة، وعرقهم يرجع الى بني عامر، من أولاد سليمان، بن الزاير بن منصور بن سليمان بن عبد الله بن سليمان، بن اخلوف، بن سليمان، بن عبد العاطي، بن عبد الكريم، بن المضطر، بن الياس، بن شافع، بن فايد، بن علي، بن عمر، بن محمد، بن علي، بن كليب، وهم فرقة من كليب، وقيل من معقل، وقد استعملهم بنو مرين في جندهم زمنا غير قصير، خصوصا في المنطقة التي كان بها أوائلهم.

ثم أولاد يعقوب بن موسى، وأولاد عبد الله بن موسى، والمزاوير، وأولاد أحمد بن علي، هؤلاء سكان أنكاد، وفرقة منهم في حوز تازة، يعرفون أولاد عامر بن طلحة، يرجعون أصلا إلى بني مخزوم من قريش، ولهم إخوة في الحوز ودرعة، يعرفون أولاد المزوار، وعند أوقيت في "تاريخ تمبكتو" عندهم فرقة من الأشراف تعرف بالمزاوير ذكرهم ضمن سكان المدينة المذكورة، أما أولاد المزوار بدرعة فهم خمس فرق، الغزلان وأصلهم من قريش، ثم المحاجية، وكانوا من خدم الهطالة ذوى السلطان، أيام الموحدين، وأولاد جامع، وقد كانوا عمارة وادي ملوية، تفرقوا 3 أو 4 فرق: فرقة بملوية أولاد معمر، وفرقة بواد فاس يقال لهم أولاد عمرو، والقطعان بحوز دبدور، وقد كانوا تابعين لمجاصة. وامرصان وهم أصلا من زواوة، وأولاد ناجي بعلوان أصلهم من فجيج من قصر المعيز، وهم أصلا من جبل راشد. ثم أولاد بوعلي: من كلدمان من العنصر.

أما أولاد تراب: فمنهم لهشاشمة، وأولاد ميمون، وأولاد عزوز، وكانوا تابعين لأحد أمراء بني مرين بدبدو يستعملهم خصوصا في أيام صيده، وقد عرفوا بأهل الخبا، وأما الواد المعروف بتاور، فهو للهشاشمة . وكانوا رعاة للموحدين، ثم أولاد سليمان بزعير من معقل، وهم أصلا من الشام، أما بقية زعير فهم من هلال، وبجانبهم بني خيران إخوة

بني اخيار الذين هم بالقرب من نابل بتونس، وإخوانهم كذلك بالقرب من تازة، وفي تافيلالت. ثم قبائل تكنة(155) منها: قبيلة إدا اوحماد وإدا أومسعود، وإدا أو الحسن، إزا قاضن، إيگوت إدا وياسين، وإدا وزكري، وإدا وبوهو، وإدا وبوعشرا، وإدا وموسى بن داود، وادا وابراهيم، وإدا ولكان، ويقال لهم آيت اجمل ورئاسة تكنة في آل إمبارك، ومركزهم تيغمرث بوادي نول، وربما أخذوا لفظ تيغمرت من التي بتافيلالت أو العكس(156).

تلك هي أصول قبائل العرب بالمغرب العربي الكبير، والتي قال عنها الزياني إنه لا يوجد بمغربنا من قبائل اليمن غير لحياينة، وبني حسن من طيء، وأولاد أبو عطية بتامسنا من حمير، وباقي العرب، كلها من المضرية وقضاعة(157) وجل تلك القبائل نقلها الموحدون من برقة ولم يبق منها بإفريقية يقول الزياني إلا دريد، والدواودة من بني سليم، كما عرف المغرب الكبير الكثير من تجيب المتفرع من كندة، والذين عجت بهم مصر وليبيا في عهد الفتوحات الأولى، أما هذيل وهي من قبائل الحجاز ولها جوار مع قريش كما كان أبناؤها ضمن الفاتحين كما رأينا، فإنهم اقتصروا على الأندلس.

ومهما يكن، فإن العرب في المغرب الكبير لم يفقدوا اعتزازهم بأصولهم العربية، واهتمامهم بالأنساب التي لايزال الكثير منهم جدا يعرفون بها، وهكذا فقد عرفت أنساب ربيعة، ومضر، وبني هلال، ومعقل، وسليم، ومن قريش كالعباسيين(158) قبيل بن أبي محلى والعمريين قبيل أبي إبراهيم السجلماسي الذي منه آل الشرقاوي بأبي الجعد، والرباط، وآل بلقزيز بمراكش وغيرهما، وكما يعرف الكثير من سكان المغرب الكبير أصولهم العربية، لا نفقد ذلك في المغرب الأقصى حيث دون المؤرخون أصول القبائل الموجودة في المغرب بشكل فيه الكثير من التثبت، مما جعلها تبقى محفوظة ومعروفة لدى كل من يهتم بالتاريخ، فمن ربيعة ومضر كما أشرنا البراكنة من معقل، وبنو بكر في

---

(155) وعن تكنة، راجع المعسول للمرحوم محمد المختار السوسي 254/20، وعن قبائل سوس أيضا 276-277.

(156) م.خ نا أي مخطوط خزانتنا.

(157) الترجمان المعرب 293-439 خ.ع.خ نا.

(158) أصلهم من زاوية القاضي بسلجماسة، ومنهم محمد المختار السوسي.

توات، وسجلماسة، وبنو خليفة، كذلك، وإن كان منهم من تبربر لهجة، وبنو عاصم، والمرتفع، والأحلاف، وسفيان، والمهاية(159) وبنو سعيد، وطليق، ودكالة، وأولاد بورزق، وبنو جابر أهل تادلة والخلط بما حوت من عناصر(160) وأماقضاعة الذي منه عبد الله بن منصور، بن محمد، بن معقل، فمنه أولاد الروحي وأولاد يحيى بوجلان والعمارية(161) وعريب بالساقية الحمراء، ومن محمد بن معقل الوداية(162) لمغافرة، والبرابشة وأولاد دليم، والشبانات(163) وأولاد جرار، وزرارة، وأولاد امطاع، وأولاد سباع في الصحراء وفي ناحية مراكش(164).

ومن أولاد منصور كذلك في المغرب وكما أشرنا، أهل تاوريرت وما حولها، وفي الشاوية من انضموا بالولاء لبني مسكين البربرية التي تعربت، والسوالم، وبني شگدال، وأولاد جرير بتامسنا، وأولاد حسين، وأولاد الحسن، وهما شقيقان، والعمارية أولاد عمران، والمنبات، ويقال لهذين الفخدين جميعا: الاحلاف(165) ومن بني عامر، بني زغبة من ربيعة، ومضر، أولاد سيد الشيخ، على أنهم من البكريين نسبة الي أبي بكر بن قحافة وأولاد جرير شرقا، ولحساسة بدرعة وسجلماسة(166) والاعشاش والمطارفة، وأولاد رزين، وأولاد يعقوب، وأولاد بوعنان وحميان وطريفة وأولاد نصير وأولاد عون وأولاد حريز بن تميم، وحصين شرق سلا وفي الريف وبني مالك الذين آستقدمهم المنصور الموحدي، ومنهم أولاد سعيد بن مالك الذين منهم أولاد العطاف والديالم وأولاد الحارث بن مالك(167).

---

(159) فرقة منها في قضاعة، العبر 62/6.

(160) الترجمان ،299، والمعجب 226– 227– 274– 275–288– 289، وبنو جابر من جشم، وقيل من زناتة كما قيل من لواتة عبر 66/6.

(161) عبر 76/6.

(162) عندما أصبحت من فرق الجيش ضمت إليها بطونا ليست منها.

(163) أورد الفضيلي في الدرر 142/1 الشبانات الأدارسة وهم غير هؤلاء.

(164) وهم غير السبعيين آل علي بن عمرو سلالة عبد الله بن ادريس.

(165) هم غير السبعيين آل علي بن عمرو أهل تالسينت.

(166) دائرة المعارف الإسلامية 215/7. والعبر،/58–66، وقبائل العرب1146/3.

(167) العبر 69/6–70، والبستاني 30/7–31.

يعد الزياني في الترجمان م خ ع 658 (ص439–440–441). جمهرة العرب التي بمغربنا من ربيعة ومضر، ومن قضاعة، ومن عرب اليمن من ربيعة ومضر. =

هذا من مواقع أولاد منصور شرقا، الى مواطن التوارزة بشنقيط حيث عاش العرب المغاربة وقد اختلطت دماؤهم بإخوتهم المغاربة القدامى والبربر، ثم أصبح الجميع يكونون مجتمعا إسلاميا قوامه التوحيد، والتماسك، والتعلق بالحق، والعدل، والخير،

= أولهم بني عامر، بن زغبة(1) بن ربيعة(2)، بن نهيك، بن هلال، بن عامر(3)، بن صعصعة، بن معاوية(4)، بن بكر، بن هوزان، بن منصور(5)، بن عكرمة، بن خفصة، بن قيس، بن عيلان(6)، بن إلياس، من مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان بن أد، بن أدد، بن مشلح، بن يعرب، بن الهميسغ، بن ثابت، بن سليمان، بن جميل، بن قيدار، بن اسماعيل، بن إبراهيم، بن تارح، بن ناحور، بن ساروع، بن أرغو، بن فالغ، بن شامخ، بن أرفخشيد، بن سام، بن نوح عليه السلام، بن لامك، بن متوشلح، بن اخنوخ، بن بوارد، بن مهلايل، بن قيتان أوقيدر، بن أنوفش، بن شيت، بن آدم وحواء عليهما السلام.

أما جمهرة عرب اليمن، فهم:

ثعلبة بن جدعان بن دهل بن رومان(7) بن جندب، بن خارجة بن سعد، بن فطرة، بن طيء(8) بن مرة، بن زيد، بن عمرو، بن عريب، بن زيد، بن كهلان، بن حمير(9) بن يشجب(10)، بن يعرب، بن قحطان.

أما جمهرة قضاعة فهي:

عبد الله(11)، بن منصور(12) بن محمد(13)، بن معقل، بن كعب، بن عليم، بن خبب، بن هبيل، بن عبد الله، بن كنانة، بن بكر، بن عوف، بن عذرة، بن زيد اللات، بن زبيدة، بن ثور، بن كلب، بن وبرة، بن ثعلبة، بن حلوان، بن عمران، بن الحاف، بن قضاعة، بن مالك، بن سبأ، بن يشحب، بن يعرب، بن قحطان، بن عامر.

(1) زغبة جد الأعشاش، المطارفة، والرزين، ويعقوب، وبوعنان، وحميان، وذوي منيع وأولاد نصير، وعوف، وسويد، وحصين، ومالك.

(2) ربيعة: جد بني بكر، وبني خليفة، وبني عاصم، والضحاك، والمرتفع، والحرام، والاثبج، وسفيان، والمهاية، وسعيد، ورياح.

(3) عامر: جد الخلط، وطليق ودكالة.

(4) معاوية : جد بني جابر أهل تادلة، ووردية، وبني موسى.

(5) منصور : جد شگدال، وبني مسكين، والسوالم من الشاوية، وأولاد حسين، بل والاحلاف.

(6) عيلان: جد الشياظمة وعكارة وبني عمير، وأولاد مطاع.

(7) رومان: منه بنو زيان، بن حيان، ومنه دومان، بن ثعلبة بن رومان، ومن حيان بني عليان، وبني عمران، ومن اليمنيين لحياينة جوار فاس.

(8) طيء: منه بني حسن بن عمر، بن الغوت، بن طيء، ومن عمر، وأولاد حسين بن عمرو، وهم غير أولاد حسين بن منصور.

(9) حمير : جد أولاد بوعطية من الشاوية.

(10) يشحب بن سبأ: جد نصف زمران من بني عبس من سبأ، والنصف الآخر من الخزرج.

(11) عبد الله: هو جد أولاد عبد الله، والروحي وأولاد يحيى بوجلان، وسلام وعريب.

(12) منصور جد أولاد منصور أهل تريفة.

(13) جد الوداية المغافرة، والبرابيش، والرحامنة، وأولاد دليم، والشبانات، وزرارة وأولاد حسان وأولاد ابن السبع جيرانهم بالصحراء.

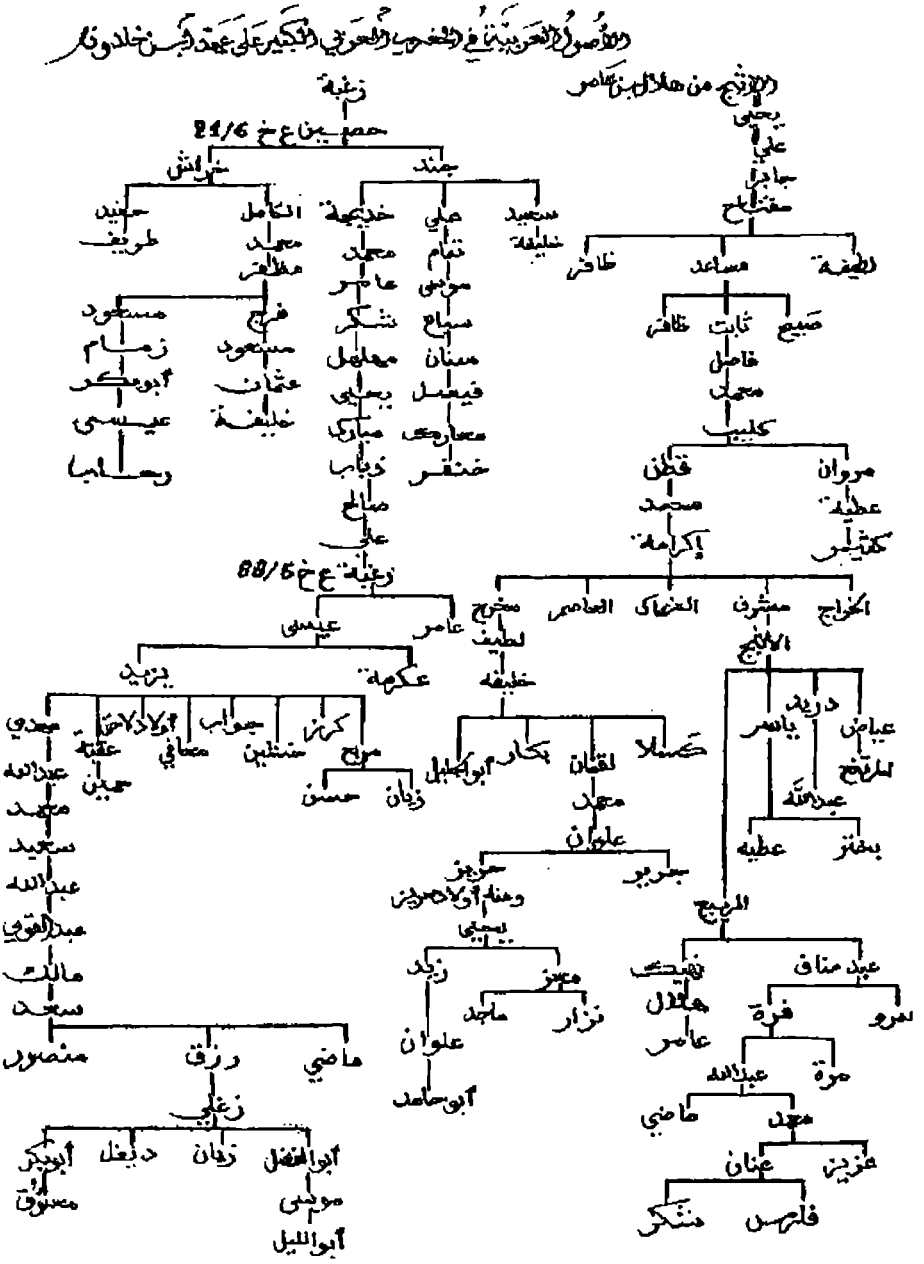
الأصول العربية في المغرب العربي الكبير على عهد ابن خلدون
الأثبج من هلال بن عامر
يحيى
علي
جابر
مفتاح
لطيفة
مساعد
ظافر
صبيح
ثابت
ظافر
فاضل
محمد
كليب
مروان
قطن
عطية
محمد
كثير
إكرامة
الخراج
مشرف
الضحاك
العاصم
مخرج
لطيف
خليفة
الأثبج
دريد
عياض
ياسر
المرتفع
عبدالله
بختر
عطية
المريع
عبد مناف
نهيك
هلال
عامر
مرو
فرة
مرة
عبدالله
معد
ماضي
عزيز
عنان
فارس
شكر
زغبة
حصين ع خ 21/6
جند
خراش
سعيد
خليفة
علي
تمام
موسى
سباع
سنان
فيصل
معارك
خنفر
خديجة
محمد
عامر
شكر
مهلهل
يحيى
مبارك
ذباب
صالح
علي
الكامل
محمد
مظفر
حفيد
طريف
فرج
مسعود
عثمان
خليفة
مسعود
زمام
أبوبكر
عيسى
رحاب
زغبة ع خ 88/6
عامر
عيسى
عكرمة
يزيد
كسلا
لقمان
بكار
أبوالجليل
محمد
علوان
جرير
حريز
ومنه أولاد حريز
يحيى
معز
زيد
نزار
ماجد
علوان
أبوحامد
كرز
جواب
أولاد لاحق
مرج
حسن
زيان
معافي
عقبة
حمين
مهدي
عبدالله
محمد
سعيد
عبدالله
عبدالقوي
مالك
سعد
ماضي
رزق
منصور
زغلي
أبوالفضل
زيان
ديغل
أبوبكر
موسى
أبوالليل
مسعود

والحب، ولم تظهر العصبية القاتلة، والعنصرية المفرقة الا عندما ينحرف الحكم، أو يضعف بالقدر الذي لم يستطع معه حفظ الأمن والمحافظة على الحقوق.

وبالتالي فالذي نؤكد عليه كما سبق هو أن المغاربة اليوم لا يستطيع مؤرخ ثبت أن يستبين الأصول التي ترجع إليها الفروع الموجودة في عصرنا الذي نحياه كما قررنا في صدر الكتاب، الا إذا توفر على الوثائق المكتوبة وهي بحق وحسب الدافع متوفرة لدى الكثير من الأسر، لكنها ما دامت لم تجمع وتنظم ليستفيد منها الدارسون، فإن المؤرخين غير المتفرغين مهما حاولوا سوف لا يستطيعون ربط كثير من الفروع المعروفة لدينا اليوم مع الأصول التي حفظها لنا التاريخ، ناهيك وأن ما يعتمد في الموضوع هو كتب المؤرخين القدامى بدءا من آبن حزم، وابن عذارى والمراكشي، وابن أبي زرع، ثم آبن خلدون، وابن القاضي، واليفرني، والزياني، والقادريين، وغيرهم من الذين آنتهوا بدراساتهم الي الزمن الذي عاشوه على أكثر تقدير، على أننا وكما أشرنا لانفقد من الوثائق ما يؤكد لناصحة رجوع بعض الفروع الى أصولها الضاربة في القدم، وان كان هذا بالنسبة لنا يتوفر فقط في الجهات التي تعرفنا عليها وعلى وثائق أهلها مثل سجلماسة، وفجيج، والأطلس، والتي وقفنا فيها على وثائق يرجع تاريخ بعضها الى القرن السابع وما بعده، وهي خاصة بنسب الذين يتوفرون عليها، كما وقفنا على مثل ذلك عند السبعيين آل علي بن عمرو، بن إدريس، من سلالة عبد الله بن إدريس الثاني، والواد گيريين، والبوكيليين أشراف وادي زيز، وأشراف فجيج، والعلويين بتافيلالت وغيرهم من المذكورين قبل، على أن مثل هذا فيما يظهر لا يتوفر بكثرة ولو في المدن العريقة مثل مدينة فاس وغيرها التي آختلطت فيها الأنساب بعدما كانت معلومة ومعروفة قبل، أصبحت هي الأخرى خاضعة للتطور والتجديد آقتداء بما ظهر من طبقات جديدة، اختلطت بمختلف الأجناس، وأحيانا عن طريق السفاح مع بائعات الهوى من بنات مواخير أوربا بلا خجل ولا وجل، وكل ذلك نتيجة التدبير الماكر والخبيث ضد الإسلام ومجتمع المسلمين في هذا البلد الذي بقي حصنا منيعا على مر القرون، على أن شيئا من ذلك لم يستطعه المتربصون على عهد الاستقلال، ولو أننا فقط رجعنا إلى ما كتب حول بيوتات فاس خ ع 1281 ك لو جدنا أن كثيرا من العائلات بدلت وغيرت في الإسم الذي كان لها من قبل، ولذلك نجد أن ما عرفت

به تلك البيوتات من أسماء قد آختفى منها الكثير، لا بزوال وإنما بتغيير في الغالب، فمثلا بني أدكال ص120 تحولت إلى دكالى وأعراص واغراس الى عروس، وأخياط 124 من دبدو إلى الخياط، بل حتى أولاد الطر نباطي واللطرون ص88، وأولاد بن فيلال، وكلهم أمويين من قريش ومثلهم أولاد الخراز الذين منهم محمد بن إبراهيم الشريشي 82 وأولاد بن حبيب الأموي ص83، وأولاد بن صدوق الأموي العثماني الذين آنقرضوا كما آنقرض ال فيلال من فاس، وهم اليوم بتطوان هذه الأنساب وغيرها من مدن وقرى كثيرة أصبح من الصعب الخوض فيها والتحقيق في أنسابها بسبب ما عرفت من تبديل، خصوصا بعد ظهور سجلات الحالة المدنية، بل وحتى ممن تسلطوا على تاريخ هذا البلد كما صدر من "مؤرخ المملكة الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور(168) الذي أقحم المسمى أحرضان في نسب الأدارسة ظلما وعدوانا، مع أن أحدا من قومه لم يدع ذلك، وقد كانوا وهو معهم –أي أحرضان– ذوي سلطة في خدمة الاستعمار الفرنسي الذي مكنهم نكاية في الاحرار الذين قاوموه وقتها .وقد استوطنوا بولماس بعد فرارهم من عين سبيت بزعير بسبب قتلهم غدرا لشخص خوفا من الثار، وقبلها كانوا مع سادتهم الذين يمثلهم اليوم الحاج مصطفى بن عبد الله بن قدور من قصر تيلوين بين غريس وفزنة، إذ هم في الأصل من "الحراثين" وسادتهم من عرب معقل نقلهم مع سادتهم المولى محمد بن عبد الله عام 1197هـ 1782م، كما نقل عرب الصباح، والمعاضيد، والشياحنة، وغيرهم من الذين هم اليوم ما بين مراكز تمارة والصخيرات، وبوزنيقة، نقلهم لأسباب سياسية شارك فيها الجد السابع للمؤلف وقد تعرض لها أبو القاسم الزياني، والضعيف في تاريخهما للدولة العلوية في نفس التاريخ المذكور ومهما يكن فإن القصد من تعرضنا للأنساب هو ما أشرت له قبل فيما يتعلق بالأدارسة، وما كان لهم من أثر التركيز للاسلام، وبالتالي فإن الخريطة السياسة للدولة ولو في عهد الماضي القريب، عهد المولى الحسن مثلا لم تكن القبائل، وبطونها، وأفخاذها غير معلومة ولا مسجلة في سجلات الدولة، وهذه أمثلة على ذلك نجدها في الشمال، والشمال الشرقي مثل قبائل غمارة التي هي بني زيات،

(168) راجع ما كتب باسم "أعلام المغرب العربي ج 215/2 ط الملكية بالرباط 197، ثم راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي بالخزانة الملكية ملف تافيلالت.

بني بزرة، بني منصور، بني سليمان، بني زجل، بني خالد، بني رزين، بني سميح، امْتيوَة الخ.

ومهما يكن فإن المغرب العربي الكبير أصبح موطنا للقبائل العربية منذ القرن الثاني للهجرة، وذلك بعدما عرف المغرب من الثورات ما قصد بها الثائرون القضاء على النفوذ العربي الأموي الذي بلغ الذروة في الفساد، فكانت ثورة هوارة الصفرية بقيادة عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي ضد عبد الرحمن بن حبيب، لكنها انتهت بفشل رغم استيلائهم على طرابلس. ثم ثورة صنهاجة بقيادة ثابث الصنهاجي الذي استولى على باجة، وثورة عمر بن عطاف الأزدي. وثورة عروة بن الوليد الصفري، واستيلائه على تونس الخ، الأمر الذي جعل العرب يفكرون جديا أنه من الخير للهادفين منهم من أبناء رجال الفتح أن يمكنوا للإسلام باتحادهم وتمازجهم مع المغاربة والبربر فكان ذلك من القبائل العربية المغافرة، وذوي حسان من قضاعة الذين التحموا بالقيسية واليمنية خصوصا عندما قدم إدريس بن عبد الله بحيث أصبح المغرب العربي الكبير بفضل دولة الأدارسة مجالا للمضرية، واليمنية، يشجعونه من صعيد مصر الى وادي نول. استوطنوا بسائطه وجباله، وعمروا مدنه، وقراه. وما ظهر بعد زوال ملك الادارسة وظهور الفاطميين العبيديين من عائلات المغاربة والبربرية كبني يفرن بتلمسان، ومغراوة بفاس، وبلاد اغمات وبرغواطة بتامسنا، وصنهاجة، وكتامة إفريقية، ومكناسة بسجلماسة، وتازة، بل وما ظهر بعد من دول المرابطين، والموحدين، وبني مرين فإن أعظم ملوكهم ما عدا المرابطين كانوا يتطلعون الى الانتساب للعروبة. الأمر الذي كان يدفع المتملقين من المؤرخين إلى محاولات آنتحال الأنساب لكل من عرفوا منه التطلع لذلك زمن الموحدين وبني مرين وبني عبد الواد.

ومهما يكن فإن الذي مكن للذاتية المغربية في هذه الديار، والذي طهرها من الشرك والوثنية والذي صهر بين كل العناصر الموجودة بها قديمها وجديدها هو الإسلام الذي كان ولا يزال وسوف يبقى هو الوسيلة لكل خير تتطلع اليه شعوب المغرب العربي الكبير الى جانب الاخوة في المشرق الاسلامي العربي الكبير.

الباب العاشر

الفصل الرابع والخمسون

قيام دولة المرابطين اللمتونيين

المرابطرن هم أهل اللثام من صنهاجة البربر، إحدى بطون البرانس، كما يقول ابن حزم(169) والزياني أبو القاسم(170)، ومن زعم أنهم من حمير عرب اليمن فقد أخطأ، إذ الصحيح السليم أنهم من البربر. وقول ابن خلدون: تأبى نسابة البربر إلا أن تخرج صنهاجة منهم .. وقال نقلا عن غيره .. إنهم من الذين قدموا مع أحد ملوك التبابعة «إفريقش» من أرض مصر واستوطنوا برقة في زمن سيدنا موسى أو قبله بقليل(171)،

---

(169) الجمهرة 495 ط دار المعارف 1971.

(170) الترجمان، مخطوط خ.ع.658د.ص 273. والبكري: المغرب في وصف افريقيا والمغرب ص170/ ط الجزائر 1911، ونفح الطيب4/193، وابن أبي زرع 13/2، والعبر لابن خلدون 183/6، والحلل الموشية 11/ط الرباط1936، واعمال الاعلام لابن الخطيب، القسم 183/3 ط البيضاء 1964.

(171) راجع العبر 16/1 و 95/2-170 و 181/6، وصبح الأعشى 360/1، والسبائك للسويدي 103/ط 1296 - راجع ابن الأحمر بيوتات فاس الكبري ص 27/ ط 1972 كما قال بعروبة صنهاجة الهمداني في الاكليل، وابن الكلبي، والقاسم بن سلام حسب رواية عبد الله اللخمي الأندلسي الرشاطي، وكما في العبر6/89 فإن ابن خلدون نفسه يظهر من قوله أنه غير متثبت، ولا موافق على ذلك حين يقول «والحق الذي شهد به الموطن والعجمة، أنهم - يعني البربر - بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة العرب، وصنهاجة وكتامة، عنده أنهم من إخوانهم «والله أعلم »، وهذا الشك نفسه عند ابن خلكان في ترجمة باديس بن منصور الحميري الصنهاجي.

والذين قالوا بعروبة صنهاجة وأنهم من حمير اليمن، الطبري، والجرجاني، والمسعودي، والسهيلي، كما ورد في صبح الأعشى، وفي مفاخر البربر 65، وقد أفرد لهم المراكشي في الاعلام بحثا 168/1ط فاس 1936، وصنهاجة يفترقون إلى سبعين قبيلة تقريبا، كما يقول أغلب المؤرخين ومنهم الطبري، مواطنها في المغرب الأوسط، من بجاية، والمسيلة، ومليانة، وفي المغرب الأدني، والأقصى، بين سوس، ودرعة، ونهر السنغال، والمحيط الأطلس، وفي الصحراء ما بين غدامس والسودان، وتعرف في المغرب الأقصى صنهاجة الظل بالأطلس المتوسط، وصنهاجة الشمس أو القبلة بجوار النكور جنوبي سبتة، ويقال أن صنهاج بن برنس، وعند القلقشندي أبي العباس أحمد 756هـ - 821هـ/ 1355م-1418م، وهو أيضا من صنهاجة كما أورد ذلك في كتابه نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب« بنو غمارة ص 389/ط القاهرة 1959. بل راجع أيضا عنده بنو صنهاج ص 317 حيث أورد ما قاله السابقون، ثم أضاف : ومن هذه القبيلة جدنا الشيخ عبد الله الغماري خادم سيدي أبي العباس البصير الخزرجي الأندلسي البلنسي، وهو =

ومنهم من أسحر جنوبا جبال درن، ولمتونة نسبة إلى ثويهم المعروف بـ «اللمت» من جملة صنهاجة ، وكتامة الذين ذهبوا إلى الصحراء ولم يقيموا بإفريقية، كما توجهت أيضا لناحية الصحراء قبائل دالة ولمطة، ومسوفة، وصناكة ، وتاركة، وعط، وغيرهم من القبائل الصنهاجية، وعاشوا في الناحية المتاخمة للسودان جيلا بعد جيل، وقد وصفهم الحميري وجل المؤرخين، وابن بطوطة أكثر، وأنهم يتقلبون في الرعي ويقصدون، أماكن المرعي والاتجار بين أوليل وأوديغست(172)وتمبكتو وتغازي، ويقول بعض المؤرخين إن دعوة الإسلام لم تبلغهم إلا بعد القرن الرابع للهجرة، لأن أثر عقبة بن نافع، وموسى بن نصير، كان عابرا وضعيفا تجاه الغرب والجنوب الأقصى، وما كان لهم أن يعرفوه، وقد وجدوا في أرض امتدت عبر الصحراء الكبرى ، ثم هي امتنعت عن العرب لشدة هجيرها من وادي نول شمالا إلى بوجدور وشنقيط جنوبا وأركي شرقا، والمحيط الأطلسي غربا، مما يستبعد أن تكون جيوش العرب الفاتحين قد عرفته، حتى في زمن عبيد الله بن الحبحاب الموصلى الذي حاول بواسطة قوات على رأسها حبيب بن أبي عبيدة، الذي قيل إنه قاتل قبيلة مسوفة، وكذا حفيد عقبة عبد الرحمن بن حبيب الذي حاول ربط الشمال بالجنوب بحفر الابار، كل هذه المحاولات لم تمكن للإسلام بقوة في تلك النواحي، وإن كان الزياني أورد كلمة جزية في حديثه عن تيولوتان الذي كان مسيطرا على تلك النواحي، وكلمة جزية تدل على أن هناك إسلام قوي مسيطر، وغير مسلمين خاضعين لنفوذه، اللاّهم إلا إذا كان استعمال أبي القاسم الزياني يقصد به غير المتعارف بنص التشريع ، لكنه يعود فيصرح أن عبد الله بن تيفاف «من أهل الدين والصلاح»، وما كان له أن يكون كذلك لو لم يكن مسلما ، إلا أن إسلام قومه كان سطحيا .

= مدفون عنده في ضريحه بالقرافة الصغرى نهاية الأرب ص389، والعبر 21/6 وحول صنهاجة أيضا، قال : بنو صنهاج بن أوريغ، بن برنس، بن بربر ، ويقال إنهم من حمير، من عرب اليمن، وليسوا من البربر، قاله الطبري والمسعودي، وعبد العزيز الجرجاني ، وابن الكلبي، والبيهقي، وحكى ابن حزم أن صنهاج إنما هو ابن امرأة اسمها أداست، وليس له أب معروف، وإنما تزوجت بأوريغ، وهو معها ، فولدت له هوارة، فكان صنهاجة أخا هوارة لأمه، راجع نهاية الأرب 317. ونسب صنهاج كما أورده ابن خلدون في المصدر السابق نسبه إلى المحققين من نسابة البربر هو: صنهاج، بن عاميل بن زعزاع، بن تيمتا ، بن سدر، بن مولان، بن يصلتن، بن سر ، بن مكسيلة، بن ديقوس، بن حلحال بن شرو، بن مصرايم ، بن حام.؟؟ ومعناه أنه ليس من البربر آل عمون الذين قدموا من جنوب فلسطين، بل صنهاج حسبما أورد ابن خلدون من تسلسل إلى حام هو من المغاربة القدامى كما تقدم لنا .

(172) الروض المعطار للحميري 90/1 م خ نت و راجع هذه المادة حول صنهاجة.

وعند الزياني أيضا كان أميرهم تيولوتان بن تكلان اللمتوني المتوفي سنة 222هـ/836م أول من ملك، وكانت مملكته تقدر مساحتها بمسيرة ثلاثة أشهر، وهو الذي أخذ «الجزية» من كثير من ملوك السودان، وكان يركب في مائة ألف نجيب، وعاش زمنا طويلا، ثم ملك بعده حفيده الأثير بن فطير، بن تيولوتان، الذي توفي سنة 289هـ - 901م، ثم ملك بعده ولده تميم بن الأثير فقتلوه، واختلفت آراؤهم، ولم يجتمعوا على أحد نحو مائة سنة إلى أن جمعهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفاف اللمتوني، وكان من أهل الخير والفضل والدين، يقول الزياني(173)، لكنه استشهد بعد خمسة أعوام في حرب مع السودان، فتولى بعده صهره يحيى بن إبراهيم الكدالي، وهو الذي توجه بعد ملكه للحج بعدما استخلف ولده إبراهيم بن يحيى سنة 429هـ 1039م، وهكذا لم يعرفنا التاريخ عن أحوال القوم مدة قرن من الزمان قيل عنه إن الإسلام لم يتمكن من القوم إلا بعد المائة الرابعة كما رأينا، بل والذي سيتمكن ويرفعهم إلى حكم المغرب الكبير هو المصلح عبد الله بن ياسين.

عاد يحيى بن إبراهيم الكدالي من الحج عام 430هـ، وفي طريقه عرج على القيروان حيث لقي أبا عمران العفجومي(174) الذي سأله عما ينتحل أهل بلده من المذاهب، ولما بين له حال أهله وما هم عليه من الجهل زاد، فطلب إلى أبي عمران أن يرسل معه من يرشده وقومه، لكن أبا عمران لم يجد ممن حوله من قبل التطوع، فكتب له كتابا إلى تلميذه الفقيه زلو بن واجاج اللمطي(175) الذي كان بأغمات نفيس، مما يستدل منه على مدى الصلة التي كانت بين رجالات الفكر في المغرب الكبير وقتها، وإذا ما قرأ واجاج رسالة

---

(173) الترجمان المصدر السابق. 273 - 274.

(174) هو ابو عمران بن موسى بن عيسى بن أبي حاج العفجومي الزناتي ولد 368هـ وت بالقيروان 13 رمضان 429، راجع الروض المعطار للحميري 2/124-125م خ نا، وفي التشوف ص 222ط الرباط 1958وابن الدباغ 203/32، والديباج وعن عبد الله بن ياسين راجع المعسول للمرحوم محمد المختار السوسي « 40/11ط البيضاء، النجاح، وهي ترجمة مختصرة كما كتبها عياض في المدارك. والنبوغ المغربي جـ ما ص 52 ط بيروت 1961.

أما عن ابي عمران العفجومي الزناتي والمولود بالقيروان كما سبق لست أردي كيف اطلق عليه : الفاسي وما هو بالفاسي الأمر الذي يدعو إلى التأمل : لماذا ولماذا لا ينسب الفضل لذويه...؟؟؟

(175) الترجمان 274، واللمطي نسبة إلى نول لمطة من بلاد السوس الأقصى وفيها جزولة، ولمطة راجع الروض المعطار للحميري م خ نا 260/2.

أبي عمران على تلامذته حتى يتقدم منهم من آنس في نفسه الكفاءة والاستعداد للمهمة، فإن ،الأقدار شاءت أن يستجيب رجل فاضل من أهل جزولة، حيث آل البيت الآدارسة من ذرية عبد الله بن إدريس صاحب أغمات حيث كانت مدرسة زلو بن واجاج قد تمكنت وكان بها طالب ذكي نجيب كان قد سبق له أن درس بالأندلس لمدة سبع سنوات، وربما كانت له طموحات سياسية ضد الوضع الفاسد وقتها بأغمات كما سنرى. ذلكم هو عبد الله بن ياسين الجزولي التمنارتي الحسيني(176) الذي انتقل مع يحيى بن إبراهيم إلى مضارب قومه لمتونة . وإذا كانت آمال ابن ياسين كبيرة، فإنه صدم لأول وهلة عندما وجد القوم في ضلالة عمياء يجمعون بين العديد من النسوة بلا حصر، كما تفعل البرغواطة، وقد وقع بعضهم في خلط حين نسب ذلك ليحيى المسلم الحاج، مما لا يتفق وشريعة الإسلام. وإذا كانت تلك بداية التوجيه للقوم، فإنهم صدوا، ونفروا منه ومن يحيى، إلى درجة أن بقي ابن ياسين ولا مجيب إلا يحيى وقليل معه، وكاد ابن ياسين ينتهي إلى يأس لولا تدبير يحيى وبرهانه لابن ياسين حين طلب إليه الاستمرار، وقد تكفل له والنفر القليل معه بالاستمرار، وأن الأحوال لاشك ستتبدل، وإذا ما قبل ابن ياسين فإنه اشترط الإعتزال والبعد إلى مكان يليق للإنقطاع، وأن لا يلتحق به إلا من كانت له رغبة صادقة في إصلاح نفسه وتعلم دينه، وإذا ما حصل القبول اختير مكان بجانب البحر له مدخل ضيق انقطع فيه ابن ياسين، وتضيف الرواية حتى يحيى رغم ملكه، ومعهما سبعة نفر أطلق عليهم ابن ياسين اسم « المرابطين للعبادة(177).

وكذا اجتمعوا في مكان شيدوه، وما هي إلا فترة من الزمن كثرت فيها جموعهم وانضم إليهم العديد من القوم الذين جذبهم إقبال يحيى، وأصبحت الجموع تتكاثر من

---

(176) راجع الترجمان للزياني م خ 274 والقرطاس 78-79-612، والعبر 2/169-6/182-183، وعن الترجمان المعرب أخذ صاحب الاستقصا ج 2/7-8-9 حرفيا.

(177) راجع مادة رباط بدائرة المعارف الإسلامية 10/19 والحلل 7-12-24 والأنيس 11-20ط 36 علي أنه لا يعنينا ما ذهب إليه البكري من تفضيل فيما يتعلق بعلاقة ابن ياسين مع كل من كدالة، ولمتونة في كتابه المغرب في ذكر افريقيا والمغرب 165 - 166، والذي جاراه فيه صاحب الحلل الموشيه ص 15 ط 1936، حيث فضل لمتونة على كدالة التي قال الأول : إنها نبذت ابن ياسين بسبب ميله وتبرمه منها .....الخ، وذلك أن ما أورده واضح في علاقة ابن ياسين مع زعماء لمتونة الذين تفانوا في طاعته والالتزام لمبادئه، وبذلك أصبح المرابطون هم لمتونة ، كما قرر صاحب الحلل 102.

قبيلتي لمتونة وكدالة وغيرهما، وإذا ما كان الإسلام أساسا يعتمد الصلاة وما انطوت عليه من نظام محكم، ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، بصفاء النفس وطهارة الجسم وسمو الروح، فإن قيام القوم بخمس صلوات في اليوم، وما يتبعها من تكوين فكري، بدل فيهم المفاهيم وغير فيهم السلوك، ثم طبعهم بطابع التنظيم الشبيه بالعسكري، في صفوف متراصة، وامتثال للأوامر بإمعان وانتباه لما يصدر عن الإمام الذي عرف كيف يشد إليه الألف رجل الذين تكامل جمعهم حوله والذين هم بلاشك اقتنعوا بفكرة الزواج من واحدة أو ما يبيحه الشرع، فكان للمرأة نصيبها في جمع الشمل، وتقوية النفوس، والحث على توحيد الكلمة خلف الرجل الذي حسن وضعها ورفع مكانتها في المجتمع الجديد، وما هي إلا فترة من الزمن حتى كانت الجموع قد تعلمت ما لم تكن تعلم، ووجدت في الاسلام ما عضت الندم على ضياعه من الحياة قبل أن تعرفه، وأصبح ابن ياسين في حياة القوم رسول أمن وخير وحب وسلام ، كما أصبح ابن ياسين وقد سيطر على الكل بإخلاصه وصدق عزيمته ، يفعل بعواطفهم ما يشاء ويريد وإذا ما اكتمل له النصاب الذي يجب الجهاد به ، ناهيك وأن ما حوله من غلف القلوب الذين تخلفوا، والذين لم يدخلوا في الاسلام بعد مما يدفع به إلى خوض المعارك حتى يكون بحق صاحب رسالة يفرضها الإسلام ويدفع إليها العلم الذي تعلمه من معلمه الذي ينتظر ما يسمع عنه "زلو بن واجاج"، وإذا ما فكر ابن ياسين في الجهاد، فإن الاستجابة من القوم كانت بنفس الروح المستمدة من المعلم الموجه، ناهيك وأن الرئاسة أسندت إلى كبير القوم بلا منازع، والذي هو قيدوم الرباط يحيى ابن إبراهيم الكدالي، الذي برهن عن حبه وتعلقه بالإسلام ، بما قدم من تضحية وتجرد ، ورغم ما ظهر بين القوم من روح العصبية التي لم تعدمها التربية، ولم تقض عليها في جنبات المعسكر، فإن جاهليتها سرعان ما تلاشت، بل تحولت إلى قوة عندما أخذ القائد يباشر مهمته بروح الأب الذي لم يفرق ولم يميز في حبه بين أبنائه.

استعد القوم للجهاد بالسلاح والقوة المعاصرة، من جمال ورماح وأقواس ونبال، كان عليهم أن يبدأوا الجهاد فيمن حولهم من الكفار، ومن بني قومهم وغيرهم، وقاد يحيى أولى المعارك بنوع من الشدة والحماس المتطرف، مما جلب عليه لوم المعلم حتى يسلك

الطريق الوسط، كما فسره "ابن كثير"، وما هي الا بعض غزات حتى أصبح يحيى مثال القائد المسلم الهادف البعيد عن التهور، الذي أنكره عليه ابن ياسين ، لكنه رغم ذلك كان اندفاع المسلم الحق الذي يندفع بروح عالية هادفة لتحقيق النصر للإسلام الذي علمه كيف يبحث عن ابن ياسين، وما يهدف إليه ابن ياسين. ناهيك وأن يحيى عرف فتوحات السابقين ، ووقف على ما حققته لجموع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يوم رحل إلى الحجاز، وأن ما عرفه قومه من جهل وفساد، وضلال لا يقضي عليه غير الجهاد، كما وقد عرف أيضا أن الشهيد في سبيل الله مآله الجنة وحسن المصير، فكان يحيى في قيادته وكأنه يعمل لذلك بصدق وخالص إيمان، وقد حصل ما كان يقصد حيث استشهد في معركة ضد متهودة السودان، في شهر المحرم 448هـ – 056م، لكن راية الجهاد لم تسقط بل انتقلت من يد أمينة إلى أخرى مثلها في الحب والصبر والصمود.

أسند ابن ياسين، المتجرد لأداء الرسالة ، إمارة الجهاد وقيادة الجيش للأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني، وهذه المرة أيضا إلى اللمتونة، حتى يتحقق ابن ياسين من مدى طاعة القوم وانقيادهم للأوامر، وحتى يكتشف النزعات العنصرية التي حاربها ويحس أنه قضى عليها، وفعلا ذلك ما حصل، ذابت وانتهت وأصبح رباط القوم وموحد صفوفهم هو الإسلام، و الإسلام فقط، اقتدى يحيى ابن عمر بسلفه يحيى ابن إبراهيم، حيث تبعه على نفس الدرب فاستشهد هو الآخر، لكن القوة المنظمة أصبحت قادرة على الغزو في جهات أوسع وأكبر، كان إلى جانب يحيى بن عمر اللمتوني الشهيد في الجهاد أخاه « أبو بكر بن عمر اللمتوني»، وكان مثالا في الصبر والتحمل والثبات، وإذا لم يخبرنا التاريخ عن أسماء السبعة الذين رابطوا مع ابن ياسين، ويحيى إبن إبراهيم يوم اختير الرباط، فإننا لا نستطيع القول بجزم أن الذين اختيروا تباعا للرئاسة ربما كانوا هم السابقون الأولون.

اختير أبو بكر بن عمر اللمتوني للإمارة، وقيادة الجيش سنة 430هـ 038م وكان قد قضى كمقاتل بإمرة القائدين السابقين ما يكفي من الزمن ليصبح أكثر قدرة علي تنظيم الجيش ميمنة، وميسرة، ومقدمة، ومؤخرة، خصوصا وقد أصبحت قوات المقاتلين تعد

بثلاثين ألف جمل يركبها ثلاثون ألف رجل(178). وبذلك أصبح على القيادة أن تطمح إلى فتوحات أخرى خارج أرض القبائل التي أسلمت وآمنت، ثم أصبحت قوة ضاربة إلى جانب ابن ياسين ورجاله، وإذا كان الامتداد الطبيعي للمنطقة هو ما يتصل بوادي درعة فليكن التخطيط لفتحها، ولفتح مدينة أغمات وسجلماسة الخوارج، ثم ماسة، وتارودانت، موطن الرافضة وعاصمة قبائل المصامدة بسوس وحتى ترتفع معنوية القائد المرشد وينعم بما حقق من تكوين حسب اختياره مما يفرح له ويعتز به زلو بن واجاج، الذي كان المعلم الأول لابن ياسين، لذلك اختار ابن ياسين البدء بأغمات التي كان يعرفها ويعرف ما يعانيه أهلها، وفي مقدمتهم زملاؤه ومعلمه زلو، من تعسف لقوط بن يوسف بن علي أمير مغراوة الذي انهار بسرعة خاطفة أمام قوة المرابطين، وإذا ما تحقق الانتصار اشتد العزم وقويت الإرادة على التقدم إلى الأمام، عندما غادر لقوط مدينة أغمات فرارا إلى تادلا لاجئا إلى محمد بن تميم اليفرني، بل لعل ابن ياسين اختار أغمات ليضع فيها اللبنة الأولى للدولة الحسينية، لأنها موطنه، وربما لم يكن يهدف التقدم إلى الأمام لولا فرار لقوط وما سمع عنه وصاحبه من استعداد للحرب.

كانت قبائل كدالة، وجزولة، وركراكة، من المصامدة قد فرت كلها للجبال، خوفا من سطوة بن ياسين وقسوة المرابطين الذين كانوا لا يعرفون غير القتل وسفك الدماء، كلما دخلوا في حرب مع آخرين، ولذلك أصبح بسيط الحوز خاليا من قبائله، وقبل أن يتوجه في مطاردة لقوط وصاحبه، ورد طلب من فقهاء سجلماسة الذين كان قد بلغهم ما حققه المرابطون،وما يهدفون إليه من التمكين للإسلام بقيادة عبد الله بن ياسين الذي بلاشك كانوا يعرفون معلمه زلو بن واجاج إن لم يكونوا يعرفون تلميذه صاحب النفوذ، وكان السجلماسيون قد عرفوا من تصرفات العبيديين، والذين حلّوا محلهم خصوصا مسعود بن وانودين ما أرهقهم وأنهك قوتهم، وبعثهم على التذمر والتعلق بالقوة الصاعدة من الصحراء.

كان علي ابن ياسين أمام الظروف المنتظرة بعد فرار لقوط وغيره، أن لا يهتم

(178) الترجمان، المصدر السابق، والبكري في المسالك مصدر سابق.

بمطالب السجلماسيين، لكنه تصرف تصرف القائد الخبير، حين توجهت قواته نحو سجلماسة لا ليستمر ويركز عليها، بل في ضربة خاطفة قصد الاستطلاع والاستمداد حتى يعود إليها، وما كادت قوات المرابطين تتجه نحو سجلماسة سنة 445هـ 1054م وبعد قضائها على مسعود المغراوي عامل درعة، حتى أقبلت عليه بعض قبائلها وقد أمنت ظهره ثم أصبحت قوة ضاربة إلى جانب المرابطين الذين عادوا بسرعة إلى حيث القيادة التي كانت رابطة ببسيط الحوز تضيق الخناق على الذين كانت قواتهم تحاول التكتل مع قوات البرغواطيين من جانب، ثم قوات قبائل مكناسة، ومغراوة وبني يفرن التي كانت قد أصبحت هي الأخرى تكون دويلات بعد تمزيق الادارسة بحيث كانت إمارة سلا، وحاكمها أبو الكمال تميم اليفراني في مطلع القرن الخامس، وهو الذي أوقف المد البورغواطي، حيث إنه من أجل ذلك، اختلق بعضهم حول قبره من الخرافات ما يستدل بها على أن قتال برغواطة كان جهادا يتقرب به إلى الله، ومثل إمارة سلا، كما رأينا فاس تحت نفوذ المغراويين وسجلماسة تحت نفوذ بن خزرون، وغير ذلك من الشتات الذي عرفه المغرب في هذه المرحلة وقت ظهور المرابطين من روافض، وشيعة، وخوارج نتيجة الفوضى التي زرعها دعاة العبيديين كالبجلي علي بن عبد الله، وزميله محمد بن ورصنيد البجلي كذلك وهم الذين فصل في وصفهم ابن حوقل والبكري وغيرهما .

كان في هذه المرحلة يوسف بن تاشفين ابن عم القائد عمر بن أبي بكر، قد أصبح قوة لها حسابها في قيادة الجند، ولعله الذي ذهب في قوات المرابطين إلى سجلماسة، ثم عاد ليخوض المعركة الفاصلة إلى جانب أبي بكر ضد البرغواطية، وضد لقوط الذي سقط كما انتهى محمد بن تميم، وإذا ما استمر الحصار والقتال ضد برغواطة من 447هـ إلى 451هـ فإن عبد الله بن ياسين الذي جرح في المعركة توفي يوم الأحد 24جمادى الأولى من نفس السنة 451هـ متأثرا بجراحه، حيث دفن على ربوة بوادي كريفلة رحمه الله، وضريحه معلوم بها حتى اليوم بأرض زعير.

كان عبد الله وهو يلتقط أنفاسه وقبل أن ينتهي نفسه الأخيرقد التف حوله كل من أبي بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وكان آخر ما وصاهما به التمسك بالدين، والاتفاق وعدم التنافس وأن يخلصا للدين بكل مالهما من حزم وعزم وحب وصفاء.

آلت السلطة الروحية بعد عبد الله بن ياسين إلى أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي شدد الحصار على برغواطة حتى النصر، لكن أبا بكر وقد علم بما ذاع وانتشر عن سيرة أرملة لقوط صاحب أغمات الذي هلك، والتي كانت سمعتها طيبة، عرفت بالخير والدين والرأي السليم، تلكم هي زينب ابنة اسحاق النفزاوية الهوارية، التي كانت قبل لقوط زوجة ليوسف بن علي بن عبد الرحمن بن واطاس شيخ أوريكة، ولما سمعه عنها أبو بكر اللمتوني تعلق بها تعلقا لم يتركه ينتظر أكثر من زمن خروجها من العدة، ليتزوجها فتصبح المالكة لزمامه، الموجهة لحياته نحو الحضارة التي لم يعرفها، ولم يتعرف على من يعرفه عليها قبل، بل يقول أبو القاسم الزياني، إنها التي علمت المرابطين كيف يأكلون ويشربون ويركبون من الخيل ما أصبحوا يملكون، وقد سجل التاريخ أن أبا بكر كان يشاركها الرأي في كل ما يعترضه لأنها كانت إلى جانب ما قيل في حقها ميمونة الطالع، كبيرة الهمة سليمة الرأي قوية الشخصية(179).

كان المرابطون في حلهم وترحالهم يحملون معهم زوجاتهم رغم أن فتوحاتهم قد اتسعت، وإذا ما تزوج أبو بكر من زينب، وهو يعلم أنها كانت بعصمة رجل سلطة في مدينة أغمات، وأنها لا تتحمل حياة الترحال الذي اعتاده القوم، ولهذا ربما تكون فكرة إنشاء مراكش المدينة قد ظهرت في عهد أبي بكر وباقتراح من زينب، وإذا كان تمركز قوات المرابطين بالمنطقة القريبة من وادي تانسيفت الذي لا يختلف طبيعة عن موطن زينب أغمات، فإنه خير مكان يختار لبناء المقر الدائم، لكنه ربما ما كاد يستجيب حتى وصله خبر فتنة قامت بين قبيلتي لمتونة وكدالة بموطنهما، ولعل السبب هو السلطة العامة التي آلت إلى أبي بكر بموت عبد الله بن ياسين، مما نشأ عنه عجرفة واستعلاء، من اللمتونيين ضد الكداليين، وإلا ما كان ثمة ما يوحي بأن الفتنة ستقوم على الشكل الذي عرفت به بعد بين الفريقين، ولمدة سنتين، مما دفع بأبي بكر أن يعجل بالرحيل إلي الصحراء للقضاء على الفتنة، وكان بالانتصار لقبيلة لمتونة ضد كدالة قد خلق جوا نتعرف عليه قبل وندرك أثره حين عودته وما سيقوم به يوسف من تصرف دون أن يجد معارضة تذكر.

(179) راجع القرطاس 89 والعبر 184/6 والترجمان 275 والحلل الموشية 12 والاستبصار والرض المعطار 254/2م خ نا.

لكن قبل أن يتوجه أبو بكر إلى الصحراء والأعمار بيد الله، وهو الذي حفظ ووعى تربية ابن ياسين الإسلامية، ماذا يفعل بزينب التي لا تقدر على تحمل مشقة الحياة في الصحراء التي لم تعرفها قبل، إن حبه لها من جانب وما يفرضه الشرع من التزام الشرط، يفرضان عليه أن يتركها حيث تستطيع الحياة، وقبل كل شيء وجب أن يطلقها ولها حق الاختيار في الانتظار وعدمه، بل وحتى يتزوجها ابن عمه بعد، إذا لم يقدر له بعد أن يعود، وعند ابن أبي زرع أنه خاطبها إن لم يكن أمرها بالزواج من ابن عمه يوسف بن تاشفين عندما تنقضي عدتها؟ رحل أبو بكر قاصدا سجلماسة التي كان قد ضرب بها نقوده الذهبية باسمه سنة 446هـ/ 1054م(180)، فودعه يوسف بعدما عقد له وفوض إليه الأمر باتفاق الأشياخ، ثم أخذ أبو بكر نصف الجيش وترك النصف وذلك في شهر ذي القعدة 453هـ/ 1061م.

أما يوسف الذي تخلف بعد أبي بكر وحل مكانه فهو ابن تاشفين، بن إبراهيم، بن ترقوة، بن وارتقطين، بن منصور، بن مصالة ، بن مانية ، بن واتملي، بن تامليت، الصنهاجي اللمتوني، أما أمه فهي بنت عم أبيه، واسمها فاطمة، وقد نسبه كثير من المؤرخين الذين ردوا صنهاجة إلى ولد عبد شمس بن وائل من حمير، وهو غير صحيح، كما ورد في ترجمته عند ابن القاضي(181).

---

(180) لدينا دينار ذهبي بهذا التاريخ، وبه ومن شكله يستدل على ما أصبح لسجلماسة وقتها من حضارة جلبها الرواد من الأندلس الذين أصبحت قصورهم بها معروفة حتى اليوم.

(181) راجع الجذوة 545/2، والحلل الموشية 13 ، والقرطاس 78/2/ط فاس، وعند ابن خلدون 152/6 أن بطون صنهاجة كثيرة منها : بلكانة، أنجفة، سرطة لمتونة، مسوفة، جدالة. ثم راجع صنهاجة في الفصل العاشر من الباب الثاني أعلاه، بل وبعض بطونها كذلك ونهاية الأرب للتلقسندي 317ط1959، والجمهرة 461ط مصر 1971، والترجمان المعرب مصدر سابق ص 440 – 441.

الفصل الخامس والخمسون

يوسف بن تاشفين بين استقرار الدولة ووحدة المغرب الكبير

كان يوسف بن تاشفين وهو ابن عم أبي بكر في سن الثانية والخمسين من عمره عندما أقدم أبو بكر على العودة إلى الصحراء، وإذا كانت القيادة قد أسندها المؤسس إلى لمتونة في حياته، فخير من يحل محل القائد الراحل، هو يوسف الذي أصبح الأمير القائد للجيش الذي اتخذ وزراءه من قومه، ناهيك وقد عرف يوسف بعظيم استقامته وتمسكه المتين بالدين، إلى جانب شجاعته وإقدامه وحسن تدبيره، وإذا ما أصبح الرئيس المطاع فإن «الرغبة»؟ التي أوردها إبن أبي زرع «ص134ط 1973م منسوبة إلي أبي بكر حول زواج يوسف من زينب قد تمت بعد انقضاء عدة الطلاق، وماكاد الزواج يتم حتى عادت فكرة آقتراح بناء المركز الدائم للدولة إلى الظهور، ولربما عادت في العهد الجديد باسلوب عملي وتخطيط مشترك بين يوسف وزينب، ناهيك وأن قيام المرابطين قد مضى عليه اثنان وعشرون سنة، ولم يعد لهم أن تبقى حكومتهم التي امتد نفوذها من سوس ودرعة وسجلماسة وتامسنا إلى وادي نول، متنقلة وغير مستقرة بثرواتها التي حصلت عليها من أغمات وسجلماسة وتامسنا.

كانت المرأة اللمتونية غير محجبة، وهي بعد الفتح الجديد أصبحت تركب الخيل سواء للرحيل أو التنقل، وفي يوم من الأيام يقول المؤرخون قام يوسف بجولة حول وادي تانسيفت، ومعه زينب ذات الطالع الميمون، والتي شاركت في اختيار الموقع الصالح لتخطيط القصر، والمسجد اللذين شيدهما يوسف بأرض قبيلة هيلانة وهزميرة، ولولا حياء المؤرخين من عظمة يوسف لقيل إن مدينة مراكش من إنشاء زينب التي عرفت بكل الفضائل، لكن وهذا أجمل وأحسن مافي الحياة الدنيا فكلاهما كان يكمل الآخر، وصدق

الله العظيم «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وإن كان ابن ابي زرع الذي تعوزه حاسة المؤرخ في كثير من المواقف وصف زينب وصفا فيه مبالغة، فهي عنده «كانت القائمة بملكه – يعني يوسف الذي سحقه سحقا– والمدبرة لأمره، والفاتحة بسياستها أكثر بلاد المغرب إلى أن توفيت سنة أربع وستين وأربعمائة «ص134–135 مع أن حياتها لم تدم معه سوى أحد عشرة سنة، هذا مع العلم أن أهم الفتوحات وأغلبها في داخل المغرب كانت قبل زواجه من زينب، وخارج حدوده كانت بعد موتها. لكن والامر لله، ذلكم هو ابن ابي زرع الذي لم نجد بدا من الإستئناس به. لكن من يعتمده وحده لايستقيم له البناء، بل يعرضه للتشويه والانهيار.

كان الموقع الذي شيد بعد بجانبه المسجد الجامع للكتبيين ومئذنته سنة 454هـ/1062م عند أبي زرع أو بعدها مادام البكري لم يتعرض لها كان به سكنى الكل، خيام الشعر وضعت في شكل دوائر متداخلة تحيط بالجامع، ومخزن السلاح، وبيت المال بالمكان المعروف بسور الحجر من جوف جامع الكتبيين، وإذا حدث ما يستوجب تمهيد سوس(182) في هذه السنة، فإن يوسف قبل رحيله أمر أن يبني حول قصره للأشياخ، ولرجال القبائل، ثم بعدهم لمن شاء أن يبني، وهكذا أصبح يوسف المؤسس للعاصمة التي زينت، ويعمرها ألفان من العبيد حول القصر، اشتراهم من السودان، وأعلاج من الروم الكل تجمع في المدينة، في حياة أرغد وأحسن، وأصبحت مراكش المنطلق لغزو ماتبقى قرب الأطلس الكبير، كما أصبحت القيادة قادرة على التنظيم أكثر مما كانت عليه أيام أبي بكر الذي انتهت مهمته في الصحراء ثم بلغ خبر عودته، وأن في نفسه غيرة مما حققه يوسف، ولربما قيل إنه سينزعه ويولي غيره القيادة، إنتشر هذا وهو في طريقه إلى مراكش، وهنا يعود ظهور زينب عند المؤرخين ورأيها الناضج في موقف سياسي، حيث اهتم المؤرخون بها كل الإهتمام وبما أبدته من رأي حين استشارها يوسف كما يقول بعضهم؟ ماذا يفعل؟ وماموقفها من الرجلين، وقد علمت من يوسف أنه لايفكر في التنازل

---

(182) السوس من كور الأهواز، والسوس أيضا من أقصى بلاد المغرب، وهي مدينة جليلة جامعة لكل خير، وقد كان قبل بسوس من السكر مايعم أكثر الأرض الخ الروض المعطار 31/2م خ نا، واليوم يطلق على الاقليم إلى حدود طرفاية. وحول مدينة مراكش نفس المصدر، 540– 541.

لأبي بكر، ولو اقتضى الموقف المواجهة والحرب؟ ولماذا لانقول إن يوسف كان قد قطع أشواطا في القيادة والفتح والتوحيد، ولم يعد في مقدوره أن يرجع إلى التبعية، ولربما اقتضت المصلحة ذلك مادام أبو بكر قد طعن في السن، وأنه لم تعد له القدرة على إكمال ماتبقى من فتح البلاد التي لم تفتح، هذا بالإضافة إلى ما سيحصل في الجند والأشياخ من رد فعل إزاء موقفه المتحيز للمتونة ضد كدالة في المهمة التي رحل من أجلها إلى الصحراء، بل ومن وراء كل الاعتبارات مصلحة الإسلام الذي أثبتت الايام مدى تعلق يوسف به وبرسالته، وأنه قط لم يغتر بما اغتر به السابقون واللاحقون.

دون المدركون من المؤرخين مشاركة زينب ليوسف في حل هذا المشكل، واتخذه المتأخرون وسيلة للدفاع عن المرأة، وأنها قادرة على إبداء الرأي في المواقف الفاصلة، وأن الرجل مهما أوتي من الفهم، ومهما كانت قدرته على حل مشاكله، لابد أن يشرك فيما يعنيه شريكة حياته، خصوصاً إذا كانت مثل زينب ربة بيت صالحة. وذات خلق ودين وهي المرأة التي اختلق القوم حولها كثيرا من القصص المقبولة والمرفوضة حيث قيل: لقد علمت زينب أن الموقف إذا لم يعالج بحكمة سيؤدي إلى كارثة تفسد عليها وعلى الآخرين حياتهم، وبالتالي على كل الذين من حولهم، لذلك اقترحت على يوسف بدل القوة والعنف والتنافر، أن يلجأ إلى الحكمة والإتزان واستعمال الرأي، خصوصا وأن أبا بكر المستمسك بوصية الإمام ابن ياسين ممن يقدرون الموقف، ولايقدم على سفك دماء المسلمين في سبيل التنافس الذي حذرهم منه قبل رائدهم الشهيد في سبيل جمع الشمل وتقوية المسلمين.

وقيل أيضا: كانت إشارة زينب على يوسف أن يستقبل ابن عمه وأن يظهر له كرم الضيافة، بل وأن يهيئ له من الهدايا ما يبهر لبه ويعرف معه أن نظام الدولة قد استقر بفضل ما أقدم عليه يوسف من تنظيم جديد، وأن يقدم له تلك الهدايا قبل الاتصال به، وأن يكون الاتصال وقد جمع يوسف حوله كل ماعنده من العبيد الألفين، والجند، مدججين بما أصبح يتوفر عليه من أسلحة قوامها الدروع والأقواس، والسهام، والنبال، والسيوف، وأن يصطف آلاف الجند يمينا ويساراً، ثم يتقدم يوسف وقد ظهر بينهم تحيط به كوكبة ليسلم على أبي بكر دون أن يترجل، بل عليه أن يظهر الشدة والفعالية ونفوذ الأوامر

فيمن حوله من الحاشية، وإذا ما رأى أبو بكر هذا لم يعد له مطمع فيما سلف له من سلطان.

قيل تلك كانت آراء زينب ليوسف الذي كان أمام زينب وكأنه يتلقى درسا في الحكمة طبقه حرفيا، ثم تقدم تحيط به كوكبة، وربما كانت من كدالة، فلما أقدم أبو بكر سلم عليه يوسف ولم يترجل، وتلك كانت علامة التمسك من يوسف بالقيادة والسلطان، فلم يكن من أبي بكر إلا أن قال مخاطبا بكلمة واحدة لم يزد عليها: ماهذا يايوسف فرد عليه: ما رأيت، وما يصلح للعدو. فأجاب أبو بكر يقول الزياني وقد أورد اجمل قول من أبي بكر:(183) «أعانك الله ووفقك، وما أتيت إلا لأنظر وأقرب العهد بك، ولاغرض لي في هذا الملك. بارك الله لك فيه، وأوصيك بتقوى الله، واعمل لآخرتك لا لدنياك، فإنه لاعهدة علي».

ودع يوسف ابن عمه أبا بكر بن عمر اللمتوني الذي عرفت دولة المرابطين انطلاقتها الأولى بقيادته بعد ما زوده بما يليق وما يستحق وما يحتاج إليه من متاع فاق ما كان منتظرا، فتوجه أبو بكر الى الجهاد في نواحي السودان المغربي الى أن توفي عام 480هـ. ومن وقتها أصبح التخطيط والتنفيذ المطلق بيد يوسف ابن تاشفين الذي عرف المغرب على يده آنطلاقة مشرقة، تمثلت في آزدهار مدينة مراكش التي أصبحت محط رحلة القوافل التجارية، الواردة من أغمات وتارودانت، كما آزدهرت فيها الصناعات، ونشاط أرباب الحرف الذين تواردوا عليها من مختلف الجهات للاستقرار والحماية بسلطان الدولة، كما نشطت حركة البناء حيث شيدت القصور، والمساجد، والحمامات، والمتاجر، والفنادق وأخذت مراكش طابعها الجميل بين النخيل والبساتين، ثم أصبحت عروس الجنوب تزداد حسنا وبهاء على مر الأيام، وتقادم الدهر إلى أن يصبح عمرانها كما ورد في الأعلام ج1/103–107، والروض المعطار 540/ط 1980، والاستبصار 208 ط1985.

كانت العشر سنوات التي قضاها المرابطون في منطقة مراكش قبل وبعد البناء

---

(183) الترجمان 276، والحلل 15 ط الرباط 1936، والقرطاس 34/2 ط الرباط 1936، وقد أورد الوصايا التي قدمها أبو بكر الى يوسف في هذا الموقف ص35، أما ابن أبي رزع، فقد أورد أن يوسف قدم لأبي بكر ألفا من الإبل محملة بكل ما كان عند يوسف من المال، والثياب، وشيء من الإدم والطعام...إلخ ص135/ط1973.

459هـ/1067م كافية للإستقرار والتنظيم والبعث، خصوصا وأن القيادة لم تعرف ما يكدر إلا ما كان من جولات حربية هنا وهناك، ما بين سجلماسة وتامسنا، كما عرف جيش المرابطين تلقيحا من القبائل القريبة والبعيدة، خصوصا التي كانت تحتوي على فروع الأدارسة الذين وجدوا في سياسة المرابطين ما يبعث في نفوسهم الإطمئنان على الدين، ومبادئ الاسلام التي هي أساس وجودهم، والبنيان الذي شادوه في المغرب، كما وجدت منهم دولة المرابطين قوة مساندة وتمهيد في مختلف الجهات التي آعتزم يوسف بن تاشفين القيام بغزوها من أجل التوحيد وجمع الكلمة، وإذا كانت تلك هي الرسالة التي حملها المرابطون، ثم آنطلقوا لتبليغها والتمكين لسلطانها، فإن مجوسية البرغواطية لاتزال باقية وعلى مقربة من مقر الدولة الجديد، لذلك كان على يوسف أن يرتب لغزو جديد بعدما أصبح المسؤول الوحيد عن تحقيق أهداف رسالة التوحيد الديني والوطني، ولم يكن هذه المرة وقبل كل شيء غير تصفية البرغواطية التي كانت السبب في موت المؤسس بن ياسين متأثرا بجروحه.

إنتقل يوسف سنة 455هـ/1063م إلى آنفا حيث آختارها مركز الإنطلاقة الي قلب تامسنا، لكن القضاء على البرغواطية كلفه خمس سنوات قبل أن تنتهي ويزول أثرها وتنعدم تعاليمها الضالة من الوجود سنة 460هـ/1067م، كما قضى على أثر صاحب تادلا، ثم آنتقل إلى سلا فملكها من يد بني يفرن، كما آستولى على مكناسة الزيتون، بعدما حاصرها الى أن آستأمنه أهلها فأمنهم، ثم ولى عليهم كبيرهم المهدي بن يوسف الجزنائي، وانتقل إلى مدينة فاس التي كان عليها معنصر بن حماد المغراوي وقد آستنفر قبائل مكناسة وبني يفرن، ثم حشد الحشود ببسيط سايس، لإيقاف زحف يوسف بن تاشفين، وربما كان وراءه استشارة بعض الأندلسيين بدليل ما سنرى من مواقف أهل عدوة الأندلس، لكنه آندحر وجموعه أمام جحافل المرابطين، ثم فر معنصر الى مدينة صدينة(184) بعدما ترك جموعه وقد تساقط أكثرهم صرعي.

---

(184) من كور شدونة ببلاد الأندلس، وفي غاية الحصانة، لا ينفذ جيش إليها، ولا يتوصل عسكر للنزول عليها الروض (المعطار 54/2 م خ نا)، وقد ورد في الجدوة أن فتح فاس كان سنة 455هـ ونحن نقول بعد هذا التاريخ كما سنرى.

دخل يوسف مدينة فاس دخول الفاتح، ثم ولى عليها عامله من المرابطين وترك معه خمسمائة من الجنود، ثم توجه ناحية غمارة التي ما كاد يصلها حتى عاد معنصر الى مدينته وقد استنفر من القبائل ما مكنه من الفتك بعامل يوسف وجنوده الذين مثل بهم قتلا وحرقا وصلبا على الأبراج، ثم تفرغ لحكم المدينة، ولما بلغ الخبر ليوسف أرسل حامية لحصار مدينة فاس، لكن معنصر الذي بادر بقتال الحامية لاقى حتفه في القتال، فبايع أهل عدوة الأندلس ولده تميم، ولما آنتهى يوسف من فتح غمارة عاد إلى فاس حيث أطلق يد الجند فيها يوم الخميس جمادى الثانية في سنة 462هـ/1069م، أما عدوة اللمطيين حيث العرب والبربر ومن عاد من الأدارسة الذين سبق أن أشرنا إلى موقفهم من المرابطين، فإنهم لم يتعرضوا لشيء مما أصاب عدوة أهل الأندلس، وهو ما عند الزياني خلافا لما أورده ابن أبي زرع.

دخل يوسف مدينة فاس بعد ما شدد الحصار ونفذ العقوبة في الذين قتلوا عامله وجنده من مغراوة، ومكناسة، وزناتة ،حلف الأندلسيين وقتها، ثم هدم أسوار المدينتين وصير الأندلس واللمطيين عدوة واحدة، وبالغ في القتل حتى كان القوم يدفنون موتاهم جماعات في أخاديد، ولما آنتهى أمر ببناء السور المحيط، كما أمر أهل فاس ببناء المساجد في كل حومة وحارة، ولم يغادرها إلا بعد ما رتب لها ألفا من الجند كلهم من لمتونة، بنوا دورهم بمحل القصبة الجديدة مع السور الى باب الشيخ اللزار(185).

عندما كان يوسف بفاس ينظم أحوالها ويجدد بناء سورها، وجه جيوشه الى تلمسان والمغرب الأوسط، وأسند قيادة الجند إلى القائد منديل اللمتوني الذي كلف بتصفية ما تبقى من مغراوة، ومكناسة بوجدة عاصمة زيري، وتلمسان عاصمة بني يفرن، فكانت الحرب بين منديل ومعلى بن العباس بالقرب من تلمسان، وانهزمت جيوش معلى أمام المرابطين بعد مقتل معلى، ثم عاد منديل بعدما ترك حامية بتلمسان، لكنه ما كاد

(185) الترجمان 276، ويقول ابن القاضي في الجذوة إن الذي تقدم مكان معنصر لما قتل ليس آبنه، وإنما القاسم بن محمد بن عبد الرحمان بن إبراهيم بن موسى بن العافية المكناسي الزناتي الذي جمع زناتة، ثم هزم بهم جيش المرابطين مما عجل بعودة يوسف. وعنده أن يوسف فعل بأهل عدوة القرويين مثل ما فعل بعدوة الأندلس، وهذا لا يتفق وما عند الزياني في المصدر السابق، كما أن الأحوال والظروف لا تحقق ما عند آبن القاضي بالنسبة لبني العافية وما عرف عن مصيرهم. راجع فتوحات يوسف بالمغرب والأندلس في القرطاس 136-45 ط الرباط 1973.

يبلغ نصف الطريق حتى آستولى العباس بن معلى على تلمسان من جديد، ولما بلغ الخبر ليوسف لم يجد بدا من الذهاب بنفسه لتمهيد البلاد، فعقد العزم وخرج بجيوشه سنة473هـ/1080م.

وهكذا نجد المرابطين قد أسندوا القيادة لأبي بكر بن عمر، ويوسف قد قضوا في سبيل توحيد المغرب. والقضاء على ما كان قد أصبح عليه من تفريق وتمزيق مدة تزيد على الأربعين سنة مذ أسندت القيادة الأولى لأبي بكر بن عمر سنة 430هـ/1038م.

إنتقل يوسف إلى تلمسان حيث حاصرها حصارا شديدا، وفعل فيها مثل ما فعله بمدينة فاس، هدم أسوارها وشيد بمكان نزوله ما أطلق عليه "أجدير تاكرارت"، وفي هذه المرحلة كذلك كان المغرب الأدنى هو الآخر قد تعرض للتمزيق بسبب ما آل إليه أمره بعد خروج العبيديين الى مصر، حيث اغتصبت منه الجزر التي كانت تحت نفوذهم، كما آنقسمت البلاد الى دولتين الدولة الزيرية بتونس، والحمادية بالجزائر(186) وانتقاما لذلك رأينا المستنصر، ووزيره اليازوري قبل، وفي عام 443هـ يغرقان البلاد بعشرات الآلآف من قبائل هلال، وسليم نكاية من الخارجيين، وتخلصا من الذين أصبحوا نقمة على الدولة بمصر بعد آتصالهم بالقرامطة، ولذلك دفع بنحو المائتي ألف إلى برقة، ثم القيروان وافريقية، حيث أصبحوا وبتوجيه مقصود وسيلة تدمير وتخريب في كل المرافق، كما أصبحت البلاد بهم عرضة للفتن والحروب، وعرفت تلك المناطق من شرق المغرب من التمزيق، وتطاحن القبائل القديمة والمستجدة، ما جعل يوسف يركز على صيانة وتنظيم فتوحاته ثم يتركها حتى تستنفد قواها فيما آختارت واختار لها الدافعون. وهكذا اقتصر يوسف في فتحه للمغرب الأوسط الذي وحده مع المغرب بعد تلمسان على أرشكول سيف البحر التي آستولى عليها، وعلى وهران، وتيهرت وتنس "مستغانم"، وشلف، ثم جبل ونشريس، ولبليدة، ثم نزل على مدينة الجزائر التي كان قد آختطها بلكين بن زيري الصنهاجي أمير العبيديين، ولما تم ليوسف فتحها، بنى المسجد القائم حتى اليوم والمطل على البحر، بناه على شكل الجامع الذي بناه بآنفا(187) وما عدا ذلك شرقا فقد ترك القوم كما أشرنا.

وفعلا تعرض بنو حماد وبنو زيري لهجومات الإيطاليين الذين طردوا حكام جينوة،

وبيزة، وسردينية. كما آستولى أهل جينوة على كرسيكة، وقوي خصوم بني زيري عندما تم تحالفهم مع اليونان، وانتزعوا مدينة قرنة منهم سنة 427هـ/1035م، ثم دهم اليونانيون جزيرة سيسيليا 437هـ/1045(188). ومن وقتها والبلاد في تمزق وفوضى، كما تعرضت لنفس المصير جزيرة الأندلس، وهنا كان على يوسف أن يختار، هل يستمر في الفتح والتمهيد شرقا، أم يكتفي ويعود إلى ما ترك خلفه من بلاد شاسعة ربما تعود إلى ما كانت عليه من فرقة، وشتات رأي، وتعدد سلطان، بل والتي قد تتعرض للتهديد إذا ما انتهى ضعف الأندلس، وما جد فيها من ملوك الطوائف الثلاثة عشر إلى آنهيار دولة الإسلام، فكان هذا الاختيار أحسن، وأفضل، وأحق بالرجحان، وإذا ما قرر يوسف وعاد إلى تلمسان بعد ما أسند إمارة تلك البلاد إلى محمد بن تينعمر المسوفي من مسوفة إحدى قبائل لمتونة، والذي قام على خدمته بنو يلور، وبنو مانو(189) الذين أصبحوا من جملة عساكر لمتونة، فإن أهل مدينتي الجزائر، وتنس ثاروا على تينعمر، فقام لحصارهم بمساندة بني يلور، وبني مانو، لكن تينعمرمات ليتولى أخاه تاشفين بن تينعمر الذي فتح الجزائر بعد حصار، ثم توجه لحصار تنس ففتحها وهدم أسوارها ثم حرقها، ولما رجع إلى تلمسان إستمرت الفتنة بينه وبين المنصور بن بلكين صاحب القلعة من ملوك بني حماد الصنهاجيين، ودامت الفتن الى أن زحف المنصور على تلمسان، وحاصرها إلى أن كاد يغلب عليها بل غلب وأبقى على تاشفين بن تينعمر المسوفي بعد استمكانه منه(190)، ولما تولى العزيز عقد الصلح مع تاشفين بن تينعمر(191).

وبعد هذا ألم يكن من التوفيق آختيار يوسف العودة، وعدم الدخول في دوامة الاستنزاف التي ربما كانت ستنتهي إلى تدمير شامل، كما دمرت أقطار المغرب الأوسط

---

(188) موسوعة وجدي 672/9.

(189) راجع العبر 4 ود البستاني 295/9، و د المعارف الإسلامية 35/3، والمعجب 30/ط 1949، والزياني276، ويخبرنا القلقشندي في "صبح الأعشى" 280/5 عن فرقة من سكان ما بين إفريقية وبرقة الذين أطلق عليهم "الكائم"، وهم أصلا من السودان، كانوا يتاجرون بمصر في البهار والفلفل يجلبونه من الهند واليمن وهؤلاء بلا شك كانوا يجلبون معهم عادات واعراف تسربت الى المغرب العربي الإسلامي في هذا الوقت المبكر.

(190) الزياني، المصدر السابق.

(191) الأسر الحاكمة لزمباور 110/1.

والأدنى وما يليهما شرقا، والتي سنرى ما آلت إليه قبل، وبعد أن يضمها الموحدون وما سيحاوله بنو مرين بعد الانفصال ثانية، وهكذا فإن القدر عاد بيوسف بن تاشفين ليؤدي مهمة سامية ونبيلةنحو العقيدة التي آنطلق من أجلها مهاجرا إلى الله ورسوله، لا كما عنّ لأصهار الاستعمار من المعاصرين أن ينعتوه بل عاد آبن تاشفين ليزيد في عمر الإسلام بالأندلس أربعمائة سنة.

الفصل السادس والخمسون

العرب وحضارة الإسلام التي أنقذها المغاربة بالأندلس

تعرفنا على الأندلس يوم فتحت وما عرفته من فتن القيسية واليمنية، ويوم دخلها صقر قريش عبد الرحمن الداخل الذي أسس فيها دولة أموية قويت وتمكنت في أيامه وأيام بعض خلفه، واستطاعت بحكم الموقع والمزج الحضاري أن تعرف مجتمعا أدى للبشرية خدمات لم يقدمها فكر الا غريق والروم، حيث أصبحت الجامعات الإسلامية بالأندلس ملتقى أبناء الشعوب، لا فرق بينهم في مجال المعرفة، وإن إختلفت أجناسهم ومللهم ونحلهم، مجتمع آنتشرت فيه المعارف الإسلامية العربية آنتشار الشمس على الجميع، كشفت المجهول وقربت للإنسانية ما كانت لتتعرف عليه لولا روح التسامح التي طبعت مجتمع الأندلس بعدما كانت الفوارق الطبقية تسحق وتفتت جهود الآخرين في بلاد أخرى، كما عرف الإغريق والفرس والروم، وبقيت الشعوب التي أسهمت في حضارة الإنسان، بل في مجتمع الأندلس، كانت قوة المرء بما يحسن من علوم وما له من كفاءة، وما يتميز به من فضائل في السلوك والأخلاق وفي المعاملة، وبهذا المفهوم خرج عبد الرحمن بن الحكم الأموي 208 و238هـ/822–886م ليستقبل زرياب "الأسود" علي بن نافع مولى المهدي العباسي الذي فر من مجتمع التمييز القاتل بالتحاسد في بغداد وفي القيروان، زمن زيادة الله، فاستقبله عبد الرحمن بقرطبة، ثم خصص له في كل شهر نحو ألفي دينار(192) وإذا ما عرفنا ما قدمه زرياب للحضارة العربية الإسلامية نتعرف

(192) نفح الطيب 112/2–113، وتاج العروس 286/1، وتاريخ آفتتاح الأندلس لابن القوطية 68–69. وفيه "زرآب في الفارسي معناها ماء الذهب"، ويستدل منه أن سوار زرياب كان ذهبيا، وزرياب تلميذ إسحاق الموصلي، لكنه برع أكثر منه، وأصبح في نظر إسحاق خطرا يهدده بمهارته ونبوغه، فاضطر زرياب أن يهاجر من بغداد إلى برقة، ومنها الى القيروان التي لقي فيها من زيادة الله بن الاغلب تكريما غير كامل بالنسبة لما كان يطمح إليه، وهو –أي زرياب– الذي طارت شهرته في الآفاق حتى استدعاه الملك العالم الحكم، الاول بن هشام الى الأندلس، لكنه ما كاد ينزل في الجزيرة الخضراء حتى توفي الحكم، فخرج لاستقباله ولده عبد الرحمن، ولما وصل زرياب الى الاندلس كان قد جاوز الثلاثين عام 207هـ–822م وعاش فيها حتي مات 243هـ/ 857م.

على الدافع لتكريمه بالقدر الذي سجله التاريخ لعبد الرحمن بن الحكم مع زرياب، وهذا ما دفع إلى التنافس في العلوم والمعارف، فعرف مجتمع الأندلس الإبداع والابتكار في العلوم، والتشريع والموسيقى والطب والكيمياء والجغرافية والتاريخ والهندسة والزراعة والطب البيطري، كما عرف الدرجات العليا في علم المواليد والمنطق والنحو والآداب والجبر والأصول وغير ذلك، حتى كانت عقول الأوربيين لا تسع إدراك ما كان يعرفه مجتمع الأندلس من معارف كما حصل لـ «جوبرت» بابا روما وقتها آخر القرن الرابع هـ/10م، والذي تعلم بالأندلس علوما آعتبرها قومه نوعا من السحر، وإذا كانت جل العلوم النظرية المتعلقة بحياة الناس قد عرفت التطبيق في مجتمع الأندلس، فإن ما سجله التاريخ في هذا المجال وقتذاك ليعتبر بحق مما يدفع إلى ما آعتقده الروم في البابا جوبرت، لقد دون لنا التاريخ أن قرطبة وحدها كانت تتوفر على 113.000 دار تحتوي على 200.000 بيت، و600 مسجد، و50 مستشفى للمرضى، و80 مدرسة عليا، و90 حمام للعموم، كل هذه المرافق من أجل حياة 1.000.000 من البشر كانوا يسكنون قرطبة وحدها، وكانت مداخيل الدولة سنويا 12.045.000 دينار ذهبا، ويكفي لمعرفة ضخامة العمران ما عليه جامع قرطبة القائم على 1072 عمود من الرخام 800 في يمينه و38 في الصحن 290 في الجنوب، و9 أبواب مبطنة بصفائح نحاس المدافع، وبأعلى قبته كرات ثلاث مذهبه، و80 ثريا من الفضة والنحاس بها 4800 قنديل، واحد منها بالمحراب وهو من الذهب الإبريز، ويصرف على إنارته 24000 رطل من الزيت سنويا، و120 رطل من العنبر والعود المعطر، وإذا علمنا كذلك أن هذا المسجد الجامع عمل في بنائه بعض المسيحيين المنتمين إلى الكنيسة اليونانية، نعرف مدى التسامح الذي كان يسود المجتمع الإسلامي العربي في الأندلس، أما إذا علمنا أن قرطبة كانت تقوم شوارعها الواسعة على مساحة عشرة أميال، وأنها كانت مجهزة بأنفاق للماء الحار يسير في عرضها أربعة أنفار، وأنها كانت كذلك مزودة بشبكة من القنوات للماء الصالح الشرب، وأن بها عشرة آلاف قصر، منها عشرة للملك و4300 سوق، و5000 طاحونة على شاطئ النهر، وأن زرياب المشار إليه بلغ مرتبه السنوي أربعا وعشرين ألف دينار ذهبا، وقال "ما كيك": أربعين(193) وطبعا حق له

(193) مدنية العرب بالأندلس ترجمة د تقي الدين الهلالي ص35، وقد قال إنها تفوق أجرة رئيس الولايات المتحدة اليوم. ثم جوستاف لوبون في حضارة العرب265-299 ط1956.

ذلك وأكثر لانه أغنى تراث الإنسانية بما كان يحسن من 10.000 صوت من نغمات الغناء(194) وهو الذي آخترع نوعا جديدا من العطور وأدهانا للتجميل، كما اخترع أزياء جديدة في الملابس، وأدلى برأيه في إصلاح النظام السياسي والاجتماعي.

تلك هي حضارة الأندلس التي بلغت نهاية السمو وقتها، والشيء كما يقولون، كل شيء إذا بلغ النهاية آنقلب إلى الضد، خصوصا إذا ما آنتهى العلم إلى الطغيان المادي الذي لا يبقي معه مجال لاعتبار المقاييس الأخلاقية، وذلك ما تعرض له المجتمع الأندلسي مثل ما سبقه من مجمتعات الفرس، والاغريق، والقرطاجيين والرومان، إذ سرعان ما تعرض مجتمع الأندلس بدافع طغيان الحضارة والجموح إلى فقد الاتزان والتفسخ المهين الذي آندفع خلفه كبار القوم ووجهاء الدولة، الذين لم يعد لهم آنشغال بغير الملذات وما ينشطها من آداب، آنتهت أحيانا إلى خلاعة سافرة بعد ما مر هو الآخر بمراحل من التطور تفتحت فيها براعمه، ثم تنوعت وزهت في أشكال مختلفة وألوان متعددة، عرفتها مجالس القوم التي هي الأخرى عرفت الحب الماجن والتصريح بالانحراف والشذود بلا خجل ولا وجل، بل تحولت المجالس التي دون التاريخ بعضها الى مجون وتفسخ الذين ضربوا الرقم القياسي في هذا المجال، من المضحك إبن قزمان، الى الأمير الشاعر آبن عباد، فكان ما آنتهى إليه الفكر المنحرف في الأندلس سببا فيما أصاب حضارة الإسلام ومدنية العرب من آنحلال إنتهى بالولاة الى الغدر واستيلاء كل على ما بيده ليصبح ملكا بلا ملك، وإنما كما قال أبو الحسن علي ابن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي آنتفاخا صولة الأسد

---

(194) قيل إنه غنى في حياة هارون الرشيد، راجع المصادر المذكورة قبل، وتاريخ فتح الأندلس، لابن القوطية68–69.

لكن من الذي انتهى بالمسلمين والعرب في الاندلس الى هذا المصير السيء المظلم الأليم: إنه البغي والفساد، والاستهتار والطغيان والاستبداد وانهيار الأخلاق.

إنتشر العقد في الظلام، واكتفى كل لص بما وقع عليه باختلاس غير عابئ بجريرته، ولا شاعر بعدم أهمية ما آستولى عليه من حبات العقد، التي بشتاتها فقدت الروعة والجلال، وبذلك سهل الأمر على الاسبان وقد عاشوا ما تحول إليه إخوة الأمس وعظماء الماضي القريب، الى خصوم متخاذلين متناحرين، متنافرين، بل ومتعاونين مع العدو، مما زين لهم توجيه الضربة تلو الأخري في كل خارج عن الحمى، خصوصا وقد عجز القوم عن لم شملهم، وتوحيد صفوفهم أمام العدو المشترك، بل طمع كل منهم في جاره مما أدى إلى الاستنزاف والضعف والتمزق وسوء المصير، وما هي إلا فترة قصيرة تحول فيها ما كان من أنانية وغدر إلى حسرة وضعف وألم، ثم عجز أمام ما أصبح يدبر علانية وبخبث ماكر من العدو الساخر، كما آستطاعت قوة الأسبان أن تجمع حولها وبقيادة الفونس السادس 422–503هـ/ 1030–1109م، ما استطاعت من قوة، وهو الذي ملك ليون 1065–1109، وقشتالة ا/1072م–1109م، واستولى على جليقية من أخيه غرسية 1073م، وعلي طليطلة التي تعربت وأصبحت ملتقى الثقافتين العربية الإسلامية، والمسيحية عام 1085م، وهي التي كان قصر "ألفو نصو" بها، وتمكن كل التمكن حتى أصبح وبقوة الحديد والنار يفرض الأتاوات على المتخاذلين من القوم فيؤدوها صاغرين، لكن كيف آنتهت الأندلس ومجتمع الأندلس سياسيا إلى هذا المصير، ذلك ما أشرنا الى بعضه حين كلامنا عن الولات الذين كان تفرق بعضهم وخروجه عن السلطة المركزية من أسباب الضعف، ونفصل فيه بعض الشيء في موقفنا الحالي.

دامت الأندلس زمن بني أمية قوية وعزيزة الى عهد ثامنهم عبد الرحمن الناصر الذي ادعى الخلافة(195) بأمره الصادر يوم 28 ذو القعدة 316هـ/ 928م، والذي تلقب بـ"أمير المؤمنين" . وحكم مدة خمسين سنة من 300 إلى 350هـ 912–961م فعرف العالم الإسلامي عواصم ثلاث لمدعين ثلاث ما بين بغداد والقاهرة وقرطبة، وفي عهد عبد

(195) أكرر أنني لا أقول بخلافة أحد بعد الخليفتين الخامس الذي هو الحسن بن علي، والسادس الذي هو عمر بن عبد العزيز، وان كل من جاء بعد إنما هو ملك مغتصب قام في مختلف الأزمنة على الظلم والبغي والاستبداد.

الرحمن الناصر بلغت الحضارة في الأندلس ما سبق وصفه، لكنه لم يقف عند حد الأندلس، بل أندفع بما وصله من قوة، خصوصا بعدما أعلن نفسه "خليفة" الى الدخول مع الأدارسة وبني صالح، وبني مدرار، في دسائس أستنزفت أموال الدولة وعرضتها للضعف والانهيار، خصوصا بعد ما أنتهى حكم خلفه الرابع الحكم الثاني الذي لقب بـ المستنصر بالله 350–366هـ/ 961–976م والذي خلف طفلا صغيرا أصبح عاشر ملوك بني أمية في الأندلس، وهو هشام المؤيد 366–399هـ/ 976–1008م ثم ترك وصيا عليه أمه "صبح" التي ضيعها الفراغ، فوقعت تحت قبضة محمد بن أبي عامر الذي أختارته للحجابة، ثم تدرج إلى الصدارة؟ وأخيرا أستقل بالملك فعليا، ثم خلفه ولده عبد الملك، وإذا لم يكن لهشام ولد فان العمريين آل المنصور وحزبه، فرضوا على هشام ضمنيا أن يعهد بالملك بعده لعبد الرحمن بن المنصور أخو عبد الملك، وهنا تحركت الأموية التي أحدق بها الخطر، واحتد النزاع الذي دام ست سنوات كلها حرب وأهوال واستبداد دمرت فيها قرطبة بالنهب والسلب، وعزل هشام الثاني المؤيد ليتولى مكانه محمد الثاني "المهدي" الأموي، وبعد سنتين أرجع هشام الثاني 401–403هـ/ 1010–1012م، وفي جو هذه الموبقات الفاضحة التي زرعها الطغيان، وطورتها حضارة الخمور، والفجور كان محمد بن أبي عامر يتكون ليسطو على التركة التي ضاع أهلها. لكن من هو هذا الرجل الذي ساعده فجور امرأة ليصبح أقوي رجل في هذه المرحلة..؟!.

محمد بن عبد الله، بن أبي عامر، بن محمد، بن أبي عامر، بن الوليد، بن يزيد، بن عبد الملك القحطاني المعروف بالمنصور بن أبي عامر المولود سنة 326هـ/ 938م، وهو من أقوى رجالات الأندلس، قيل إن جده عبد الملك كان من الذين دخلوا الأندلس زمن الفتح الأول مع طارق بن زياد، وانتهى خلفه من بعده في قرية طرشي من أعمال الجزيرة، وكان والده فقيها عرف بحلمه وورعه، وتوفي وهو عائد من الحج، وحل ابنه أبو عامر اليتيم أيام شبابه للدراسة بقرطبة، ولما أخذ حظه من العلم اتخذ له دكانا قرب القصر الملكي بقرطبة أخذ يكتب فيه الرسائل لمن يقصده من الذين لهم حاجة عند صاحب القصر الذي هو الحكم الثاني المستنصر، وسرعان ما تحول إلى كاتب "صبح" زوجة الملك بواسطة بعض الخدم الذي عرفه لها، فاستحسنته، ونبهت عليه الحكم بعدما تولى وكيل أملاكها مدة

سنوات أهلته سنة 359هـ/ 969م لقضاء كور أشبيلية، ثم ترقى إلى الزكاة والمواريث بها أيضا، ولعل هذه الأموال، وما استطاع أن يحقق عن طريقها من أهداف بما كان يقدم من الهدايا أهلته لمنصب الوزارة إلى جانب الطفل هشام حيث عينه الحكم، وبعد موت هذا الأخير لعب دورا أكثر حبكا مما دبره عبد الدار جؤذر لإبعاد هشام عن الملك، بل أقدم ابن أبي عامر على قتل المغيرة أخو هشام المؤيد بأمر من المصحفي الذي انتصر عليه ابن أبي عامر بعد ما كان هو صاحب الأمر والنهي، ذلك أن ابن أبي عامر استغل ما كان بين جعفر المصحفي وبقية الأسر القريبة من دار الملك، كآل أبي عبيد، وآل شهيد، وآل فطيس، من عداوة وتحاسد، ثم بالغ في إرضاء "صبح" أم هشام التي أصبحت وولدها أسيرين لابن أبي عامر، وبذلك أصبح في نظر الناس صاحب الأمر القادر على التحويل والتبديل، وتغيير مصير الدولة، وحتى يحقق أهدافه أكثر من الحروب، وكان يقودها أحيانا بنفسه ليحقق الإنتصار، حتى لقب بالمنصور، وكان يخرج معه الأموال باسم القتال، ضد العدو، بيد أنه كان يفرقها في الجيش ليستولى على عاطفته، عكس ما كان يعمل المصحفي، ولما تم له ذلك انتقل الى مودة غالب صاحب سالم وشيخ الموالي، والذي كان العدو اللدود للمصحفي، فأقبل عليه بكليته حتى تم بينهما الإتفاق على نكبة المصحفي، واستولى ابن أبي عامر على الشرطة، وضبط المدينة ضبطا محكما، ثم تصاهر مع غالب بابنته أسماء، بعقد تم في المحرم 367هـ/ 977م، وكانت هذه المصاهرة ستتم مع المصحفي لابنه عثمان، فحولها ابن أبي عامر حتى يصل إلى غرضه، وزاد أكثر بإسناد منصب الحجابة الى غالب ليشارك المصحفي، وقبل أن يكمل الحساب مع المصحفي دخل بإبنة غالب في عرس عظيم إثره صفى حسابه مع المصحفي، ولعل هذا الحقد الشديد من ابن أبي عامر يكون سببه شيء عظيم الخطر كاد يلحقه به المصحفي حين كانت سلطته نافذة، وأنه وشى به وشاية لولا تثبت الحكم، حيث يقول ابن أبي عامر وقد كتب إليه المصحفي متشفعا بعدما ذاق ألوان الذل والهوان بمعسكر ابن أبي عامر، فقال هذا الأخير:

الآن يا جاهلا زلت بك القدم تبغى التكرم لما فاتك الكرم
أغريت بي ملكا لولا تثبته ما جاز لي عنده نطق ولا كلم

ورغم ما أذاعه أهل قرطبة في حق إبن أبي عامر وعلاقته بصبح، فإنه بغزواته الثمانية والأربعين، وقيل ست وخمسين، والتي بلغ فيها ما لم يصله الفاتحون، وإن كانت غير مثمرة، فإنه بحق وفي نظر آخرين من أقوى رجالات الأندلس شهد بذلك الأجانب كما ورد عند المستشرق رينو «جال غزاة المسلمين تحت رايات المنصور في قشتالة، وليون ونابارة، واراغون، وكتلونية إلى أن وصلوا غاشقونية، وجنوب فرنسة، وجاست خيله في أماكن لم يكن خفق فيها علم إسلامي من قبل، وسقطت في أيدي المسلمين مدينة شانتياقب من جليقية، وهي أقدس معهد مسيحي في إسبانيا"الخ.

ومات في إحدى غزواته بمدينة سالم سنة 392هـ/ 1002م رحم الله هذا الرجل العظيم الذي خلدته عبقريته السياسية أكثر مما خلده قصر الزاهرة(196).

لكن ذلك لم يجعل حدا للفوضى بل حاول أمير العرب الإفريقيين سليمان الذي لقب نفسه "المستعين" السطو على السلطة عام 400هـ/ 1009م، عندما انتهى الأمويون والعامريون الى ضعف وانهيار، الأمر الذي دفع علي "الناصر لدين الله" بن حمود الإدريسي الى الضرب على يد سليمان المذكور لعدم كفاءته نسبا، وأصبح علي الناصر لدين الله بن حمود الإدريسي الذي كان يحكم شمال المغرب باسم الأمويين كما كان أخاه، ومدينتي ملاقة والجزيرة كما سبق، أصبح علي الإدريسي العلوي "ملكا" فرض نفسه بالقوة، لكنه ترك الاندلس بالموت سنة 408هـ فعاد الأمويون الذين لم يتحدوا أضعف مما كانوا، حيث تولى منهم عبد الرحمن الرابع المرتضي أبو القاسم بن حمود، ويحيى بن علي، وعبد الرحمن الخامس "المستظهر"، ومحمد الثالث "المستكفى" وهشام بن محمد المعتمد، هؤلاء تولوا ما بين 408–422هـ/ 1027–1031م فكانت 12 سنة كافية للقضاء على ما تبقى لبني أمية في الأندلس، قتل الإخوة; وتبددت الأموال; وكانت الضربة القاضية عليهم من أبي القاسم بن حمود وابنه علي وغيرهما.

---

(196) راجع نفح الطيب للمقري 1/186–189 والبيان المغرب 2/417، وابن الأثير 9/61، وبغية الملتمس ص105، والعبر 4/147، والوافي بالوفيات 3/312 وابن عذارى 2/301 والمغرب في حلى المغرب 1/194، والحلة السيراء 48، والأعلام للزركلي 3/100.

فتفرقت البلاد الى ولايات هي: بني حمود الأدارسة بمالقة(197) والجزيرة(198)، وبنو عباد بإشبيلية(199)، وبنو زيري بغرناطة(200) وبنو برزال بقرمونة(201) ورندة التي ضمت إلى إشبيلية مع مورق، ولبة التي كان بها البكريون، وبنو مزين بسانت مارية، ومارتلة، وبنو رزين بالسهلة، وبنو قاسم بالقنت، وبنو جهور بقرطبة، وأولهم أبو الحزم الذي كان وزيرا لهشام الثالث، وبنو الأفطس بربر مكناسة ببطليوس، وقد نسبهم آبن خلدون إلى تجيب، وبنو ذي النون من هوارة بطليطلة التي آستولي عليها ألفونس، وانتقل القادر بن إسماعيل بن المامون الي بلنسية التي كان بها العامريون من أبناء المنصور، ثم بنو صمادح بالمرية، وبنو تجيب، وبنو هود بسرقسطة، وبالتالي آنقسمت الأندلس بين عرب، وبربر، وصقالبة، إختص البربر بالجنوب، والصقالبة بالشرق.

هكذا تمزقت الأندلس حتى استولى ألفونس 6 على طليطلة كما أشرنا، وأصبح المعتمد هو الآخر يدفع الضريبة لألفونس حتى آفتاه العلماء بعدم شرعيتها، كما أفتى القساوسة لألفونس بوجوب أن تلد زوجته في الزهراء قصر المنصور بن أبي عامر، وموضع الكنيسة التي بني عليها الجامع الكبير(202) وإذا ما استقل كل بما لديه، وتلقب القوم بألقاب الملوك، والخلفاء من الناصر، والمنتصر، والمنصور، والقادر والمقتدر، والمعتضد والمعتصم والمعتمد، والمتوكل، والمظفر... الخ وأصبحت الممالك: مرسية، وقلعة أيوب، ولا ردة، وطرطوشة، ودانية، وميورقة، وبالتالي فقد انقسمت الأندلس 12 مملكة أولا، ثم إلى سبع وعشرين "مملكة"، وولاية بعضها خاضع لمن هو أقوى منه، والبعض مستقل، وإذا هي عرفت هذا التمزيق في أوله قبل نهاية القرن الرابع، مثل ما عرف المغرب بعد الأدارسة، فإن القوة الجديدة التي ظهرت مع طلائع المرابطين قد آكتملت وأمكنها القضاء على ما عرفه المغرب الأقصى من فرقة وتنوع في الحكم هنا وهناك، وأمكن ليوسف أن يوحد جهود المغاربة، ويجمع كلمتهم تحت راية الإسلام التي هي راية التوحيد، وأما في الأندلس التي كان أهلها قد انتهوا بما حل بهم من الفرقة والتقسيم والانحلال الخلقي إلى درجة من الضعف لم يعد في مقدورهم معها مجتمعين أو متفرقين أن ينقذوها من المستقبل المظلم الذي أصبح يهددها منذ سنة 470هـ/1077م حيث آستولى

(202) الحميري في الروض المعطار 286/I.

"ألفونس 6" على كثير من الحصون والمدن الإسلامية، وفرض الضرائب على أهلها، ومن قال من علماء موطنه أنها غير مشروعة ورفضها، تعرض للغزو المباشر وتضييق الخناق، بإرسال الجنود للحصار، مثل المعتمد بن عباد، مما دفع به لطلب النجدة بعدما حوصرت إشبيلية بالجيش الذي رابط على ضفتي الوادي، ثم أرسل قائده آبن الفونس إلى المعتمد متهكما يطلب منه مروحة يروح بها ويدفع الذباب كما يقول الحميري، فأجابه المعتمد "سأنظر لك مراوح من الجلود اللمطية في أيدي الجيوش المرابطية، تريح منك لا تروح عليك إن شاء الله". فلما ترجم لابن فرد ناند توقيع آبن عباد في الجواب، أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك، وقتها عمل آبن عباد إلى إرسال عبد الرحمان بن أسباط في طلب النجدة من آبن تاشفين، ولخير له على أسوا الفروض أن يرعى الجمال بدل أن يرعى الخنازير، وتخفيفا نساير هذا السياق ولا نخرج على فكرة آبن حزم في "نقط العروس" التي وصفت الواقع الأليم للأندلس وقتها.

الفصل السابع والخمسون

سفارة المعتمد إلى ابن تاشفين، وبداية متاعبه

إرتحل عبد الرحمان بن أسباط سفير المعتمد بن عباد محملا برسالة، الى يوسف بن تاشفين يشرح له فيها حالة الأندلس وما هي مقبلة عليه إذا لم تدركها همة يوسف وجند المسلمين، ولعل يوسف لم يكن راضيا على ما كان عليه المسلمون بالأندلس من فرقة وخلاف وتطاحن، كما أنه كان مشغولا بتنظيم ما تم له من الفتح، وما أصبحت عليه البلاد من حاجة الى التنظيم، وإلا كيف لم يستجب وقد بلغه بتفصيل حال الأندلس أرض الاسلام المهددة، بالخطر والتي يتربص بها العدو حتى إن ألفونس السادس وكما أشرنا استولى على طليطلة من يد القادر وهو يحاصر إشبيلية ويهين أقوى رجالاتها.

وأخيرا وجه يوسف ولده المعز غازيا لشمال المغرب، ففتح سبتة بعد حصار في شهر ربيع الأول سنة 477هـ/ 1084م، وكتب الى والده بذلك مما دفع بابن تاشفين بسبب هذا الفتح أن يتوجه لمدينة سبتة، فلما علم المعتمد بذلك قبل، توجه بنفسه أو وجه وفدا من القضاة والوزير ابن زيدون كما قيل بعدما اجتمعت كلمة أهل الأندلس على ذلك فلقيه يوسف وهو في طريقه لطنجة بالمكان المعروف بلطية(203) على بعد ثلاث مراحل من سبتة،

---

(203) إبن أبي زرع 51/2 ط1936 فاس، وعند ابن خلدون لقيه بفاس العبر 382/6، والمعتمد هو: محمد بن المعتضد بالله أبو عمر، بن عباد، كما ورد في رسالته التي بعث بها الى الفونس6، الحلل 26-28، ولقد كتب عبد السلام أحمد الطود كتابة مطولة عن ابن عباد بإشبيلية نشرها معهد مولاي المهدي في تطوان، بتاريخ 17 رجب 1335هـ/ 27 يونيه1946م، في 300ص، والطود هذا هو الذي اختطف مع إبراهيم الوزاني بعد الاستقلال من طرف بعض الفوضويين المتطرفين. يقول ابن منصور في أعلامه 186/1، يوم الثلاثاء 6 ذي القعدة 1375هـ/13 يونيه1956م من مقهى الكونتيتال بتطوان بأمر رئيس منهم يدعى محمد السكورى؟ وذهبوا بهما في سيارة جيب الى جنان بريشة حيث كان يوجد مقر قياده جيش التحرير، فافتقدت منذ ذلك اليوم أخبارهما، ويقال إنهما هلكا تحت العذاب بذلك البستان، ودفنا به الخ ما أورد... والواقع أن لقصة الوزاني التي جرت ذكر الطود في أعلام ابن منصور ارتباطا يختلف كل الاختلاف مع الكاتب نفسه. ويوم تنشر الحقائق وقتها يدرك صاحب الأعلام ومؤرخ المملكة ان التاريخ =

وما كاد يصف له أحوال الأندلس حتى رده بوعد شريف التزم فيه يوسف باللحاق به بعد جمع الجنود والاستعداد للرحيل، وإذا ما تجمعت له القبائل من كل الجهات وأمرها بالتجمع في الساحل الشمالي للمغرب فإنه قد وضع خطة يفهم منها ما كان يعنيه يوسف قبل إقدامه على إنقاذ الأندلس، تلك الخطة التي قيل إنها آستغرقت ما يقرب من سنتين من الإستعداد الذي أرعب الفونس، فأخذ هو الآخر يستعد، ولو كان يوسف وقتها يتوفر على أسطول بحري لما آستغرق تلك المدة قبل غزو الأندلس.

لقد أكمل يوسف تنظيم الدولة إدارة وجندا، ثم هو أصبح على آتصال برجالات الدول الإسلامية المعاصرين الذين راسل الكثير(204) منهم قصد المساهمة في تحرير

= غير ما يكتب وينشر بواسطة المطبعة الملكية التي كان عليه لو كان له إدراك المغاربة وغيرتهم على الشرف ان لا ينشر ما يريد وينسبه للمطبعة الملكية في الوقت الذي يعرف الجيل المعاصر أنه بالأمس القريب فقط، وفي زمن الغلمان، كان هو الغلام المشهور لابراهيم الوزاني أيام دراسته بالقرويين، وسكنه مع والدته خديجة بنت سعد بحي الطالعة بفاس التي عرفت بفضائح غلمانها وقتها، ومنهم غلام إبراهيم المشهور. وهذا ما يتفكه به القوم ويتندرون في مجالسهم حتى اليوم كلما ذكر اسم الجاسوس المشهور الذي يرادف اسمه اسم "البراكة" بإدارة الشؤون السياسية من وزارة الداخلية أيام الحماية، ورقابته على الصحافة الوطنية، والتي لا شك أن الوطنيين القدامى قد دونوا ذلك في مذكراتهم، ودونوا معه أنه كان يتطوع بحذف كل ما يتصل بالوعي الوطني حتى ولو كان يرجع الى التاريخ كترجمة المولى الحسن مثلا –راجع رسالة المغرب عدد 2/س6 ص84، وحول عيد العرش ص187–202–203...الخ.

وإذا هو زمن الوعي الوطني هرب من فضائحه، ثم عاد الى موطنه تلمسان، فإن الطبع يغلب التطبع، وعادت حليمة إلى عادتها القديمة بمعهد دار الحديث حيث أصبح عينا على طلبة وأساتذة المعهد الذين طالما عرفوا الأذى، كما كتب مديره صالح بن رمضان بذلك الى الشيخ محمد البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء والمؤسس لمعهد دار الحديث بتلمسان، وهو الذي تلقى الملاحظة من الشيخ العربي التبسي حول وجود الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور بالمعهد المذكور كما سنعرف بعد زمن مرور المؤلف على معهد ابن باديس بقسنطينة عام 1948، وتكليفه من طرف الشيخ البشير بحمل رسالة إلى العاهل العظيم محمد الخامس.

وبسبب ما أشتهر به الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور في تلمسان تعرض لمحاولة القتل لولا أن هربه الشاهي بودخيل ولد الحاج مصطفى الذي أصبح بعد محافظا بسوكر، ثم نقل الى البيضاء، وعنه نقل من نقلت عنه، وهو الحاج بن خليل وبن بختي بمدينة تلمسان رفقة الحاج محمد حبور الفيجيجي يوم 1988/10/4.

ومهما يكن فقد أطلق العنان للجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور حتى أصبح يفتري وينشر حول تاريخ المغرب، ورجالات المغرب العربي عن قصد وسابق إصرار، يعلي من العملاء ما يشاء، ويفتري على الوطنيين كما يريد، راجع ترجمة أحرضان، وأحمد الجايي الوزير المعروف بالوطنية، وحتى بوعمامة الغيور لم يسلم منه، راجع بعد ما قام به ابن منصور قبل عريضة 1944 من هذا الكتاب، وعند أهل تطوان وفاس الخبر اليقين.

(204) قال بعضهم: إن هذه المراسلة كانت للفتوى قصد احتلال الأندلس، وهو كلام يحمل في طياته التكذيب لأن المرابطين ما ثبت عنهم أنهم عملوا بغير رأي الأشياخ.

الأندلس واسترجاع ما ضاع من مدنها المحتلة، وإذا علم ألفونس السادس بذلك رغم أن أحدا من ملوك الإسلام وقتها لم يستجب، فإن الفونس عقد تحالفا مع سانشو ملك أراغون وصاحب بنبلونة الذي خطط له محاصرة طرطوشة، كما تحالف مع الكونت برنجا ريموند الذي كان من مخططاته غزو بلنسية بعد آنهيار طليطلة وفرار القادر ابن يحيى الذي قتل الحديدي ثم ثار عليه أهل طليطلة فلجأ إلى الاستعانة بالفونس الذي حاصر طليطلة إلى أن قهر الثوار، ثم تنازل له عليها القادر مقابل أن ينصره على أهل بلنسية، حصل ألفونصو في حربه مع المسلمين على مساعدة الفرنسيين حيث سيعاونه هنري دوق "برغنديا" الذي تزوج من البنت غير الشرعية لألفونصو السادس، وإذا ما تفرقت جموع الأندلسيين شماطيط شذر مذر، سقطت طليطلة. وحول سقوط طليطلة يقول عبد الرحمن بن فرج اليحصبي.

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفط

بل أمام ما جد من آستعداد يوسف، وبعد التحالف حشدت قوات الأطراف المتحالفة، وضمت إليها قوات جليقية وليون، وبسكونية، واشتوريش، وقشتالة، ثم القوات الوادرة من جنوب فرنسا لا نجدوك، وجويانة، وبرجونية، وبروڤانس، وبلغت قوات المتحالفين كما تقول مصادرهم 100.000 من المشاة، و80.000 من الفرسان، نصفهم بالعدة الثقيلة ونصفهم بالعدة الخفيفة، ومعهم من القسس ما يكفي لإثارة حماسهم برفع الصلبان والأناجيل، وبعد هذا الاستعداد آرتفعت حرارة ألفونصو الى درجة أن بعث برسالة تحد ليوسف بن تاشفين(205) وبلغت مراحل الاستعداد للمواجهة نهاية مراحلها، مما دفع بالمعتمد ان يجتاز البحر، ثم يتوجه ويجتمع به ومعه وفد من كبار وجهاء الأندلس الذين استقبلهم في المكان المشار إليه قبل "بليطة" ولربما في هذا اللقاء يقول بعضهم طلب يوسف ملكية الجزيرة الخضراء حتي ينزل بها جنوده فلم يجب بالقبول إلا بعد ما رجع الوفد واستشار ثم عاد ثانية بالقبول.

---

(205) أورد أبو القاسم الزياني نصها في الترجمان 279، وابن خلدون في العبر6/88، وابن خلكان 54/1، والمراكشي في المعجب 72، وابن الخطيب الحلل 30-31.

عاد المعتمد هذه المرة ومعه من العلماء قاضي الجماعة أبو بكر بن عبيد الله بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه، كما يقول المؤرخون بالإضافة الى الوزير ابن زيدون ابن صاحب ولادة، والقاضي ابي اسحاق قاضي بطليوس، وأبي جعفر القلعي قاضي غرناطة، هذا بالإضافة الى الشعراء الذين أنشدوا مدائحهم في يوسف(206) وإذا ما آنشرح يوسف أقبل بكليته على الجزيرة الخضراء لتكون تحت سلطته، وذلك بصك موثق(207) وبهذا تحقق للكاتب عبد الرحمن آبن أبسط الذي اقترح على يوسف تملك الجزيرة قبل ما أبداه من رأي، ناهيك وقد حمله ولد ابن عباد الراضي يزيد صاحب الجزيرة الذي أمر بإخلائها، وإذا نحن عرفنا أن الجزيرة الخضراء كانت إمارتها بيد بني حمود من الأدارسة وإخوانهم بعدوة المغرب ممن ساعدوا المرابطين تذهب بنا التأويلات حول هذا التملك الذي اقترحه بن أبسط وتمسك به ابن تاشفين مذاهب شتى وتأويلات متعددة أدناها أنه كان للأدارسة الذين تعنيهم الجزيرة بعض التأثير في هذا الاقتراح.

كان يوسف قد آختار من الجند النظامي لمواجهة ما أعده ألفونصو من المائة والثمانين ألف، إثني عشر ألف فارس، وثمان وثلاثين ألف راجل غير المتطوعة، ولم يعد الوفد حتى كانت صفوفهم قد آمتدت الى قصر الجواز، ثم انتقل بعد الى الجزيرة التي آستصلحها ورتب فيها كل ما يحتاجه الجند من مؤونة وسلاح، كما كان أهل الأندلس يستعدون للموقف حيث استعد ابن عباد وابن ذي النون، وابن الأفطس، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، ما عدا آبن صمادح صاحب المرية الذي كان مرابطا ضد العدو أمام حصن لبيط من أعمال لورقة(208)، وقبل المواجهة أرسل يوسف إلى ألفونصو يخيره في واحدة من ثلاث حسبما تقتضيه الشريعة: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب.

---

(206) وفي الروض المعطار 286/1 ذكر الفقيه آبن الطلاع الذي أفتى للمعتمد بالترخيص في قتل اليهودي رسول الفونصو 6 الذي جاء يطلب تحقيق رغبة زوجة الفونس كما قال القساوسة راجع قبل ت 202، كما ذكر ابن اشقيلولة، صاحب ما لقة ووادي آش، الترجمان 278.

(207) أورده صاحب الحلل ص37.

(208) لقد بالغ الاجانب في وصف هذه المرحلة تأثرا برواية الاسبان خلافا للرواية العربية راجع النفح 528/2، والحلل 38، والقرطاس 90، وابن الأثير 52/1، ونحن نعتبر أن ما حدث في هذه المرحلة من تطور في الفكر المرابطي جعل يوسف يفكر في إنشاء الأسطول الذي كونه مما كان بالأندلس، وزاد عليه، خصوصا بعد الانتصار في الزلاقة، ذلك أنه بعدما نقل الجنود بعتادهم من طنجة، والقصر الصغير الى الجزيرة الخضراء آكتشف يوسف أن قواته في البر لا تكون لها المنعة الا إذا هي تعززت بما يشد أزرها ويحميها في البحر، ومن وقتها أخذ في تنظيم الأسطول الذي أصبح بعد سيد الابيض المتوسط.

الفصل الثامن والخمسون
المعركة والانتصار في الزلاقة

يقول صاحب القرطاس ان الجواز والنزول بالجزيرة الخضراء، كان في يوم الخميس عند الزوال في منتصف ربيع الأول سنة 479هـ/ 1086م(209) نزل يوسف واستعرض جنده، كما استعرض جند الاندلس ومتطوعيهم الذين آستنفرهم المعتمد بن عباد، وإذا ما ساهم المعتمد في وضع خريطة لميدان القتال، ثم أطلع يوسف على ما يجهل من المواقع، فإنه زيادة على ذلك كان أكثر من الآخرين يقظة وحماسا، حيث عين الأرصاد لمعرفة تحركات العدو الذي كان ينقل أخباره الى يوسف أولا بأول(210). واشتدت الحراسة أكثر عندما كتب ألفونصو بآقتراحه الخادع لآبن عباد الذي رفعه ليوسف يتضمن توقيت يوم المعركة الذي حدد له يوم الإثنين بدل يوم الجمعة او السبت أو الأحد، الأيام المقدسة في الأديان الثلاثة، وإذا كانت الخدعة لم تنطل على يوسف الذي تظاهر بالقبول، فإنه أمر أحد قواد جند داود بن عائشة ومعه عشرة آلاف جندي من رمات السهام والنبال، ليكونوا متأهبين ساهرين، أما القوة الكبيرة، فقد كانت تحت إمرة يوسف الذي تقول مصادر التاريخ أنه بعد المعركة التي خاضها آبن عباد وجماعته، والتي جرح فيها أرسل الى يوسف كاتبه آبن القصيرة، فركب يوسف تحيط به جماعة لمتونة وكبار صنهاجة، ثم آقتحم الصفوف، وضربت طبوله فاهتزت الأرض وتجاوبت الآفاق، وقذف الرعب في قلوب الإسبان الذين آنهزموا، كما طعن غلام أسود ألفونصو بخنجر في فخذه(211) هذه الرواية لابن الخطيب ونستدل منها أن أول من خاض المعركة هو المعتمد

---

(209) ج 52/2 وعند غيره الجمعة في 12 من شهر رجب، راجع الترجمان 278، والحلل 46.

(210) الترجمان 278، القرطاس 88-95-96، والمعجب 72، والحلل لابن الخطيب 38، ونفح الطيب2/592531.

(211) الحلل 48، ط 1936.

بن عباد وجيش الأندلسيين، ونفس الرواية عند ابن أبي زرع(212).

قيل كانت المعركة ليلة الجمعة، بل صباحها ما دامت قد آبتدأت وابن عباد يصلي الصبح كما ورد في الحلل 12 رجب(213)، ومثله في القرطاس(214)، الذي يقول إن يوسف كان على فرس أنثى، وأنه سقطت تحته ثلاثة أفراس، ويقول الحميري إنها لابن عباد، وهو الأصح، كان موقع المعركة سهل عرف بالزلاقة غرب الأندلس، يبعد بما يقرب من الثمانية أميال على مدينة بطليوس، مدينة باكس أوغسطا، كان آبن عائشة والمعتمد قد استعدا رغم طلب التوقيت الذي آقترحه ألفونصو وهو يضمر الغدر حيث أعطى الإشارة لجنده، وجند حلفائه بالانطلاق قبيل طلوع فجر يوم الجمعة 12 رجب 479هـ/23 أكتوبر1086م، ونسي ألفونس أن المسلمين لا ينظرون ليوم الجمعة كما تفعل اليهود والنصارى يومي السبت والأحد، لذة وتعبدا بعد إشباع الذات، بل يوم الجمعة عيد الروح، وهو عند المتمسكين مثل يوسف يبدأ من الثلث الأخير من الليل، ناهيك وأن الغاية من التواجد بالموقع هي الجهاد، وعين المجاهد ساهرة لا تغفو ولا تتحول.

كان أول من كشف غدر ألفونس الفقيه الناسك أبو العباس بن رميلة القرضي، وكان في محلة آبن عباد، كما آكتشف جواسيس هذا الأخير ما دبره ألفونصو، وبعث به إلى يوسف مع كاتبه أبا بكر آبن القصيرة، وفعلا كان اللقاء والتحم الجند، جند آبن عباد وجند يوسف بجنود ألفونصو وحلفائه، وكانت المعركة قرب بطليوس بالمكان المعروف عربيا بـ "الزلاقة" وعند الاسبان "ساكر اليوس" sacralias الزلاقة: وهي معركة من معارك التاريخ الفاصلة، والتي مهما حاول مؤرخو الغرب الأوربي، ومن تأثر بهم أن يحرفوا حقائقها فإنهم جميعا ينتهون الى الإعتراف بأن جند بن تاشفين سحق الجميع، ومن لم يسحق أخذ أسيرا الى مدينة مراكش ليستعمل في مشاريع التنمية وحفر الآبار، وإذا كان عدد الأسرى أربعون ألف كما سنرى(215). وإذا كانت المبادرة من يوسف الذي

---

(212) القرطاس 57، ط 1936.

(213) الحلل 46.

(214) ص57.

(215) راجع ابن الأثير، 2/484-53/10 والمعجب 72، والحلل 49-50-51، ونفح الطيب 2/529-531، ومواقف حاسمة لعنان 32-247، ط1952، والاحظ أن كل من يقرأ لعبد الله عنان، وجب أن يحتفظ ما أمكنه التحفظ، لأن هوى الزوجة الاسبانية كثيرا ما كان يجره.. وأذكر أنني صارحته بذلك عام 1969.

أرسل الفدائيين وهم رجال الكتيبة "الانتحارية" إلى الجيش الذي يقوده ألفونصو وملك ناڤار عندما بلغه الخبر بواسطة ابن القصيرة، فإن المعتمد بن عباد هو الآخر كان في المستوى.

إنجلت المعركة بسرعة خاطفة، وفر ألفونصو السادس الجريح في خمسمائة وهو العدد الذي بقي من الجنود المائة والثمانين ألف، وقد قيل أنه لم يسلم منهم إلا ذلك العدد، وما أسر من الأربعين ألف، ومعناه أن 179500 جندي لا قوا حتفهم في المعركة التي زادت أكثر من أربعة قرون في حياة الإسلام بالأندلس، كما قتل من جنود يوسف الذي أصبح وقتها يعرف بأمير المسلمين ثلاثة آلاف، وتقول رواية الحميري: رأى يوسف بعدم مطاردة ألفونصو الذي قال عنه "الكلب إذا أرهق لا بد أن يعض"، وقد كانت رغبة آبن عباد أن يضع حدا لحياة ألفونصو الذي لم يصل إلى طليطلة الا في عدد دون المائة(216).

وتكلم الناس في آختلاف آبن عباد وابن تاشفين حول مطاردة ألفونصو، قالت شيع آبن عباد: لم يخف على يوسف أن آبن عباد أصاب وجه الرأي في معالجته الموقف وإلحاحه في تصفية الفونصو، لكن يوسف لم يفعل لأنه كان لايريد القضاء على العدو الذي كان السبب في إستدعائه الى الأندلس، وأنه إذا ما انتهى سيستغنى عنه وهو قول باهت.

وقال شيعة يوسف إنما أراد آبن عباد بقضائه على ألفونصو قطع حبال يوسف من العودة الى الأندلس وكلا الرأين خطير ومفتعل.

إنجلت المعركة على آنتصار المسلمين الذي بشر به آبن عباد أهل إشبيلية بواسطة رسالة بعث بها إلى ولده الرشيد بتاريخ يوم المعركة، وفي وقت الزوال طيرها بواسطة الحمام الزاجل الذي كان قد أعده لتلك المهمة(217). إلى إشبيلية التي كانت تعيش حالة

---

(216) الروض المعطار 287/1، وفي القرطاس 60ط 1936فاس، مات أربعمائة في الطريق متأثرين بجراحهم، وابن أبي زرع وهو كما نعلم كثير الأخطاء، فالمعركة عنده دون بقية المصادر كانت يوم الجمعة 11 رجب، وعنده أن يوسف أمر برؤوس القتلى فقطعت وجمعت أمامه أمثال الجبال فوزعها عشرة آلاف إلى إشبيلية، ومثلها لقرطبة، وبلنسية وسرقطة ومرسية والى المغرب بأربعين ألف؟

وحسب رواية صاحب القرطاس ص149ط الرباط 1973 أن عدد جنود وجيوش الاسبان بلغ 180000 فارس و200000 راجل؟؟؟ وفي الحلل الموشية ص49 ط الرباط 1936 نفس الكلام وأنه قتل من الإسبان 300000.

(217) الحلل 50، والروض المعطار 290/1م خ.

قلق واضطراب، وما كاد الخبر يشاع كما أمر ابن عباد حتى انقلبت المدينة وما حولها أفراحا عمت الجميع، ومثله فعل ابن الأفطس، والمظفر عبد الله بن بلكين وغيرهما، كتب كل من حضر الى قومه يبشرهم.

لما فرغ يوسف من المعركة وفي نفس اليوم يوم الجمعة وردت عليه أخبار من قبل السفن فلم يجد معها بدا من سرعة الكرة يقول الحميري، بيد أن ابن الخطيب يقول إن الذي ورد على يوسف هو خبر موت إبنه أبو بكر سيرى(218) فلم يجد بدا من سرعة الكرة فانصرف الى إشبيلية حيث أراح بظاهرها ثلاثة أيام، ونهض نحو بلده(219) ومشى ابن عباد معه رغم جراحه يوما وليلة، فطلب منه يوسف أن يرجع لما شاهد من جراحه وكلوم راسه، فرجع بعدما أمر ولده بالمسير بين يدي يوسف الى أن بلغ المجاز.

عاد ابن عباد الى إشبيلية حيث هنئ بالفتح، وقرأ القراء، وأشاد الشعراء، وطار ذكر ابن عباد ثم حلق في ربوع الأندلس فسالمته ملوك الطوائف وخاطبوه جميعا بالتهنئة، لقد كان ابن عباد بحق بطل المعركة لأنه الجالب ليوسف، والمثير، والمخطط، بل البطل الذي تمزق جسمه جراحا من رأسه الى جانبيه ورجله، ومع ذلك لم يضعف،م ولم ينهزم أمام العدو الذي استهدفه بقصد، وأراد تعريته والقضاء عليه قبل كل أحد، بل إن يوسف تركه وجنده يخوض المعركة مدة قبل أن يقبل بكل ثقل المرابطين، ومع ذلك فقد كان ابن عباد في المستوى، لكنه تعرض بعد للكشف عن سوابقه وللكيد والدس من الحاسدين الذين لم يستسيغوا ما انتهى إليه ابن عباد، خصوصا الذين كانوا قبل غير متفقين معه، وإذا ما ترك يوسف جنوده بإشبيلية تحت إمرة محمد بن الحاج فإن الاحتكاك الذي حصل بلا شك كانت عواقبه غير محمودة بالنسبة لابن عباد، خصوصا إذا علمنا أن المعركة رغم هولها لم تمنع الأسبان من أن يعيدوا الكرة على شرق الأندلس ليحاصروا ابن عباد عن طريق حصن لبيط الذي ظهر وأن ملوك الطوائف لم يستطيعوا دفعهم، مما دفع جيوش المرابطين بقيادة ابن الحاج إلى التدخل بعدما جلب الجنود المرابطين بسبتة،

---

(218) الروض 289/1، والحلل 52، ورواية هذا الأخير عن محمد بن خلف.

(219) يقول إبن خلدون أنه ترك بإشبيلية جنودا تحت إمرة محمد ومجموس بن سيمونس بن محمد بن وركوت من عشيرته ويعرف محمد إبن الحاج.

وبعد آنتصاره على الاسبان خلع ابا رشيق صاحب مرسيه(220)، كما فر علي بن مجاهد من دانية إلى بجاية عند الناصر بن علناس، وقتل ابن ذي النون، وأخرج الاسبان من بلنسية، وإذا ما ضاقت السبل بأهل الأندلس الذين عاد الاسبان للانتقام منهم ومن كبيرهم الذي آستدعى آبن تاشفين وهو إبن عباد، الذي كان عليه أن يكرر الإستدعاء ثانية، وقدم آبن عباد على يوسف بعدما راسله كثير من "ملوك" الطوائف والعلماء حول حصن لبيط الذي آحتله الاسبان، والواقع وسط بلاد المسلمين، رحل آبن عباد والتقى بإبن تاشفين في المعمورة بالدخلة على ضفة وادي سبو، فرحب به ووعده الحضور، وفعلا قطع الى الأندلس للمرة الثانية 481–1088م، وحاصر حصن لبيط أكثر من شهر وجه أثناءه رسائل إلى أهل الأندلس ليقدموا عليه حتى يشاركوا في الجهاد، فلم يقدم أحد غير صاحب مرسية، والمعتمد بن عباد، وإذا ما بقي محاصرا لحصن لبيط تلك المدة، فإنه قطع عنه المؤن ثم اقتحمه وأحرقه، وفي هذه المرة اضطر يوسف الى أن يخلف من جيوشه نحو الأربعة آلاف قدم عليهم محمد بن تاشفين، وعاد هو الى المغرب، وفي قلبه جرح أحدثه تصرف أهل الأندلس، خصوصا المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس الذي سينتهي به إلى النفي البعيد بعد، وبعدما آجتاز آبن تاشفين الى الأندلس للمرة الثالثة، وإذا كان آبن عباد في هذه المرة كذلك قد آستقبله بأجمل مظاهر التكريم فإن يوسف أبدى تبرمه منه ومن المتوكل بن الأفطس مما جعلهما يستشعران الخطر الذي عبر عنه ولد آبن عباد عبد الله الرشيد(221)حين قال لوالده:

ألم أقل لك يا أبت يخرجنا هذا الصحراوي من بلادنا إن أنت أوردته علينا، فرد

---

(220) عند ابن الخطيب ان الذي خلعه وسلمه لابن عباد هو يوسف بن تاشفين في الجواز الثاني الحلل ص56.

(221) الحلل 58، مع العلم أن يوسف كان الى جانب آبن عباد حين آشتكى إليه من تصرفات آبن عبد العزيز صاحب مرسية، فأمر قائده سيرى ابن أبي بكر ان يقبض على ابن عبد العزيز ويسلمه مقيدا بالأغلال الى آبن عباد، مما أدى إلى ثورة جند بن عبد العزيز مما أحدث عدم ضبط في معركة لبيط وبعدها، وبذلك عاد يوسف وقد تغير على أمراء الأندلس.

وفي القرطاس 67/2 وإذا هو جاز للمرة الثالثة، ثم ذهب الى طليطلة التي حاصرها وحطب أشجارها ودمر زرعها، فإن أحدا من أهل الأندلس، لم يلتحق به يقول آبن أبي زرع وهو رأى بعيد عن الصواب؟ ومثل هذا حصل بين سيرى وابن عباد راجع المصدر السابق.

عليه "يا بني لا ينجي حذر من قدر"، وفعلا فقد كان قدر آبن عباد كما دون المؤرخون حول مأساته، لكن كيف ذلك وقد رأينا هذا الرجل وما قدم لقومه وبلاده من جميل وما بذل من تضحية بلغت حد الفداء؟ ما الذي غير يوسف حتى آنتهى بآبن عباد الى ذلك المصير الذي جر على تاريخ يوسف بن تاشفين بعض "النقد" من غير العارفين؟ مما لا شك فيه أن كلا من الرجلين العظيمين ذهب ضحية ظروف لم يحسن تقديرها ولا ترك للعقل المجرد من العواطف التحكم فيها، مما يجعلنا نقول إن يوسف وابن عباد معا ذهبا ضحية سلامة الطوية، بآعتقاد صحة ما دبره الآخرون المتنطعون الذين أكثروا من نعت آبن تاشفين بمختلف النعوت الناقصة من حقه، والتي ذاعت وانتشرت بين أهل الأندلس فكان يحملها بقايا المرابطين بعدما تلقح بما يثير الضغينة في النفوس من اليهود والعملا، الذين تكاثروا واشتد حقدهم ضد آبن عباد بالأخص، وضد كل الذين لم يستسيغوا وجود قوات مرابطية تخلفت في الأندلس بقيادة سيرى ابن أبي بكر بعدما غادرها يوسف للمرة الثالثة، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما كانت عليه العلاقة بين البربر والعرب في الأندلس، وكيف أن يوسف أظهر ميله للبربر الذين آنجذب نحو بعضهم بسبب ما نقل إليه بعض قواد جيشه، وشيء آخر وجب أن يدخل في الإعتبار هو آرتسامات الأشياخ والقواد.

لقد عاد يوسف بعد انتصاره الى مدينته الجديدة بل المحدثة مراكش، والتي تظهر أمام ما رأى القوم من حضارة وعمران، وكأنها خراب في خلاء، رجع وفي حصيلته أربعون ألفا من الأسرى الاسبان ومن مختلف جهات أوربا الجنوبية والذين رتب لهم عملا شاقا يصبحون أحرارا بعد آنجازه، ولم يكن العمل غير حفر قنوات باطنية، ومجاري لجر المياه من جبل درن إلى مدينة مراكش، وهو عمل بلاشك كان من اقتراح العقل الأندلسي المتطور وقتها، وقد تم بطريقة عجيبة وغريبة، وقبل أن يتم في مدى عشر سنوات(222) وعلى عشر اتجاهات، خصص لكل فريق الإتجاه الذي يقصده.

في هذه المرحلة كان هؤلاء الجند الأسرى وغيرهم من الأندلسيين الذي التحقوا بمدينة مراكش في خدمة الملك يوسف وغيره يتصلون بالناس، وينقلون من أحوال

(222) نفح الطيب 6/5 والاعلام 118/2.

حكام الأندلس خصوصا الذين كانوا على صلة بألفونصو6، وكذا الذين كانوا على خلاف فيما بينهم، وما هي أسباب الخلاف؟ وعن أخلاقهم والانحلال الذي كان يسود مجتمعاتهم، خصوصا وقد رأى الأشياخ من اللمتونيين وقوادهم ما لم يكونوا قد رأوه من المبالغات والمغالات في كل مرافق الحياة، مما لا يتفق وحدود الشرع، بل إن قواد الجيش داود آبن عائشة وسير محمد بن أبي بكر، وجرور، ومحمد وعبد الله بن الحاج، هؤلاء الذين فقدوا جنودهم وإخوانهم من لمتونة ضمن الثلاثة آلاف الذين سقطوا في معركة الزلاقة، ونساء هؤلاء، وأبناؤهم، وإخوانهم، وعشيرتهم من لمتونة وكدالة، هؤلاء جميعا وعلى رأسهم الأشياخ الذين فقدوا قاضي مراكش عبد الملك المصمودي، لم يكن حديث تجمعاتهم ولمدة خمس سنوات من تاريخ موقعة الزلاقة الى سنة 484هـ/1091م لم يكن يستغرق أوقات الذين تخلصوا من رجالات الحروب الدائمة غير الحديث عن الأندلس وحضارة الأندلس، والفساد المستشري في الأندلس الذي أصبحت العلاقة الجديدة تحمل أخباره أولا بأول، هذا بالإضافة الى ما كان يردده الناقدون الذين لم يخل منهم زمان، وهم الذين حق لهم أن يرددوا بآنفعال فيه نقمة: أن الذي أفاد من المعركة هو آبن عباد: والذي أصبح سيد الموقف هو ابن عباد، بل الدنيا وما فيها من مباهج ترامت على قدم آبن عباد، صاحب العقود على الثمانمائة إمرأة، والمائة ولد..؟! وهو الذي سجل في حقه صديقه بن عمار الشاعر الغادر ما سجل من موبقات استوجبت موته صبرا في سجنه لأنه كشف الرميكية، وأولاد الرميكية.

وإذا الدسائس حيكت ودبرت بكل مكر، فإن من مدبريها اليهود الذين قتل آبن عباد أحد كبارهم "آبن شالب" وهو من المسؤولين عند الفونس(223) عندما ذهب لاستخلاص الضريبة المفروضة على ابن عباد، ثم تطاول وتجاوز الحدود، بعد كل هذا يوسف بن تاشفين الذي حرر الأندلس ويحكم المغرب، لا يتوفرعلى قليل ولا كثير مما يتوفر عليه ابن عباد صاحب إشبيلية ومتيجة، وقرطبة وغيرها مما لم يكن يجلب لبني حمدان ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان" كما عبر المقري في النفح 2/534.

(223) لقد بلغ اليهود في عهد ملوك الطوائف وقبله درجة كبيرة من السيطرة على نفوس العرب والاسبان معا، بما كانوا يقربون للجميع من ملذات، ويختصرون لهم من الطرق لتحقيقها كما هم اليوم، حتى بلغ بعضهم مرتبة الوزارة ببلاط باديس بن حبوس بن ماكس الصنهاجي الذي ولى يوسف النغزلي، وإسماعيل بن يوسف النغزلي هو الذي قتل بلكين بن باديس بالسم قبل سنة 456هـ/1064م، ولم يلبث ابن نغزالة أن قتل وصلب عام 459هـ .

هذه بلا شك كانت بعض المشاهيب التي أوقدت النار التي آحترق بها ابن عباد بيد أمثال ابن حماد وغيره كابن حبوس، وابن الأحوص، وابن العزيز، وعبد الله بن بكر بن قنفد، والقادر بن ذي النون، وما كان حول هؤلاء الأمراء من حاشية وقواد كلهم كانوا موتورين من ابن عباد الذي وحده أفاد مما حققه يوسف في الجولة الأولى من نصر حتى كانت التهاني توجه لابن عباد، والذي بتصرفه كذلك عجل بما كان يدبر له من خصومه، وبذلك تحققت المأساة التي استاء منها كل من عرف نخوة وقتال ابن عباد وما قدم لموطنه وقومه وأهله. والتي ما كان ليوسف التقي الذي تعرض لضغوط فتاوى الفقهاء، وقصائد الشعراء المتذمرين من تصرفات ملوك الطوائف، وما عرفت به مجتمعاتهم من انحلال في الأخلاق، وتطرف في السلوك حتى قال فيهم أبو الحسن بن الجد:

أرى الملوك أصابتهم بأندلس ... دوائر السوء لا تبقى ولا تذر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر ... هوى بأجمعهم خسفا وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح ... يحدو به ملهياه الناي والوتر

الفصل التاسع والخمسون

مأساة ابن عباد (224) ومبررات ابن تاشفين

لم يفصل المؤرخون تفصيلا يوضح العلاقة بين ابن تاشفين وابن عباد بعد الزلاقة، إلا ما كان من انتصار أكثرهم لابن عباد ضد آبن عبد العزيز صاحب مرسية حين التحق إبن تاشفين للمرة الثانية بالأندلس 483هـ/ 1090م لافتكاك حصن لبيط بعد سنتين رجع فيها أهل الأندلس إلى ما كانوا عليه من ضعف سببه التطاحن والتحاسد حتى أصبحوا مهددين من قبل الفونصو6، وانه في تلك الرحلة تغير على أهل الأندلس الذين صرح برد الفعل منهم عبد الله بن بلقين الذي سيكون جزاؤه الإبعاد الى أغمات، بل في المرة الثالثة وهي التي وجه فيها يوسف قواده إلى الأندلس سنة 484هـ/ 1091م لتصفية ملوك الطوائف، وفيها سينقله وأسرته الى مدينة أغمات كسجين(225) وإذا فتح آبن تاشفين غرناطة، وما لقة، وهزم قوات الأسبان في حصن لبيط بدون مشاركة الأندلسيين الذين بعدما انهارت قواهم في حصاره ذاع وانتشر أنهم أصبحوا ناقمين على يوسف بن تاشفين فإن إبن عباد، والمتوكل ابن الأفطس كان عليهما أن يذهبا لتهنئته بالفتح الجديد لكنه أعرض ولم يقبل عليهما(226)ولعل السبب الحقيقي هو ما أشرنا اليه قبل، ويقول

---

(224) هو المعتمد بن المعتضد بن إسماعيل أبو القاسم، ابن الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل، بن عباد، بن عمر، بن اسلم، بن عمر، بن عطاف، بن نعيم اللخمي. وعطاف هو الداخل للأندلس في طوالع لخم، وأصله من جند حمص، نزل طشانة بشرق إشبيلية، وكان محمد بن إسماعيل بن قريش، صاحب الصلاة بطشانة، ثم ولي ابنه إسماعيل الوزارة بإشبيلية سنة 403هـ/ 1012م لمدة ثلاث سنين، وكان صاحب الفضل عليه القاسم بن حمود الإدريسي، الذي تآمر عليه إسماعيل مع آبن زيري، كما تآمر على الزبيدي أبو بكر، معلم هشام، ومختصر كتاب العين راجع العبر 4/326-327، والدخيرة لابن بسام قسم 1/12، وابن عذاري 3/142، والمراكشي 34-57، ونفح الطيب 1/202، وابن الأثير 9/114.

(225) الحلل 58، وعند القرطاس 2/69 إلى مراكش، وربما هذا أصح لان اغمات سنرى فيها ابن عباد فقط.

(226) الحلل 59.

صاحب القرطاس إن يوسف لما خلع عبد الله بن بلقين خافه ابن عباد وانفض عنه، فسعى بينهما الوشاة "إبن صمادح" الذي كان قد استدرجه لقول ما يغضب حول يوسف وقومه، فتغير عليه يوسف(227) الذي رجع الى مراكش في شهر رمضان من السنة الماضية 483، ثم عاد الى سبتة 484 وأرسل إلى الأندلس قائده، وابن عمه سير بن أبي بكر اللمتوني وفوض إليه جميع الأمور كلها، ولم يأمره في ابن عباد بشيء فسار سير نحو إشبيلية يقول ابن أبي زرع، "وهو يظن أن ابن عباد إذا سمع به خرج إليه وتلقاه عن بعد بالضيافة، فلم يفعل، وتحصن منه ولم يضيفه، ولم يلتفت إليه، وربما لأن ابن عباد كان على علم بفتوى الفقهاء التي توصل إليها يوسف ضد أمراء الأندلس الذين أرهقوا شعوبهم. ثم اتخذها وسيلة للقضاء عليهم، وذلك ما أمر سير بن ابي بكر تنفيذه. فراسل سير ابن عباد أن يسلم اليه البلاد ويدخل في طاعته، وتلك أوامر يوسف التي ربما كانت نتيجة للموقف الجديد، كما خيره في أن يرحل بأهله الى المغرب، فامتنع المعتمد من ذلك، فأخذ سير في حصاره وقتاله(228).

وإذا صح ما أورد ابن أبي زرع، ثم أضفنا هذا الى ما أورده كل من الحميري في الروض المعطار والمراكشي في المعجب وصاحب الحلل من تبرم يوسف من المعتمد وابن الأفطس، يكون موقف المعتمد من سير طبيعيا، فهو لم يعلم أن سير لم يؤمر في ابن عباد بشيء، وإنما حسب الموقف السابق من يوسف، وجب أن يتوجس المعتمد من سير، وأن يحتاط، ومقام سير ليس هو مقام يوسف بالنسبة لابن عباد حتى يخرج إليه ويستقبله، بل إن سير زاد الموقف حرجا وتعقيدا حيث أرسل يطلب من ابن عباد أن يسلمه البلاد لمجرد أنه لم يضيفه، فكيف لا يمتنع ويقف موقفه الذي عرف به في الزلاقة، وهو اليوم في إشبيلية موطن الأهل والولد، والواقع في نظرنا لا هذا ولا ذاك، وإنما هو ما سبق تقريره من تذمر يوسف، وقواد الجيش، والأشياخ، بل والجنود مما رأوا وسمعوا من شعر مَا جنٍ عن القوم، وعن الفساد في الأندلس فحسب، بل ومن البدخ الفاحش .

---

(227) القرطاس 69/2.

(228) المصدر السباق 7، وكانت كل من إشبيلية، وقرطبة قد عرفتا ثورة أطفأها ابن عباد الذي كانت كراهية عامة الشعب لتصرفاته، وأولاده وما عرفوا به من خمور وفجور قد بلغت نورتها. ولم يبق له إلا أمثال ابن اللبانة وغيره من الذين كانوا يرتعون على حساب الأخلاق والمثل.

حاصر سير إشبيلية وفيها ابن عباد، حصارا ضيق فيه الأربعة آلاف من الجنود على المعتمد وعاصمة ملكه، ولما اشتد الحصار وضاق ابن عباد الذي عرف أنه مأخوذ لا محالة طلب الأمان لنفسه وأهله فأجيب بالقبول، لكن يوسف ولربما تحت ضغط سير ابن أبي بكر وبعض الأشياخ، عاد فنقض العهد، مماأدى بالمعتمد الي أن يمتشق الحسام ويدافع عن نفسه وأهله، وكانت المعارك شديدة آنتقلت مع القائد جرور(229) الى قرطبة حيث المأمون بن المعتمد الذي قتل، وفتحت قرطبة يوم الأربعاء 3 صفر 484هـ/ 1091م، وإذا كان يوسف قد آتخذ شبه مقر قيادته بسبتة، التي شغل فيها وقته ببناء الجامع الأعظم والزيادة فيه، وتحصين مرفأها، فإن أوامره كانت صريحة لجيوشه في القضاء على نفوذ ملوك الطوائف الذين إن آستمروا في نظره سيكون آستمرارهم السبب في زوال الاسلام والقضاء على دولته في الأندلس، وتنفيذا للأوامر الصريحة(230) استولى جيش يوسف على بياسة، وابدة و،حصن البلاط والمدور والصخيرة، وشقورة، ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى زال ولم يبق لابن عباد بلد الا وقد ملكها المرابطون، ما عدا قرمونة وإشبيلية(231) التي لازالت محاصرة، والتي زعم ابن أبي زرع ان آبن عباد آستنجد بألفونس 6 كي يخلصه ويسلمه البلاد، وكأن ابن عباد بعمله هذا يريد من ألفونصو أن يرد له الجميل، لأن آبن عباد هو الذي ساعده على اعتلاء العرش، وما كاد يتمكن حتى التفت الى محاربة المسلمين، ومع ذلك بعث إليه المعتمد يستنجد به ضد المرابطين: منطق الحوادث، ونخوة ابن عباد يرفضان هذا الزعم المكشوف الذي يستمر فيقول: "فبعث إليه ألفونصو قائده القومس في جيش من عشرين ألف فارس، وأربعين ألف راجل.... واجههم سير بعشرة آلاف من رجاله قدم عليهم إبراهيم آبن إسحاق اللمتوني، حيث التقى الجمعان بالقرب من حصن المدور، وقد انتصر المرابطون بعد قتال شديد، أما إشبيلية التي كان يقاتل بها آبن عباد، فإن سير آبن أبي بكر قد آحتلها هي الأخرى يوم الأحد 22 رجب سنة 484هـ/ 7/9/1091م، وبذلك زال من قائمة الطوائف

(229) في القرطاس 72/2، أن الذي توجه إلى قرطبة هو القائد بطيّ خلاف ما عند الزياني 289، وفي الحلل عبد الله بن ج.

(230) الحلل، المصدر السابق.

(231) القرطاس 73/2-74 ط 1936.

بالأندلس خمس هم: إبن عباد، وابن حبوس، وابن الأخوص، وابن عبد العزيز، وعبد الله بن بكر صاحب جيان وأيلة واستيجة(232)، واستمر قواد يوسف في تصفية ملوك الطوائف حتى لم يبق منهم إلا بنو هود الذين كانت بلادهم محصنة بحكم وجودها في الحدود الفاصلة بين الاسبان والعرب والمماليك الإسلامية، ثم إنهم استطاعوا بلباقة إقناع يوسف بجدية عملهم وحسن سلوكهم بالمراسلات والهدايا التي كانوا يقدمونها للقواد المرابطين(233) حتى قر في ذهن يوسف أن لا بد من بني هود(234)، لأن المستعين بالله أبا جعفر أحمد عرف كيف يركز ذلك في نفس يوسف حين راسله قائلا: ".. نحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر، ومناعين تطوف، وقد قنعنا بمسالمتكم فاقنعوا منّابِها الى ما نعينكم به من نفيس الدخائر(235)؟

وكان قد أرسل كتابه هذا مع ولده عبد الملك، ووزيره أبو الأصقع، وأبو عامر الذين عرفوا كيف يمكنون لعلاقة الود مع يوسف، وبقية المرابطين فحملهم جوابا يدل على نجاح السفارة حيث خُتم يقول يوسف "وحيلة الوفاق وجماعة الإنتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والاتساق إن شاء الله تعالى والسلام"(236).

وهكذا فإن يوسف آبن تاشفين لم يكن يهدف التوسع من قضائه على ملوك الطوائف، بقدر ما كان يهدف التمكين لدولة الإسلام، وإن كان ما أورده آبن الخطيب وصاحب الحلل عن تركه بني هود الذين قيل عن أميرهم "كان يتحف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويهاديه مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر" التي آستولى عليها بعد آنتصاره على ابن الموفق بالله علي بن مجاهد العامري، صاحب دانية، والتي استوردها العامري من الشام، في مبادلات تجارية، في حين أن التاريخ دون في

(232) المصدر السابق 76 ونُنَبِّهُ الى أن ابن أبي زرع في هذا الموقف وقع في خلط بما مضى.

(233) الحلل 59.

(234) كان القائم وقتها وهو آبن أحمد الموتمن بالله، أبي الحجاج يوسف، بن المقتدر بالله أبي جعفر، بن المستعين بالله سليمان، بن محمد بن هود الجدامي كانت مملكتهم بشرق الأندلس تضم عمالة الثغر الأعلى، وهي سر قسطة، وتطيلة، وقلعة أيوب، أوصى يوسف بن تاشفين ولده علي بمسالمتهم ، ولما تخلى عن الوصية انتهى وجود المرابطين بالأندلس.

(235) الحلل 60.

(236) الحلل 61.

حق يوسف أنه لم يكن من المفتونين بمثل ذلك، بل كان يلبس الصوف، ويلازم أكل الشعير، وبذلك نعته ابن الخطيب نفسه "ربته الصحراء، ونيته صالحة لم تفسدها الحضارة، ولا مخالطة الأسافل." وقال عنه أكثر من ذلك(237) إن آبن تاشفين الذي خلد وصفه للأندلس وتشبيهه لها بالعقاب، حين قال: رأسه طليطلة، ومنقاره قلعة رباح، وصدره جيان، ومخالبه غرناطة، وجناحه الأيمن بلاد الغرب، وجناحه الأيسر بلاد الشرق، صاحب هذا الوصف وهو الرجل السليم حقا والذي كانت حياته كلها جهاد، وعبادة، وغيرة على الإسلام، وعلى أهل الأندلس الذين ضاقوا ذرعا بسفاهة حكامهم، وإرهاقهم لم يفعل بآبن عباد ما فعل بدافع الأنانية وحب التوسع، وإنما بدافع الغيرة على مستقبل الإسلام في بلاد الأندلس، ثم بدافع الضغوط التي تعرض لها وهو لا يعلم كيد الكائدين ودوافع المغرضين.

لكن رغم ذلك ما كان التاريخ يتمني لابن عباد البطل -ولا لابن عباد الكريم المجاهد الشاعر الأديب رغم القصص، وما خلده الشاعر الغادر ابن عمار حول ولي نعمته مع الرميكية، وأولاد الرميكية التي شوهت المظهر، والمخبر من حياته، وفي نظر يوسف والمرابطين الذين قتلوا ولده المأمون وألقوا القبض على الولد الثاني يزيد الراضي بالله(238) الذي قيده القائد أبو زكريا بن واسنو، بعدما جمع أفراد عائلة ابن عباد، وصودرت جميع ممتلكاته ثم بيعت ووزع ثمنها على الجند، وأخيرا نقل الجميع إلى السجن مرورا بطنجة ومكناسة إلى مدينة أغمات التي آستمر سجنه بها أربع سنوات من رجب 484هـ/1091م إلى أن توفي رحمه الله عام 488هـ/1095م(239)، بعدما رأى من القهر

---

(237) أعمال الإعلام 3/234/ط البيضاء.

(238) الحلل 58، وعند ابن خلكان 2/27-35 ان الراضي بالله قتل كذلك، وفيه أن ابن تاشفين آستقبل إبن عباد مقيدا في أغلاله بمراكش.

(239) راجع نفح الطيب 2/385-1119-3/487-568-597- ج3/344، وابن عذارى 3/244-257، وابن الوردي 2/4-8 وابن الأثير 10/86، والوافي بالوفيات 3/183، والحلة السيراء لابن الأبار 52/358-359/ط القاهرة 1924 وموقف المسناوي من ابن عباد في الترجمان المعرب للزياني، المصدر السابق والحميري، 1/284-289 وتاريخ الفكر الأندلسي لحسين مونس 88-89، وعند دوزي أن الغزالي أفتى بزوال ملوك الطوائف، وفي هذه الأثناء كان يوسف قد انتهى من ضم الأندلس إلى المغرب وتوزيع ولاته على ممالكها.

والذل والمهانة ما زاده حدة نسيان الرميكية لما مر من النعم "حتى يوم الطين"، وبناته الأميرات المكرمات اللائي أصبحن يغزلن للاخرين حتى يجدن قوت يومهن. ولم يكن لهن، بل ولا لأبيهن من الذنب ما يستحقون من أجله تلك القسوة القاسية، وذلك العنف العنيف من أعظم رجل مؤمن، مجاهد، صادق، أمين هو يوسف بن تاشفين، وإذا ما توفي آبن عباد، ونودي للصلاة عليه باسم غريب، فإن أحدا لم يؤرخ لنا اليوم والشهر الذين مات فيهما رحمه الله، ولعل في ذلك عبرة من عبر التاريخ، لكن آبن عباد البطل العظيم لم يضيعه التاريخ الذي أحياه بنفس الروح التي رثاه بها الشاعر الوفي آبن اللبانة في قصيدته التي مطلعها.

تبكي السماء بمزن رائح غاد ... على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها ... وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

إن مأساة آبن عباد البطل، والتي صنع بعضها خصوم من ملوك الطوائف وبعضها ساهم فيه آبن عباد بسلوكه الذاتي قبل الزلاقة وبعدها هو من واقع وصنع غباوة "ملوك" الأندلس، ولا يسأل عنه يوسف بن تاشفين بقدر ما ترجع الى ظروف الأندلس من جهة، ونفسية مجتمع المرابطين من أشياخ وقواد وغيرهم، بل فقهاء لمتونة ورجالاتهم وبعد أكثر من نصف قرن بقليل، كانوا هم السبب في زوال دولة المرابطين، لأنهم الذين دفعوا بعلي الى الخروج عن إحدى الوصايا الثلاث التي أوصاه بها والده، وهي مسالمة بني هود، والمصامدة أهل جبل درن، وأهل قرطبة، ولقد كانت ولاتزال تلك هي طبيعة القوم من سكان منطقة "عيون الخيل" قرية شنقيط الذين ألفوا الدس والكيد والنفاق .

لقد فعل قلب الحقائق، وتفسخ المتهوسين من ذوي البضاعة البائرة الذين لم يجدوا لهم غير آراء الخصوم في كل من يوسف بن تاشفين، والمعتمد بن عباد مالم يفعله الخصوم أنفسهم بتاريخ المغرب السياسي، أولئك الذين نعتوا يوسف بما نعتوه به، وهو الذي زاد في عمر الإسلام والعروبة بالأندلس أكثر من أربعة قرون، وما ذلك إلا كيد ودس من ذوي المقاصد السيئة ضد الطرفين، أولئك الذين يكشف الواقع أنهم على غير علم بمصادر تاريخ المغرب والأندلس، ولا يعرفون إلا ما أذاعه الأجانب ونشروه عن جهل، بل

بقليل من التروى فيما أنتج ابن عباد نفسه، أو ما قيل عنه من شعره وما أشيع بينه وبين أم أولاده :الرميكية إعتماد" التي لا ينكر حبه لها وحبها له، والتي رافقته في الرخاء وبقليل من الصبر. في الشدة، وإذا ما صح عند يوسف القوي الصلب الشديد التمسك بخلق الإسلام، إذا تأكد ما نسب لابن عباد الذي صنع للرميكية من الأحلام حقيقة وواقعا، وحتى إذا هو لم يرد مقابلة ذلك بما يقتضيه الوقوف عند حد الشرع، لم يتركه الأشياخ المستبدون، ولا ثورات المجتمع المتذمر من أشباه الملوك، بل ولا نفوذ القواد والجند وفتوى الفقهاء، وإذا علمنا أن حضارة الأندلس سواء في مجال العمران والأدب بلغت النهاية في الغلو والإسراف والإرهاق بدافع التنافس زمن "ملوك" الطوائف، ورغم أن بعضهم كان يدفع الجزية عن يد وهو صاغر لألفونصو6 كانوا كما رأينا يلقبون بألقاب "الخلفاء" بل وكُفر شعرائهم، ثم زندقتهم أمثال ابن هاني وغيره من المتفسخين(240).

ما ذا كان ينتظر الذين تحاملوا على إبن تاشفين الذي لم يكن للمغرب والمغاربة من أمثاله الكثير؟ وكأنهم بذلك يشوهون تاريخ المغرب والمغاربة، وقد رأى وعاش ما آنتهى إليه حكام الأندلس من فوضى، بعدما أراقوا دماء المسلمين وتحمل يوسف وجنوده في سبيل تركيز الدولة الإسلامية بالأندلس ما تحمل هو ومن معه، وما قدم المسلمون من شهداء، لقد أصبح مجتمع الأندلس وسياسته ممثلة في أمرائه فوضى فالأمراء والقواد في تطاحن مستمر، وغدر حقير وفساد مستمر، لا يستبد أحدهم بما يستطيع الاستبداد به من البلاد ويصبح ملكا بلا ملك، حتى يقوم عليه آخر، وإن هو لم يوجد واستقر زمنا بالغ في الاستبداد والفساد مما كان يدفع الشعب الى الغضب والثورة فيقتله ليجلس مكانه آخر لا يلبث أن يتمكن حتي يعود أشر من السابق، ماذا كان ينتظر من آبن

---

(240) الحلل 67، هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي من سلالة يزيد بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، وقيل بن أخيه روح، ولد بإشبيلة مدينة الخلاعة في زمنه أيام عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم سنة 326هـ وقتل في برقة وهو سكران سنة 362هـ/ 972م له ديوان به 51 قصيدة في المدح و3 في رثاء أمهات من مدح من الملوك والولاة، وقصيدتان في الهجاء، ويظهر آن مدحه كان بسبب الطمع، وهجومه بدافع اليأس، وليس له غير قصيدة واحدة في أكول ، له ديوان مطبوع في بولاق مصر 1274هـ، وفي بيروت 1326هـ، سركس المعجم/ط1928م ص270، وموسوعة البستاني 1/724-726، والإسلامية 1/289-291، والإعلام للزركلي، 7/354/ط2، ومذكرات الأدب العربي: محمد مصطفى/كلية اللغة العربية بالأزهر ص118-133.

تاشفين وقد نقل اليه من كفر متنبي الأندلس ابن هانئ الذي تمكنت زندقته في اشبيلية التي فر من أهلها هاربا بفجوره وانحرافه الى أن قتل، كما سيقتل الفتح ابن خاقان كما سنرى بعد، وهو من اشبيلية التي أصبحت عاصمة المعتمد، وهي التي أصبح غيره أي ابن هانئ من الشعراء يتنافسون في النسج على منوال مدحه القائل فيه موجها للمعز الفاطمي(241) الذي كان يريد أن يفاخر به الأهل، وهو الذي قيل عنه متنبي المغرب لأنه كان معاصرا لمتنبي المشرق، وهو الذي قال في المعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار

وهو بهذا الوصف في البيت الأول أصبح كافر لا يدفع عنه الكفر دعوى النبوة أو التشبيه بالنبي صلى الله عليه وسلم في البيت الثاني، فهو لم يفعل ذلك عدولا عن رأيه الأول، ولكنه تورط أكثر وازداد كفرا، وقد بلغ به الاستهتار الى تكرار ذلك في مدحه أبا الفرح الشيباني حيث قال:

هذا الذي تتلى مآثر فعله أيام آيات الكتاب تنزل
فرغ الاله له بكل فضيلة فينا كما يتلى الكتاب المنزل

وفي غير هذا إذا نحن ذهبنا مع ابن زيدون(242) بحتري الأندلس، والمخزومي الأعمى معري الأندلس، فالأول بعيد عن الميزة التي آختاره من أجلها أبو الحزم بن جهور الذي لقبه ذي الوزارتين، وزارة المشورة، ووزارة التنفيذ، ولا ما قر به من أجله المعتضد بن عباد ثم المعتمد بعده، ولا رسالتيه الجدية أو الهزلية، وإنما فيما أنشده من شعر

(241) راجع وفيات الأعيان 4/2، والتكملة لابن الابار 103/1، ودائرة المعارف الإسلامية 289/1 والاحاطة 212/2 و215.

(242) هو أبو الوليد أحمد، بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الفقيه الأديب الشاعر الوزير الأندلسي القرطبي ولد بقرطبة سنة 394هـ/ 003م وتوفي باشبيلية 463هـ /1070م ومن وصف ابن بسام له "غاية منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم، أخذ من حر الأيام، وفاق الأنام طرا وصرف السلطان نفعا وضرا، ووسع البيان نظما ونثرا الخ.

فاضح مكشوف حول(243) ولاده بنت محمد المستكفي بن عبد الرحمن المستظهر الأموي:

بيني وبينك مالو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يابائعا حظه مني ولو بذلت لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك لو حملت قلبي ما لا تستطيع قلوب الناس يستطع
ته، أحتمل، واستطل، أصبر وعز، أهن وول، أقبل، أسمع، ومر، أطع

بعضهم يفسره بصيانة سر محبوبه ووفائه له، وتعلقه به مهما كلف الثمن، وأن حظه منه يساوي الحياة وكفى، أما الأشياخ، وقواد الجيش الذين أخذوا الإسلام صافيا بعيدا عما أستساغه الآخرون، وأوجدوا لقوله تعليلا يسمح لهم بترديده كما رددوا قول إمرئ القيس، وفسق ابن ابي ربيعة:

وناهدة الثديين قلت لها اتكى على الرمل من جبانة لم توسد
فقالت على اسم الله أمرك طاعة وان كنت قد حملت ما لم أعود
فلما دنى الإصباح قالت فضحتني فقم غير مطرود وان شئت فازدد

هؤلاء الأشياخ، وقادة الجيش الذين نعتهم الذين كتبوا حولهم كما أراد لهم الإسبان أن يكتبوا نعتوهم ونعتوا ابن عباد أيضا بأرذل النعوت، كما نعتوا بها يوسف لكونهم لم يستسيغوا هذا التحلل والتفسح والانحلال الذي عبرت عنه ولادة، والذي يرفضه الخلق الإسلامي، ولا يرضاه الا أزواج بنات أرصفة عواصم أوربا الذين أصبح لهم النفوذ والقرار في المغرب الأقصى أكثر من غيره من بلاد الإسلام، واسمع الى دعاة الخمور والفجور إذ تقول إحداهن:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر لم ينر وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

(243) توفيت سنة نكبة ابن عباد 484هـ/ 1091، بعد نكبة أبيها بذلت حجابها وأصبحت جليسة من تهوى، واشتهرت بابن زيدون، وابن عبدوس مع حبها للأول ومقتها لمزاحمه الذي كتب رسالته التهكمية في آبن عبدوس، راجع الذخيرة لابن بسام ج376/1، والصلة لابن بشكوال 362، ونفح الطيب 1097/2، ود. البستناي 502/1، مجتمع ينتج في أعلي طبقاته هذا النوع من التفسخ، ماذا يكون موقف يوسف بن تاشفين من رموزه؟ إن الحق، والعدل، والخير، والحب، وسداد الرأي لينصف يوسف ويكبره.

وقولها الصريح

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود

هذا الذي قيل عنه الأدب الرفيع في مجال الحب، والذي هو غير الذي عبر عنه المتنبي بقوله:

الحب ما منع الكلام الألسنا وألذ شكوى عاشق ما أعلنا

مثل هذا المجون كان يظهر لابن تاشفين وقومه، كما يظهر للمسلم المؤمن الصادق خروج عن الحد ونشر للرذيلة وابتعاد عن الفضيلة، بهذا المفهوم كان قائد مجتمع المرابطين وأشياخهم ينظرون إلى علاقة الرجل بالمرآة، بل كانوا يعتبرون أن الذي انتهى بالأندلس إلى الإنهيار الذي عرفته بعد نهاية الأمويين 428هـ/ 1033م الى السنة التي أقدم فيها يوسف على جعل حد لملوك الطوائف 484هـ/ 1091م هو تلك الخلاعة التي تنافس الجميع في التظاهر بها، حتى قال ابن خفاجة(244) الماجن السفيه:

أعانقها طورا وألثم تارة إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر

وقد عاش آبن خفاجة وغيره ممن على شاكلته ما حل ببلادهم مصداقا لقوله تعالى "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا". فكان التدمير الذي لحق القوم، ومكن الله للإسلام بالقوم الذين حملوا رايته من المرابطين، ثم الذين حلوا محلهم من الموحدين.

---

(244) هو إبراهيم بن أبي الفتح، بن عبد الله، بن خفاجة الهواري الأندلسي من أهل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، ولد عام 450هـ/ 058لم، وتوفي 530هـ/ 135لم، وفيات الأعيان 14/1، ثم راجع نظم السلوك في وعظ الملوك لأبي بكر بن اللبانة، الذي ألفه في قضية المعتمد وأشعاره وأولاده وما كان منه في سجنه، ثم عن مفاخر يوسف، ونسكه، وشهامته راجع فقط دفاع الزياني عنه في البستان م خ نا ص 67-68 وعن بني عباد يراجع المعجب للمراكشي ط القاهرة 1949، ونفح الطيب ط 1302، والمؤنس ط 1286، وابن أبي زرع 1286، والكامل لإبن الأثير ط1301، وتاريخ الأندلس ليوسف أشياخ ط 1940م، والحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان ط1936م الخ.

وبالتالي فقد قيلت أشعار كثيرة ونسبت لابن عباد، ليس هذا مجال البحث فيها لأنها في شكلها ومضمونها لاتتفق وما عرف من خصائص الشعر الأندلسي عموما، وشعر آبن عباد بالأخص، بل بسبب ما عرف مجال الأدب من آهتمام بتراث المعتمد، الأمير الجليل، والشاعر المبدع، عرف الافتعال كما عرفت ترجمته من المنتصرين والمعادين ما يبعث على الرثاء، لقد توسع الذين يريدون للأدب في عهد ملوك الطوائف أن يكون ماجنا خليعا، وكأن لا جمال فيه إلا ما يتعلق بالمرأة التي أوقفوا حياتها في ذلك المجتمع على الخمور والفجور، ولو كان ذلك على حساب الكرامة والأخلاق وفضائل الإسلام، بل المعتمد نفسه ما فعل بابن عمار صاحب الرؤيا، ووزير أبيه صاحب الحيل البارعة، والذي نجاه من آحتلال الأدفنش بلعبة الشطرنج، وكيف قتله وأنه لم يفعل ذلك الا بدافع الغيرة على الشرف، وانتقاما من الغدر ونكران الجميل، واعتماد الرميكية النصرانية التي أصبحت بعد أم أولاده المفضلين كيف تعرف عليها؟ يوم أكملت شطر البيت الذي أعجز ابن عمار؟ "صنع الريح من الماء زرد"، وقد قيل أجابت الرميكية النصرانية مملوكة الرميك التي لم تكن لها صلة لا بالعربية ولا بآبن عباد وإنما كانت عابرة سبيل في الشارع، فأكملت البيت كما قيل "أي درع لقتال جمد؟؟" وأي زعم وافتراء مفضوح على الأدب أكثر من هذا(245) وبعد ذلك تزوجها وكان من أمرها ما كان طول حياته وفي سجنه الخ، وأنها السبب في الكثير من شقائه، الأمر الذي ينزل بالمعتمد الى أحط الدرجات في نظر يوسف(246) وغيره. من "الشيوخ" الذين لا تقبل عقولهم ما نسب لابن عباد من قول

(245) راجع تاريخ الأدب لجرجي زيدان 56/2.

(246) الحلة السيراء: 360. تحقيق عبد الله الطباع ط1962، على أن بعضهم قال في حق المعتمد الذي كانت نكبته من يوسف سببا في وصف هذا الأخير بما وصف من ظلم، أن المعتمد ما خلق ليكون رجل دولة، وإنما حسبه الشعر والأنس والمنادمة، إلا أن بطولته في الزلاقة تخفف من ذلك، وترفعه مكانا عليا، لكنه دفع ثمن أخطائه والانسياق وراء ملذاته رحمه الله، راجع ت ص 101 ج2 من القرطاس ط فاس 1936، ثم راجع ما أورده الزياني في البستان 67-68 مما علق به الشيخ محمد المسناوي شيخ الجماعة بفاس على كلام الشقندي ضد يوسف الذي قيل إنه لم يعرف أقوال الشعراء والرد الذي رد به الزياني، وما أورده من أسباب دفعت يوسف الى فعل ما فعله بالمعتمد بن عباد.

ما جن لا يستحق من أجله النفي فقط، وذلك حين نسبوا له القول السفيه:

إني رأيتك في المنام ضجيعتي وكـأن سـاعـدك الوثـيـر وسـادي
وكـأنما عـانـقـتني وشكوت ما أشكوه من وجدي وطول سـهـادي
وكـأني قبلـت ثـغـرك والطلـى والوجـنتـين ونلـت منـك مـرادي
وهـواك لـولا أن طـيـفـك زائـر في الغب لي ما ذقت طعم رقادي

ومهما يقال فإن ابن عباد البطل العظيم وهو، رغم الإنتحال، والافتعال، وعاطفة الأدب التي آنتهت عند بعضهم من المنحلين إلى جموح، فميزة آبن عباد كما نريدها الشجاعة، وعلو الهمة، قبل جمال الشعر، الذي خلب لب الذين بدلوا سيئات آبن عباد حسنات، وحسنات يوسف بن تاشفين بالعكس، رحم الله آبن عباد الذي عدت معايبه، ويرحم الله آبن تاشفين الذي لم يعرف تاريخ الإسلام في المغرب العربي الكبير بعد الفتح مثله أحد من قومه ولا من الذين جاؤوا بعدهم من وصفه بغير صدق القصد، وصادق الطوية.

بل ثمت جانب آخر من حياة يوسف بن تاشفين السياسية وعمله المشرق بالأندلس وصفه بعضهم بحب التوسع والغيرة مما رأى.

ولو أن الذين وصفوا يوسف بن تاشفين بما وصفوه به من حب التوسع والطمع في الأندلس تدبروا سلوكه الذاتي وحياته الخاصة، وما ظهر منه بعدما أصبحت إمبراطوريته تمتد من إفريقية، الى السودان، ثم الأندلس ثم بقى هو هو يلبس الصوف ويأكل الشعير، لما بلغ بهم الجموح والشطط ما بلغ من نعته بما نعتوه به، ولو أنه قتل آبن عباد كما فعل سير بن أبي بكر بغيره لما قيل في حقه كل ما قيل من الذين تكشفت مقاصدهم من القول.

انتهى ابن تاشفين من تصفية ملوك الطوائف الذين لم يؤسف على أحد منهم غير المعتمد ابن عباد، ثم تفرغ لبناء الدولة وتقويتها برا وبحرا، والتي سادها الأمن، وعم الرخاء فيها بشكل سجله التاريخ زمن يوسف وخلفه علي، لكن اللمتونيين من الأشياخ والقواد الذين لم يعد لهم من الحروب ما يشغلهم وقد أصبحوا هم كل شيء في الدولة،

لهم السلطان والنفوذ وعلو الجاه، كما تحققت لهم الثروات الطائلة من مغانم الفتوحات وسحق التيجان التي تناثرت جواهرها ليلتقطها القوم الكبار من أهل لمتونة ومن يحيط بهم، وإذا هم أصبحوا كذلك، وأخذت الوفود ترد على عاصمة الدولة وملكها من مختلف الأقطار مهنئة بالانتصار الكبير الذي غير وجه التاريخ وقتها وبدل الخريطة التي رسمت قبل لطمس معالم الإسلام ودك حصونه، فإنه لا يليق بيوسف أن يبقى ملقبا بالأمير، وهو اللقب الذي يشترك فيه مع ولاته وقواد جيشه، بل الذي يليق بيوسف في نظر القوم هو أن يدعى "الخلافة" لنفسه؟

كان هذا اقتراح قومه وعشيرته، بل كل من آتصل بيوسف من غير قومه وعشيرته، وهو ما أورده صاحب الحلل، وابن أبي زرع والزياني في الترجمان، لكن يوسف الذي لم يعرف الغرور طريقا الى نفسه رفض بشمم، وقال في تواضع: "إنما -الخليفة- في بغداد، وما أنا إلا خادم من خدامه..؟ وقد أقر هذا حين ضرب العملة وذكر آسمه فيها، وكان "الملك" وقتها في بغداد أبو العباس أحمد، وهو المستظهر بالله العباسي 487-512هـ 1094-1118م(247) وحتى يقطع الطريق على دعاة التفرقة، وكذلك على الذين سيكتبون التاريخ بعده ويدافع عن نفسه أنه لا يريد بعمله غير نصرة الإسلام وعزة المسلمين وتوحيد كلمتهم، كون سفارة آبن أبي محمد عبد الله بن العربي وولده أبو بكر بن العربي، وكانا في إشبيلية، أرسلهما على رأس وفد حمله من الهدايا ما يليق بمقام المستظهر الذي آبتهج وأثنى على يوسف كما أثنى عليه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي 451-505هـ/ 1059-1111(248) ومن هذا يظهر لنا أن يوسف لم يدخله عجب ولا آندفع بغرور، وقد آكتفى بما أطلق الملك العباسي في جوابه على البيعة التي بعث له بها يوسف إذ سماه "أمير المسلمين"، وأصبح يوسف ولأول مرة يحمل هذا اللقب الذي ضرب به عملته على الوجه الثاني.

---

(247) لقد قال عنه الزياني "المقتدى" الترجمان 278، والواقع أن المقتدي هو الذي أخذ عنه المستظهر، وكانت بداية المقتدي بالله 486هـ/ 1075 راجع الحميري في الروض المعطار م خ نا 284/1، أما المستظهر، فقد كان من 487هـ/ إلى 512هـ/1094-1118م قطف الزهور 116/ط1873. وزمبارو: الأسر الحاكمة 4/1 مصدر سابق.

(248) أشرنا قبل إلى أن العلامة دوزي وقع في خلط حين نسب إلى الغزالي الإفتاء بوجوب زوال ملوك الطوائف في حين أن السفارة كما نرى جاءت بعد ذلك، ولم يعرف للغزالي آتصال قبلها.

وحتى يتعرف على رد الفعل من الأندلسيين آجتاز إليها سنة 486هـ/ 1093م حيث تفقد الثغور وراقب أحوال البلاد، لكنه رغم ما كان يغلى في صدور الذين فقدوا سلطانهم، -بل منهم من كان يدبر المكرفي الخفاء، فإن آبن تاشفين ومن حوله لم يكن لهم كبير آهتمام بذلك مادامت السلطة حازمة، والبلاد آمنة، لكن ما كان يدبر لم يكن ليخفى على يوسف الذي رجع لمراكش دون أن يثير شيئا مما كان يصله من أخبار القوم مما يكدر الصفو، خصوصا وأنه يريد لاعتراف بغداد أن يتعرف عليه الجميع ويتردد صداه في طليطلة ليسمعه ألفونصو السادس، الذي وان كان آنكمش خلف حدوده لم يشغله الجرح العميق الذي خلق فيه العلة بقية حياته لم يشغله عن الترقب والتطلع لكل ما يحدث الانشقاق والتصدع في الدولة المترامية الأطراف، بل كان يدفع بعض الذين وجد فيهم الاستعداد لمعارضة الوضع الجديد، ولقد كان من بين هؤلاء صاحب بطليوس جماعة عمر بن محمد، بن مسلمة الملقب بالمتوكل(249) الذي جره سير بن أبي بكر بعد حصار وجلده، ثم قتله وولديه الفضل والعباس سنة 487هـ/ 1094م، وكان الأب وولده الفضل من خيرة رجال الأندلس علما وفضلا إلا أنهما آنخدعا للعدو، كما أبعد يوسف عبد الله بن بلكين بن باديس، إلى إفريقية آقتداء بأبيه، ومثله فعل بتميم بن بلكين والى مالقة، وآل ابن صمادح وقومهم الذين آنتقلوا إلى إفريقية كذلك(250)، كذلك حيث تعرف أسرتهم حتى اليوم بنفس الإسم في مدينة قفصة، وفيهم شعراء وأدباء حتى اليوم، ولنا فيهم أصدقاء نضال أيام الدراسة بتونس في عهد الحماية منذ 1948-1949م.

وإذا ما مهد يوسف الأندلس، وقضى على المحاولات الفاشلة التي قام بها الكمبيادور الملقب "السيد" الذي أحرق قاضي بلنسية أبو أحمد جعفر بن جحاف بن عبد الله المعافري 488هـ/ 095م بتهمة انه آستولى على أموال المتوكل بعدما ساعد القائد المرابطي سير بفتح الأبواب والقبض على المتوكل(251) فإن إستمرار مثل هذه الأوضاع لم ولن يقبلها يوسف.

---

(249) كان وزيره آبن عبدون- صاحب قصيدة البسامة. الذي أصبح كاتب سربلاط علي بن يوسف بعد خدمته أمير الجيش سير بن أبي بكر اللمتوني، وتوفي في مسقط رأسه يابرة، سنة 529هـ/ 1134م.

(250) راجع ما بعدت 230 وكان إبعاد هؤلاء سنة 488هـ/ 1095.

(251) تقول الرواية إنه أرجع من طريقه إلى العدو "الفونصو" وهو قول مشكوك فيه، وأن السيد هذا نقم على سيده وانحاش للعرب، وخاض المعارك الى جانب المسلمين ضد ألفونس لذلك أبقي على بلنسية الخ؟؟

وهكذا قضى يوسف على كل أثر للفوضى وأصبحت البلاد تسير شؤونها بواسطة القضاة الذين نصبهم يوسف وشد أزرهم بقواد الحرب من المرابطين، فعرفت البلاد الأمن والاستقرار، وفي هذه المرحلة وإذا كان يوسف وقد طعن في الشيخوخة فإنه ولآخر مرة قام بجولته ليستطلع آراء الفقهاء والقضاة والقواد في شأن إسناد ولاية العهد لإبنه على المولود سنة 477هـ/ 1084م(252) وإذا هو تحقق من الآخرين ما عرف به ولده علي، من سمعة طيبة وسلوك حسن، فإن عليه أن ينفذ آقتراح الفقهاء والعلماء والقضاء، وما هو واجب شرعا حتى لا يترك البلاد فوضى إذا هو رحل عن هذه الدنيا، فطلب من كل الذين لا بد من مشاركتهم في البيعة أن يقدموا عليه إلى مراكش، وضمنهم الوزير الفقيه أبو محمد عبد الغفور، الذي كتب البيعة بشروط وكان ذلك سنة 495هـ/ 1101م .

(252) أنجبه من منو المعروفة ب "فاض الحسن"، راجع آبن أبي زرع 102، والحلل 61-62-63، وجذوة الاقتباس ط حجر291، وط الرباط 459/2-400، وبنو جحاف بيت يمني منهم القاضي المذكور الذي بايعه أهل بلنسية عام 485هـ/ 1092م بعد مقتل ذي النون الى أن حصل له ما حصل بعد استيلاء الكمبيادور "السيد"، راجع بنو جحاف في القاموس الاسلامي لاحمد عطية الله ص 583 ط ق 1963.

الفصل الستون

ابن تاشفين وكتابة ولاية العهد بشروط

يخبرنا السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص 476ط 1974، أن معاوية بن أبي سفيان أول من ابتكر ولاية العهد قبل موته وهو يعني بها تلك التي أشار بها أحد معاول هدم الاسلام حسب رأي عمر بن عبد العزيز : المغيرة بن شعبة، والتي كتبت ليزيد بعد ما تحولت الخلافة إلى ملك، وأول من كتب ولاية العهد بإشهاد وشروط في تاريخ المغرب هو يوسف بن تاشفين.

كان ليوسف من الأولاد خمسة، ومن البنات اثنتين، فالأولاد هم : علي، وتميم، وأبو بكر، والمعز، وابراهيم، والبنات كونة، ورقية، ومع أن عليا كان سنه 23 سنة فهو إبن المستولدة قمر «أم الحسن» الأسبانية الأصل؟ وقد فضله على تميم ابن صاحبة الفضل زينب النفزاوية، ولعل هذا الإختيار ناتج عن امتحان وتجربة أثمرت في حياة علي الذي أسند إليه قبل ديوان المظالم، وهو إبن ثمانية عشر، والنيابة عنه في حكم الأندلس، فكان مثالا للخلق، والنزاهة، والسلوك الحسن والاستقامة والدين، حتى قال فيه أحد شعراء الأندلس حضرلدى يوسف بمدينة مراكش، كل رجالات الدولة الذين كان لابد من حضورهم والإشهاد عليهم بالبيعة لعلي، وكان من بينهم الوزير أبو محمد عبد الغفور الذي أمره يوسف بكتابة نص البيعة فكتبها كما يلي:

وإن كان في الإنسان يحسب ثانيا ... علي ففي العلياء يحسب أولا
كذلكم الأيدي سواء بنانها ... وتختص فيهن الخناصر بالحلا(253)

«الحمد لله الذي رحم عباده بالإستخلاف، وجعل الإمامة سبب الإئتلاف، وصلى

(253) أوردها الزياني مصدر سابق، ص 286 كما أوردها صاحب الحلل ص 13.

الله على سيدنا محمد نبيه الكريم، الذي ألف بين القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه الملوك الجبابرة.

أما بعد: فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله غدا عما استرعاه، كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه المسألة العظيمة، وجعلها من آكاد الأشياء العظيمة، كيف وفي هذه الأمور العائدة للمصلحة الخاصة والجمهور، وإن أمير المومنين(254) بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة، فارق (255) عوامل سلاحه، بل رماحه، وأحد سلاحه، فقد وجد أن الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتيادا إلى المعالي واهتزازا، وأكرمها شيمة واعتزازا، فاستنابه فيها واسترعاه، إلى ما كان الله قد استرعاه(256) فأحضره مشروطا عليه الشروط، الجامعة بينها وبين المشروط، فقبل ورضي، وأجاب حين دعي «بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي، فرضوه لما رضيه، واصطفوه لما اصطفاه»(257) وقال في آخر شروطها وتوثيق ربوطها: كتبت شهادتي على النائب والمستنيب، من رضي أمانتها على البعيد والقريب، وعلم علما يقينا بما وصف في هذا الترتيب، وذلك عام خمسة وتسعين وأربعمائة(258) على أنه يلاحظ أن كل الذين أوردوا هذه الوثيقة لم يذكروا تاريخ اليوم والشهر.

أما الشروط التي اشترطها يوسف على ولده في نص البيعة يقول الزياني(259) فهي كمايلي :

1) أن : يرتب سبعة عشر ألف جندي فارس بالأندلس، توزع حسب الشرط على المواقع التالية :

---

(254) كذا في الترجمان، والحلل 64 أمير المسلمين.

(225) في الحلل 64 أعز الله رماحه وأحد سلاحه، وفارق بين الأشياء ميز بعضها من بعض، والجملة مجانسة لما بعدها

(256) في الحلل 64 فاستنابه فيما استرعي، ودعاه إلى ما كان عليه دعى. (257) زيادة في الحلل 64.

(258) زيادة في الترجمان 281 – 282 .

(259) الحلل 63/ط 36، وصبح الأعشى والترجمان المصدر السابق، وفي غيره بتاريخ ذي الحجة والقرطاس 77/2 ط فاس، وعنه نقل صاحب الجذوة دون أن يتوخى الدقة 459/2 ط الرباط 1974 .

ا – إشبيلية سبعة آلاف. ب – قرطبة ألف. ج– غرناطة ثلاثة آلاف. د– وأربعة آلاف بشرق الأندلس(260).

وإذا كان يوسف قد عقد البيعة لولده علي سنة 495 هـ/1101م، فإنه عاش بعد العقد خمس سنوات اعتلت صحته لمدة سنتين منها، ولم ينتقل إلى رحمة الله إلا بعد ما أكمل مائة سنة مضت من عمره في هذه الحياة الدنيا رحمه الله، إذ ولد سنة 400هـ/1009م، وتوفي في شهر ربيع الثاني عام 500هـ/1106م(261) بعاصمة ملكه مدينة مراكش التي كان الواضع لأساسها، ولم يسجل التاريخ ليوسف البطل الشجاع المقدام أنه اشتكى من علة طول حياته، لأنه كان متقشفا على مافتح الله عليه من الدنيا، لباسه الصوف لم يلبس قط غيره، وأكله الشعير ولحوم الإبل مقتصرا على ذلك لم ينتقل عنه مدة حياته، لم يتجبر، وقد حكم من البلاد ما لم يحكمه أحد ممن حكموا قبله حتى خطب له على أكثر من ألفين وثمانمائة منبر، وأخيرا انتهى ولم يسجل في حقه التاريخ إلا ما يسجله للعظماء، عاش للدين، وللمغرب، والمغاربة، والمسلمين جميعا ومات وقد ترك المغرب والأندلس لصالح الاسلام والمسلمين دولة موحدة متمكنة، بقواتها الضاربة في البر والبحر، كما خلف على رأس الدولة شابا مثقفا قويا في سلوكه وخلقه تمكن من التركيز الذاتي مبكرا بما أوتي من المواهب التي قويت بالخلق والدين والاستقامة، ذلكم هو أبو الحسن علي، الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، والذي زوجه وهو ابن ست عشرة سنة، وقد ولد له من الولد عبد الكبير، ابراهيم، تميم، داود، عمر، ومما زاده عظمة أنه سلك طريق والده خطوة خطوة، وكان يقصد إلى المعالي، ويحب الأشراف، ويقلد العلماء، ويؤثر الفضلاء، وألبسه الله المهابة وقذف له في القلوب المحبة، فاجتمعت عليه الأمة واتفقت الكلمة"(262).

لقد كان أول ما قام به علي هو تطبيق وصية والده يوسف حيث انتقل إلى الأندلس

---

(260) الترجمان المصدر السابق والحلل 64 – 65.

(261) الزياني والقرطاس 101 – 102، والحلل 55 – 56 – 57، وجذوة الاقتباس 545/2 – 547 والحلل 67، وابن أبي زرع77/2ط الرباط 1936 – مصدر سابق.

(262) الحلل 69. كان تميم وهو أكبر من علي خليفة لوالده على السوس وأغمات، ومراكش، وتامسنا، ثم نقله علي إلى الأندلس التي عزله منها بعد، مما يستدل منه على الصراع الذي كان بين ابن زينب النفزاوية، وابن أم الحسن الرومية الأصل.

ورتب فيها الجند حسب الشرط، وذلك سنة 500 هـ/1106م، وفي السنة الثالثة بعد الخمسمائة انتقل إلى الأندلس غازيا حيث استولى على المنية وطلبيرة، وأدخل الرعب في قلوب الأسبان الذين التجأوا إلى المعاقل وتحصنوا بالجبال، وعرفت البلاد استقرارا وأمنا لم يتحرك فيها العدو قط، كما استولى بعد وكما سنرى سنة 511 هـ/ 117ام على مدينة قلمرية، ولم يكدر صفو علي بن يوسف إلا ما أحدثه تصرف بعض ولاته من لمتونة الذين بعد موت يوسف أطلق سراحهم كما تطلق العفاريت من القماقم، كما أنه لا يعرف كيف ذهل عن الوصايا الثلاث التي أوصاه بها والده حول أهل قرطبة وبني هود ومصامدة درن.

لم يوخذ على علي بن يوسف شيء في حياته غير أنه ترك لقومه كل الحرية إلى درجة الدفاع عن أخطائهم، ترك لهم ولما جد من نتاجهم الذي وجد في ظروف غير التي عرفها سلفهم، والتي تختلف حضارة وإمكانات، والتي كان يوسف يحول بينهم وبين الإنسياق بطريقته التي تميز بها، لكنهم في عهد خلفه الشاب الذي جلب حوله الكثير من أهل الأندلس أنفسهم إلى بلاطه، فعرفوا طريق الترف والانغماس في الملذات بقدر ما انقطع علي إلى الدين والتقرب إلى الله بالعبادة، وإذا كانت الدولة تفتقر إلى التنظيم إداريا، فإنه لم يحدث فيها ما يكدر الصفو غير قيام ابن أخيه يحيى بن أبي بكر الذي كان خليفته بفاس، ولما توجه إليه فر منها خائفا، كما عزل أخاه تميم من ولاية الأندلس سنة 501هـ/ 1107م، وولى مكانه القائد العسكري محمد بن الحاج، لمدة ستة أشهر ثم عزله وأرسله إلى بلنسية شرق الأندلس، ومنها دخل سرقطسة سنة 502هـ/1108م، وهي السنة التي انتصر فيها تميم وجنوده على ولد ألفونصو في الموقعة التي عرفت بوقعة إفليج، والتي قتل فيها شانجة إبن ألفونصو، وقتل معه ثلاثة وعشرون من الأسبان، فكانت هذه المعركة وما نتج عنها من انهزام قوات ألفونصو سببا في نهايته، إذ مات غما بعدها بعشرين يوما، بل كانت هذه الانتصارات دافعا بكيد للقائد أبي عبد الله بن الحاج إلى غزو بلنسية وسرقوسطة كما أشرنا، حيث بني هود الذين أوصى يوسف ولده عليا بمسالمتهم، ثم تقدم إلى برشلونة حيث استشهد يقول ابن أبي زرع(263) الذي يخالفه

(263) الأنيس المطرب.. 82/2 ط الرباط 1936م.

صاحب الحلل في هذا الموقف(264) كما سنرى، فانتقم له إبن تافلويت مخدوم ابن خفاجة كما سنرى حين كلامنا عن أسباب ضعف وزوال دولة المرابطين، وما قام به ابن رزمير الذي ظهر في هذه المرحلة.

وأما الخطأ التاريخي الذي وقع فيه علي بن يوسف كذلك، فهو إحراق كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، الذي نقلت الأخبار أنه كان من المعجبين بسلفه يوسف بن تاشفين وما حقق الله على يده، فهل كان لعلي المتعبد الصادق، من المعارف ما يكفي لمعرفته الحكم على إنتاج أبي حامد الذي طأطأ له أعلام الفكر الإسلامي شرقا وغربا؟ بل هل كان لمن حول علي من الاشياخ شيء من ذلك؟ أم هي مؤامرة دبرت من بقايا صنائع ملوك الطوائف، وغيرهم من الذين ضاقوا ذرعا بالأشياخ وقواد الجيوش، وتصرفاتهم الاستبدادية، فدفعوا بهم إلى تلك الدوامة التي انجرفوا نحوها، ثم جروا معهم سلطان اللمتونيين إلى النقمة عليه، وعلى سلطته، واستبداده الذي كان في الواقع سلطان الاشياخ واستبدادهم؟.

لقد كان ذلك أيضا في السنوات الأولى من تولية علي، وهي الفترة التي استولى فيها "الفقهاء" الذين ورد في الإحياء ما يمسهم ويكشف الستار عن حقيقة ما كانوا عليه، خصوصا إذا نحن وضعنا في الحسبان أن أول ما كان يلفت نظره من الكتاب الأول هو ما ورد فيه مما يتعلق بالدين والدنيا، والفقه والفقهاء ذوي الضعة، الذين أهملوا من العلوم ما لا يحقق لهم المكسب ويجلب لهم الربح، أو ليسو هم المسؤلون عن الخطأ التاريخي الذي سجل في حق المرابطين، وعلي بن يوسف بالذات؟ إن لهذا الموضوع مجال آخر ولهذا لا يمكننا الخوض فيه أكثر والذي ستعترضنا الإشارة إليه في أكثر من مكان.

---

(264) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص 81-82 ط الرباط 1936م.

الفصل الواحد والستون

من عوامل هدم دولة المرابطين

استبداد الولاة وشطط الفقهاء

إلى جانب الحرب الصليبية ضد المرابطين في الأندلس عرفت دولتهم في عهد النقي التقي علي بن يوسف رحمه الله كثيرا من شطط الولاة وسوء تصرفهم إلى درجة الغلو والاستبداد والطغيان.

لقد خلف ابن تاشفين لعلي قوات برية وبحرية، تمكنت من حفظ أطراف المملكة ثم ضيقت على الأسبان بحرا إلى درجة أنهم لم يعرفوا مع وجودها منفذا للأبيض المتوسط إلا ما كان من جهة قطلونية، فإنهم بذلوا جهد طاقتهم في الحصول على منفذ، ومن أجل ذلك استنجدوا بالدول النصرانية من صقليين وإيطاليين ونورمان، وفرنسيين، لكن محاولاتهم باءت بالفشل وأعيدت جزيرة ميورقة التي استولى عليها أهل قطالونيا سنة509هـ/ 1115م، لكن ذلك لم يجعل حدا لمحاولات الأسبان التي استمرت شمال شرق الأندلس، فاشتدت المعارك مع ألفونصو ملك أراغون إلى جانب المعارك التي كان على جيوش المرابطين أن يخوضوها ضد غير الاسبان من قراصنة الأنجليز، والألمان في أشتوريش وجليقية طريق جيوش الحروب الصليبية في الشرق.

وهكذا فإن علي بن يوسف الذي واجه أصعب مرحلة من أوليات ملكه لم يجد قواد ورجالات المرابطين وقد بدأوا يتحضرون ما كان لأبيه فيهم من السلطان، قوة وحزما، لأنهم أخذوا يتعرضون للتحول المفاجئ من جهة، ولأن عليا نفسه لم يكن في مستوى والده قوة ومضاء وحزما، الأمر الذي جعله يشتغل بجوانب لم تشغل والده من قبل.

لقد ولى علي على قرطبة الأمير يحيى بن رواد، فأساء التصرف ولم يدرك أن وصية يوسف لولده علي أن يقبل من أحسن من أهلها ويتجاوز عن المسئ منهم، إنها وصية

حكيم خبر أسرار القوم وما في استطاعتهم أن يحدثوه من الفتن، بحكم مالهم من معرفة وأساليب هي نتيجة الحضارة، وإذا هم تذمروا من يحيى بن رواد، وأعلنوا الثورة على الظلم، فإن عليا انتصر لواليه، الأمير الذي أحدث بينه وبينهم ما لم يحدث لو تذكر الوصية، لكنه تعرض لضغط القواد المشار إليهم قبل، ومن ذلك عزله للإمام محمد بن أحمد ابن رشد "450 – 520هـ" من قضاء قرطبة، لانشغاله بتأليف كتاب البيان والتحصيل وقيل إنه استقال ، ودخل إلى مراكش عام 513هـ فرارا من مضايقة أذناب المعاهدين الذين كان قد أمر عليا بإبعادهم من الأندلس.(راجع ت 271) ثم ولى مكانه أبا القاسم بن حميد مما أحدث في صفوف العلماء ما أدى إلى انشغال علي وقواده بتبرمهم .

بل إن عليابن يوسف وبتوجيه ممن كان حوله من الذين أصبحوا يتطلعون لبناء الحضارة عن طريق العمران أصبح يشتغل بالبناء لا في مراكش وحدها، بل وفي فاس وغيرها، إلا أنه لم يكن ذلك النوع من البناء الذي مصدره الغرور والأنانية وحب الاستعلاء في الحياة، بل بناؤه كان لصالح الشعب والتمكين للدين وحفظ الأمن أكثر، ففي مدينة مراكش أمر بناء السور المحيط بالمدينة والذي أنفق عليه سبعون ألف دينار ذهبا، كما أنه أتمه في مدة ثمانية أشهر(265) كما بنى المسجد الجامع والمدرسة المعروفين بإسمه في مراكش، وكذا القلعة العظيمة والمارستان، وأجرى المياه التي كان والده قد جلبها من جبل درن إلى مراكش في «الخطاطير» وهي آبار متصل بعضها ببعض في باطن الأرض ثم وزعها على المساجد والمدارس والمارستان والحمامات، كما حقق مشاريع هامة في الأندلس كذلك.

وفي فاس أمر بالزيادة في جامع القرويين حيث اشترى ماوراء المئذنة من الرباع وزادها في المسجد، وبنى لها الأبواب الأربعة والمستودعات الثلاث والصحن والمخازن الثلاث يقول الزياني(266)، وإذا ما عرفت مدينة مراكش هذا التحول الحضاري بما جد

---

(265) الحلل 74، وعند الزياني أنفق على جملة المباني خمسمائة ألف دينار، ويقول صاحب الحلل إن الذي أشار عليه ببناء السور، هو القاضي أبو الوليد ابن رشد، فبدأه في شهر جمادى الأولى 520هـ/ 1126م، وهو الذي اقترح عليه نقل المعاهدين من الأندلس إلى مراكش.

(266) الترجمان 282، والقرطاس 103 – 104 والعبر 182/2.

فيها من الحرف والصناعات التي جلب لها علي العشرات من رجالاتها من مختلف الجهات، وإذا ما عرفت الإمبراطورية اتساعا استنفد كبار القوم من لمتونة وكدالة كولاة وقواد وجيش ومحصلي جبايات، فإن أكثرهم كانوا يعودون إلى مدينة مراكش التي استأثرت بحبهم الأول وتعلقهم المستمر، وفيها أخذوا يتطلعون لحياة البذخ والدعة بدلا من حمل السيف والرباط في سبيل الجهاد، ناهيك وأن عليا أخيرا إرتكن إلى الفقهاء والقضاة الذين أصبحوا كل شيء في حياة الدولة بيدهم القرار وأوامر سلطانها، لكنهم لم يكونوا في المستوى المطلوب، بل انتهوا إلى تزمت وعدم معرفة لروح وسماحة الإسلام، فأصبحوا بما لديهم من سلطة لم تشمل قواد الجيش والأمراء، ومن حولهم يقربون سوء المصير بتعميم الاضطهاد الذي انتشر وانتقلت آثاره شرقا وغربا، لم يقتصر على الذين خالفوهم مذهبيا فحسب، بل ولا على الذين عرفوا بنشاطهم السياسي من أجل فضح الأمراء والتعريض بتصرفاتهم الطائشة، بل كان يوجه كذلك إلى أحسن وأكرم العناصر التي عرفت بتفوقها الفكري، كل ذلك وعلي بن يوسف أمير المسلمين لا رأي له وهو صاحب السلطة العليا شرعا بحكم البيعة، مما يستدل منه على مدى الضغط الذي كان يتعرض له علي من الجانبين، جانب قواد الجيش والأمراء الذين انطلقوا نحو الإقتباس مما عرفوا ورأوا من حياة الأندلس وحضارتها التي زحفت مع الأدباء والشعراء وأصحاب الحرف والصنائع والجنود والمعاهدين وغيرهم، والتي عمت المسكن والملبس والمطعم وشتى مظاهر الحياة، ثم جانب الفقهاء الذين لم يتفتحوا على غير ما عرفوا من تزمت ووقوف عند حد الدائرة التي تعودوا عليها، لكن ماذا يفعل علي بن يوسف والسلوك الديني الذي عرف به لا يسمح له بغير النزول عند رغبة هؤلاء وأولئك؟ ماذا يفعل والكل من قواد، ووزراء، وفقهاء وقضاة وأشياخ، أغلبهم إن لم يكونوا كلهم عاشوا إلى جانب والده وكانوا معه من المؤسسين لهذه الدولة التي أخذ الضعف يتسرب إليها في كثير من مظاهر حياتها، والسبب المباشر لذلك فقهاء لمتونة؟.

إن ما حصل من تدهور لسلطان المرابطين وزوالهم في أقل من نصف قرن على موت يوسف، وبتلك السرعة التي لم تكن منتظرة، كان السبب المباشر والعامل الأكثر أثرا فيه، هم أولئك الفقهاء الذين زينوا للأقوياء وحرموا الضعفاء، كبتوا كل تفكير بل حرموه،

وتعرض كل مفكر للإضطهاد والنكال، أما كبار القوم ورجالات الدولة، فقد أطلقوا العنان لشهواتهم التي وجدت فيما جد من الإمكانات ما جعلها تنطلق بقوة جارفة وجموح أعنف. فعمت النساء والرجال، ولم تقف عند حد كبار القوم وماحولهم، وكأنما هو رد الفعل في الخفاء حتى إذا عم خرج إلى الشارع الذي انجذب إلى رذيلة الفتح بن خاقان الأندلسي(267).الذي عرف بانحلاله وفساد خلقه، لكن المسكين كغريب سرعان ما تعرض للفضيحة، فقيل إن عليا أمر بخنقه ليلا بأحد الفنادق بمدينة مراكش، وهو فندق "لبيب"(268)، على أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه أشعل النار في مثله.

لكن مالذي أوقع فقهاء لمتونة سادة الساحة وأصحاب النفوذ على علي بن يوسف في هذا الإتجاه الذي أدى إلى ضعف الجانب الفكري فيهم، وفيمن حولهم من رجالات لمتونة وكدالة أصحاب السلطان والحول؟ لقد كان السبب في ذلك أولا هو الفارق الذي عرف بين اللمتونيين وغيرهم اجتماعيا وسياسيا، والذي انتهى إلى عدم الثقة حتى في الفقهاء من ذوي الأصالة الذين عرفتهم الأندلس في كل من قرطبة واشبيلية وقتها، أولئك الذين وقف كبارهم إلى جانب الشعب في قرطبة أيام صدامه مع الفاتحين زمن يوسف وإلى جانب الثوار زمن علي وعامله يحيى بن دوار، وأما الذين هم في المغرب وكان أكثرهم في مدينة فاس فإنهم كذلك قد عرفوا بالتمرد والوقوف إلى جانب المعارضين للفتح زمن يوسف، وإلى جانب الثائر ضد علي وهو ابن أخيه، وبالإضاة إلى فقد الثقة في آراء الفقهاء المتفتحين، كانت الدراسات لا تخرج عن الفروع في أوساطهم، وقد رأينا ثورتهم وثورة الذين سايروهم ضد إنتاج أبي حامد الغزالي(269) مما عارض به ذلك

---

(267) راجع ت 268.

(268) هو الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان ابن عبد الله القيسي كنيته أبو نصر صاحب قلائد العقبان ولد باشبيلية 480هـ /1087م، وكان كثير الاسفار مكشوف الخلاعة، إنتهى به المطاف إلى مدينة مراكش التي يقال إن عليا بن يوسف أمر بقتله، فوجد ذبيحا بأحد فنادقها سنة 528 هـ/ 134 1م، ونحن لا نوافق على نسبة ذلك لعلي رغم كل التعليلات، وإنما نرده إلى الجو الذي أوجده فقهاء لمتونة، وما كان عليه بعضهم من تزمت وكبت كان عليه أن يقف عند هذا الحد، ولا يكشف الفتح الذي نتمنى له الستر، وقد مضى راجع وفيات الأعيان 407/1 والمغرب في حلى المغرب 254/1، ونفح الطيب 618/4.

(269) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي 450–505هـ/ 1058 ح 1111م، ثم راجع الاعلام للزركلي 247/7.

الإتجاه في كتاب العلم من كتابه إحياء علوم الدين الذي أثار غضب كثير من فقهاء المغرب وقتها وبعض المشارقة أمثال الطرطوشي(270) 451 – 520هـ والقاضي عياض 476–544هـ /1083–1149م، وقد انتهت معارضة فقهاء المرابطين للغزالي وأفكاره إلى الحكم قضائيا بإحراق كتاب الاحياء، حين أصدر الحكم قاضي قرطبة أبو القاسم بن حميد الذي سيقود الثورة ضد المرابطين بعد في عام 539 هـ/ 1144م، وكأن ما فعله كان كيدا ودسا للمرابطين حتى يتذمر الناس منهم حين أحرق الكتاب على مرأى ومسمع من جماهيرهم، كما صدر حكم يدين بالقتل كل من يقرأ كتاب الإحياء، وبهذا أصبح الأدباء والفقهاء والعلماء المتفتحون يعيشون في ضيق وحرمان تحت القهر، وعليهم أن يعملوا سرا ضد النظام الذي انتهى إلى هذا المصير، ولقد تفرق هؤلاء الفقهاء والأدباء على مختلف الجهات، وكانوا يتصلون بالناس، ومنهم من يفصح عن أفكاره هنا، ويختفي هناك، وقد رأينا عليا ابن يوسف نفسه يستعمل الأدباء ذوي المكانة والموتورين في الوظائف الى جانبه، وقد انتهى إلى ذلك أمثال ابن عبدون الذي أصبح كاتب سره بعدما كتب لسير ابن أبي بكر الذي جلد وقتل سيد ابن عبدون وصاحب الفضل عليه الذي فتق مواهبه، وهو عمر المتوكل الذي رثاه ابن عبدون بقصيدته التي رفعته في عالم الأدب العربي ، وهي القصيدة المعروفة بـ« الوسامة »، ويكفي هذا كمثال من أمثلة الذين انضووا تحت حكم سلطان اللمتونيين، ثم اكتشفوا أنهم انقلبوا عن الأهداف التي كانت مرسومة قبل.

وإذا علمنا كذلك أن المعاهدين الذين رحلهم علي من الأندلس الى مراكش، ورتبهم في جنده بعدما اكتشف تآمرهم على دولته، وأنهم في الموطن الجديد لم يرتاحوا إلى مستقبلهم، برروا هم كذلك ما سبق لهم القيام به في الأندلس، كما قام اليهود هم الآخرون بدور الانتقام من المسلمين والأسبان معا في الأندلس، خصوصا يهود اليسانة المتمولين جدا، والذين اتخذوا اللغة العربية كثقافة للتقرب من المسؤولين ورجالات الدولة، وإذا ما بدأت الثورات في أماكن مختلفة من الأندلس تظهر ضد حكام المرابطين، فإن

(270) راجع الإعلام للزركلي 259/7.

الذين كانوا ينشرون أسبابها ودوافعها هم اليهود أيضا، فهم الذين استعملوا أساليب الدس والمكر، الأمر الذي دفع الإمام محمد بن رشد أن يصدر فتواه بطرد اليهود والنصارى من جزيرة الأندلس فأدخلوا مدينتي سلا ومكناسة(271) وغيرها من مدن المغرب في الوقت كان فيه الأسبان المهاجمون يتجولون بين القرى وبعض مدن الأندلس كغزاة بقيادة ابن ردمير كما سنرى ، الأمر الذي أدى إلى عزل تميم من الأندلس، وأن يخرج عنها اليهود والنصارى، بل إن النصارى وكما سنرى بعدما أدخلهم علي في الجيش سيقومون بدور تعجيل نهاية المرابطين زمن تاشفين بن علي، في كل من تلمسان ووهران، وفي المعركة الفاصلة التي عرفت باسم « يوم منداس » في شهر رمضان من سنة 539هـ/ 1144م ، وكذلك بعد في معركتي كل من مدينتي فاس ومراكش وغيرهما من المعارك التي كان للنصارى المعاهدين فيها وجود كما سنرى.

(271) تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان 88/2، والحلل 75، ولم يصدر ابن رشد فتواه إلا بعد حروب سنة وثلاثة أشهر، عمت جميع بوادي الأندلس التي جابها ابن ردمير، راجع الحلل 75-79 الأمر الذي دفع القاضي المذكور إلى الاستقالة والهجرة من الأندلس والالتحاق بمراكش سنة 513هـ وهو الذي أخبر علي بن يوسف بما قام به النصارى المعاهدون من تآمر على الدولة باسناد ابن ردمير وتقويمه على المسلمين وإمداده بالسلاح، راجع الحلل 108، ومقدمة كتاب ابن رشد وفلسفته لفرح أنطوان ص و/ ط الإسكندرية 1903.

الفصل الثاني و الستون

تراجع المرابطين وظهور «ابن تومرت»
من آل عبد الله ابن ادريس

إنه محمد بن عبد الله (بوتامارت)، أي الالحي : طويل اللحية وعظيمها والملقب بالمهدي: الرجل القوي بمعارفه وعقيدته: محمد بن عبد الله الحسني هذا من آل عبد الله بن إدريس حاكم أغمات في عهد الدولة الإدريسية، كما تأكد لنا، وهو صاحب الطموح الذي لم يرهب السلطان ، ولم توقفه قوة عن قول الحق حتى انتهى به المطاف إلى التفكير في بعث الخلافة من المغرب رغم مخالفة ذلك لأحد مقومات الخلافة، وهو حكم الحرمين، فما كان من محمد بن عبد الله الملقب بالمهدي، وقد عاش ما آلت إليه الأوضاع في عهد الدولة المرابطية، وبعد موت عاهلها العظيم يوسف بن تاشفين.

في تلك الظروف وبسبب العوامل المشار إليها انحدرت دولة المرابطين المترامية الأطراف إلى الضعف في جهات مختلفة، خصوصا عندما ظهر محمد بن عبد الله الملقب بالمهدي، بدعوته الإصلاحية، وربما في السنة التي قامت فيها الثورة في قرطبة، وهي سنة 515هـ/ 1121م، ومن هذه السنة والثورات تظهر هنا وهناك، نقمة على تصرفات الأمراء والحكام اللمتونيين وإذا علمنا أن أبا طاهر تميم بن يوسف خليفة علي اتخذ مدينة غرناطة اليهود مقرا لسكناه، أدركنا ما كان يتعرض له تميم من إغراءات اليهود والمعاهدين الذين كانوا يتربصون به وبدولة قومه، وفعلا كان مادبروا وحصل فعلا ما بيتوه بليل، حيث تم لابن ردمير بواسطتهم وضع الخطة لترويع الأندلس التي خرج لمحاربة أهلها سنة 519هـ/ 125م وحسب الذي انتهى إليه من المعاهدين بغرناطة نفسها، فإن دخولها واحتلالها سوف لا يكلفانه أكثر من الإقدام، وفعلا أحاط بها بعد قتاله لأهل بلنسية التي كان عليها أبو محمد يدر بن ورقا ، على جماعة من مقاتلة المرابطين ، فمر

على جزيرة شقر، ثم مر على فج شاطبة إلى مرسية، ثم المنصورة، وبرشانة، ثم عرج على وادي تاجلة، حيث أقام ثمانية أيام، انتقل منه إلى مدينة بسطة، ومنها إلى وادي آش الذي حل به يوم الجمعة أول ذي القعدة، لكنه في كل مراحله تعرض للفشل، وانتقل بعده الى غيانة، هنا وافته كتب المعاهدين من نصارى غرناطة الذين انكشفوا فأخذوا يتسللون هربا إلى قوات ابن ردمير التي حطت بقرية دجمة في اعداد كبيرة، الأمر الذي أدى بأهل غرناطة إلى القيام بصلاة الخوف يوم عيد النحر، خصوصا وأن قوات ابن ردمير بلغت خمسون ألفا تحيط بغرناطة، لكنه ارتحل عنها إلى قرية النيل حيث قعدت به الأمطار التي تهاطلت لمدة عشرة أيام، وكان الذي يمده بالمؤن هم المعاهدون من النصارى، بعدها أخذ طريقه حيث رحل مارا على قرية مرسانة، وبيونش، ويحصب، واستجة، إلى أن نزل بجيشه على مقربة من اليسانة، وبارنيسول، فوقعت مجابهة بينه وبين قوات الدولة المرابطية، كان النصر فيها أول النهار للمسلمين، وإذا كانت قوات بن ردمير المتفرقة قد تجمعت ونظمت هجومها، فإنها بذلك استطاعت الانتصار على المسلمين، فاستولت على محلتهم، ثم تقدمت إلى وادي مرتيل المطل على الحافات، ومنه إلى المرج حيث نزل بعين بسطة، ثم اللقون، مارا على مرسية إلى جوف شاطبة، وكلما مر على قرية من القرى إلا وخرب ما حولها دون أن يتمكن من المحصنة بالأسوار منها ، ودام عمله التخريبي هذا مدة سنة وثلاثة أشهر(272) استولى أثناءها على شرق الأندلس، وملك قلعة أيوب وكل هذا كان يتردد صداه في العاصمة مراكش.

كان ما حصل من ابن ردمير هذا وتصرفات المعاهدين، دافعا لما حول علي بن يوسف من رجالات الدولة أن يلحوا عليه في أخذ البلاد من بني هود المسالمين للنصارى، فوجه إليه الأمير ابن تيفلويت(273) بجيوشه ، كان عاملا على مرسية، بل جاز على نفسه لردع ابن ردمير، وهو الجواز الثاني بعد الأول الذي كان فيه على رأس مائة ألف سنة 503هـ/ 1109م (274)وهذا كان بعد جولة ابن ردمير التي بدأت سنة 510هـ/1116م حيث

(272) الحلل 79، وفي القرطاس حوادث 412 – 413.

(273) هو ممدوح بن خفاجة، ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم، القرطاس 84/2.

(274) القرطاس 85/2.

دخل علي بلاد الأندلس سنة 513هـ/ 1119م في جيوشه النظامية، تعززهم قوات من العرب، وزناتة، والمصامدة، وسائر قبائل البربر، وإذا كان في الأولى قد استولى على سبع وعشرين حصنا، فإنه في هذه المرة بعدما مر بقرطبة وأسند قضاءها إلى أبي القاسم بن حميد بعد قبوله استقالة ابن رشد صاحب البيان والتحصيل، لم يزد على القيام بجولة تخريبية ضد الأسبان بلغت نهايتها أرض شنتمرية التي افتتحها، ثم اتجه نحو الغرب يخرب القرى، ويقتلع الأشجار، ويسحق ما يعترضه، ثم بعد التصفية رجع إلى المغرب وكانت تلك آخر رحلته الى الأندلس وهي الرابعة(275) ولما رجع علي فإن القائد ابن تيفلويت أمره علي بن يوسف أن يتوجه إلى غزو بني هود والاستيلاء على بلادهم، وكان ذلك منه تحت ضغط رجال دولته الذين اتفق رأيهم علي وجوب زوال بني هود المسالمين للروم، فما كاد ابن تيفلويت يقترب حتى قام عبد الملك الملقب بعماد الدولة (503-513هـ/ 1109-1119) بتحصين بلادهم ثم راسل عليا يذكره العلاقة الطيبة التي كانت بينهم زمن أحمد بن يوسف المستعين بن هود 478-503هـ /1085- 1109م، وإذا كانت الرسالة التي بعث بها عبد الملك فيها من الرقة والمجاملة والتبصر ما ألان قلب علي وذكره وصية أبيه، فإنه أمر أبا بكر بن تيفلويت بالانسحاب بعدما كان المرابطون من الناقمين على بني هود بسرقسطة قد مهدوا لجيش المرابطين فاحتلها ابن تيفلويت.

تلك هي الظروف السياسية التي سادت دولة المرابطين وأدت بها إلى الاهتزاز وقت ظهور محمد المهدي بن تومرت. لكن من هو المهدي هذا؟ وما نسبه؟ وكيف تم له الأمر ودولة المرابطين لا تزال قائمة؟.

هو محمد بن عبد الله ابن تومرت ومعناها «بوتامارت» أي الرجل الألحى طويل اللحية أو عظيمها » الملقب بالمهدي، ولد بهرغة عام 471هـ يقول صاحب الفارسية أحمد بن الخطيب القسنطيني ص 99، ط تونس 1968، وذلك بقرية «إيجلي أن وارغى» من بلاد السوس،وفي روايات أخرى عن تاريخ مولده أنه ولد ما بين 470-480هـ/1077-1087م(276)

(275) الحلل 70.

(276) باسيه، دائرة المعارف الإسلامية 106-109، وفيات الأعيان لابن خلكان 40/2 - 138/4، عند ابن الأثير عاش 51 سنة، أو 55 سنة عند ابن الخطيب في الحلل 57، والمعرب المبين 169، والحلل الموشية 82، و النبوغ المغربي ص 75 - 95/ ط بيروت 1961، وابن أبي زرع ص 172 - 183/ ط 1973.

ومنهم من حدد السنة بتاريخ 486هـ/ 1093(277) و الذي يرجح هو أن ابن تومرت من مواليد السبعين أو ماقبل السبعين بقليل، لأن هجرته إلى المشرق محقق أنها كانت حوالي سنة 500هـ/ 1106م، ولا يمكن لمن هو دون الخامسة والعشرين أن يركب المخاطر، ويهاجر من المغرب إلى المشرق، خصوصا في العهد الذي نؤرخ له، على أن الاستاذ عبد الله كنون فيما كتب حول « مدخل إلى تاريخ المغرب » ص 48 استطاع أن يرحل بابن تومرت من المغرب إلى المشرق وهو ابن أربعة عشر عاما، وهو أمر بعيد كل البعد أن يرحل صاحب هذا السن حتى من مراكش إلى فاس وحيدا وقتها، لكن من يقول بهذا يكون قدوقع فيما ذهب إليه ابن خلكان. وأما نسبه فقد نسبه بعضهم إلى مصمودة، ومعناه أنه بربري الأصل وآخرون نسبوه إلى سلالة الحسين بن علي، ولم يعرف هذا النسب في أوساط المصامدة أهل هرغة في ذلك الزمن المبكر، ولعل الذي قال بذلك وقع في خلط بين هرغة وترغة التي بأرض غمارة، والتي يوجد بها بنو حمزة والحكونيين أبناء عمومة الصقليين أهل سبتة الحسينيين(278) وقد نسبه البيذق تارة إلى قيسى، وأخرى لعبيد الله بن إدريس، وماعرف لإدريس ولداسمه عبيد الله بالتصغير، بل عبد الله بدون ياء التصغير، وهو الذي ولاه صنوه محمد منطقة أغمات هيلانة. لكن عدد الاباء الستة الذين فصلوا بين محمد بن محمد بن تومرت، وعبد الله بن إدريس لا يتفق مع عدد السنين الفاصلة بين محمد وعبد الله بن إدريس وهي ثلاثمائة(279) سنة وزيادة، وقد عد ابن خلدون ثلاثة أجيال لكل مائة سنة ، وعد ابن أبي زرع أربعة عشر من الآباء فصلوا بين المهدي والحسن بن علي عليهما السلام.

---

(277) راجع أزهار الرياض للمقري 32 – 33، والمعرب المبين ص 16، وفيه « نسبه للحسين » بيد أنه حسني كما ورد في القرطاس2/102، تعليق 3 ولم ينسبه المراكشي الذي رده لقبيلة هرغة ص 178، ط مصر 1969 ، وهو ما عند الزياني في الترجمان المعرب 287، بل إن الزياني يؤكد على بربريته، وعدم نسبته حتى لمضر كما جاء عند غيره، ويعلل ذلك بتأييد المصامدة ،له وأنه لو لم يكن منهم لما أيدوه، راجع حول السابقين الأولين لتأييد ابن تومرت أزهار البساتين 109–110ط 1949 ، والمعجب 337، وعند البيدق 32–33 نسبه القيسي.

(278) راجع اخبار المهدي للبيدق ط الرباط مصدر سابق. على أن ابن خلكان يقول ذ/ إبراهيم حركات «المغرب عبر التاريخ» 260– رفع نسبه إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب و هذا صحيح في نظرنا

(279) بل هو عند ابن خلدون كما زعم بعضهم من سلالة سليمان بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وهو ما أورده المعلق على القرطاس جـ2/103/ ط1936 . والأقرب إلى الصواب رغم ما وقع فيه من خلط هو ما نقله ابن خلكان، فهو عنده أيضا محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ونحن لا نعرف من أبناء الحسن الذين دخلوا المغرب غير الأدارسة وأبناء محمد بن سليمان أخو إدريس، أو القادريين أو العلويين من أبناء محمد النفس الزكية في القرن السابع هـ، وقد ذكر ابن أبي زرع مع الشك اسم محمد قبل الحسن في نسب ابن تومرت إلا أنه نسب لمحمد هذا اسم العباس، والتاريخ لم يسجل اسم العباس لا في سلالة الحسن ولا الحسين(280). ونسبه ابن خلدون حسب زعم بعضهم إلى ولد محمد بن سليمان، بن عبد الله الكامل أخو إدريس، وعدد الاباء الذين أوردهم في الفصل بين محمد بن عبد الله، بن عبد الرحمن، الى آخر العمود نحو الثلاثة عشر، وهو يكفي للربط حسب الزمان الفاصل(281) لكننا لم نعرف من ذرية سليمان بن عبد الله الكامل من شاع خبر وجودهم بين المصامدة، وان كان ابن خلدون أكد وجودهم بينهم، وكل الذي عرف بينهم هم سلالة عبد الله بن إدريس الثاني ، كما ورد عند البيدق الذي عرف بإمكاناته الضعيفة إلى جانب وجوده مع المهدي، حيث رافقه من موطنه تونس بعد ما قابله بالمهدية، فاستهواه وأصبح خادمه المقرب، ومساعده في حمل ماكان معه، وذكر البيدق في نسب المهدي كما أشرنا اسم عبيد الله الذي نسبه لإدريس ولعل الياء بعد الباء زيادة من الناسخ ، وإدريس عرف من أبنائه عبد الله صاحب أغمات، وذرويته انتشرت بكثرة سواء بين المصامدة أوغيرهم من أهل سوس، إلا أن الذي يلاحظ على السلسلة التي أوردها البيدق هو البتر ولربما الخلط بين ماورد عند ابن خلكان وابن خلدون وما أورده البيدق. ففي ذرية عبد الله بن إدريس نجد أسماء عبد الرحمن، وخالد، وصفوان، ونجد مما ورد عند البيدق كذلك، ويوجد في سلالة عبد الله بن إدريس عيسى وعبد الله الذي قال عنه عبيد الله. على أن بعضهم يلح على بربريته ولا حجة له إلا أنه عنده وفي زعمه ينسب لا مرأة هي "تومرت؟" وحتى لو كان هذا الزعم صحيحا، فالثابت في اعراف

(280) القرطاس 100-103، والحلل الموشية 84، وقد وقع غير واحد من المؤرخين في الخلط بسبب تضارب الأقوال في نسب هذا الرجل العظيم، حتى قال المراكشي في المعجب إن الذي وجد بخطه ص 115 ط مصر 1324، كما سار على هذا النهج ابن الخطيب في الحلل ص 56.

(281) العبر 465/6ط بيروت 1959 ، وقد نص ابن خلدون نقلا عن ابن رشيق، وابن القطان وهو ما أورده البيدق، راجع وقارن مع أخبار المهدي ص 21، وعكس هذا وذالك ما قاله ابن خلدون في المقدمة ص 26-27 ط القاهرة بدون تاريخ، وفي ج298/1 أصله من هرغة إلخ.

بعضهم في المغرب أن الأسرة التي يولد لها الكثير من الأبناء ولا يكتب لهم العيش، يطلقون على آخرهم اسم أمه، وأحيانا تكون المرأة نفسها من اللائي لهن شغوف، فينتسب إليها من يريد المحافظة على ما حققت من مكسب إجتماعي أو غيره، ومن ذلك نجد هذا الإطلاق شائع بين البربر والعرب في المغرب على السواء، فإبن ريسون، وابن حليمة وهما أعرق الادارسة، وابن عائشة وابن تعيشت، وهو الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ولاه صنوه على مرسية بالأندلس، وابن بقية وابن بدة، وولد الزهرا، وابن رقية، وابن الياسمين، إلخ.

وإذاكانت الأنساب بالحيازة كما يقولون، فإن ابن تومرت ما تعودنا منه الكذب حتى يلجأ إليه في نسب، في الوقت الذي نراه يقدم للسلطة والتسيير آخر هو عبد المومن بن علي الگومي الذي كان أباه فخارا كما سنرى، وأما الذين نسبوا المهدي للبربر، خصوصا مصمودة وأنه لو لم يكن منهم لما انتصروا إليه مثل الزياني المشار إليه، فهذا مردود بما عرفناه عبر تاريخ المغرب من تقدير المغاربة للأدارسة في كل جهة من جهات المغرب، حتى أنهم أصبحوا منار الهداية في كل مكان، وزعماء لكثير من الثورات عبر التاريخ، بل ومن أسماء إخوة محمد بن عبد الله بن تومرت الذين هم عيسى، وعبد العزيز، وأحمد، ثم الأخت زينب يظهر لنا أنها أسماء عربية، وحتى الأمغارية التي أضيفت لوالده إن لم تكن من باب تكريم القوم له كما رأينا في كثير من مناطق البربر الذين يوجد بينهم الأشراف فتسند إليهم مهمة الريادة احتراما، وإن لم تكن كذلك تكون مختلقة بعد تكريما لأصل محمد بن عبد الله. كما اختلق منصب القضاء بعد لوالد عبد المومن بن علي الذي ثبت أنه كان فخارا وتاجرا وهو شرف له عظيم. على أن بعض ما يظهر لنا من بعض الاختلاف في تاريخ ابن تومرت نرده في نظرنا إلى عاطفة رفيقه أبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق، وليس فيما يرجع إلى إبن تومرت فحسب، بل حتى ترجمة عبد المومن فهو عنده بن علي بن علوي بن يعلو، وأمه كذلك إسمها "تعلو" وأخته "فندة"، على أن الأم تعلو هي ابنة عطية ابن الخير، وعطية وابن الخير من الأسماء العربية وهي أسماء معروفة عند الهلاليين وبني معقل في المغرب الخ، هذا إلى جانب ما صور لنا به ابن تومرت وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، سواء في المركب الذي نفر أهله، والذي كاد يدركه الغرق

لولا دعوات صاحبه؟، بل وفي بجاية التي خرج يوم عيدها وهو الغريب ليفرق بين الرجال والنساء في احتفالاتهم بالعصا، وهو عمل يجر كبير الإتهام لإبن تومرت بالخبل... إلخ، ولا يقدم عليه بشهامة إلا صاحب نخوة وشرف أصيل.

ومهما يكن فإن الذي يدرك مما احدثته ترجمة محمد بن عبد الله بن تومرت في ساحة المؤرخين، أنه من آل البيت وأن الذي جر عليه الإنكار هو ظروف الدول البربرية التي توالت على حكم المغرب إلى جانب ما عرف لآل عبد المومن من مركب في هذا المجال، ومثال ذلك ما حصل لبعض العلماء قبل ابن رشد، حول كلمة ملك البرين التي حولت نكاية من الخصوم إلى كلمة البربر أو العكس فأحدثت ما أحدثت مما سنرى،ولخير للقوم أن ينسب المهدي إلى البربر ويرثه بنو عبد المؤمن "البرابر" الذين حاولوا المضرية من أن ينسب لآل البيت فيؤدي ذلك إلى تطلع ومزاحمة من آل البيت العلويين من الأدارسة المتظلمين، بل المغتصب ملكهم والموزعين عبر أقطار المغرب، وأن الذي نرجحه هو رجوع محمد بن عبد الله ابن تومرت إلى عبد الله بن إدريس، وليس لغيره وقد سبق لنا التفصيل في طموحات الأدارسة وما كان لهم في مجال السياسة، ولقد شاركنا في هذا الرأي بعض رجالات المشرق فيما كتبوا حول تاريخ المغرب رغم أنهم لم يخوضوا في مجال الأنساب(282).

---

(282) عبد الحميد العبادي في كتاب المجمل في تاريخ الأندلس 182 ط 1958م، مطبعة السعادة. والدولة الموحدية بالمغرب د. عبد الله علي علام 46-47 ط دار المعارف مصر 1971، وذلك في ملاحظته على ابن خلدون، وقال عنه ابن القاضي في الأعلام يقول الزركلي 104/7 : «وكان يدعي أنه حسنى علوي ». راجع ما سبق.

الفصل الثالث والستون

إبن تومرت ودراسته بين المغرب والمشرق

قيل إن ابن تومرت رحل إلى المشرق عن طريق قرطبة حيث عاش إحراق كتاب الإحياء للغزالي، وذلك في السنة التي توفى فيها يوسف بن تاشفين، وهي سنة500هـ/1106م، وبعضهم قال بعدها بسنة، وإذا كان عند ابن الأثير وغيره أنه عاش واحدا وخمسين، أو خمسا وخمسين سنة(283) فمعنى هذا يكون قد رحل وسنه قد جاوز الثلاثين، وهذا قريب من المعقول في حق من يرحل من المغرب إلى المشرق، وإذا علمنا أنه كان من رواد المساجد بل يوقد مصابيحها حتى أطلقوا عليه من أجل ذلك اسم "أسافو"، ومعناه المضيء، وهذه الصفة لا تكون إلا لمن امتلأ قلبه بحب المساجد، ثم هو يعمرها ليلا ونهارا للدراسة والعبادة،، وبالتالي يعاشر من يعمرها من حفظة القرآن ورجال العلم الذين لم يكونوا متوفرين بكثرة في هذا العهد على دراسات إسلامية غير القرآن الكريم وبعض الفقهاء، خصوصا في قرية مثل قرية إيجلي آن وارغن..

لقد عرفنا التاريخ أن المعارف الإسلامية في أخريات عهد يوسف بن تاشفين منقذ الأندلس، قد ازدهرت وفي الحدود التي لم يكن لأحد أن يتعداها في مدينة مراكش العاصمة، التي فصدها بعض العلماء أو الذين انجلبوا إليها لسبب من الأسباب الأمنية أو المعاشية، وإذا تعرفنا على عقلية المرابطين وما سمح به الأشياخ وفقهاء لمتونة الذين عرف عهدهم المحظور والمباح من علوم الإسلام، أدركنا ما يكون ابن تومرت قد حصله من المعارف قبل أن يرحل إلى المشرق، فالأصول، وعلم المنطق، والكلام، وكل ما يمت إلى استعمال العقل في تحليل النصوص والتأويل والاستنتاج منها، كان محرما بقوةسلطان

(283) توفي سنة 524 هـ/ 1129م.

الفقهاء من المرابطين، وقد رأينا ما حصل من القاضي أبي القاسم بن حميد ابن ثوابة الجدامي إزاء كتاب إحياء علوم الدين للغزالي المتوفي بطوس عام 505هـ/ 1111م، وهو الكتاب الذي أحرق أمام الجمهور، وهدد كل من يعلم أنه يتوفر عليه وعلى غيره(284) مما يتصل بعلوم الكلام، على أن هذا الحرق لم يكن قبل تولية يحيى بن رواد ولاية قرطبة من طرف علي بن يوسف في نظرنا، وقد أشرنا إلى أنه كان من أبي القاسم مكيدة مدبرة ضد الوضع.

ومهما يكن، فإن ابن تومرت رحل إلى المشرق وقد اغترف من المعارف التي كانت رائجة وقتها، والتي لم تخرج عن مجال حفظ القرآن الكريم، وبعض الفقه، والحديث، وقليل من النحو، والأدب إن أمكن(285)، وكل ما عرف به ابن تومرت من تضلع في الأصول، وعلم الحديث وغيرهما، إنما تلقاه من المشرق الذي عاش بين عواصمه نحو العشر سنوات، وإن كان بعضهم يقول إنه درس بالأندلس كليات ابن حزم(286)، لكن صاحب هذا الرأي لم يوضح كيف تم ذلك بعدما رحل من المغرب إلى الأندلس، وهو ما لم نجده عند الذين اهتموا أكثر بترجمة ابن تومرت، من البيذق إلى المراكشي وغيرهما مرورا بالمشارقة، وكل الذي قيل ورده الكثير من أنه رحل إلى الشام ومنه إلى بغداد وإن

---

(284) لقد كان هذا في عهد علي بن يوسف، ولربما حين ولي يحيى بن رواد على قرطبة، وولاية يحيى لم تكن دون نهاية الخمسة الأولى من القرن السادس للهجرة، ويقول الذين أكدوا لقاء ابن تومرت بالغزالي أنه أخبره بذلك، فهل يكون عاش الاحراق وحضره؟ ومعنى ذلك أنه لم يرحل إلا في نصف العقد الأول، أم هل يكون قد تلقى الخبر من أحد التجار الذين كانوا يرحلون من الأندلس إلى بغداد وغيرها؟ ومهما يكن، فكتاب الأحياء من أهم الكتب التي أنتجها الفكر الإسلامي، وهو مقسم إلى أربعة أقسام :

- الكتاب الأول في العبادات.
- الكتاب الثاني في العادات.
- الكتاب الثالث في المهلكات.
- الكتاب الرابع في المنجيات..

راجع معجم المطبوعات 1408 - 1416 ط مصر/1928.

(285) قارن بعضهم ما كانت تتوفر عليه مدينة سبتة وفاس ومراكش بما كان في البوادي بالمغرب وقتها، وهو غير صحيح ولا مقبول بالنسبة للزمان والمكان، راجع د. عبد الله علي علام ص50.

(286) دائرة المعارف الإسلامية 1/106 ولا حاجة بنا إلى ما أورده ابن خلكان حول ما وجد المهدي في الجفر، ولا رؤية عبد المومن هو الآخر، راجع المصدر السابق والمعجب 180 ت وص 182 ط مصر 1949م.

كان بعضهم ذكر مكة وما حصل له فيها، وهو قريب إلى العقل، لأن تعلق المسلم المغربي بأرض الحجاز وأداء فريضة الحج قوي سواء عند الجميع فبالأحرى إبن تومرت، إلا أننا لم نتأكد من حجه بما يكفي من البيان.

رحل ابن تومرت إلى المشرق عن طريق الأندلس ومنها إلى الشام، وإن كان بعضهم يقول إلى الأسكندرية،(287) ومن الشام إلى بغداد حيث درس على مجموعة من العلماء مثل أبي بكر الشاشي الذي درس عليه أصول الفقه، وكذا أبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد بن محمد 451 – 520هـ /1059–1126م، كما درس الحديث على مبارك بن عبد الجبار، وأخيرا يسجل الإتصال بأبي حامد الغزالي الذي وإن لم يكن اتصل به، أو اتصل به أيام اعتزاله بالشام أو أنه صحيح ما قاله القادري فإنه بلا شك تشبع بأفكاره، وما كان له ولمدرسته من صولة في هذه المرحلة من التاريخ عرف ابن تومرت من الكتب(288) ما يدل على ما حققه من آماله في الدراسة بالمشرق من الشام إلى بغداد، والقاهرة، والأسكندرية، حيث تعرف ودرس كذلك على أبي عبد الله الحضري بالشام، والطرطوشي بالأسكندرية، وهو عائد في طريقه إلى المغرب عن طريق طرابلس، والمهدية، والمنستير، وبجاية، حيث قيل إنه لقي التكريم من يحيى بن تميم في تونس بالمهدية منها، في حين أن يحيى هذا ولد عام 457هـ، وتولى الملك بعد أبيه عام 501هـ، وتوفي عام 509هـ، وإذا صح هذا التكريم يكون ابن تومرت قد عاد قبل عام 509هـ، وعكس ما قيل من التكريم لقيه من الأمير الحمودي العزيز بن الناصر صاحب بجاية، مما أدى به إلى أن يفر إلى قرية "ملالة" ببني ورياكل من قبائل صنهاجة المجاورين لبجاية فقاموا بحمايته،

---

(287) باسيه دائرة المعارف الاسلامية 106/1 وهو يقصر دراسات ابن تومرت على دمشق التي تشيع فيها للغزالي المتوفي سنة 505 هـ/ 1111م وهو رأي قريب من القبول ما لم يكن ابن تومرت قد رحل سنة 500هـ/ وأن الذين قالوا باتصاله بالغزالي بلغوا من الكثرة مما يدفع إلى التصديق، راجع المصادر التي أوردت ذلك قبل وبعد وما ورد أيضا في الموسوعة المغربية 55/1، والقرطاس 104/2، وابن خلكان 37/2، وابن الخطيب في رقم الحلل57، والحلل الموشية 85، والمؤنس107، والمحاضرات لليوسي 107 ومنزع التأني 132/1، والزركشي في تاريخ الدولتين 2، وقد عده من تلا ميذته، شك في ذلك ابن خلدون 298/1، وجزم بعدم اللقاء ابن الأثير في كامله 201/10 ونظم الجمان لابن القطان16.

(288) المصدر السابق الموسوعة المغربية 55/1.

وبينهم لقي ابن تومرت عبد المومن بن علي الگومي في رباط ملالة(289) وكان عبد المومن في طريقه إلى المشرق قصد الدراسة لكنه لما اتصل بابن تومرت وحضر دروسه استطاع هو الآخر أن يقتنع برأي الأستاذ والعودة معه ليحقق له بالمغرب ما لم يجده في المشرق، وأكمل ابن تومرت رحلته إلى المغرب حيث مر على قرية جبل وانشريس بين بجاية وقسنطينة، والتي انضم إليه فيها أبو محمد البشير الونشريسي، ثم عرج على تلمسان وفاس ومنها إلى مراكش بعدما صور لنا البيدق كيف تم قطعه لوادي أبي رقراق سنة514هـ /1120م ، وهذا التاريخ لا يتفق مع ما قيل من تكريم يحيى بن تميم الصنهاجي المتوفي عام 509هـ كما سبق. ثم هو لايكون قد قضى ما بين بجاية والمغرب خمس سنوات.

عاد ابن تومرت إلى مدينة مراكش التي لم يجدها كما تركها وقد تبدلت جل مظاهرها وحياة الناس فيها، خصوصا الأمراء والقواد الذين أصبح الفراغ من الحروب يملأ أوقاتهم، كما تبدل أسلوب عيشهم من براءة البداوة إلى الحضارة وما تبعها من مؤثرات المعاهدين من النصارى الذين تكاثر عددهم بالمدينة، وكذا سلطان المرأة الذي طغى على المجتمع بمفاسده ومظاهره التي لا يتحملها عقل وتكوين ابن تومرت كما رأينا من أمره في طريق العودة واندفاعه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما كانت العواقب.

---

(289) يقول صاحب القرطاس 110 – 119 أنه لقيه بتاجرا "ندرومة اليوم، راجع أخبار المهدي ط الرباط والحلل 56–58، والمؤنس 307، والترجمان 282. وقد ذكر البيدق عدد الذين عادوا معه إلى المغرب وخامسهم عبد المؤمن، راجع ص 51 – 66، والعبر 467/6، وأما ما نسجه خيال أبو بكر علي الصنهاجي الشهير بالبيدق أو نسخ ونسب إليه حول لقاء ابن تومرت مع عبد المؤمن في كتابه عن أخبار المهدي فقد ارتأينا ألا نذهب معه إلى الحد الذي اختاره مما كان مقبولا في عهده حول الأجفار، والرؤى ومعرفة الغيب والأسرار إلى غير ذلك مما أضفاه على المهدي، ولم يقف عنده، بل ذهب إلي رؤية عبد المؤمن مع علي بن يوسف بن تاشفين ثم رؤية النمل أو والد ووالدة عبد المؤمن، وما استطلعه ابن تومرت من الكتاب الذي كان البيدق حامل أثقال ابن تومرت يحمله في الوعاء الأحمر، إلي غير ذلك، راجع أخبار المهدي 56–57، وابن خلكان، والعبر 467/6، ولعل البيدق تبع في ذلك ما قاله ابن كثير عن "الخليفة" الذي خرجت النار من أمه فأحرقت المشرق والمغرب والجوف والقبلة، فقيل إنه مولود يكون من أمره شأن، بل ومثل هذا قيل في حق رائد بني مرين، والذي خرج منه نور الخ، ومهما يكن فإن من الآثار الدالة على شخص ابن تومرت ماكتبه هو بنفسه مثل : "اعز ما يطلب "تحقيق" جولد زهير" 1903، وسبع وثلاثون رسالة موحدية تحقيق" بروفانسال"، ولعل ابن تومرت من المغاربة هو الذي نال من مؤرخي المشرق والمغرب ما لم يصله غيره من اعتبار راجع ما سبق وغيره.

كان المرابطون من أمراء وقواد الجيش والأشياخ والوزراء يحيون على عهد يوسف حياة إسلامية بعيدة عن البذخ الذي لم تحققه مداخل الدولة التي لم تكن إلا مما أباحه الشرع وأوجبه حكم الكتاب والسنة، حيث كانت الدولة لا تعرف خراجا ولا رسوم مكس، قاصرة على الزكاة، والأعشار، وجزية أهل الذمة، وأخماس غنائم المشركين، أما بعد يوسف فقد تحولت إلى سيطرة القواد وما يرد عليهم من هدايا وما يغدق عليهم من أموال كلما قامت ثورة هنا وهناك، وكلما وجد المتطلعون للقضاء عليها فرصة للسلب والنهب، سواء في قرطبة أو غرناطة أو حيث بني هود الذين لم يجدوا سلاما إلا بواسطة ما كانوا يقدمون من تحف وأموال وذخائر، وأصبحت المرأة كما سبق أن أشرنا مشاركة في الحياة العامة، وإذا كان ابن تومرت قد مارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطريقة فيها عنف في مدن المهدية والمنستير وبجاية، وتلمسان ووجدة وفاس ومكناسة وسلا؟ وأنه لم يتراجع رغم ما جرت عليه تدخلاته تلك من المتاعب عبر الطريق برا وبحرا، فإنه أحرى به أن يفعل وهو في موطنه، بل وفي الأرض التي ستستمر فيها حياته، وكيف والمرأة في عادة اللمتونيين قد أصبحت بعيدة عن الخلق الإسلامي وسنة السلف، بل تتزعم الميدان أخت علي بن يوسف أمير المسلمين، وأن خير مقام يصلح لدعوة بن تومرت وكما تعود في كل مكان هو المسجد الجامع بمدينة مراكش التي كان وهو في الطريق إليها يرجع بفكره إلى ما عاشه ورآه في المشرق العربي الإسلامي الذي أصبح في رعب من مصيره الممزق في بلاد الفاطميين مصر والشام، وما تعرفه من تطاحن الشيعة والسنة الذين يتنازعون، وأكثر منهم العباسيون في بغداد يحتضرون، وها هم المغاربة بعد يوسف بن تاشفين سواء في المغرب أو الأندلس إلى الضعف ينحدرون، والمجسمة من الأشياخ اللمتونيون في تطلعاتهم لمباهج الحياة وجهالتهم غارقون، والاسلام في نظر ابن تومرت بسبب فساد هؤلاء وأولئك مهدد من القوم، ومن المتربصين بهم من الصليبيين، كل هذه التصورات خطرت في ذاكرته، وهو في طريقه إلى مدينة مراكش، بل وناقشها مع رفاقه الأربعة أبو بكر الصنهاجي البيدق، وعبد المؤمن، ويوسف الدكالي، والحاج عبد الرحمن، وربما كذلك طرق خياله ما أورده ابن خلكان من «الجفر» الشبيه بما خلفه الإمام جعفر الصادق، والذي مبالغة في الخيال – أورد فيه ذكر– تينمل–، واسم عبد المؤمن بعد أوصاف ابن

تومرت الذي هو المهدي ؟؟ ولو كان القوم يدركون ما سيؤول إليه فهم الأجيال التي جاءت بعدهم لما أوغلوا في تلك الترهات.

لما وصل ابن تومرت مدينة مراكش مع رفاقه دخل إلى مسجد صومعة الطوب، يقول البيدق، ومنه تحول إلى المسجد الجامع يوم الجمعة، ثم تقدم أمام المحراب، وقيل أنه جلس حيث يجلس علي أمير المسلمين(290)وما كاد الإمام يفرغ من صلاة الجمعة يقول البيدق والمراكشي معه حتى وجه ابن تومرت خطابه إلى علي بن يوسف بعدما سلم عليه وقال له من جملة كلامه « غير المنكر ببلادك لأنك أنت المسؤول عن رعيتك » فلم يجبه على، ولما دخل إلى قصره وجه إليه «إن لك حاجة فتقضى : فقال المهدي « ليس لي حاجة وما قصدي إلا تغيير المنكرات »(291).

وهنا جاء وقت الامتحان الذي يستدل عليه من الحوار السابق، وأن عليا كان إنسانا مسلما يؤمن بالحرية التي جاء بها الإسلام قبل غيره، والتي يتمكن المرء معها من التعبير عن رأيه بحرية مهما كان الموقف، مادام لم ينتهك حرية الآخرين ولم يتعد الحدود، وإن كان جلوسه مكان الإمام فيه ما فيه من مبالغة البيذق – إن صح – فإن عليا لم يؤاخذه ما دام قد استشهد بالاية التي أوردها البيذق في غير محلها ، إذا ما موقف علي وهو لا يصدر أمرا قط بدون الرجوع إلى الفقهاء والقضاء ، وهؤلاء لا يقبل لهم رأي في مثل هذا الموقف إلا بعد المناظرة ومعرفة حقيقة الرجل، ومدى كفاءته وصواب رأيه أو خطاءه فيما أقدم عليه مما نسب له من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر في الشوارع والأزقة،(292) في حين أن الذي عرف به هو المسجد ، و الذي نرجح أنه تناول فيه مسؤولية

---

(290) قيل إنه جلس بعدما ركع في الصف الأول بمقربة من المنبر، فقال له بعض سدنة الجامع : هذا موضع أمير المسلمين فقال : إن المساجد لله وقرأ الاية، فلما وصل علي ليقصد موضعه قام له من حضر، وبقي المهدي لم يقم. الحلل 82، وفي هذا ما فيه من مبالغة نقلها بعض المؤرخين عن البعض الآخر، مع أن العقل يرفضها ويرفض ما شاكلها من قول لا يجسم شجاعة ابن تومرت، كما يريد البيدق أن يؤكد بقدر ما يحط من قدره، ثم يصفه لنا بغير ما يليق به من الآداب و السلوك.

(291) أورد صاحب القرطاس 108 أنه كان يمشي في مراكش وأسواقها وشوارعها يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويهرق الخمر؟ ويكسر آلة الطرب من غير إذن.. فاتصل خبره بعلي فأمر بإحضاره، وخلاف هذا ما عند البيدق67 وابن الأثير 296/8، والمعجب 114-115-119-120، وابن خلكان 138 - 140 وهل من قتل في مدينته الفتح بن خاقان لخلاعته وانحلاله يوجد فيها ما قاله صاحب القرطاس؟ وغيره من خمر تصل إليه يد ابن تومرت؟؟؟

(292) القرطاس 108/2.

علي بن يوسف حول ما عرف من منكرات وقتها، مما أدى ببعضهم إلى تبليغه واستدعاء ابن تومرت ليسأل عن قوله أمام أمير المسلمين فيفيض ابن تومرت بالموعظة القاسية على علي حتى يذرف الدمع مما يدل على أنه التقى النقي المتخشع وهو ما اتفق عليه كل المؤرخين، ومع ذلك يحضر الفقهاء وفي مقدمتهم مالك بن وهيب (453هـ–525هـ) وهو كبير العلماء(293) الذي لا شك لم تكن له دراية بما عند ابن تومرت، مما استورد من المشرق من أسلوب كلامي على طريقة الاشاعرة الذين دلهم أبو الحسن بن أبي موسى البصري 21 – 110هـ /642– 728م على استعمال واستحسان الخوض في الكلام للبرهان مع التمسك بالكتاب والسنة، في حين أن فقهاء لمتونة ومن كان معهم مثل ابن وهيب ورغم ما أبداه صاحب المعجب من إعجاب بهم، لم يكونوافي المستوى، حيث طغى عليهم ابن تومرت مما أدى بابن وهيب وقد اشتد حقده على ما لحقه من إهانة ابن تومرت الذي انصت إليه علي وقدر علمه أن يلجأ إلى الدس وقد فضحه ابن تومرت وغيره من الذين قال عنم إنهم لا يؤدون النصيحة المشروعة لعلي المسؤول فقال ابن وهيب، أو قيل عنه «هذا الرجل ، إجعله في بيت من حديد، وإلا تنفق عليه بيتا من ذهب »؟ وعلى هذا المنوال نسج غيره،(294) لكن الوزير ييننتان بن عمر، وهو من أشياخ المرابطين وقد رأى قول ابن وهيب لا يتفق مع ما ظهر له من رغبة علي بن يوسف، بادر وقال « ياأمير المسلمين هذا وهن في حق الملك أن يلتفت إلى هذا الرجل الضعيف فخل سبيله »، وفعلا أطلق سراحه من المجلس بل حماه سرا ييننتان بن عمر حتى خرج، لكن ابن وهيب ومن شعر معه بالهزال أدركوا أنه إن استمر الرجل فسوف يستمر بوجوده احتقارهم ووصفهم بالقصور(295) خصوصا وأن ابن تومرت بدأت سمعته تنتشر بين أهل العلم والصالحين

---

(293) أورد ابن زرع 110/2 ، ود. الإسلامية 107/1 موضوع الأسئلة وأنها كانت : هل تنحصر طرق العلم أو لا تنحصر ؟ وما هي أصول الحق والباطل؟ راجع ترجمة ابن وهيب في الاعلام للمراكشي 274/3 والمعجب 185-186، ونفح الطيب 479/3.

(294) الحلل 83 وفي قصة علي بن يوسف مع أبي عبد الله بن أبي الخصال محمد بن مسعود 465–540هـ/ 1073– 1146م وأخيه ابو مروان عبد الملك بن مسعود، وعدم مؤاخذتهما بالقتل على ما خلدا فيه وفي دولة المرابطين بعد ثورتهما مع ابن الحاج أمير قرطبة ، ما يستدل به علي سماحة علي وتسامحه راجع المعجب للمراكش 1769 ط1949ت محمد سعيد العريان، والمعجم لابن الابار 144 وبغية الوعاة 104 وقلائد العقيان المطبوع182.

(295) حصلت مناظرة أخرى بين ابن تومرت وفقهاء آخرين، منهم عبد الحق بن إبراهيم، فانتهت بمثل ما انتهت به مناظرة القاضي مالك بن وهيب والاتفاق على رأيه ، وإذا ما أجمع العلماء الذين لم يكن علي قط يخالف رأيهم ، فإن ابن تومرت استطاع الانفلات.

للتربية في المجتمع، ومن هؤلاء من علم بما يدبره ابن وهيب وبعض قواد الجند الذين تلوثوا وهناك من هم متحزبون ضد غلوائهم واستبدادهم، الأمر الذي كان على المستبدين معه أن يدبروا أمرهم بالقضاء على من يريد كشفهم، وإثارة الناس ضدهم، ولولا الاستعدادات التي كانت جارية للذهاب إلى الأندلس للقضاء على الثورة التي ظهرت في قرطبة و التي في خضمها أمكن للقائد المرابطي يينتان بن عمر أن يخبئ ابن تومرت في بيته بعيدا عن هيجان ابن وهيب الذي كان متحمسا ابن تومرت في الوقت الذي لم يرد به علي بن يوسف شرا، بل قيل إنه كان على علم بما قدمه يينتان بن عمر لابن تومرت، ولولا ذلك لما وجد ابن تومرت المهلة للفرار عندما أخبره أحدهم من المتجاوبين، وقد استشعر الخطر الذي يهدده، وذلك عندما طلب إليه إسماعيل بن يحيى الذي سيصبح أحد العشرة، تفسير قوله تعالى «إن الملأ يأتمرون بك» الاية ولقد وضع الخطة لمغادرة مراكش إلى مسقط رأسه وسط قبيلة هرغة، من مصمودة التي وصلها ما حصل بين أحد أبنائها الشريف محمد بن عبد الله ، وبين أمير لمتونة وفقهائها ، وقبل أن يغادر المدينة ظهر من يبحث عنه من أعوان الدولة إن صح، وربما بتوجيه من ابن وهيب ومن معه، فأبعد بتوجيه يعاكس وجهة ابن تومرت الذي كان قد مر بمراحل قبل أن يلتحق بقومه ويصبح آمنا، وقد أقبل عليه منهم كل من كان يسمع به وبرسالته الإصلاحية من رجال القبائل المنضوية تحت لواء مصمودة، وكانت من الكثرة بمكان، منها القبائل السبع ذات القوة والعدد وهي: هرغة التي يسميها ابن خلدون ايرغنين، وهنتانة، ذات البطون التسع، وكدميوة المكونة من ست وأربعين من البطون حسب رواية البيدق، وكنفيسة، وفيها إثنان وعشرون من البطون، وسكسيوة الواقعة على قمة جبل درن.

جل هذه القبائل الميسورة كانت موتورة من لمتونة وإذا ما استطاع ابن تومرت أن ينفذ إلى قلوب كبار القوم منها بعدما كثرت جموع المومنين به وبرسالته الرامية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ناهيك وأنه استطاع أن يبلغهم ما يريد دينا ودنيا وبلسانهم البربري وبفصاحته المشهود بها ، فإنه ذات يوم وقد ألقي في المقربين إليه درسا حول رسالة الإمام المهدي(296)، وقد وصفه بما ينطبق عليه اسما ونسبا، وعلى بلاده وما فيها من جور وظلم وهتك للحرمات ، وما كاد ينتهي من كلامه ، حتى بادر إليه عشرة رجال

(296) الحلل 83 – 87.

من اتباعه(297) والملازمين له، ومنهم عبد المؤمن بن علي فقالوا: «هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت هو المهدي» ، فبايعوه تحت شجرة بلوط يوم 10 رمضان515هـ/1121م(298)، وأنها كانت بتينمل في حين لم يحدث بنيانه للمسجد بها إلا سنة 519هـ/1125م(299).

(297) من رواية يحيى بن السبع عن عبد المؤمن، الحلل 87.

(298) وعند البيدق 514هـ، ص 73، علي أن ابن أبي زرع ذهب بابن تومرت من مراكش إلى تنمل رأسا في10 شوال 514هـ، وهناك تمت البيعة في 15 رمضان 515هـ، القرطاس، 2/112 ـ 113

(299) البيدق 132 ، وعند ابن أبي زرع أنه رحل إليها في التاريخ المذكور أعلاه.

الفصل الرابع و الستون

التنظيم الذي هد كيان دولة المرابطين

كانت تلك هي البيعة الخاصة، أو بالأحرى بيعة القيادة العليا المكونة من عشرة وهم.

1) عبد المومن بن علي الكومي 2) عمر بن علي أزناق 3) إسماعيل بن مخلوف 4)وأبو إبراهيم 5) وإسماعيل بن موسى الهزرجي 6)وأبو يحيى أبو بكر بن تجيت 7)أبو عبد الله بن مخلوف سليمان 8) وعبد الله بن ملويات 9) وأبو حفص بن عمر الهنتاتي 10) وأبو محمد عبد الله بن محسن المكنى البشير «الونشريسي »(300).

وإذا ما بايعه هؤلاء باسم المهدي، فقد لحق بهم جماعة أخرى بلغ عددهم خمسون، أطلق عليهم بعد البيعة جماعة الخمسين، ثم بعدهم سبعون عرفوا بأهل السبعين، فكانت القيادة العليا بيد العشرة، والاستشارة للخمسين، ثم السبعين، وكأنه بذلك قد نظم حكما «ديمقراطيا» عام 1225م، بل تلكم هي الشورى في الإسلام .

العامة فأخذ في التنظيم الذي مكنه من الحرب ضد المرابطين، حيث أصبح نظام ابن تومرت كما يلي:

1) العشرة الأصحاب 2)أهل الخمسين 3)أهل السبعين 4) الطلبة 5) الحفاظ 6)أهل الدار 7) أهل هرغة 8) أهل تينمل 9)كدميوت 10) كنفيسة 11) أهل هنتاتة 12) الجند 13)الغزاة والرماة.

---

(300) كذا في الحلل الموشية 88 وقد أورد بعضها من كتابه في التوحيد ص 96-97-98 وعند ابن أبي زرع 113/2 كما يلي:1) عبد المومن بن علي 2) أبو محمد البشير ، 3) أبو حفص بن يحيى بن ينتي 4) أبو حفص عمر بن علي أصناك 5) سليمان بن خلوف 6) إبراهيم بن إسماعيل الهزرجي 7) أبو محمد عبد الواحد الحضري 8) أبو عمران موسى بن تمارى 9) أبو عثمان بن يخلف 10) أبو يحيى بن بخت، وقد وضع لهم مصحح القرطاس الهاشمي الفيلالي تعاليق للتعريف بكل واحد منهم 113/2 - 114ط فاس 1936 ، ومثله في أعمال الأعلام 268/3 - 269، و فيه خلاف لما سبق عند البيدق ص 34 / ط 1971.

ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لافي سفر ولا في حضر، ولا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداة، وقد نظم لهذه الجموع وسيلة دوام الارتباط به حين وضع لهم كتابا سماه «كتاب التوحيد» وضعه باللهجة البربرية ، ويحتوى على سبعة «أحزاب» عدد أيام الجمعة ، أمرهم بقراءة حزب واحد في كل يوم إثر صلاة الصبح، بعد الفراغ من الجزء المرتل من القرآن الذي كان هو أول من سنه وهو يحتوي على معرفة الله تعالى وسائر العقائد، كالعلم بحقيقة القضاء والقدر، والإيمان بما يجب لله تعالى، ومايستحيل عليه وما يجوز، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما ألف لهم كتابين آخرين : سمى أحدهماب « القواعد» والآخر « الأمانة »(301) باللغتين البربرية والعربية، حيث كان بارعا فيهما، وإذا ما انتهى ابن تومرت إلي هذه المرحلة، فإنه أطلق تلامذته ومن التزم له ليقوموا بدور الإعلام بين القبائل قريبها وبعيدها، فعم ذكره والتعلق به جهات مختلفة من الأطلس الكبير المتظلم أهله من تصرفات قواد ومشايخ لمتونة، حيث أقبل عليه القوم إقبالا أزعج المرابطين الذين أخذوا يفكرون في مهاجمته بالحصن المنيع الذي التجأ إليه في تينمل ، لكنهم قبل أن يفعلوا قام هو بالمبادرة، حيث نظم آلافا من أتباعه(302) وضعهم تحت قيادة الونشريسي أبو محمد البشير، وعقد لهم راية بيضاء، وودعهم في جموع، وكانت المواجهة الأولى مع عامل السوس أبو بكر اللمتوني الذي جمع إلى جانب جند المرابطين الذي فقد صفاته الحربية جموعا من الجشم وهم خليط من العرب الذين كانوا نافرين من لمتونة، فانهزم أبو بكر وجيوشه دون قتال مما زاد في حماس جند ابن تومرت الذين أطلق عليهم إسم الموحدين عندما علم أن المرابطين وسموهم بالخوارج، كما أطلق على المرابطين إسم المجسمة، لكن

---

(301) أخبر صاحب الحلل الموشية 89-90 أنهما كانا متداولين في عهده بالبربرية والعربية، راجع القرطاس 116-115/2 .

(302) في القرطاس 116/2 عشرون ألفا علق عليها المصحح ثم نزل بها إلى 10 آلاف وإذا نحن تعرفنا على ما أصبحت عليه علاقة المرابطين بالمصامدة الناقمين، وأن في استطاعتهم جمع أضعاف هذا العدد، لا نستكثر العشرة والعشرين. ناهيك إذا تبلورت النقمة بطريقة ابن تومرت الذي كان مثال المصلح الصادق الأمين في مواطن الغربة بلا نصير، فكيف وهو بين الأهل والإخوة... وحسب طبع المغاربة في كل زمان في استطاعة المصلح المتحمس الصادق أن يستولي على جموعهم في أقرب وقت، ويفعل بعواطفهم ما يريد، أما إن كان لهم من السلاح ما يضمن لهم تحقيق الهدف، فإنهم سرعان ما ينطلقون بلا أدنى اعتبار لشيء من المتطلبات، وهذا ما سجله التاريخ.

الذي فت في عضد علي بن يوسف هو ما سمعه من خروج قبيلة هنتاتة عليه، الأمر الذي أدخل الرعب في صفوف المرابطين بعدما نظم علي جيشا آخر كثير العدد، وضع على رأسه أخاه إبراهيم بن يوسف الذي التحق بجند أبي بكر حيث انهزم هو الآخر، فما كان من علي إلا أن نظم جيشا ثالثا بقيادة سير ابن مزدلي اللمتوني، ولما إنهزم جيش المرابطين هذه المرة ارتفعت معنوية القيادة، فأقدم ابن تومرت على الكتابة إلى علي بن يوسف وقومه يدعوهم إلى الطاعة.

كان الكتاب في منتهى الإزدراء من لمتونة وتهديدهم بالدمار والخراب(303) وكان هذا بعد الحصار الذي ضربه الموحدون على مراكش، والتي تركوها يوم6 شعبان516هـ/1122م بعدما استولوا على ما يعزز قواتهم من السلاح والغنائم التي تجمعت لهم من الانتصارات في حروب ثلاث سنوات(304) التي تمت سنة 519هـ 1125م،إنتقل بعدها ليستقبل مبايعة كدميوة كلها، وما حول نفيس، ثم رجع إلى تينمل ليقيم بها مدة شهرين، إنطلق بعدها إلى مدينة أغمات وبلاد هجراجة في ثلاثين ألف كان النصر حليفهم، وتقدموا نحو درن الذي فتحوا قلاعه ثم عاد بالجيش إلى تينمل، ليستريح قليلا ثم يعود إلى مراكش، وكان قد قضى في القتال سبع سنوات، لكن هذه المرة بقيادة عبد المومن بن على الذي قاتل ببسالة، ولم يكن حظ عبد المومن كما سبق لغيره، إذ وجد ضمن جنود المرابطين أندلسي من رؤساء الثغور خبر الأسلوب الذي لم يكن جند الموحدين قد تعرفوا عليه، ذلكم «هو عبد الله بن همشك» الذي نشط جيش المرابطين بما استحدث من أساليب القتال الذي قصر فيه الرماح، وبذلك استطاع أن يجلب النصر للمرابطين ويبعثهم من جديد عندما أردفه علي بجند كثير العدد يقوده الشيخ أبو محمد بن وانودين، فكانت هذه المعركة المعروفة بيوم البحيرة الأولى التي انهزم فيها الموحدون، لكنها كانت هزيمة لم تعوض إلا بعد زمان(305) لأنه راح من ضحاياها نحو الأربعين ألفا إلا قليلا ضمنهم اثنين من العشرة أبو محمد البشير عبد الله بن محسن الونشريسي

(303) الحلل الموشية 90-91.

(304) القرطاس 117/2 .

(305) كانت هذه الهزيمة بعد أربعين انتصارا، يقول ابن صاحب الصلاة. راجع الحلل 95، وقد غزا المهدي فيها أربع غزوات، راجع غزوات الموحدين عند البيدق 27-28-33-39 وفيه تراجم أصحاب ابن تومرت.

الداهية الماكر، وأبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضري المشهور بالبقال، ثم فر الموحدون تحت حماية عبد المومن الذي وصل مع أربعة من أصحاب المهدي إلي تينمل، ولم يكن ليفت في عضد الموحدين الذين نظموا صفوفهم ثم عادوا للحروب من جديد، وبعزيمة مكنتهم من الانتصار تلو الانتصار، ولم يصل شهر رمضان من سنة 524هـ/129ام حتى كان الموحدون قد أصبحوا قوة ضاربة أنهكت المرابطين وأدخلت الضعف فيهم، لكن الأجل عجل برحيل ابن تومرت الذي توفي يوم الاثنين 4 رمضان 524هـ/1129م. لكن الذي أرهق المرابطين وكسر سواعدهم بالإضافة إلى تصرفات الولاة والاشياخ هو ما آلت إليه ظروفهم السيئة التي صنعها هؤلاء وأولئك حتى أصبح بعض اللمتونيين في صفوف المعارضة.

لم يكن المرابطون في هذه المرحلة من حروبهم قاصرين على الموحدين، بل كانت الحرب بينهم وبين الأسبان كذلك حيث كانت حامية مع "ألفونصو الثامن" الذي لقب نفسه "قيصر إسبانيا" والذي دام ملكه ست وأربعين سنة من 506هـ/ 112ام إلى 552هـ 1157م أي معنى هذا أنه كان معاصرا لعلي الذي دام ملكه سبعا وثلاثين سنة ثم زاد عليه، كما امتاز بأنه كانت له زوجة عاقلة سيطرت عليه بعقلها وجمالها، تلك هي «بيرانجيلا» التي كان لها رأي مقدم في شؤون الدولة، حربية كانت أم سياسية، وهي التي كتبت الرسالة التي أنقذت مدينة طليطلة ومن فيها، من غزو المرابطين الذين قصدوها عندما اشتد حصار الفونصو 8 لمدينة أوريليا بعدما ترك زوجته في قرطبة عارية من أية قوة تحميها، فوجدها جند المرابطين فرصة فتوجهوا إليها، وما كادوا يحيطون بالمدينة ويشتد رعب أهلها حتى قامت "بيرانجيلا" فيهم بجولة وهي مطمئنة إلى أنهم سوف لا يصلهم من المسلمين أذى، ذلك أنها كتبت الرسالة التالية إلي قائد المرابطين الذي كان محاصرا لمدينة طليطلة، وليس فيها غير النساء والأطفال، ومما جاء في هذه الرسالة التي حملها إليه ثلاث نسوة يرافقهن أمير طفل :

«ليس في هذه المدينة رجال يا رجال، وليس فيها فرسان يافرسان، فمن جئتم تحاربون إذن؟ إنني امرأة ضعيفة تحيط بها نساء ضعيفات، لا حول لنا ولا طول، لا جيش لدينا ولا سلاح. أفيشرفكم أن تنازلوا امرأة؟ إذا كنتم ترومون حربا وقتالا فارحلوا

عن هذه الأسوار، واذهبوا إلى أوريليا حيث زوجي ورجاله، فهناك يكون الحرب والقتال مع الفرسان الإسبانيين يافرسان العرب؟».

وإذا كان للرسالة وقعها في نفوس المقاتلين، وقائدهم الذي هو والي قرطبة فإن هذا الأخير أجاب عنها بما يلي : «إطمئني أيتها الملكة، سنرحل إلى أوريليا، ولن نهاجم مدينة ليس فيها غير النساء، بل نعتذر عما سببناه من إزعاج»؟ وطلب القائد من الأمير الطفل الرسول إبلاغ الملكة أنهم يريدون رؤيتها والاعتذار إليها فحصل، مما دفع بها إلى أن تكتب إلى زوجها المحاصر لمدينة أوريليا بما حصل حتى يرحل عنها ويرد الجميل بمثله، لكن المدينة كانت قد سقطت، ولما انتهى الخبر إلى علي بن يوسف قال : كفانا عزة بالإسلام الذي أوحى بتلك المعاملة، بدل أن يقال : إن المسلمين نازلوا النساء في الميادين، وهاجموهن في الخدور، وقاتلوا الشيوخ وروعوا الأطفال، وفي هذا عزاء لنا عن فقد مدينتين وضياع حصنين، وهذه صورة أخرى من أروع ما عرف لعلي بن يوسف الذي كانت دولته قد هرمت مبكرا لتحل مكانها دولة الموحدين التي كانت تنتقل من نصر إلى نصر رغم موت المهدي إبن تومرت(306).

كان المهدي يميز عبد المومن تمييزا يدل على مكانته عنده، حتى إنه قال يوم هزيمة الموحدين وقتل الونشريسي بمراكش : «إذا بقي عبد المومن بقي كل شيء» وهي كلمة مقتبسة من وصف المعز الفاطمي لجوهر الصقلي كما سبق، نسبت إلى ابن تومرت، وأنه قالها في عبد المومن بن علي، كما قدمه يوم مرض للصلاة، وبذلك استحق الخلافة مكانه باتفاق، خصوصا وأن التسع سنوات من القتال المستمر قد كونت من عبد المومن الذي لم تختلف عليه القبائل(307) فاستطاع بسلوكه وحسن تكوينه أن يجمع شملها، ويتقدم بها لحرب المرابطين الذين قامت عليهم الثورات في كل من الأندلس والمغرب، وإذا لم يتخلف عن بيعة عبد المومن أحد من الموحدين، فإنه بذلك واصل الحروب التي كان المرابطون يتلقون فيها الضربات القاتلة، خصوصا بعدما توفي علي بن يوسف 537هـ 1142م، ثم

---

(306) راجع يوسف أشياخ ثورة الأندلس على المرابطين ج1 ص 214-245.

(307) في القرطاس 132/2 بويع لعبد المومن مرتين خاصة بعد وفاة إبن تومرت سنة 524 هـ/ 1130م وعامة يوم ربيع الأول 528 هـ/ 1134م .

تولى بعده ولده تاشفين بن علي بن يوسف، الذي كان بالأندلس حيث استخلف عليها أخاه إبراهيم، لكن تاشفين ما كاد يدخل مراكش حتى وجد نفسه مرغما على الحرب مع الموحدين الذين جروه بعيدا نحو الشرق، حتى تنهك قواه التي أخذ أهل الأندلس والمعاهدين الذين هم في الجيش يزيدونها ضعفا على ضعف، وقد بيتوا(308) الغدر في كل المعارك التي وجدوا أنفسهم فيها إلي جانب المرابطين، بحيث كانوا يتصلون في السر مع الموحدين سواء في مراكش، أو فاس، أو تلمسان، ووهران، التي حوصر فيها تاشفين حصارا أراد استطلاعه في الليل بتفقد معسكره، فتردى من فرسه بأعلى جبل شاهق(309) وانتهت حياته رحمه الله في شهر رجب سنة 539هـ/ 1144م ليحل محله ولده إبراهيم الذي كان في السادسة عشرة، والذي لم يفعل أكثر من الإنتظار،حتى يصل إليه عبد المومن بعد فتح ما تبقى من البلاد التي لم تفتح شرقا، ثم يعود إلى مراكش وقد طوع البلاد شرقا وغربا فيدخلها دخول الفاتح، ثم يقضي على إبراهيم وجميع رجالات لمتونة بعدما حاصر مراكش من المحرم 541هـ /1146م إلى أن فتحت في شوال من نفس السنة، بواسطة جيش الروم الذي اتصل سرا بعبد المومن ثم أخذ منه الأمان، حيث فتحوا باب أغمات بعدما قسمها عبد المومن على القبائل التي صنع لها السلالم لتقتحمها من أعلى السور، وقد أحاطت تلك القبائل بالمدينة من كل جانب يقول البيدق. ودخلت هنتاتة من جهة باب دكالة، وصنهاجة "وعبيد المخزن" من باب الدباغين، وهسكورة، وغيرها من باب أغمات واقتحمت معاقل المرابطين الذين جيء بأميرهم إبراهيم الذي كاد عبد المؤمن يعفو عنه لصغر سنه، لكن أشير عليه بعدم تربية الأفعى؟ وقتل في ذلك اليوم يقول إبن إليسع ما ينيف على السبعين ألف رجل واستمر القتل ثلاثة أيام،(310) وسنعرف ما قام به عبد المؤمن في كل من الأندلس وإفريقية ضد الأسبان والنورمانديين بعد.

---

(308) كان عددهم بجيش المرابطين أربعة آلاف فارس قدموا مع إبراهيم من الأندلس، الحلل 107، وقد غدروا بالمرابطين في المعركة الحامية التي استعمل فيها الموحدون تخطيطا جديدا للمعركة وقد عرفت بيوم منداس إلى الجنوب بين تلمسان ووهران راجع الحلل لمؤلف مجهول ص 108ط 1936.

(309) يعرف الحصن الذي بناه تاشفين بمقربة من وهران على شاطئ البحر، لكنه لم يفده ولا العشرة أجفان التي أمر عبد الله بن ميمون أن يجهزها ليجتاز عليها إلى الأندلس إن ألجأته الضرورة، الحلل 109.

(310) المصدر السابق 115.

ومهما يكن فإن التاريخ لم يسجل في حق يوسف بن تاشفين وخلفه غير المكارم، وإذا كان ثمة من مطاعن على الذين غيروا الإتجاه، وبدلوا مجرى الحياة بطريقة فيها مكر ودس وخديعة، فهم أولئك الذين اندسوا في كل مجالات الحياة العامة والخاصة لرجلات الدولة، من أعلاج النصارى ومسلمة اليهود بالأندلس، أولئك الذين ابتلى بهم المغرب على مر التاريخ، وإلى العصر الذي نحياه، أولئك هم الأعلاج الذين انتقلوا في عهد المرابطين إلى العاصمتين فاس ومراكش، فكان تأثيرهم السيء سواء في حياة الرجال، أو النساء من أكبر عوامل الهدم الذي عجل بزوال دولتي الأدارسة والمرابطين، وتلوث المجتمع المغربي في نظرنا.

ولقد سجل إبن الخطيب أكثر من غيره في حق يوسف وخلفه من المكارم ما يكفي لدوامهم في سجل الخالدين الذين لم ولن يؤثر فيهم تحامل أحفاد وأصهار مسلمة اليهود وأعلاج النصارى الذي شوهوا التاريخ بافترائهم، إذ مما يحفظه تاريخ المغرب بل وأوربا كذلك، أن يوسف بن تاشفين كان مسلما كاملا في كل صفاته، وأن خلفه علي الذي اقتدى بخلقه الإسلامي وسلوكه الرفيع ارتفع مكانا عليا بما عرف به من دين وحلم وتسامح، وتلك هي دولة المرابطين التي وحدت المغرب الكبير ثم تركته لدولة الموحدين وعظيمهم عبد المومن بن علي الذي حافظ على البناء بل صانه ثم زاد عليه.

سجل التاريخ أنه لما توفي يوسف بن تاشفين، ثم خلفه علي بن يوسف في محرم مستهل عام 500هـ/ 1106م أنه خطب باسم علي على ألفين وثلاثمائة ونيف من المنابر، ثم هو ملك سبعا وثلاثين سنة ونيف، لكن خلفه تاشفين بن علي بن يوسف عرف خلاف ذلك، إذ عرفت الأحوال وكما سبق أن فصلنا في أيامه الفوضى والاضطراب، وبعد سنتين إنتهى أمره على يد الموحدين لكن بشرف رغم ذلك، إذ لجأ منهزما إلى وهران، ثم مات وهو يقاتل، حيث كبابه فرسه في ليلة مظلمة ممطرة، من فوق جبل عال يوم 27 رمضان عام 539هـ/ 1144م، لكن الجوهرة لم تسقط إلى الأرض بل التقطها عظيم زادها تعظيما وصيانة ومجدا، أولئك هم المصامدة أبناء مدرسة ابن تومرت الحسني، ثم خلفه عبد المومن بن علي الگومي الذي آثره المهدي على كل أحد حتى عن أخويه عيسى وعبد العزيز اللذين قتلهما علي بسبب ثورتهما عليه.

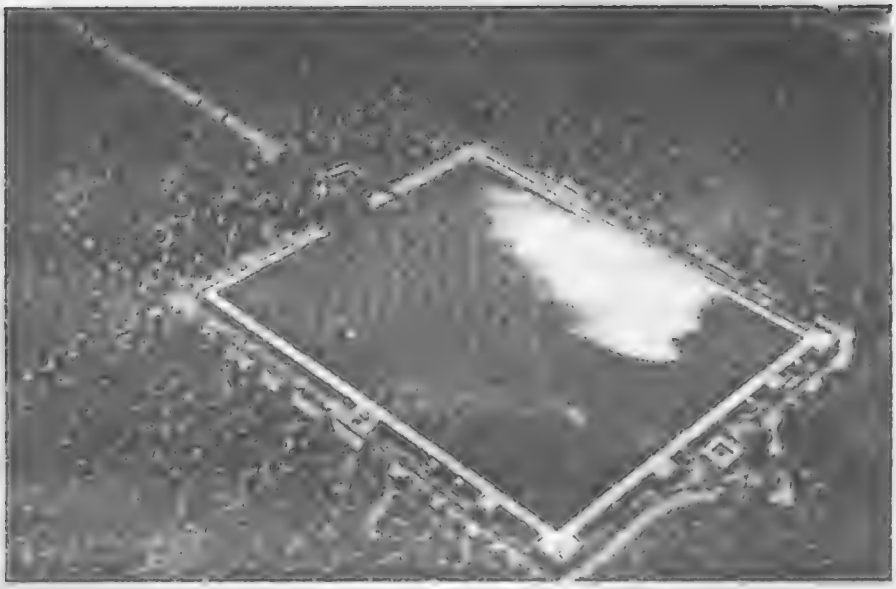

حوض المنارة في مدينة مراكش وهو من آثار الموحدين

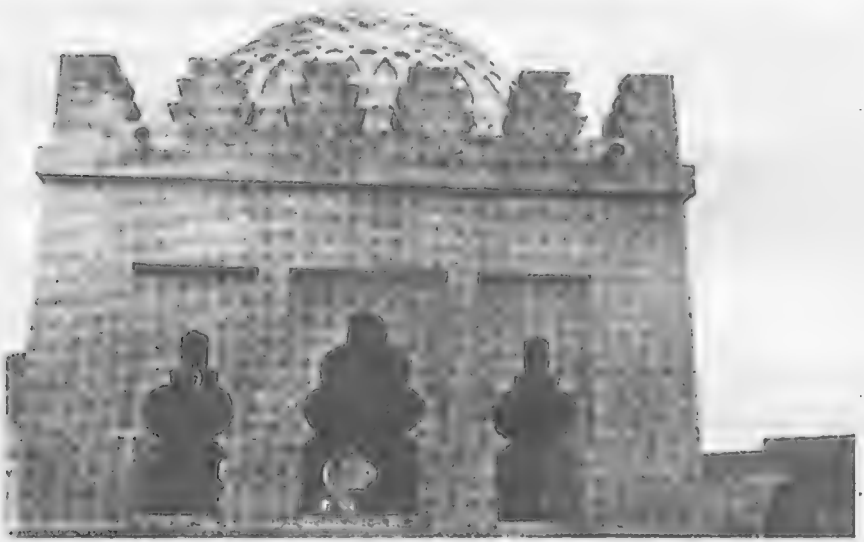

قبة من بناء المرابطين بمدينة مراكش

باب جناوة احد أبواب مدينة مراكش

مدرسة وجامع ابن يوسف بمدينة مراكش

من أبواب مدينة مراكش

المكان الذي سقط منه آخر ملوك المرابطين

السور الداثر الذي بناه علي بن يوسف حول مدينة مراكش

شالة – الرباط

شالة – الرباط حيث آثار المرابطين

جامع الأندلس بفاس وهو من بناء مريم الفهرية القيروانية اخت فاطمة بانية جامع القرويين. وقد عرف باب جامع الأندلس هذا تجديدا في عهد المرابطين. وهذا الباب بناه الناصر الموحدي سنة 604هـ/1207م كما بنى المدرج الجوفي بالصحن والمرحاض والسقاية

مدينة وهران قبل عهد المرابطين وقد سميت باسم قبيلة وهران وقد كان من سكانها الى جانب الأندلسيين الذين بنوها قبائل من البربر منهم بنو مسكين الذين لما ضيقت عليهم القبائل البربرية المطالبة بالثأر هربوا ليلا وهم اليوم بالمغرب. راجع كتاب الاستبصار وما فيه من مراجع ص133 ط الدار البيضاء 1985.

ملوك المرابطين

	هـ	م
1) أبو بكر بن عمر اللمتوني توفي سنة 480 هـ/1087م	448	1056
إبراهيم بن أبي بكر : صاحب سجلماسة حوالي 462– 464هـ/ 1069–1071م		
2) يوسف بن تاشفين استقل عن أبي بكر منذ 453هـ/1061م صاحب معركة الزلاقة يوم الجمعة 12 رجب 479هـ/ 1086م		
3) علي بن يوسف بن تاشفين تولى مستهل محرم.	500	1106
4) تاشفين بن علي " توفي 540 هـ 1145م	537	1142
5) إبراهيم بن تاشفين.	540	1145
6) إسحاق بن علي أثناء فتح الموحدين لمراكش سنة 541 توفي 540/ 1145 يحيى بن غانية آخر ولاة المرابطين بالأندلس توفي 543 هـ /1148م.		

تسلسل المرابطين من ملتونة

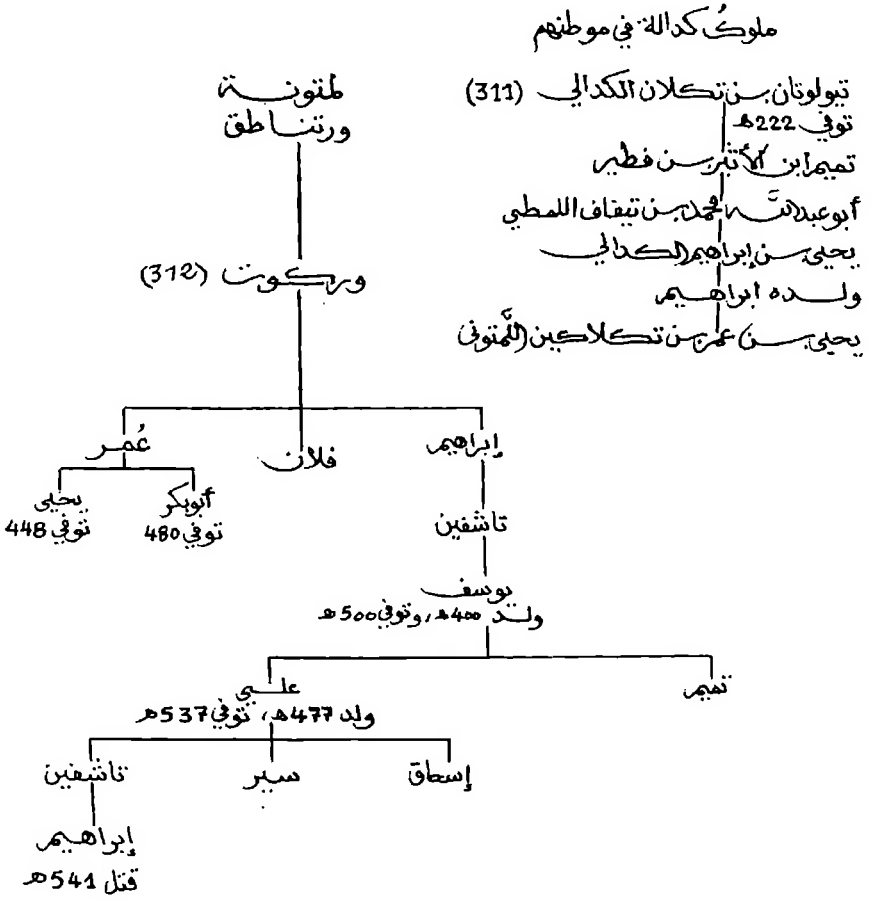

(311) راجع القرطاس 1/20 إلى 6 : والترجمان 286 والعبر 175/6 وما بعدها وفي أعمال الأعلام225/3ط البيضاء، وافق زمانه عهد عبد الرحمن الداخل.

(312) ويكتبها بعضهم ترقوت..

الفهرس

الجزء الثاني

* الباب السادس :
استقلال المغرب الكبير والأندلس عن المشرق العربي
الفصل الثاني والثلاثون : ثورات المغاربة والبربر ضد حكم ملوك المشرق من الأمويين والعباسيين 7
الفصل الثالث والثلاثون : الأمويون والعباسيون ومحنة آل البيت بالمشرق ومآسي الإسلام في المغرب 17
الفصل الرابع والثلاثون : المذاهب والأحزاب التي ظهرت في تلك المرحلة 41
الفصل الخامس والثلاثون: ظهور الخوارج وثورة الإباضية بالمغرب الأدنى 51
الفصل السادس والثلاثون: مذاهب الخوارج والشيعة وأثرها في المغرب 57
الفصل السابع والثلاثون: صراع العلويين في المشرق وصداه في المغرب 67
* الباب السابع:
دويلات الخوارج من البربر وصراعهم مع العبيديين بتونس والأمويين بالأندلس
الفصل الثامن والثلاثون: بنو صالح بنكور والأمويون بالأندلس 79
الفصل التاسع والثلاثون : دولة بني مدرار بسجلماسة 95
الفصل الأربعون : تمزيق المدراريين وانهزامهم أمام جيوش أبي عبد الله الصنعاني المؤسس الأول لدولة الفاطميين 115
الفصل الواحد والأربعون : سجلماسة وصراع مائة عام ضد العبديين والأمويين في الأندلس 125

*** الباب الثامن:**

الفصل الثاني والأربعون: العلويون والخلافة في اعتبار المغاربة والبربر ---- 139
الفصل الثالث والأربعون: هجرة إدريس بن عبد الله الكامل إلى المغرب ---- 149
الفصل الرابع والأربعون: ظروف تأسيس الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى ---- 157
الفصل الخامس والأربعون : الدولة الإدريسية بعد قتل العباسيين لإدريس الأول غدرا بالسم ---- 165
الفصل السادس والأربعون: صراع دولة الأدارسة مع الفاطميين شرقا والأمويين في الأندلس ---- 183

*** الباب التاسع :**

الفصل السابع والأربعون : الإسلام في المغرب وجهود الأدارسة بعد زوال ملكهم 213
الفصل الثامن والأربعون: الأدارسة يؤرخون لأنفسهم بالثبات والصمود 225
الفصل التاسع والأربعون: مكانة الأشراف الأدارسة بين قبائل المغرب ودوله في المغرب العربي الكبير ---- 239
الفصل الخمسون : أصول الحسنيين الأدارسة والحسنيين وفروعهم بالمشرق والمغرب 251
الفصل الواحد والخمسون: بقية فروع الأدارسة والسليمانيين وغيرهم من الأشراف الحسنيين والحسينيين بالمغرب 263
الفصل الثاني والخمسون: السليمانيون الحسنيون والحسينيون الطاهريون والصقليون والعراقيون ثم القادريون الحسنيون ---- 287
الفصل الثالث والخمسون : طبقات الأنساب وقبائل العرب بالمغرب العربي الكبير 295

*** الباب العاشر:**

الفصل الرابع والخمسون: قيام دولة المرابطين اللمتونيين ---- 313
الفصل الخامس والخمسون: يوسف بن تاشفين بين استقرار الدولة ووحدة المغرب الكبير ---- 323
الفصل السادس والخمسون: العرب وحضارة الإسلام التي أنقذها المغاربة بالأندلس ---- 333

الفصل السابع والخمسون: سفارة المعتمد ابن عباد الى ابن تاشفين وبداية متاعبه 343
الفصل الثامن والخمسون: المعركة والانتصار في الزلاقة 347
الفصل التاسع والخمسون : مأساة ابن عباد ومبررات بن تاشفين 355
الفصل الستون : ابن تاشفين وكتابة ولاية العهد بشروط 371
الفصل الواحد والستون : من عوامل هدم دولة المرابطين استبداد الولاة
وشطط الفقهاء 377
الفصل الثاني والستون: تراجع المرابطين وظهور "ابن تومرت" من آل
عبد الله بن إدريس 383
الفصل الثالث والستون : ابن تومرت ودراسته بين المشرق والمغرب 391
الفصل الرابع والستون: التنظيم الذي هد كيان دولة المرابطين 401